أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف
[illegible] أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد [illegible] الأندلسي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى ٧٧٦ هـ

تحقيق
سيد كسروي حسن

1-2

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعمال الأعلام

فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام

تأليف

الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي

الشهير بلسان الدين ابن الخطيب

المتوفى ٧٧٦ هـ

تحقيق

سيد كسروي حسن

الجزء الثاني

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

[١/١١٨] بسم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

[الجزء الثاني من الكتاب المسمى بـ:
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام
من
ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام][(١)]

ويتضمن بالإشارة إلى من دال بالأندلس من جهة المغربية، واقتطاعها عن الممالك الشرقية، والدول العباسية، والشيعة العلوية، وفيهم ملوك بني أمية، وملوك بني حمشوذ الأدارسة، ومن بعدهم من ملوك الطوائف، والثوار أولي البهرج الزائف.

نقول، بعد استعانة الله:

قد كان الأوْلَى بنا أن نذكر بعد دول الملوك بالمشرق من يتصل في حدود البلاد الغربية من الجهات الإفريقية وما وراءها غرباً إلى البحر المحيط، وبعد ذلك نكرّ على الأندلس بالذكر، وتصرف القول بعد الفراغ من متصل البر إلى ذكر ما وراء البحر.

لكنا راعينا في ذلك غرضين:

أحدهما: المناسبة الأموية، بأن ملوك الأندلس منهم إنما هم بقايا الدولة بالمشرق، وفروع عن أصولها، وبل من جمهورها ومقتطع من جرثومتها، فقد كان ملك الأموية فتحها، وأمراؤهم تملكوها، ثم استقل بها ذريتهم، فأبقوا رسماً غير خامل القدر، ولا مغفل الذكر.

(١) ما بين المعقوفين جاء موضعه بياض بالمخطوط قدره خمسة أسطر، أرجح أن تكون كانت مكتوبة بالمداد الأحمر، فأثبت فيها ما أظن أنها كانت تضمنه، والله أعلم.

والثاني: ما بنينا عليه من الختم بالدولة المرينية، لنبدأ الكتاب بذكر السلف الواجب الحق، ونختمه بذكر الملوك الكرام من آل عبد الحق، فنكون قد افتتحنا بالفضل والنسك، وعقبنا بالملك، وختمنا منهم بختام المسك، وولينا المعتبة ما اعتذرنا به من الترتيب لنبرأ من التثريب، ومشاقنا في هذا القسم قريب، فما بنينا عليه من الاختصار والتقريب، إلا ما كان للمستطرف والغريب، والمستأخر القريب، فقلما خلونا من الإسهاب، وتزيين الكتاب بالآداب.

وحسبنا الله ميسّر الآراب، لا إله إلاّ هو.

فصل في الإلمام بشيء من إطراء الأندلس

ليعلم أن وطن الأندلس حظه من المعمور كبير.

وإنما سمي جزيرة بحلم المجاز لاعتراض البحر الشامي الخارج من دائرة البحر المحيط من قبل الزقاق بطنجة / قاطعاً بين هذه الأرض الأندلسية وبين ما [١١٨/ب] يجاورها من البر المتصل قبله إلى أن يتصل إلى الخليج بأحواز قسطنطينية.

وقد اختلفت طباع هذه الأرض لسعة خطتها وأخذها من الأقاليم بخطوط، فمن أماكنها المعتدل وغير المعتدل، ومائلاً إلى البرد، وقد خصها الله من الري، وغدق السقيا ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وشجر العمران، وجودة اللباس، وشرف الأبنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض الرأس من الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفاذ الأدراك، وأحكام التحدي، والاعتماد بما حُرِمَه الكثير من الأقطار مما سواها.

حدثني بعض من كنت أردده إلى ملوك النصارى بأعماق أرضها، فقال:

مررت في مرحلة واحدة بأزيد من ثلاثمائة بلد في نهاية الإحكام وحُسن الوضع، وتشييد البناء كأنها سوسان الرياض تُومِض بزرقها في مدلهم الغياض لعدم الصحارى والمفاوز بذلك الوطن.

وقيل: إن ذرعه ستة أشهر.

وقال لي بعض الفضلاء من أصحابنا الذين جلبوا الأشطار، وخبروا الأقطار، وصحبوا الحداة والقطار، وهو حجة في الأخبار، ومدارك الأنظار.

واعلم أن الأندلس بالنسبة إلى ما وراء البحر كله تل وحصاره والجميع صحراء متفاضلة الأحوال في البدا في البداوة، وإن قدرت أن قطراً من الأقطار التي تقع عليها عينك بعدما يوازنها أو يشبهها في ظرف أو حُسن أو زينة أو إحكام صناعة أو فلاحة، فاعتقد أنك غلطت في الأمر، وأن الخبر غير الخبر.

قلت: وهذا أيضاً غلط، فإن استحسان الأوطان لا يملك فيه زمام الهوى.

وممن فتن بالأندلس فتنة هذا، أبو إسحاق بن خفاجة في قوله:

ما جنّة الخلد إلاّ في دياركم   وهذه كنت لو خيّرت أختار

لا تتقوا بعدها إن سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

ولما فاض سيل الإسلام وبلغ مُلك الأمة المحمدية ما زوى لنبيها ﷺ، وعبرت سيوف الدعوة العربية البحر إلى الأندلس، ونظروا إلى ما وراء البحر في خطتها من بلاد طيبة، وبركات صبية، اغتبطوا وارتبطوا وتمهدوا واستقروا، وتولدوا ونسوا أوطانهم، وألقوا أعطانهم، واستقام للإسلام بها ملك كبير/ وسلطان شهير، قد أفرد بعموم خيره معين غيره، وغنى أمره عن سواه. [١/١١٩]

عن منصور بن العباس، وأمله أنه قال: وقد جرى ذكر بعض، وما الذي يقال في رجل يركب من نتاجه، ويلبس من ديباجه، وينفق من خراجه.

قلت: ولو شاء لزاد: ويأكل في علاجه، ويتقرب إلى الله بجهاد أعلاجه، إلا أنها اليوم لم يبق لها إلا علالة لا تروي غلة، ونفاضة مزاد لا يحس بها ملّة، لم تحفظ دماءها إلاّ فتن شغلت العدو وشرعت الهدو، لطف الله بها من النسيم بقدرته.

وحديث الفتح، وما فتح الله على الإسلام من المنح وأخبار ما أفاء الله من خيره على موسى بن نصير، وكتب من جهاد لطارق بن زياد، محلول قصّاص وأوراق وحديث أفول وإشراق، وأرعاد وأبراق، وامتشاق وآلة معلقة في حانوت مشاش.

والقصد أنها دخلها من الأمراء من لدن افتتاحها على عهد ولد عبد الملك بن مروان إلى لحاق عبد الرحمٰن بن معاوية، مجرد الدولة الأموية بها نحواً من عشرين رجلاً منهم: طارق بن زياد الذي تولى افتتاحها، وإليه ينسب جبل الفتح المدعو بجبل طارق، وغيره.

وبها شهير مولى موسى بن نصير، فكانت إمارته فيها سنة.

ثم موسى بن نصير البكري وإليه ينسب الفتح، إذ كان طارق من قبله، وهو الذي تمم ما بدأه بها تملك، وابنه عبد العزيز ثلاث سنين، ثم قفل بالغنائم.

وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان سلطانه الذي ولآه مريضاً يجود بنفسه.

وولي الأمر بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، فأشار على موسى بن نصير بالتربص ليكون دخوله في أيامه إذا قضى الوليد نحبه، فأبى عليه لصلابة موسى ودينه ومشهور وفائه.

فلما ولي أسفه وعذّبه، وقتل ولده بما هو معلوم.

ثم ولي أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير، تملك ستة أشهر.

ثم دخلها الحسن بن عبد الرحمٰن الثقفي، فملك سنة وسبعة أشهر.

ثم دخلها السمح بن مالك الخولاني، فملك سنتين وسبعة أشهر.

ثم دخلها عنبسة بن سحيم الكلبي، فملك أربع سنين وخمسة أشهر.

ثم دخل يحيى بن سلامة الكلبي، فملك ستة أشهر.

ثم ولي عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، ملك ستة أشهر.

ثم ملك الهيثم بن عبيد الكلابي، فملك أربعة أشهر.

ثم ولي عبد الرحمٰن بن عبيد الله الغافقي، فملك سنتين وسبعة / أشهر. [١١٩/ب]

ثم ولي عبد الملك بن قطن الفهري، فملك ثلاث سنين وشهرين.

ثم دخل عقبة بن الحجاج السلولي، فملك خمس سنين وشهرين.

ثم دخل عبد الملك بن قطن مرة أخرى ثانية، فتملك سنة وشهراً.

ثم دخل بلج بن بشر، صاحب الطائفة البلجية من أهل الشام...[١] لأخذ كبيرة البربر في خبر مشهور، فتملك ستة أشهر.

ثم ولي ثعلبة بن سلامة العاملي خمسة أشهر.

ثم ولي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فملك سنتين وثمانية أشهر، وكانت في أيامه حروب شهيرة.

ثم ولي نوابة بن سلامة الجذامي، فملك سنتين وشهرين.

ثم ولي الأمير يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، فملك تسع سنين وأحد عشر شهراً، واستقر له الملك بالأندلس، لمصاهرة الصميل بن حاتم إلى أن طرقه من قدوم صقر بني أمية عبد الرحمٰن بن معاوية ما كدر شربه، وورع سربه، ثم عادة الأيام والبقاء لمن انفرد بالدوام، سبحانه لا إلٰه إلا هو.

---

(١) كلمة غير مقروءة.

دولة عبد الرحمٰن بن معاوية[1]
أول من ملك الأندلس في بني أمية

قالوا: لما أتيح للعباسية الظفر بمروان بن محمد الجعدي بأحواز مصر، وانقرضت دولة بني أمية، وصاحت بهم الأيام، ووقع الطلب عمن أفلت منهم، كان عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أحد من شرده واستثار به الجلاء والاختفاء إلى المغرب.

وقال ابن أبي العياض مخبراً عنه، قال:

سمعت مسلمة بن عبد الملك بن مروان عم لي يقول يوماً لجدي هشام بن عبد الملك وهو خليفة، وقد نظر إليّ:

هذا هو الذي يُحيي ملك بني مروان بالمغرب بعد ذهاب مُلكنا بالمشرق.

فكان جدي يفضلني من حينئذ، وما زالت تلك الكلمة تعمل بي، فلما أن انخرم ملكنا بالمشرق، خرجت أريد المغرب، فملكت الأندلس.

قالوا: واجتاز عبد الرحمٰن وقد لحق به بدر مولاه، بشيء من الذهب وجوهر نفيس أعطاه إليه ليعيش به وتدريه أمير إفريقية عبد الرحمٰن بن حبيب فأفلته، واستقر بمقيلة، وكتب من ساحلها إلى من بالأندلس من سرايا بني أمية وصنائع دولتها، فاستجابوا له، واشترى له بساحل تدمير مركب عاد إليه فيه بدر مولاه في طائفة من الصنائع.

فركب فيه البحر واحتل بمرسى المنكب غرة ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ثم تحرك إلى البيرة، واستجاب الناس لدعوته.

ولما كملت لديه الجيوش عقد اللواء ومضى نحو قرطبة، وكان الأمير يوسف

---

(١) من مصادر ترجمته: العقد الفريد (٤/ ٤٤٨)، الطبري (٧/ ٥٠٠)، فوات الوفيات (٢/ ٣٠٢)، ابن خلدون (٤/ ١٢٠)، نفح الطيب للمقري (١/ ٣٢٧)، نهاية الأرب (٢٢/ ١)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ١١٨)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٤).

الفهري يومئذ غائباً عنها، محاصراً /مدينة سرقسطة، فلما بلغه الخبر قفل إلى قرطبة [١/١٢٠] فنزلها.

وأقبل عبد الرحمٰن، فنزل بضفة النهر، ودارت بين الفريقين محاورة أجلت عن الصلح يوم الجمعة وهو يوم الأضحى من السنة. واستدعى عبد الرحمٰن من ابن أبي الصباح يحيى بن يحيى اليحصبي - يقال له: أشهب فيمن الكوكب كان له فتحول إليه - وقال: إن فرسي قلص لا يمكن معه الرمي. فقدمه إليه فركبه.

وطمأن الناس، وتمت الهزيمة على يوسف الفهري(١). وتمت البيعة لعبد الرحمٰن يومه، ودخل قصر الإمارة بقرطبة، واستقر به.

وتمادى يوسف الفهري في فراره إلى أن استقر بغرناطة.

وتحرك عبد الرحمٰن في أثره، فنازله وحاصره، والتمس من عبد الرحمٰن الأمان، فبذل له.

وخافه بعد، وفرّ عن محصرته، ووقع عنه الطلب، فأتى إليه برأسه، وخلا له الجو منه(٢).

---

(١) لتوضيح هذا الكلام أسوق ما ذكر ابن الأثير في هذه النقطة في الكامل من التاريخ في أحداث سنة (١٣٩) في ذكر دخول عبد الرحمٰن بن معاوية إلى الأندلس، فمما قال في ذلك: ثم أتى إشبيلية فبايعه أبو الصباح يحيى بن يحيى ونهض إلى قرطبة، فبلغ خبره إلى يوسف - وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة، فأتاه الخبر وهو راجع إلى قرطبة -. فسار عبد الرحمٰن إلى قرطبة، فلما أتى قرطبة تراسل هو ويوسف في الصلح، فخادعه نحو يومين أحدهما يوم عرفة، ولم يشك أحد من أصحاب يوسف أن الصلح قد ابترم وأقبل على إعداد الطعام ليأكله الناس على السماط يوم الأضحى. وعبد الرحمٰن مرتب خيله ورجله وعبر النهر في أصحابه ليلاً ونشب القتال ليلة الأضحى وصبر الفريقان إلى أن ارتفع النهار. وركب عبد الرحمٰن على بغل لئلا يظن الناس أنه يهرب، فلما رأوه كذلك سكنت نفوسهم، وأسرع القتل في أصحاب يوسف وانهزم، وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته، ثم انهزموا، فظفر عبد الرحمٰن. ولما انهزم يوسف أتى ماردة. وأتى عبد الرحمٰن قرطبة، فأخرج حشم يوسف من القصر على عوده، ودخله بعد ذلك.

(٢) هكذا هنا، وفي المصدر السابق على خلاف ذلك تماماً، إذ قال ابن الأثير بعد ذكره لدخول عبد الرحمٰن القصر: ثم سار في طلب يوسف، فلما أحسّ به يوسف خالفه إلى قرطبة، فدخلها، وملك قصرها، فأخذ جميع أهله وماله بمدينة البيرة، وكان الصميل لحق بمدينة شوذر. وورد إلى عبد الرحمٰن الخبر، فرجع إلى قرطبة طمعاً في لحاقه بها، فلما لم يجده عزم على النهوض إليه، فسار إلى البيرة، وكان الصميل قد لحق بيوسف وتجمع لهما هناك جمع. فتراسلوا في الصلح، فاصطلحوا على أن ينزل يوسف بأمان هو ومن معه، وأن يسكن هو وعبد الرحمٰن بقرطبة، ورهنه يوسف ابنيه أبا الأسود محمداً، وعبد الرحمٰن. وسار يوسف مع عبد الرحمٰن، فلما دخل قرطبة تمثل:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

=

وانسال بنو أمية من المشرق محتالين مختفين يجيء إليه عدد منهم تجددت بهم الدولة.

وماج على عبد الرحمٰن بن معاوية بحر الخلاف والمنازعة، وقارع الكثير من الثوار، ولاكأ لعلاء بن الغيث الحداني الداعي إلى نفسه بناحية باجة من عمل حمص.

وذكر أن المنصور صاحب الدولة العباسية أرسل إليه بولاية الأندلس فاتبعته الأجناد، وتطلع إليه العباد، إلى أن كادت دولة عبد الرحمٰن تنصرم.

فخرج إلى حد مونة محاذياً له بخاصته، وعاجله العلاء بن مغيث، فحاصره بها أياماً عديدة.

فلما طال بالعلاء الأمر، وعلم عبد الرحمٰن باختلال محلته، أمر بنار فوقدت، ثم أمر بأجفان السيوف فطرحت بها، وقال لأصحابه: اخرجوا معي خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع، وكانوا سبعمائة، فخرجوا إلى العلاء، فرزقهم الله النصر، وزلزل أقدام عدوهم، إلى قضاء الله من إقبال الدولة وتمهيد لأمرها فهزم القوم، وقتل العلاء فطيف للحين برأسه، وأمر به عبد الرحمٰن فعولج بما يحفظه وجعل مع اللواء المعقود له في صفط وأرسله مع أقواماً من الحجاج الذاهبين إلى الحج إلى مكة.

واتفق أن حج المنصور عامئذ، فجعل القوم الصفط بازاء باب سرادقة فإذا نظر إليه، قال: عَرّضنا هذا المسكين للقتل والحمد لله الذي جعل بيننا وبين هذا ـ يعني عبد الرحمٰن بن معاوية ـ بحراً[1].

واستنزل الثوار، وقهر الأعداء، وجاهد في سبيل الله بما هو معروف في دولته من كتب التاريخ.

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أخبروني عن صقر قريش من الملوك؟

= واستقر عبد الرحمٰن بقرطبة، وبنى القصر والمسجد والجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، ومات قبل تمامه، وبنى مساجد الجماعات. ووافاه جماعة من أهل بيته، وكان يدعو للمنصور. وقد ذكر أبو جعفر أن دخول عبد الرحمٰن كان سنة تسع وثلاثين. وقيل: سنة ثمان وثلاثين على ما ذكرنا.

(١) وفي الكامل في التاريخ في أحداث سنة (١٤٦) في ذكر خروج العلاء بالأندلس: وفيها سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى مدينة بناحية الأندلس، ولبس السواد، وقام بالدولة العباسية، وخطب للمنصور، واجتمع إليه خلق كثير، فخرج إليه الأمير عبد الرحمٰن الأموي، فالتقيا بنواحي اشبيلية، ثم تحاربا أياماً، فانهزم العلاء وأصحابه، وقتل منهم في المعركة سبعة آلاف وقُتل العلاء، وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سراً، ففعل ذلك. ثم حُمل منها شيء إلى مكة، فوصلت وكان بها المنصور. وكان مع الرؤوس لواء أسود، وكتاب كتبه المنصور للعلاء.

قالوا: ذلك أمير المؤمنين الذي واصل الملوك، وسكن الزلازل، فأباد الأعداء وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئاً.

قالوا: معاوية.

/ قال: لا. [١٢٠/ب]

قالوا: فعبد الملك بن مروان.

قال: ما قلتم شيئاً.

قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟

قال: صقر قريش عبد الرحمٰن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً بنفسه فصار وجند الأجناد، ودون الدواوين، ونال ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عمر، وعثمان، والملالة صعبة، وعبد الملك ببيعةٍ تقدم عقدها، أمير المؤمنين يطلب ثأر عشرته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمٰن منفرد بنفسه مؤيد بأمره، مستصحب لعزمه، وطّدَ الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الجائرين.

وكان عبد الرحمٰن من أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل، ومن قوله:

أيها الراكب الميمِّمُ أرضي ... أقرّ من بعضي السلام لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرضٍ ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ

قدِّرَ البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى اللّه بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي[١]

وله من الشعر كثير، وهو معلوم.

وكان عبد الرحمٰن بن معاوية فصيحاً، بليغاً، حسن التوقيع، مليح الفصول، مطبوع الشعر، معدوداً من أهل العلم، وعلى سيرة حسنة من العدل.

ذكروا أنه لما نزل بمنية الرصافة من قرطبة، نظر فيها إلى نخلة هاجت شجنه وتذكر بها وطنه، فقال بديهة:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغريب والنوى ... وطول انتنائي عن بنيّ وعن أهلي

---

(١) الأبيات في نفح الطيب (٣/ ٣٨)، جذوة المقتبس (٩)، الحلة السيراء (١/ ٣٦)، وقيل: إنها لمعاوية بن صالح القاضي، ونسبت لعبد الرحمٰن الداخل هذا، والله أعلم.

نشـأت بـأرض أنتِ فيـهـا غـريـبـة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مِثلي
[سقتك عوادي المُزن من صوبها الذي يَسُحُّ وتَسْتَمري السِّماكين بالوَبْلِ][1]

وتوفي عبد الرحمٰن بن معاوية يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ثنتين وسبعين ومائة، ودفن بالقصر من قرطبة. وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر.

وكان عمره يوم دخل الأندلس خمساً وعشرين سنة.

وكان قد عقد الخلافة لبنيه هشام وسليمان.

[١٢١/أ] فاستخلفها هشام باستباقه إلى قصر الخلافة قبل أخيه، إذ كانا غائبين، ولما / حضرته الوفاة، وابنه هشام بماردة، وابنه الآخر سليمان بطليطلة، وكّل ابنه عبد الملك المعروف بالبلنسي، وقال له: من سبق إليك من أخويك فادفع إليه بالخاتم والأمر، وإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه، واجتماع الكلمة عليه.

وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الناس له.

فقدم هشام قبل سليمان، فلقيه الأخ عبد الملك، وسلّم إليه امرته، وأدخله القصر.

دولة هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان[2]

كنيته: أبو الوليد.

بويع مستهل جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ولما اتصل بأخيه الخبر، وهو بطليطلة، حشد إليه، وقصد قرطبة.

وبرز إليه هشام، وكان اللقاء بجهة جيان، فانهزم سليمان.

وعاود الاحتشاد، فتكررت الهزيمة، ثم نازعه أخوه عبد الله متخلف إليه، الذي

---

(١) البيت من سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٧).

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٥٣)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٠)، ابن القوطية (٤٢)، جذوة المقتبس (١٠)، الحلة السيراء (١/ ٤٢)، البيان المغرب (٢/ ٦١)، ابن خلدون (٤/ ١٢٤)، المعجب (١٩)، نفح الطيب (١/ ٣٣٤). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الأمير، أبو الوليد، المرواني، بويع الملك بالأندلس عند موت والده سنة اثنتين وسبعين، وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة، فإنه وُلد بالأندلس. وكان ديناً ورعاً يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعدل في الرعية، ويكثر الصدقات، ويتعاهد المساكين. أمه: أم ولد اسمها حوراء. ولما احتضر عهد بالأمر إلى ولده الحكم. ومات في صفر سنة ثمانين ومائة، وله سبع وثلاثون سنة رحمه الله تعالى وإيانا.

دفع إليه أمانته لسبعة أشهر من ولايته، ولحق بأخيهما سليمان بطليطلة.

وتحرك هشام إلى منازلتهما، فجاءت الحال عن لحاق عبد الله بهشام من غير عهد ولا أمان، وتقبله وأجراه مجرى ابنه في الأمر، وصالح سليمان بستين ألفاً على الخروج بأهله وولده عن الأندلس إلى عدوة المغرب، ونازل هشام بعد ذلك بسرقسطة وبها مطروح بن سليمان الأعرابي، فأمكنه الله تعالى منه وخلا له الجو.

فغزا بلاد الروم بنفسه وقواده، فكان أثره عظيماً، فتح به مدائن، وحاصر إفرنجة.

وفي سنة تسع وسبعين ومائة غزا عبد الكريم بن مغيث بالطائفة التي انتهى بها داخل خليقة، فهزم طاغية الروم، وقد احتشد له البشكنس، ثم اتبعه في الجبال ينسف كل ما مر به ويتركه قاعاً صفصفاً.

وكان مقدمة جيش عبد الكريم الحاجب التي قدمنا بين يديه لمناجزة إذ فونش صاحب فرج بن كنانة، عشرة آلاف، فكانت غزاة شهيرة[(١)].

وكان هشام الرضي من أئمة وبمنزلة عمر بن عبد العزيز في قومه بالأندلس.

تولى بناء القنطرة العظمى بقرطبة بنفسه، وأنفق فيها أموالاً عظيمة.

وحكى ابن وضاح: أنه ذكر له أن الناس يقولون: إنما بناها لتصيّده وتنزهه.

فحلف، لما بلغه ذلك، لا يجوز عليها إلاّ لغزو في سبيل الله أو مصلحة.

قلت: هكذا شأن الناس مع أرباب الدول / إن بنى القنطرة ولازمها على كريهة، [١٢١/ب] نفعه الله، واختار ما نالها من طيبه.

قيل: بناها للهوه وصيده، ولو كان هذا فليت شعري أي شيء كان يعوزهم من منفعتهم بها، وهلا دعوا أن يهنيه الله بزهوه وصيده إذ كانا شافعين في بنائها لهم، ولو

---

(١) قال ابن الأثير في هذه الحكاية: أنها كانت في سنة ثمانين ومائة أيام حكم الحكم بن هشام، فقال فيها في ذكر غزوة الفرنج بالأندلس: وفي هذه السنة سير صاحب الأندلس جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الإفرنج، فدخل البلاد وبث السرايا ينهبون، ويقتلون، ويحرقون البلاد، وسير سرية، فجازوا خليجاً من البحر كان الماء قد جزر عنه، وكان الفرنج قد جعلوا أموالهم وأهليهم وراء ذلك الخليج ظناً منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم، فجاءهم ما لم يكن في حسابهم فغنم المسلمون جميع مالهم، وأسروا الرجال، وقتلوا منهم فأكثروا وسبوا الحريم، وعادوا سالمين إلى عبد الكريم. وسَيّر طائفة أخرى فخربوا كثيراً من بلاد فرنسية وغنم أموال أهلها، وأسروا الرجال، فأخبره بعض الأسرى أن جماعة من ملوك الإفرنج قد سبقوا المسلمين إلى واد وعر المسلك على طريقهم. فجمع عبد الكريم عساكره، وسار على يعبيه، وجدّ السير، فلم يشعر الكفار إلا وقد خالطهم المسلمون، فوضعوا السيف فيهم فانهزموا، وغنم ما معهم، وعاد سالماً هو ومن معه.

لم يبنها لم يسلم من حملهم لأجل تركها، فإنّا لله من الناس. وما أشبه حال صاحب الدولة بحال الابن والأب والحمار، لا فارق.

ذكروا أن رجلاً خرج هو وابنه ولهما حمار يركب الرجل خلفه، فسمع الناس يقولون: ما أعظم خفاء هذا الشيخ، وأقلّ حياءه، ركب هو وابنه حماراً ضعيفاً، فهلا نزل وخفف عنه؟!

فنزل عن الحمار، وترك عليه الولد، وسمع الناس يقولون: أركب ابنه القادر على المشي وترك نفسه مع الضعف؟!

والشيخ يطارح الولد سوء الأدب، وسوء المعاملة.

فأنزل الولد وركب، فسمع الناس يقولون: ولد صغير آثر نفسه عليه وتركه يتعب دونه ولم يرحمه؟!

فنزل وترك الحمار خالياً ظهره، فسمعهم يقولون: حمار يسير بطالاً، وشيخ، وصغير خلفه؟! قد حرم هذا الشيخ نفسه وولده حرصاً وصوناً للحمار؟! صنع الله به وصنع.

فقال: يا ولدي، حرنا مع هؤلاء لم يخلصنا معهم شيء، والحق أن نفعل ما يظهر لنا ولا نلتفت إليهم.

وفي مثل هذا الحال قلت من قصيدة طويلة شرحت فيها حالي فيما بليت به بالأندلس من مكابدة الصم والبكم الذين لا يعقلون:

إن تورعت أصبحت حوز الملك ... ضياعاً لجرأة الفجار

أو طردت العفاف عفت من اللّه ... إذا ما سُئلت عن أوزار

أو تقاعدت أصبح الأمر فوضى ... تلعب الشاة فيه بالجزار

أو تعرضت وانتدبت سمعت النقد ... حال الإيراد والإصدار

لا يزال الملام عنك بحالٍ ... حالة الشيخ وابنه والحمار

قدتهم للجهاد فامتثلوا الضعف ... وضجوا لِكَثْرَة الأسفار

....(١)

[I/١٢٣] /من مماليك كالسبع وصفات ... وغزو ديلم وتتار

لم نجد مسلماً يقوم بحقي ناظراً ... لي بغلة استعفت بسهاري

... .(٢)

(١) تركت ثلاث أبيات لعدم وضوح بعض الكلمات بها في المخطوط.

(٢) فعلت كما في التعليق السابق.

فنستغفر الله ربنا، ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

ولله درَّ الصوفية إذ يلزمون من جَنى عليه الاستغفار والإنصاف من نفسه ويرون أنه إنما أوصى من قبلها رجع.

وكانت أيام هشام خير أيام عافية، وهدوء، وعدّه أبو محمد بن حزم ثالث ثلاثة من العدول في بني أمية خاصة.

وتوفي لسبع خلون من صفر سنة ثمانين ومائة.

وذكروا أنه سأل منجم زمانه، وأظنه العباس بن فرناس، عن مقدار أيام دولته، فاستعفاه من ذلك، فلم يفعل، وعزم عليه.

فقال له بعد نظر: إن صح دعوة هذه الصناعة، فإنك تبقى في الولاية سبع سنين، وكذا.

فأطرق، وبكى، وقال: حسبي الله، فوالله لو كانت سجدة لله لكانت قليلة قصيرة.

وصرف وجهه إلى الاجتهاد والجهاد، رحمة الله عليه ورضوانه.

وكانت مدته سبع سنين وأشهراً.

دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(١)

وكنيته: أبو العاصي.

وكان ملكاً كبيراً، شديد الحزم، ماضي العزيمة، عظيم الصولة، حسن التدبير.

وكان يسلّط قضاته وحكامه على نفسه فضلاً عن ولده وخدمه.

وكانت له ألف فرس بارية مرتبطة بجانب القصر، فكلما أتى إليه البريد خبراً

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٥٣)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٠)، جذوة المقتبس (١٠)، الكامل في التاريخ (سنة ١٨٠) وما بعدها، المغرب في حلي المغرب (١/ ٣٨)، المعجب للمراكشي (٤٤)، الحلة السيراء (١/ ٤٣)، البيان المغرب (٢/ ٧٠)، فوات الوفيات (١/ ٣٩٣)، أخبار مجموعة (١٢٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٢٥). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: يلقب بالمرتضى، ويعرف بالرَّبضي، لما فعل بأهل الرَّبَض. بويع بالملك عند موت أبيه في صفر سنة ثمانين ومائة. وكان من جبابرة الملوك، وفساقهم، متمرديهم، وكان فارساً شجاعاً فاتكاً ذا دهاء وحزم وعتو وظلم، تملك سبعاً وعشر سنة، وكان في أول أمره على سيرة حميدة تلا فيها أباه، ثم تغير وتجاهر بالمعاصي. قال أبو محمد بن حزم: كان من المجاهرين بالمعاصي، سفاكاً للدماء، كان يأخذ أولاد الناس المِلاح فيخصيهم ويمسكهم لنفسه. وله شعر جيد.

باقر أو خارجي عاجله قبل أن يعلم، فلا يشعر إلاّ وقد أحيط به.

وفي سنة إحدى وثمانين من أيامه كان الإيقاع بأهل طليطلة، وقد اتخذ قصراً احتفر بناءه تراب جدرانه من صحنه، فلما كمل، إلا ما يخص الصحن، أعمل الحضور على طليطلة وعرض واليها عليه، أو على ابنه، حضور صنيعة بالقصر الجديد.

واستدعى له وجوه البلد، وأوهم أنهم إذا طعم منهم قوم انصرفوا عن باب غير الذي دخلوا منه، وجعلوا كلما دخلوا قتلوا، حتى فطن بعض شيوخهم [١٢٢/ب] / إلى البخار المرتفع من الدار، فقال: هذا والله بخار الدماء لا بخار الطعام، وقد خمد الناس.

فذكروا أن عدد القتلى يومئذ من وجوه طليطلة وأعيانها خمسة آلاف وثلاثمائة رجل، فمالت بعد ذلك صولة طليطلة.

وفي أيامه قفل عمه أبو أيوب من المغرب، وطلب الأمر لنفسه، وكانت حروب عظيمة بينهما انجلت عن هزيمة أبي أيوب وقتله. وكان للحكم غزوات شهيرة.

وأنكر الناس عليه أمور، منها:

إطلاق يد ربيع القومس متولي جزية المعاهدين بالأندلس من النصارى. وكان حظياً في رجاله سوغة افتراض المعاون والمغارم على المسلمين، فثار به أهل الربض بقرطبة سنة اثنتين ومائتين الثورة الشهيرة، ونابذوه وجاهروا بخلعه، وزحفوا إلى باب قصره في السلاح وأحاطوا به في أمم لا يحصيها إلاّ الله، وفيهم الفقهاء الجلة، وأهل الفتيا، مثل: طالوت الفقيه.

ويحيى بن يحيى الراوية عن مالك، وأخيه، وأمثالهم.

وكان من جملتهم جد لنا يعرف بابن وزير، ممن طوحت النّوا بركابه، واستقر بطليطلة، ومنها تحول إلى مستقرنا بلوثه فكان خطيباً بها، وله ينتسب بيتنا من بعد النسبة الأولى.

وذعر الحكم لهول ما رأى، وأمر بعض خدامه الصقالبة أن يأتيه بوعاء الغالية، فاستراب الفتى وأنكر ذلك، وقال: وأي وقت غالية هذا؟!

فصاح به: ائت به ويحك، وإلاّ فمن أين يعرف رأس الحكم؟

وجاء بها، فغلف بها رأسه ولحيته، واستبسل الموت.

وتوافى إليه كثير من خدمته، واستركب عبيده وحجابه، وأخذوا أعقاب الناس، فدهشوا إذ عدموا من يلتف عليه جمعهم.

فقد كان من نوادر ذلك اليوم المأثورة مثلاً في هيج الرعاع أن حداد كان بين

يديه صبي يسوّي الكبير، وأبصر اجتماع الناس، وحضورهم في الأسلحة فقال: ومن رئيسهم؟

فقيل: ليس لهم رئيس.

فقال للصبي: يا صبي حرّك الكير واعمل عملك.

يعني، فإن هؤلاء لا يكون منهم شيء.

فأعمل السيف يومئذ في أهل الربض، فقتل منهم أزيد من عشرة آلاف رجل، وجلا عن قرطبة أضعاف ذلك، وما استقرّ منهم طائفة ببلد من البلدان إلاّ وثاروا به.

حتى لقد حكي أن آلافاً منهم استقرت بالإسكندرية، وأن رجلاً منهم تكلم مع جزار، فرمى الجزار بوجهه بكرش كانت في يده فبطش به وقتله. فنادى مناديهم في المدينة، فتألبوا، وثاروا، وتغلبوا على المدينة / حتى صرفوا عنها صلحاً إلى جزيرة [١/١٢٢] إقريطش[١].

وأقسم الحكم أن لا يمشي عن الربض حتى يدعه دكّاً، فصيّره على عِظمه وهوله وأصالة بنائه مزرعة.

قلت: ولقد باشرت بالأندلس أخاً ونظيراً لهذا الموقف الحكمي النكد، أعظم الله به الأجر وجعله آخر المواقف الكريهة في الدنيا.

إلاّ أن الناس اجتمعوا على هذا العهد الذي شهدناه، والتفوا على رجل من قرابة السلطان، ولم يكونوا هملاً. فكان الشقاء بهم أشد لولا لطف الله وذلك أن السلطان أبا عبد الله بن أبي الحجاج بن نصر لما عاد إلى الأندلس، ثرّه خدامه إلى طلب بالذنوب وكلهم جان بيده ولسانه، واتفقت الكلمة الواحدة على الثورة به، ولحقت ببابه والأمر قد كمل استعداده للشر، وأبرمت عقدته، وأضيف الدليل البركي، فشايع هو وطائفة من مثله الرئيس علي بن علي بن نصر من القرابة، وأنا ذاهل عن الأمر، إلا أن شيخ التكلف والفتنة والاشتغال بما لا يعني من أمر الدنيا والآخرة علي بن كماشة عتبني مشفقاً في القدوم على الأندلس يومئذ وقال لي: احتل في الانصراف، فإنما السلطان كالبيضة فوق النار كأني بها قد فرقعت وانشقت فسالت.

وتهاونت بقوله، وما راعني من الغد وأنا بين يدي السلطان، وقد جلس للناس في قبة الجنان المتصل بالقصر، وأبطأ المبكرون على بابه إلا النذير العريان يقول: قد

---

(١) في معجم البلدان ما معناه: أنها المعروفة الآن بكريت، وهي التي في البحر الأبيض المتوسط، وقد تملكها الأندلسيون عام (٢١٢)، وكان أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى.

ثار البلد، والنداء بدعوة فلان، وكثر ذلك. والتفتنا من طيقان القبة، فإذا البلد يموج بأهله خيلاً ورجلاً.

فقال لي السلطان: ما ترى؟

فقلت: الصبر، والتوكل على الله تعالى، عليه بالانصراف إلى منزله، وسد أبواب القلعة إلا واحداً يُسد بالرجال، وأشرت عليه بالدخول إلى منزله ولبس سلاحه.

وفتحت قراب العمدة وصعد السلطان في موقف مُطل على البلد ونشرت رايته فوق رأسه، وأسمع النفير، ونودي على الجند بالعطاء، والخلق قد ناصبونا الحرب، والصياح قد سَدَّ الأفق، والسهام تتراشق نحونا.

وصاحب القوم في ربوة تجاه القلعة، ومن انحاز إلينا لا نعرف مذهبهم، وألهمّ الله الصبر، وسدد القول والعمل، فلم يستحكم الزوال إلاّ وظهر اختلاف مصاف القوم، ورسائلي تنفذ إلى وجوه الناس، فخذل مكايدون وسقط في أيديهم، وفروا على وجوههم، وقبض على الشيخ، وسكن الله /الأرجاء وأخمد النار. [١٢٣/ب]

وقد كانت الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة، وعظم خوف الناس من الرعب من السلطان، واستحكمت صبغة الشر وكثر المستريب. فبادرت من الغد يوم الجمعة، بالمسجد الجامع وعلوت ذروة المنبر بكتاب أشهدت على السلطان بترك قديم المؤاخذات وحرجها، ورفع الخوف عن الناس، وبذل الأمن لجميعهم.

وارتهنت ضمان ذلك رُقية قرنت به العافية إلى ما بعد، والحمد لله.

رجع الحديث(١)

وكان الحكم على فظاظته شاعراً مطبوعاً، فمما يؤثر من شعره قوله في جوار كان مغرماً بهن:

ظل من فرط حبه مملوكا	ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد كلما	وبعاداً يدني حِمَاماً وشيكا
تركته جانب(٢) القصر صَباً	مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد واضعاً فوق تُرب	للذي يجعل الحرير أريكا

---

(١) يريد عوداً على بدء أي نعود إلى ما كنا بصدده من خبر الحكم وصفاته وحكم أهل السير عليه وتقييمه.

(٢) كلمة لم أتبين قراءتها فذكرت أقرب معنى لها والله أعلم، ورسمها هكذا: جَافِر.

هكذا يحسن التذلل بالحر … إذا كان في الهوى مملوكا

وتوفي رحمه الله يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين.

وولي الأمر بعده ولده عبد الرحمٰن بن الحكم.

دولة عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[1]

وكنيته: أبو المطرف.

وكان ملكاً كبيراً، فارع الثوار، وهزم الكفار، وأبعد الآثار.

ولما صلى على والده، وواراه، جلس متطأطئاً ليس تحته وطاء، وفعل من معه كذلك، فافتتح القول، فقال:

الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من حكمه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، واستأثر بالملكوت والبقاء، وأذل خلقه بالفناء، تبارك اسمه وتعالى جده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً.

وقد كان مصاب الإمام رحمه الله مما جلت به المصيبة، وعظمت به الرزية، عند الله تعالى نحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في إكمال الأجر والذخر، وعهد إلينا بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده بل لكم لدينا مزيد إن شاء الله.

ثم قام وخرجت الكساوي والأموال على أقدارهم.

/ وفي أيامه انتقض المعاهدة بجزيرة ميورقة، فغزاهم في ثلاثمائة مركب، فافتتحها ثانية. [١٢٤/أ]

وغزا بنفسه جليقية فافتتح حصونها، وسبى حريمها، وقتل مقاتلتها، وذاك سنة خمس وعشرين ومائتين، وطالت غيبته في غزاته هذه، وفي ذلك يقول شاعره عبد الله بن إبراهيم على لسانه، وقد وصف له أرقاً عراه وتذكراً لمن حَنّ إلى لقائه:

عدا بي عنك مزار العدو … ووفودي إليهم لهاماً مهيبا

فكم قد تعسفت من سبسب … ولاقيت بعدد وفي ذوبا

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٠)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٣)، جذوة المقتبس (١٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٤٥)، الحلة السيراء (٦١)، البيان المغرب (٢/ ٨٢)، أخبار مجموعة (١٣٥)، ابن خلدون (٤/ ١٢٧)، نفح الطيب (١/ ٣٤٤)، قال الذهبي في السير: بويع بعد والده في آخر سنة ست ومائتين، فامتدت أيامه، وكان وادعاً، حسن السيرة، لين الجانب، قليل الغزو، غلبت المشركون دولته على إشبيلية ولكن الله سلم... وكان مولد عبد الرحمٰن بن الحكم بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة. ومات في ثالث ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائة.

ألاقي بوجهي سَموم الهجير وقد كاد منه الحصا أن يذوبا
أنا ابن الهاشميين من غالب أشب حروباً وأطفي حروبا
وأدرع النقع حتى لبست من بعد نضرة وجهي شحوبا
سموت إلى الشوك في جحفل ملأت الحزون بهم والسهوبا

كان ذا حظ في البلاغة.

تردد عليه بعض مواليه يسأله استخدامه بلطائف الرغبة، وترقيق الملاطفة.

فقال له: لم يتقدم لك عندنا خبرة نولك بها، ولا تجربة نقدمك بسببها، غير ما رأيناه من بلاغتك وحُسن خطابك فيما يرد علينا من كتُبك، فإن كنت كاتبها فقد جودت وأحسنت، وإن كنت تطلب بمعينتك، تخيّرت بفضل همتك من حُسن ذلك عنك، فقد أحسنت في العناية، وفضلت في الهمة بكلتي الحالين متقدم، وقد رجونا باستلطافك لعملك وتهذبك لخدمتك وقد ولبناك على الجاء فيك، فصدق ما خبأه الظن بك، فإنك إن حافظت على أدنى حظك أدركت أقصاه، وإن أحسنت بدءه نلت أحسن عُقباه.

وكتب إليه بعض عماله يسأله عملاً رفيعاً ليس من شاكلته.

فوقع له في أسفل كتابه: من لم يصب مطلبه كان الحرمان أولى به.

ومن شعره:

لقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ إن يجد النهى بتجارب فشباب رأي القوم عند شبابها

وفي سنة ثمان ومائتين كانت الغزاة التي عقدها عبد الرحمٰن على وزيره عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالطائفة المعروفة بغزوة البله والقلاع، دخل فيها / [١٢٤/ب] أرض العدو وفتك بما لا عداد به، وفتح له الفتح المعروف بفتح برنيس، فأخرب كل ما مر به، ونازل مدائن وفتح معاقل، وهزم حشود كثيرة حسبما هو مذكور في كتاب غريب وغيره.

وفي أيامه خرجت مراكب المجوس[١] حرباً...[٢] ببلية وقادش وشدونة ولشبونة، ثم...[٣] والمجوس ثم الذين يسمونهم اليوم...[٣] قشتالة بالأقليش وأهل المشرق بالفرنج وبالانكثير، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين ذرع إحداهما سبعمائة ميل، وهم أهل قوة وبأس وشدة.

---

(١) جاء بالهامش تعليق بغير قلم الناسخ نصه: سمى اللنجليز مجوس. (يريد الإنكليز أو الإنجليز).
(٢) كلام غير مقروء بالمخطوط قدره كلمتان.
(٣) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

وقد ذكرنا شيئاً من حديثهم عند ذكرنا أيام صلاح الدين، ونجلب شيئاً منه فيما يأتي بمحله إن أعان الله على ذلك وأنسأ الأجل إليه.

وفي أيامه اختلفت دولة بني أمية بالأندلس وعظمت الألقاب، وشيدت القصور، وجلبت إليها المياه، وجلبت إليه من المشرق بعد أن عاثت الفتنة في قصور الأمير، وخزائن بغداد الذخيرة الرفيعة كعقد الشفاء، ومثله أعلاق زبيدة بنت جعفر.

وفي أيامه اتخذ الطراز الذي كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق.

وكانت وفاته يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ثلاث[1] وثلاثين ومائتين.

وتخلف من الولد أزيد من ثمانين بين ذكر وأنثى شطرهم ذكور.

وولي بعده ابنه محمد بن عبد الرحمٰن.

دولة محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[2]

بويع للأمير محمد بن عبد الرحمٰن لأربع خلون من ربيع الآخر سنة

---

(١) كذا جاء هنا ثلاث، وهو مخالف لما ذكره الذهبي من قبل، وكذا مخالف لما هو عند ابن الأثير في الكامل في التاريخ، حيث ذكر أن وفاته كانت في سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وذكره فيها في كتابه الكامل في التاريخ فقال: وفيها توفي عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام الأموي صاحب الأندلس في ربيع الآخر وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة، وولايته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وكان أسمر، طويلاً، أقنى، أعين، عظيم اللحية، مخضباً بالحناء. وخلف خمسة وأربعين ولداً ذكوراً. وكان أديباً شاعراً، وهو معدود في جملة من عشق جواريه، وكان يعشق جارية له اسمها طروب، وشُهر بها. وكان عالماً بعلوم الشريعة وغيرها من علوم الفلاسفة وغيرهم. وكانت أيامه أيام عافية وسكون، وكثرة الأموال عنده، وكان بعيد الهمة. واخترع قصوراً ومنتزهات كثيرة، وبنى الطرق، وزاد في الجامع بقرطبة رواقين، وتوفي قبل أن يستتم زخرفته، وأتمه ابنه. وبنى جوامع كثيرة بالأندلس. ولما مات ملك ابنه محمد فجرى على سيرة والده في العدل، وتمم بناء الجامع بقرطبة، وأمه تسمى: بهتر.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٢)، جذوة المقتبس (١١)، والعقد الفريد (٤/ ٤٩٣)، المغرب (١/ ٥٢)، الحلة السيراء (٦٤)، البيان المغرب (٢/ ٩٦)، الوافي بالوفيات (٣/ ٢٢٤)، ابن خلدون (٤/ ١٣٠)، أخبار مجموعة (١٤١)، نفح الطيب (١/ ٣٥٠)، والكامل في التاريخ من سنة (٢٣٨ : ٢٧٣)، قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: صاحب الأندلس أبو عبد الله الأموي المرواني. كان محباً للعلم مؤثراً لأصحاب الحديث مُكْرِماً لهم، حسن السيرة، وهو الذي نصر بقيّ بن مخلد الحافظ على أهل الرأي. قال بقيّ: ما كلمت أحداً من الملوك، أكمل عقلاً، ولا أبلغ لفظاً من الأمير محمد، ولقد دخلت عليه يوماً في مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه، ثم ذكر الخلفاء، فحلّى كل واحد بحليته وصفته، وذكر مآثره بأفصح لسان حتى انتهى إلى نفسه، فحمد الله على ما قدّره، ثم سكت.

ثلاث[(١)] وثلاثين ومائتين.

واستعصت عليه طليطلة، فبرز إليها بنفسه، واستجاش أهلها ملك النصارى بجليقية دون بن دفوقش، فوجه إليهم إخاه.

وكاده الأمير محمد، فبعث الكمناء بقصر المدينة في جمع غير كثير، فاستبشر الطاغية وأيقن أنه يظفر به.

فلما خالطه برزت الكمناء من الجهات فهزمه الله تعالى شر هزيمة.

وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس.

ثم وصل الغزو إلى أرض البلة والقلاع، فعظم أثره.

وفي سنة اثنتين وستين ومائتين عظم أمر محمد بن مروان من المتمردين على الأمير ببطليوس، وماردة، وكان من المستأمنين المستنزلين على الخلاف المستقرين بقرطبة، فجر أنفه ولحق بحيث ذكروا عضل داؤه.

وكان سبب انتقاضه أن الوزير هشام بن عبد العزيز الأثير رأى الخليفة محمد، القريب التصرف به قحة بن مروان من بني الوزراء لحدة كانت في هاشم لم يملك / [١/١٢٥] معها عشية أن قال له: الكلب، يضير منك، وأمر به فصفع قفاه، واستبلغ به.

ففر فقبر طويل واستكثر بسعتوب السرنباني وقومه، وهم فرسان العرب بالثغر، وبادر هاشم بن عبد العزيز فطلب فرصة ينتهزها فيهم، وأبحص بغرته، وجاوز الوعر، وأبعد عن العسكر، فأخذت المضايق عليه وناشبوه القتال وواقعة الجراح، وقتل جملة من جماعته، وأسر، واستقر بيد عدوه الذي صفعه وأهانه جبرة، وأحسن إليه وحلم عنه عند قدرته.

وبلغ ذلك الأمير محمد، فألحى على هاشم، وقال: هذا أمر جناه على نفسه بعجلته وطيشه.

وفي سنة أربع وستين تم انطلاقه بعد أن كان الأمير محمد أقعد ابنه رضاً منه

= قلت: رأى مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، إذ نازع أهل الرأي بقيّ بن مخلد، فأمر بنسخه، وقال: لا تستغني خزانتنا عن هذا. وكان ذا رأي وحزم، وشجاعة، وإقدام. بويع عند موت والده في سنة ثمان وثلاثين، وله إحدى وثلاثون سنة وذلك بعهد من والده. وأمه: أم ولد. وامتدت دولته، وقيل: إنه توغل في بلاد الروم وكان يبقى في الغزو السنة وأكثر. قال أبو المظفر بن الجوزي: هو صاحب وقعة سَليط وهي ملحمة مشهورة لم يعهد قبلها بالأندلس مثلها، يقال: قتل فيها ثلاثمائة ألف كافر، وهذا شيء لم يسمع بمثله، قال: وللشعراء فيه مدائح. ومات بآخر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين عن أربع وستين سنة رحمه الله.

(١) الصواب: ثمان وثلاثون، كما بيّنا في آخر الترجمة السابقة.

بمرتبة الوزارة في حال الصغر، وحفظ عليه جاهه ونعمه إلى أن قرّت بذلك عينه عند خلاصه من نكبة أمره.

ولقد أذكرني قضية هاشم وأنا قاعد مع الوزير الهمام أبي بكر بن غازي المقيد هذا الكتاب بأمره، ما حدث من مثلها في شباب الشيخ عثمان بن إبراهيم بن أبي طلاق العسكري المتميز بنصيحته، وهو صاحب العلم لبني عسكر، وقد بلغه الخبر بأسره وتحصيله بيد عدوه لتجلده عند نكبه واستدعائه ولد وأجلسه بمكانه على صغر سنه وعقد الراية فوق رأسه، وضم خُدام أبيه إليه، وانصرافه رافلاً في الخلع السلطانية وراكباً في الحلة الرفيعة إشادة لعزه.

ونبهت على ذلك من قرب شيء من خواصه تفاؤلاً بخلاصه، فكان ذلك كذلك لأقرب مدة من غير يد ولا فدية.

والحمد لله مُسير السعادة، ومبلغ الإرادة.

وفي أيام الأمير محمد كان ابتداء أمر ابن حفصون، كبير الثوار بالأندلس على عهد الدولة الأموية المتفسح الأمد، الملبس الدولة لباس الكمد، متصل العناء به أزيد من سبعين سنة حسبما يأتي ذكر الثوار.

وكان الأمير محمد أوحد قومه في البلاغة والرجاحة، متنزهاً عن الخنا والقبيح من [القول][1] والقبول على السعادات[2].

قال وزيره هاشم بن عبد العزيز، وكان هاشم من رجال كمال قلّ أن تأتي الدنيا بمثله من اجتماع خصاله: كان الأمير محمد فصيحاً بليغاً، عظيم الأناة، متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحق وأهله، لا يسمع من ساع، ولا يلتفت إلى قول رافع، وكان عاقلاً، على أخلاق حميدة، ومكارم جميلة، ذا بديهة وروية، يرى كل من خدمه وباشره أن لهم الفضل المستبين في إدراكه، وفهمه ودقة ذهنه ولطف فطنته، وجزالة رأيه.

/ وكان...[3] وإذا أخلّ أحد من خزانه وأهل خدمه الحساب شيئاً من ذلك لم [١٢٥/ب] يجن عليه باللحظة والنظرة، ولقد استدرك على بعض خزانه في صك يشتمل على مائة ألف دينار دراهم، خمسة عشرة، فرد الصك وأمر بتصحيحه فتجمع الخدمة والكتّاب إليه، فلم يقعدا على ذلك...[3] وخفائه، فرجعوا إليه معترفين بالتقصير، وأعلموا الرسول، فرد...[3] عليهم باعترافهم، فعلم على موضع الخطأ فإذا هو خمسة عشر درهم.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط والسياق يقتضيه.

(٢) في المخطوط: «السعايات» وهو تحريف.

(٣) موضع النقط كلمات مطموسة بالمخطوط.

وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته.

وكان على عهده من ملوك افرنجة أعظمها وأمجدها يهاديه ويتاحفه على نزاهة بنفسه إلى الغاية التي لم يذهب إلى مثلها قومه. فهذا الملك هو الذي اتخذ تمثالاً زنته ثلاثمائة رطل من ذهب خالص وحفه من الياقوت والزبرجد بما لا يدخل تحت القيمة واتخذ له كرسياً بأعظم من ذلك كله وحشد جميع الأمم الفرنجية لرايته، ثم دفعه إلى خادم كنيسة الذهب.

وكان الأمير محمد يستنفر لغزوه في الطوائف المجردة إلى جليقية مع ولده من كورة البيرة وجيان، وقبرة، واستجنة، وشدونة، ومورور خمسة عشر ألف فارس ليس فيهم من أهل الأندلس غير من ذكر وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر.

وذكروا أنه خرج متنزهاً يزماً لبعض متنزهاته ومعه هاشم بن عبد العزيز فكان بمصادر نهاره على راحته، فلما أمسى واختلط الظلام، وانصرف إلى القصر، فأخبر من سمع هاشماً يقول له: يا ابن الخلائف، ما أطيب الدنيا لولا الموت. فقال له: يا ابن اللخناء، وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت، ولولا الموت ما كُنا نراه أبداً.

وكانت وفاته يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

وكانت مدته نحواً من خمس وثلاثين سنة[1]، رحمه الله.

دولة المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية

وكنيته: [أبو الحكم][2].

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٧٣) في ذكر وفاة محمد بن عبد الرحمٰن وولاية ابنه المنذر: في هذه السنة توفي محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام الأموي، صاحب الأندلس، سلخ صفر. وكان عمره نحواً من خمس وستين سنة. وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر شهراً. وكان أبيض مشرباً بحمرة ربعة، أوقص يخضب بالحناء والكتم، وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً ذكوراً. وكان ذكياً فطناً بالأمور المشتبهة متعانياً منها. ولما مات ولي بعده ابنه المنذر بن محمد، بويع له بعد موت أبيه بثلاث ليالٍ، وأطاعه الناس وأحسن إليهم.

(٢) زيادة من مصادر ترجمته، وموضعها بالمخطوط بياض، ومصادر ترجمته هي: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٣) العقد الفريد (٤/ ٤٩٦) ابن القوطية (١١٩) جذوة المقتبس (١١) الحلة السيراء (٦٥) البيان المغرب (٢/ ١١٦)، بلغة الظرفاء (٣٢) وابن خلدون (٤/ ١٣٢) نفح الطيب (١/ ٣٥٢)، أخبار مجموعة (١٤٩)، الكامل في التاريخ (من سنة ٢٧٣: ٢٧٥). قال الذهبي في ترجمته في سير =

وتقدم بعهد أبيه، وكان بعيد الهمة، قوي الشكيمة، يكرم إخوانه ويحبهم، ويدني مجلسهم ويصلهم، ويحضرهم مجالس أنسه.

وكان يجزل العطاء للشعراء، وينشدونه غازياً وراجعاً.

من شعرائه أحمد بن عبد ربه.

والعكي، وغيرهما من شعراء العرب.

/ ولم يكن أحد من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وحزمه وعزمه، ولقد بلغ [١٣٦/أ] في ذلك في سنة ما لم يبلغه غيره في الدهر.

ولقد كان أبطال الرجال وأنجادهم من أهل الفتنة يذعنون إليه دون محنة ويهرعون إليه بالطاعة قبل أن يطلبها.

وأن المستفيض عن الشيوخ الذين أدركوا ذلك الزمان، وعن أهل التمييز بالحروب، أنه لو عاش المنذر عاماً واحداً زاهداً لم يبق بين يديه منافق.

وأخباره تدل على ذلك، وأول أخباره الدالة على ذلك، أنه لما أتاه موت أبيه لم يمنعه ذلك عن التفريح عن القصور، واقتصاد الطريق، ولا شغله مهم ولا أمر جليل عن آخر بجعل طريقه على ريبة، فهذب أمورها، ونظر في أسبابها، وولى عليها سليمان بن عبد الله بن أحصل، وعبد الرحمٰن بن جريش، وأدخل معهما أهل المعاقد من المغرب، والحشم ثم جمع في يوم واحد سائر جيشه، وأعطى عطائين للجنود، وأعمل النظر في ما أسقط عن الإرثة عن الرعية.

وما فعله من الاستحماد إلى قرطبة بإسقاط العشور عنهم.

والنظر في الندب وإخراج الفائد.

وهكذا كان فعله في جميع أسبابه.

وبادر لأول أمره لسجن هاشم بن عبد العزيز، وسبب ذلك: أن هاشماً كان يحسد لمكانه من الأمير محمد، وكان حُساده يسعون به عند المنذر حتى تنافرت النفوس، فلما مات الأمير محمد أراد المنذر أن يتبع به فعل أبيه، فولّاه الحجابة، ثم تمالأ عليه حُساده، وكثروا وحرفوا كلامه حتى نفذ قضاء الله وكان مفخر دولتهم، وزينة ملكهم، ونمى عنه أنه قال عند مواراة الأمير محمد قبره:

أُعَزي يا محمد عنك نفسي ... فعاد الله والمن الجسام

فهلا مات قوم لم يموتوا ... ودوفع عنك كأس الحِمَام

= الأعلام: كانت دولته سنتين، مات وهو يحاصر عمر بن حفصون رأس الخوارج بالأندلس وكان هذا بدوياً يجلب السمك بالأندلس فآل به الأمر إلى أن كثر جمعه واستولي على جماعة حصون.

فأغروا المنذر بكونه قصده، وصدرت عنه في نكبته أشعار ملاطفات لم تغن عنه.

ومن شعره في ذلك، ما كتب به لجارية له تسمى عاج:

وإنـي عـزانـي أن أزوك مـطـبـق ... وبـاب مـنـيـع بـالـحـديـد مضبب

فإن تعجبي يا عاج مما أصابني ... ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب

تركت رشاد الأمر إذ كنت قادراً ... عليه فلاقيت الذي كنت أرهب

هواكم قافل قال انج ويحك سالماً ... ففي الأرض عنهم مستزاد ومهرب

[١٣٦/ب] / فـقـلـت لـه إن الـفـرار مـذلـة ... وعفى على الأمر أحلى وأطيب

منا رضى ربكم الله......[١] ... وما من قضاء الله للعبد مهرب

إلى أن قتله رحمه الله.

ثم انصرف إلى محاربة عمر بن حفصون الثائر بمدينته، ونازله فلم تسع أيامه لما وراء ذلك بعد أن أحفظه وأضاق صدره وظهره على قواده.

فتحرك إليه، وقد افتتح القسم العظيم ألاّ يبرح من حصره حتى يتمكن منه أو يموت دونه.

وعظم ذلك على الناس وشق عليهم، فعسكرهم ببشير، وغير القدر الحتم ليمينه أحد الأمرين المقتضي الإملاء لابن حفصون.

فزعموا أن المنذر اعتل لأربعين يوماً من منازلته ابن حفصون والأخذ بمخنقه.

وبعث إلى قرطبة في أمان أخيه محمد ابنه ابن الأمير محمد لينوب عنه: إن اتصل مرضه، فلما وصله مات المنذر.

وتفرق العسكر، فلم يلو أحد على أحد وظهر ابن حفصون، وبرز إلى منازعة عبد الله ومن ثبت معه، فلم يسعه إلا أن رفع المنذر فوق جمل، وانصرف إلى قرطبة.

وعظم أمر ابن حفصون، فاستولى على معظم البلاد، ولم يبق بينه وبين دار الملك إلا مرحلة قصيرة بحصن بلاد من الكتابية.

وكانت وفاة المنذر يوم السبت من شهر صفر سنة خمس وسبعين ومائتين[٢].

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة، وبعد هذا البيت بيت لم أتبين قراءته.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٧٥): وفيها توفي في المحرم المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام الأموي صاحب الأندلس. وقيل: في صفر. وكانت ولايته سنة وإحدى عشر شهراً وعشرة أيام. فكان عمره نحواً من ستة وأربعين سنة، وكان أسمر، طويلاً، بوجهه أثر الجدري، جعداً، كث اللحية، وخلف ستة ذكور. وكان جواداً يصل الشعراء، ويحب الشعر.

دولة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[١]

كنيته: أبو محمد.

وكان رحمه الله مقتصداً في أموره من مطعم وملبس، شديد التواضع، متظاهراً بالبر والخشوع.

وذكره الإمام أبو محمد بن حزم فصرح بالحمل عليه وقال:

كان قتالاً تهون عليه الدماء مع ما كان يظهره من عفته، فإنه احتال على أخيه المنذر لما قَصَدَه بالعسكر، وأوطأ عليه حجاماً تسمّ المبضع الذي قصده به.

ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد واحد، وقتل أخاه القاسم ثالثهم، إلى من قتل من غيرهم.

قلت: والإمام أبو محمد في التجريح والتعديل حجة على قومه، ومنون الملك لا ينكر فيها أمثال هذه الطبائع، ومن عوفي فليحمد الله[٢].

وكان الأمير عبد الله ذا حظ من الشعر وحُسن التواقيع، اعتذر إليه بعض مماليكه يوماً فوقع على عذره:

إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك وتبين عن / باطن تنصلك، ولو بوت [١٢٧/أ] ندنك، واستغفرت لجرمك لكان أعتب لنا وأسد لستر العفو عنك.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٤)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٧)، جذوة المقتبس (١٢)، الكامل في التاريخ من سنة (٢٧٥: ٣٠٠)، الحلة السيراء (٦٥)، ابن خلدون (٤/ ١٣٢)، نفح الطيب (١/ ٣٥٢). قال الذهبي في سير الأعلام في ترجمته: أخو المنذر، تملك اندلس بعد أخيه، وامتدت أيامه وكان أسن من أخيه بعام، وكان ليناً وادعاً يحب العافية، فقام عليه من كل قطر من الأندلس متغلب، وتناقض أمر المروانية في دولته... وقال محمد بن وضاح: كان عبد الله الأمير من الصالحين المتقين العالمين. روى العلم الكثير، وطالع الرأي، وأبصر الحديث، وحفظ القرآن، وتفقه وأكثر الصوم، وكان يلتزم الصلوات في الجامع، فيمر بالصف فيقوم الناس له، فكتب إليه سعيد بن حُمير: أيها الإمام، أنت من المتقين، وإنما يقوم الناس لرب العالمين، فلا ترضى من رعيتك بغير الصواب فإن العزة لله جميعاً. فأمر العامة بترك ذلك، فلم ينتهوا، فحينئذ ابتنى طريقاً مشهوراً من قصره إلى المقصورة. قال اليسع بن حزم: استضعفت دولة بني أمية، وقام ابن حفصون وكان نصراني الأصل، فأسلم وتنصّح، وألب وحشد، وصارت الأندلس شعلة تضرم، ولم يبق لبني أمية منبر يخطب فيه إلا منبر قرطبة، والغارات تُشن عليها، حتى قام عبد الرحمٰن الناصر، فتراجع الأمر. ومات عبد الله في أول ربيع الأول سنة ثلاثمائة، وله اثنتان وسبعون سنة.

(٢) قلت: إذا ما يقوله ابن حزم كان عين الصواب وحقاً لا مرية فيه فكيف يكون هذا التناقض إذ كيف يكون الحاكم عادلاً ظالماً؟!.

فكتب إليه: إنما أنا بشر، وما يقوم لعذر.

فقال: فهلاً عليك ورويداً بك نقدت لك خدمة وتأخرت لك توبة، وما للذنب مجال بينهما وقد منعك الغفران.

ومن شعره:

يا مهجة العشاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أفضك

ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أبرعك

تذهب بالسر فتأتي به ... في مجلسين يخفى على من معك

كم حاجة أنجزت إمرارها ... تبارك الرحمٰن ما أطوعك

ومن قوله في الزهد:

يا من يرى بعث الأجل ... حتى متى يلهيك الأمل

حتى متى لا تخشى الردى ... وكأنه بك قد نزل

أغفلت عن طلب النجاة ... ولا نجاة لمن غفل

وتصيرت إليه الخلافة، وقد تحين النكث أطرافها، واقتسمها الثوار، وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلاّ الاسم فوق ظهر منبر قرطبة، والقليل من غيرها، وساءت الظنون. ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه؟

إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة وقد استولى على أعظم البلاد مثل: البيرة، ورية، وما إلى ذلك؟

أم لابن حجاج وقد استقل بإشبيلية، وقومونة، وما إلى ذلك؟

أم لعبد الرحمٰن بن مروان الجليقي ببطليوس؟

أم إلى عبد الملك بن أبي الجواد بباجة المغرب؟

أم لابن السليم بشدونة؟

أم لابن اليامي بالقلعة المسربة إليه؟

أم لحمير بن شاكر بشوخر؟

أم لعمر بن قصم الهروي؟

أم لسعيد بن مُذيل بحصن المشلون؟

أم لسعيد بن منتا بيهاغوا؟

أم لبني هابل بحصون جيان؟

أم لإسحاق بن عطاء بحصن متناهثة؟

أم لسعيد بن سليمان بن جودي بغرناطة؟

أم لمحمد بن أضحى كبير العرب بالبيرة؟

أم لأبي بكر بن يحيى بشنت مرية؟

أم لسليمان بن محمد الشدوني بشريش؟

أم لعبد الوهاب بمورين؟

أم ليحيى التجيبي الأنقر بسرقسطة؟

وإنما المعنى بذكر أسمائهم المتعددة، وهم بعض من كل، وقليل من كثير، لغرضين:

أحدهما: التأسي والتعزي حتى لا ينكر ملك أن ينازع أو يخرج عليه / أو تتفق [١٢٧/ب] تغدره وينكث بعهوده، وإذا تعين المستحق لأمر المسلمين أين يوجد؟ مثل من خرج عليه مولاً نسباً، ومذهباً، وشروطاً مستوفاة.

وقد ساعدهم رعاياهم وفقهاؤهم وعظماؤهم، فسيروا طواعية، وأقطارهم عظيمة ومعاصروهم جلة حتى اقتضوا الأيام التي حدّها الله لهم منطلقة ليومهم فيما كتب الله لهم أو عليهم من غي أو رشد.

والثاني: الاستراحة إلى حسن العقبى وما عود الله من كفاية من استكفاه.

فخرج بنفسه محتسباً إياه في سبيل الله، وقصد ببشتر واتسعت معايشها، وقفل فأعقبه ابن حفصون واستولى على استجة واسطبة.

وأخرج إليه الجيش، وألح عليه حتى اتقاه ابن حفصون لطلب الأمان.

ثم ضيق على قرطبة حتى خرج بنفسه إلى حصن بلي، وكان آخذاً بمخنقها دخلة وملكه. واحتشد ابن حفصون، وأقبل عليه في ثلاثين ألفاً فنصره الله وهزمه أقبح هزيمة. وصرف وجهه إلى ابن حجاج بإشبيلية فهادنه وعاقده وتقاضى العُمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومُعاهدة ونكثاً إلى أن عاد رونق الخلافة، وانقشع كثير من الظلماء.

وبغص عبد الله الدهر بما جرى به القدر من قتل ولديه، حسبما يتقرر في محله، ولا أوحش الله من دُنيا تطيب بعد قتل ولد ولو أن صحبتها إلى غير أمد.

وكانت وفاته في مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة وهو ابن ثنتين وسبعين سنة.

وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً[١].

دولة عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية[٢]

كنيته: أبو المطرف.

ولقبه: الناصر لدين الله.

وولي بعد جده إذ كان أبوه خالف من أبيه، وأغراه به المطرف أخوه حتى سجنه الأب، ثم قتله أخوه في السجن، وقتل عبد الله أبوهما المطرف قاتله.

وألقى الله على عبد الرحمٰن هذا الحفيد محبة من جده وشفقة، وأسكنه في مسكنه، وكان يخصه من دون بنيه، ويومي إليه ويرشحه لأمره، ويقعده في الأعياد والمواسم مقعد نفسه، ويأمر بالسلام عليه.

فتعلقت آمال الدولة به، ولم يشكوا بمصير الأمر إليه.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة ثلاثمائة في ذكر وفاة عبد الله بن محمد صاحب الأندلس، وولاية عبد الرحمٰن: وفيها توفي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي صاحب الأندلس في ربيع الأول، وكان عمره اثنتين وأربعين (كذا قال) وكان أبيض اللون، أصهب، أزرق، ربعة، يخضب بالسواد. وكانت ولايته خمساً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً. وخلف أحد عشر ولداً ذكراً، أحدهم محمد المقتول، قتله في حدٍّ من الحدود، وهو والد عبد الرحمٰن الناصر.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٥)، العقد الفريد (٤/ ٤٩٨)، جذوة المقتبس (١٣)، والكامل من سنة (٣٠٠: ٣٥٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ١٨٠)، الحلة السيراء (٩٩)، طبقات السبكي (٢/ ٢٣٠)، ابن خلدون (٤/ ١٣٧)، نفح الطيب (١/ ٣٥٣)، أزهار الرياض (٢/ ٢٥٧)، أخبار مجموعة (١٥٣)، غزوات العرب (١٦٧)، تراجم إسلامية (١٤٢). قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: سلطان الأندلس المدعو أمير المؤمنين، الناصر لدين الله، أبو المطرف الأموي المرواني. كان أبوه محمد ولي عهد والده عبد الله بن محمد، فقتله أخوه أبو القاسم المطرف، فقتله أبوهما به. ففي سنة سبع وسبعين ومائتي قتل محمد، وله سبع وعشرون سنة، وتأخر قتل المطرف إلى رمضان سنة ثمانين. ولما قتل محمد كان لعبد الرحمٰن هذا عشرون يوماً، وولي الخلافة بعد جده.

قال ابن حزم: كانت خلافته من المستطرف، لأنه كان شاباً وبالحضرة جماعة من أعمامه وأعمام أبيه، فلم يعترض معترض عليه، واستمر له الأمر وكان شهماً. وكل من تقدم من آبائه لم يتسم أحد منهم بإمرة المؤمنين، وإنما كانوا يخاطبون بالإمارة فقط، وفعل مثلهم عبد الرحمٰن إلى السنة السابعة والعشرين من ولايته، فلما بلغه ضعف الولاية بالعراق وظهور الشيعة العبيدية بالقيروان، رأى أنه أحق بإمرة المؤمنين، ولم يزل منذ ولي الأندلس يستنزل المتغلبين حتى صارت المملكة كلها في طاعته، وأكثر بلاد العدو، وأخاف ملوك الطوائف حوله.

فلما مات الجد أقعد محل سريره / دون ولده، وإخوته. [١٢٨/أ]

وتهيأ له ذلك من دون منازع لسُكناه بقصره.

وقيل: إنه يولي إليه مخافة إمارة على استخلافه.

فكان أول من بايعه أعمامه أبان، والعاصي، وعبد الرحمٰن، ومحمد، وتلاهم إخوة جدوده، ثم من سواهم، والله يؤتي ملكه من يشاء.

لا يضر الصغير حدثان بشيء ... إنما الشان في سعود الصغير

كم مقيم فازت يداه فغنم ... لم تنهكه بالركض كف مُغير

والناصر هذا هو الذروة العليا في ملوك بني أمية، طال عمره، واتسق سعده، واشتهرت أيامه، وبعد صيته، وانتشرت بالعدوة الغربية طاعته، وعلت على منابرها كلمته.

وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين، ثم اقتفاه من بعده، وذلك عندما ضعفت الدولة العباسية، وظهرت الدولة التركية، والديلمية، وكثرت الألقاب، وخطبت بذلك خطيبة أحمد بن بقي بن مخلد يوم الجمعة سنة ست عشرة وثلاثمائة.

قالوا: وولي الناصر لدين الله الأمور، والأندلس جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الآفاق، فسَكَّنها الله بسعده وعزة نقيبته، وكان يشبه بعبد الرحمٰن الداخل.

وهو الذي استنزل الثوار، وشيّد القصور، وغرس الغروس، وخلد الآثار، وأعظم في الكفر النكاية، فلم يبق عليه في الأندلس مخالف ولا نازعه منازع، ودخل الناس أفواجاً في طاعته، ورغبوا في مسالمته، وفي ذلك يقول شاعره ابن عبد ربه:

قد أوضح اللّه للإسلام منهاجا ... والناس قد دخلوا في دين اللّه أفواجا

وقد تزينت الدنيا لساكنها ... كأنما لبست وشياً وديباجا

وتحرك إلى كورة البيرة، واستنزل الثوار، ثم كرّ على ببشتر، وهي الدار العليا والداهية العظمى.

وأقام البناء وشرع في السكنى، فأذعن حفص بن عمر بن حفص المصير إليه أمرها بعد أبيه، وأخيه، وألفى بيده، فملكها رجاله يوم الخميس لسبع بقين من ذي القعدة من السنة، وكانت مدة بني حفصون أزيد من سبعين سنة.

وخاطبت الناصر البلاد: عندما أراحه الله من الغم القديم اللزيم المتعاقب بهم ابن حفصون، واستغلاق قلعة بربشتر عليه فعيّن المخاطبة بأمير المؤمنين، واللقب بناصر الدين، بما نصه:

[١٢٨/ب] أما بعد: فإن / أحق من استوفق وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به وأظهر أمرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسّر على أيدينا إدراكه، وسهل بناء دولتنا مرامه، والذي أعاد في الآفاق ذكرنا وعُلو أمرنا، وأغلق من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم للبقاء انتشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي النعمة والأنعام بما أنعم به وأجلّ الفضل ما تفضّل علينا به وقدّر لنا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا، وورودها كذلك، إذ كل مدعي هذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق ضيعناه واسم ثابت أسقطناه.

فأمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله.

إيجاز خبر عمر بن حفصون وبني حجاج

وعلى عهد الناصر لدين الله كان انقراض عهد عمر بن حفصون وولده.

وكانت مدة خلافته وفتنته اثنتين وخمسين سنة وستة أشهر.

وكان عُمر كبير الثوار بالأندلس وغصص الخلفاء بها.

وهو عمر بن حفصون بن جعفر الاسلافي، ظهر بنفسه ونجدته، وحدثان تلقاه في أمره وتحصن مدينة ببشتر من كورة رية، وأطاعه أكثر بلاد الموسطة بين رية، والخضراء، والبيرة، وأحواز قرطبة.

وأخرج الأمير محمد إليه الجيش لنظر وزيره هاشم بن عبد العزيز، فأمنه وأوصله إلى قرطبة مرفهاً عليه.

ثم استراب وفر إلى الجبل المذكور من المخالفة إلى شاقة سنة اثنتين وسبعين ومائتين[١].

وخرج المنذر بن محمد الأمير قصد إليه بالجيوش، وضيق به، واتصل بالمنذر وفاة أبيه، فعجل الرجوع إلى قرطبة، ولما قُرّر أمره خرج بنفسه إلى منازلة ابن حفصون، فنازله في قاسرة من عمل ريّة، وضيّق عليه حصاره، فلما اشتد عليه الأمر طلب الأمان لنفسه على النزول بأهله وولده إلى قرطبة، وشرط أن يدفع له مائة بغل يحمل عليها ثقله وأهله إلى قرطبة، وأن يفرج له.

فأسعف في ذلك، فقتل الغرباء الناظرين على البغال، وأخذها وقد انحل العسكر، وانصرف إلى ببشتر.

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٢٧٢) في هذا الخبر: وفيها سير صاحب الأندلس إلى ابن مروان الجليقي ـ وهو بحصن اشيرغره ـ فحصروه وضيقوا عليه، وسير جيشاً آخر إلى محاربة عمر بن حفصون بحصن بربشتر.

وقفل المنذر إلى قرطبة وشرع في الحركة إليه، وأقسم أن لا يفارقه أو يستأصل أثره، ونازله ببشتر كما تقدم ذكره.

فكانت وفاة المنذر مُحَاصِراً إياها، وولي بعده الأمير عبد الله أخوه، فعظم أمر ابن حفصون، وتغلب /عامل عبد الله على كورة رية واشتدت شوكته وظهر على [١/١٢٩] متوار، وأسر سعيد بن جودي أمير البيرة.

ووقعت المهادنة بينه وبين الأمير عبد الله، ثم انتقض وتملك حصن بلان وجيش ثلاثين ألفاً من أهل الكورة.

وبرز إليه الأمير عبد الله بنفسه في نحو شطر ذلك العدد، ففر عنه ابن حفصون، وفتح عبد الله حصن بلان سنة سبع وسبعين ومائتين.

ونازل مدينة استجة، فاستنزل منها رجال عمر.

ثم انتقل فنزل بظاهر ببشتر، ولم يتأت له في ابن حفصون غرض، فقفل إلى مدينة قرطبة عن محن كثيرة.

وجرت على ابن حفصون بأحواز البيرة هزيمة أثخن بها جراحاً، ولحق مغلولاً ببشتر. ثم قوى أمره بخلاف بني حجاج بإشبيلية واتصلت يده بهم، فعظمت غاراته وسراياه مورور، وشدونة، وقرمونة، وغيرها. ثم كبر أولاد عمر بن حفصون: أيوب، وجعفر.

واعتلّ عمر علّة شديدة، اتهم فيها أيوب ولده بالفتك به، فعاجله وقتله، والجيوش في كل حين تتوالى عليه، فتارة يستأمن، وتارة ينكث.

وأهلك الأندلس فتنة، وخاطب ملوك الشيعة بإفريقية أضداد الأموية، ووجهوا إليه رجلين ممن يعتقد مذهبهم بخلعات وخاطبوه بالحض على التزام طاعتهم، وإقامة دعوتهم، وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه.

وصرفهما ووجهت معهما هدية انتخبها إلى صاحبها.

ولما توطد لهذا العهد أمره أحضر أصحابه وعقد لولده جعفر العهد بعده، وكتب عليهم عقداً استخلفهم فيه.

واتصل به مرض الأمير عبد الله، فغلب لذلك على الحصن الذي على مدينة ببشتر، وقتل من به.

وبلغ ذلك الأمير عبد الله، فأغزاه ابنه أباناً سنة ثلاث وأربع وخمس وثمانين، فاشتد الأمر عليه، واستراب بأصحابه، فحذرهم وعوّل على النصارى، وتقلّد، زعموا دينهم دين آبائه.

ثم ولي الأمير عبد الرحمٰن بن محمد الناصر لدين الله، وصرفه إلى استنزال الثوار فرأى ابن حفصون من إقبال دولته وسعادة حركتها، فطلب أمانه، فسعفه الناصر وكتب له عهداً أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا، وارتهن عنده ولده عبد الرحمٰن بن محمد.

وغزا قواد الناصر بلاد النصارى غزوات حضرها ابن حفصون.

ثم توفي عمر في سنة ست وثلاثمائة. وولي أمره ولده جعفر بن عمر.

[١٢٩/ب] وزعموا أنه شهر دين النصارى، وانفرد، فواراه أبيه مع القسيسين حتى دفنوه / على سنة دينهم.

وذهب جعفر مذهب أبيه في العناد، ودين الأشرار للقطع بالمطرقات.

فأعذر إليه الناصر، ثم غزاه بنفسه، فافتتح حصن بلده عنوة، وقتل مقدم جعفر، واستباح أهل الحصن قتلاً، وأسراً، وخالف على جعفر أخواه: عبد الرحمٰن، وحفص.

وضاق أمره، واختلت حاله، وقام عليه طائفة من خاصته، فقتل.

فكانت مدته ثلاث سنين وثلاثة أشهر، واستدعى قتلته إخوته سليمان وحفصاً، سبق سليمان إلى ببشتر واستولى على أمر والده، واستأمن إلى الناصر، وخطب طاعته، فسالمه إلى أن تمكن وعلا قدره فنكث وشن الغارات.

فأخرج الناصر القواد إلى مضايقته، وبنى على طرش من حصونه، ولم تطل مدة سلمه إلى أن نكث ودخل مدينة المنكب عنوة، فقتل جميع أهلها وسبى نساءهم. فخرج الناصر إلى منازلته وضيق به، وفتح الكثير من جهانة، ثم قفل وقد اختلفت كلمة أصحاب سليمان بن عمر بن حفصون، فرصدوه حتى إذا خرج يوماً إلى مطالعة بعض حصونه أعلنوا بخلعه، وخاطبوا القومس كبير النصارى المعاهدين عامل الناصر بتلك الجهة فلحق بهم.

فبينما هو يروض الجهلة في استدعاء قائد الناصر، إذ لحق سليمان مستبسلاً، وقد أضاعوا الحزم في ضبط المدينة فدخلها متنكراً متلثماً يحمل حريمه، وتلاحق به أصحابه.

ففر الأسقف وجعل سليمان السيف على من اتهمه.

ثم ضاقت حاله، فكتب إلى عبد الرحمٰن الناصر يطلب الأمان والسلم، فأجابه إلى ذلك وكتب له عهده، فلما تأثل نكث وعاود الغدر.

فوالى عليه عبد الرحمٰن الجيوش والحشم وأردف القواد حتى توالت عليه الوقائع، وتبين إدباره، فأطاع جملة من معاقله وقطعت عن ببشتر الميرة، والمرافق،

إلى أن وقعت على سليمان الهزيمة بأحواز شنت فجت وكبى به فرسه فقتل.

وولي بعده أخوه حفص ملكه أهل القلعة أمرهم.

وخرج إليه الناصر سنة خمس عشرة وثلاثمائة فافتتح مدينة الجش من طاعة حفص، ونازله ببشتر، وابتنى بجوارها حصن خليدة وتخلف فيه الوزير ابن المنذر.

فأذعن إلى التسليم فلم يجب إلاَّ على الخروج، فتم ذلك بعد عناء كبير سنة ست عشرة وثلاثمائة، ووصلوا بجمعهم إلى قرطبة.

وتوسع إلى حفص في إنزال واسع وإتحاف شريف.

وغزا مع عبد الرحمٰن الناصر إلى جليقية، وأحنى بين يديه إلى أن مات بوات الحجارة سنة كذا / وعشرين وثلاثمائة. [١٢٠/أ]

وانفض أمر بني حفصون إلى هذا الحد، ولا بد لكل أول من آخر، فسبحان من له البقاء.

ذكر شيء من أخبار بني حجاج

وكان هذا البيت من بني حجاج بيت رئاسة وظفور بإشبيلية، وآخر بيوتات النباهة الدينية بيت بني حجاج هذا، وبيت بني عبادويه، وبيت بني خلدون، وبيت بني الحكم المستقر عقبهم الآن بدندة حسبما ذكر لي أبو بكر ابن الوزير أبي عبد الله منهم.

وأدركت من بيوتات بني حجاج بمالقة أمين العطارين بها يخبر بشرف هذا البيت وأنهم استبدوا بحضرة إشبيلية عن بني أمية بحيث كانوا يقدمون قاضي الجماعة من مدينتهم ولا يرجعون في شيء من أمرها إلى صاحب الدعوة المروانية.

وكان إبراهيم كبير هذا البيت لما كشف الوجه في الخلاف هادن الأمير عبد الله بن محمد على أن يوليه ببلده، ولا يعرض له، فرضي منه بذلك وفعل.

فجبى الأموال واصطنع الرجال وارتقى في درج الجلال، وكان رئيساً ضخماً، بعيد الهمة، حسن الآثار، جميل الذكر.

ولم يزل يتبسط على الأمير عبد الله حتى ساء ما بينهما، فأظهر الخلاف ومالأ بجاره ابن حفصون، وعظمت نكايتهما إلى أن هلك إبراهيم، وحاله حال الملوك فصافاً وإنعاماً، وكان يضاهي الملوك، ويقصده الشعراء، وفيه يقول ابن عبد ربه قصيدته التي أولها:

كتاب الشوق يطويه الفؤاد ... ومن فيض الدموع له مداد

وكان مهلكه في عام ثمانية وثمانين ومائتين.

وولي بعده ولده عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن حجاج، فطالت مدته إلى سنة أحد وثلاثمائة وكان أخوه محمد بن إبراهيم بن حجاج بمدينة قرمونة قد أقام أيضاً رسماً كبيراً من الفضل زاد به على شهرة أبيه وجلالته.

ولما توفي عبد الرحمٰن جعل أهل إشبيلية الأمر لأحمد بن مسلمة من بني حجاج، وصرفوه عن محمد صاحب قرمونة، فناصبهم الحرب.

وأعطى الناصر الطاعة، وقد صار إليه الأمر وأمده بالجيش، فضيق على إشبيلية، وأقام إقليم الشرق منها.

ولما رأى ابن مسلمة ما لا يطيقه داخل الناصر لدين الله في سر من الأمر، ومكن الناصر من إشبيلية.

ولما علم محمد ذلك أنكر كتم الأمر عنه، فخالف الناصر، وأغار على الأحواز القرطبية. وما زال الناصر يؤنسه ويماني له إلى أن أجابه إلى سكنى قرطبة حضرته على أن يترك بقرمونة بلده نائباً عنه، فكان ذلك في / رمضان من عام أحد وثلاثمائة. [١٣٠/ب]

ووصل قرطبة في رجاله وقومه، فأجرى الناصر عليه وقرّبه من نفسه، وولاّه الوزارة منوهاً به رفيع القدر.

وخرج للغزاة، فأغزاه معه وزيراً.

ثم امتنعت عليه مرقونة، فحاصرها مع السلطان إلى أن طرقته في أمورها التهمة، فعزل عن الوزارة وحبس، ثم اغتبه، ولم تطل مدته أن هلك في شوال سنة اثنتين وثلاثمائة.

وانقضت أيام بني الحجاج، والثوار في دول بني أمية متعددون شقيت بهم الملوك، وتنغصت بهم الخلفاء، واضطروا إلى مسالمتهم تارة ومحاربتهم أخرى، وجعلوا رسم الوفا، عاهدوا منهم سياسة لولاها لجل الخطب ولم يخلص الملك.

والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه:

الأول: منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم.

الثاني: علو الهمم وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الانقياد لبعض.

الثالث: الاستناد عند الضيعة، والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض، فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج في أمورهم يؤدي إلى المطاولة، وفيها فساد الأموال وتعذر

الجباية وتعريض الجيوش إلى الاقتتال، وأولياء الدولة إلى القتل، ولا تقوم الشرور بغلبة الثائر بما يوازنه من نزحة هذه الأمور.

وسياسة الثوار والناقمين، قد أكثر أرباب السياسة القول فيها من الفرس ويونان والترك وغيرهم، حسبما نبين في كتاب «رسالة الفلك من سياسة الملك» إن شاء الله. فلا يزالون يسعون في حُسن التأني لهم المُرّ ويتحملون المشاق.

وكان الأمير عبد الرحمٰن مبرزاً في ذلك مع مُعين البخت والإقبال، فهادن طائفة وارتهن أخرى، واستنزل إلى حضرته أخرى، وغلب بالسيف أخرى، فاستأثر من بين قومه بالمروءة وحلو الشمائل من المرح، وتهنأ مخول الملك.

وهذا الكتاب كتاب لمع وإشارات إن أطلقنا فيه العنان خرجنا عن الغرض. ثم أن الله ابتلاه ومحصه بالوقيعة الشهيرة التي أوقعه بها عدو الله ردمير على ردون يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة[١] من باب مدينة شنترين بلنكش من بلاد الروم بعد قتال أيام / جالت فيه المغالبة بين الفريقين [١٣١/أ] بأشد ما يكون وأصعبه.

وكانت للعدو الكرة، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله، وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر لدين الله حشدته ما شاء الله له من الصنع ولم تناصحه في الحرب حق النصح، فجالت ثانية اللاعنة واختل مصاف القتال، وألجأ العدو المسلمين إلى خندق بعيد المنون، إليه تنسب الوقيعة، فتساقط فيه الناس حتى ساروا بين حافتيه وانكشف الناصر، وأسلم محلاته، فاستولى عليها العدو بما فيها من عدة وغير ذلك، وضاع فيها مصحفه ودرعه وكان لا قيمة لهما[٢].

إلى أن استرد ذلك في أيام، ولما خلص من المعركة وجه طائفة من أنجاد

---

(١) ذكر الوقعة ابن الأثير في الكامل في هذا التاريخ فقال: وفي هذه السنة عصى أمية بن إسحاق بمدينة سنترين على عبد الرحمٰن الأموي صاحب الأندلس، وسبب ذلك أنه كان له أخ اسمه أحمد وكان وزيراً لعبد الرحمٰن فقتله عبد الرحمٰن، وكان أمية بشنترين. فلما بلغه ذلك عصى فيها والتجأ إلى ردمير ملك الجلالقة، ودله على عورات المسلمين. ثم خرج أمية في بعض الأيام يتصيد فمنعه أصحابه من دخول البلد، فسار إلى ردمير فاستوزره. وغزا عبد الرحمٰن بلاد الجلالقة، فالتقى هو وردمير هذه السنة، فانهزمت الجلالقة، وقتل منهم خلق كثير، وحصرهم عبد الرحمٰن. ثم إن الجلالقة خرجوا عليه وظفروا به وبالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. وأراد اتباعهم فمنعهم أمية وخوفه المسلمين ورغبه في الخزائن، والغنيمة. وعاد عبد الرحمٰن بعد هذه الوقعة جهز الجيوش إلى بلاد الجلالقة فألحوا عليهم بالغارات، وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين، ثم إن أمية استأمن إلى عبد الرحمٰن، فأكرمه.

(٢) أي لا تقدر لهما قيمة من المال نظراً لقيمتهم العالية عديمة النظير والمثيل.

خدمته سبقت الناس إلى قرطبة فبشرت بسلامته وأنفذت أمره باتخاذ الخشب والمصالب على ضفة نهرها لحين وصوله تقبص على ما يناهز ثلاثمائة من الفرسان، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم: هذا جزاء من غش الإسلام وكاد أهله وأدخل بمصاف الجهاد.

فرفعوا بها، وبادرتهم الرماح بمرأى من الناس.

ودخل إلى قصره، ومن لدن هذه الغزاة لم يباشر الغزو بنفسه، وصنع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم ما لم يصنعه لأحد بعده قبله. وتوالت عليه بعد ذلك الفتوح، وأذعنت الأعداء، وقدمت عليه رسل الملوك بالعدوة الغربية من زناتة، والأدارسة، والقيروان، وجزائر بني قزقنا.

ووصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى راغباً منه في إيقاع المؤالفة، فعقد له المعقد الشهير الذي لم يتهيأ مثله لملك قبله، فدخل الرسول عليه وقد بهت لهول ما عاينه، ودفع إليه رسالته مودعة في درج ذهب كثير التصاوير، وكان الكتب في رق سماوي اللون مكتوباً بالذهب وعليه طابع ذهب أحد وجهيه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين.

وتمهد مُلك الناصر، وعظم أمره، وبلغت الغاية مبانيه، فزاد في المسجد الأعظم الزيادة الهائلة، وبنى المنار الأعظم بقرطبة وجعل أعلى ذروته ثلاث رمانات تخطف الأبصار بالتماعها، اثنتان منها ذهب وواحدة فضة طوف كل رمانة فيها قنطار من الذهب، ودور إحداها ثلاثة أذرع ونصف.

وهو الذي ابتنى الزهراء، ابتدأ بناءها في أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وكان يضرب فيها من الصخر المنحور / العريض الضخم كل يوم خمسة آلاف صخرة [١٣١/ب] سوى صخر البليط والتأسيس، وجلب إليها الرخام حتى من تونس وقرطاجنة إفريقية.

وجلب إليها من سَوَارِ في الرخام أربع آلاف وثلاثمائة سارية، وأربعاً وعشرين سارية، وجلب إليها الروم على يد ربيع الأسقفي حوضاً منقوشاً بالذهب ينقل هيناً من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر ورفع منه إلى البلدة، فكان عبرة لمتأمله، وجلب إليه أحمد بن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً فيه تماثيل لا قيمة لها، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وكان عليه اثنتا عشرة تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس العالي.

وذكر المُخبر: أن قوت الحيتان في بِرْكات قصوره بلغت كل يوم اثنتي عشرة ألف خُبزة.

وكانت همته في البناء طامحة فوق همم الملوك.

وكانت جبايته مقسومة ثلاثة أقسام:

قسم للجند.

وقسم للبناء.

وقسم مدخر للضرائر.

وحكى صاحب طبقات القضاة:

أن الناصر لدين الله اتخذ ينضح القبة المائلة على الضريح المرد المشهور متانة بالزهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالاً جسيماً، وقد مدّ سقفها بماء صفراء فاقعة إلى بيضاء ناصعة مستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعشعة وجلس فيها إثر تمامها لا يمل مملكته. فقال لوزرائه وخاصته يفتخر بما صنعه وما يتصل به من البدائع:

هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي جعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟

فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنك أوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتمى إلينا خبره.

فأبهجة قولهم وسَرّه جداً.

فبينا هو كذلك تضحك أسارير وجهه إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد[1]، واجماً ناكساً.

---

(١) هو منذر بن سعيد أبو الحكم البلوطي الأندلسي، قاضي الجماعة بقرطبة، ينسب إلى قبيلة يقال لها: كُزْنَة، وهو من موضع قريب من قرطبة يقال له: فحص البَلّوط. كان فقيهاً محققاً وخطيباً بليغاً مفوهاً، له اليوم المشهور الذي ملأ فيه الآذان وبهر العقول، وذلك أن المستنصر بالله كان مشغوناً بأبي علي القالي يؤهله لكل مهم، فلما ورد رسول الروم أمره أن يقوم خطيباً على العادة الجارية، فلما شاهد أبو علي الجمع العظيم جبن فلم تحمله رجلاه، ولا ساعده لسانه. وفطن له منذر بن سعيد، فوثب في الحال، وقام مقامه، وارتجل خطبة بديعة فأبهت الخلق، وأنشد في آخرها لنفسه:

هذا المقال الذي ما عابه فندُ ... لكن صاحبه أزرى به البلدُ

لو كنت فيهم غريباً كنت مُطرَفاً ... لكنني منهم فاغتالني النكدُ

لولا الخلافة أبقى اللّه بهجتها ... ما كنت أبقى بأرض ما بها أحدُ

فاستحسنوا ذلك، وصلب الرسول، وقال: هذا كبش رجال الدولة.

ومن تصانيفه كتاب: الإنباه عن الأحكام من كتاب الله، وكتاب الإبانة عن حقائق أصول الديانة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٣)، من مصادر ترجمته: طبقات النحويين واللغويين (٣١٩)، تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٤٤)، جذوة المقتبس (٣٤٨)، فهرست ابن خير (٥٤)، بغية الملتمس (٤٦٥)، معجم الأدباء (١٩/ ١٧٤)، معجم البلدان (١/ ٤٩٢)، إنباه الرواة (٣/ ٣٢٥)، اللباب (١/ ١٧٦)، =

فلما أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه.

قال: فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أنك تمكّنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين.

قال: فاقشعر عبد الله الناصر لدين الله، وقال: انظر ما تقول، كيف أنزلني منازلهم؟

فقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا﴾ [الزخرُف: الآية ٣٣] الآية؟

[١/١٣٢] قال: فوجم الناصر لدين الله / ونكس رأسه مليّاً ودموعه تنحدر على لحيته خشوعاً لله تعالى، وتذمماً ما أجرى إليه. ثم أقبل منذر بن سعيد فقال: جزاك الله عنا وعن نفسك خيراً وعن المسلمين والإسلام خير الجزاء، وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق.

وقام من مجلسه ذلك يستغفر الله، وأمر بنقض سقف القبة، وإعادة قراميدها تراباً على غير تلك الصفة.

ثم طوّف الناصر ما طرف، وجده، فأنفذ قتل ولده عبد الله، وقد بلغه أن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة، وكان أهلاً لذلك فضلاً وعلماً وبصراً بالفنون، وذلك سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة.

وكان الناصر شديد الجرأة على الدماء، مرهوب السطوة، ثقيل العِقاب والسخطة.

حدث شرطية أنه استودع للقصر ليلاً فأمره بضرب عنق جارية لا نظير لها في الدنيا، وهي تسترحمه فلا يرحمها، قال: وسمعت للسيف في عنقها صوتاً لم أعلم ما هو، فلما ضممت عليها النطع وخرجت بها إلى الحفرة ألفيت عقداً قد سقط في النطع لا قيمة له في الدنيا، ورجعت فأعلمته.

فقال: اذهب به فهو لك.

ومن آثاره التي ضُربت بها الأمثال وقُضيت فيها العجائب

حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكساء وملابس الحرم وغير

= العبر (٢/ ٣٠٢)، تلخيص ابن مكتوم (٢٥٦)، البداية والنهاية (١١/ ٢٨٨)، تاريخ قضاة الأندلس (٦٦)، البلغة في تاريخ أئمة اللغة (٢٦٤)، بغية الوعاة (٢/ ٣٠١)، نفح الطيب (١/ ٣٧٢)، شذرات الذهب (٣/ ١٧).

ذلك. فقد كان على عهده مدينة تشتمل على آلاف من الخلق قد اتخذت فيها المرافق، والمساجد، والحمام، والشُرف، ولو تتبعنا أصنافهم، وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم وينافسون به المشرق من بضائعهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب.

وتوفي رحمه الله يوم الأربعاء لاثنتين خلت من رمضان سنة خمس وثلاثمائة.

فكانت أيام ولايته خمس سنين وستة أشهر وثلاثة أيام، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وقال ابن الفرضي: وجد في تاريخه بخط يده أيام السرور التي صفت لي من غير تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا.

وكرر التواريخ فعدت، فكل ما وجد منها أربعة عشر يوماً بطول خمسين سنة ونصف.

وهكذا حال الدنيا لمن اعتبرها وموازينها لمن اختبرها.

ومن شعر كاتبه جعفر بن عمار المصحفي في ندبته:

ألا إن أياماً بيعت بإمامها لجائرة مشتطة في احتكامها

فلم تفطم الدنيا عظام خطوبها وما أحداثها إلاّ قلوب عظامها

/تأمل قبلاً من طالع صغير أفِلِ لمن وصل من قاعد لقيامها [١٣٢/ب]

...............(١) من الناس ألا يمت لعظامها

كأن نفوس الناس كا...(٢) فلما توارى أيقنت بحسابها

بطارقها يأمن الأمن وتفاخرت بحد الصبر عن أحوالها والتدامها

وكان عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء لحين وفاته ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمس.

يجري على الجميع اللحم والخبز والطير والحيتان وغير ذلك من ضروب المؤتدمات وضروريات الديار والجاريات.

وقد كان عهد بالأمر بعده لولده الحكم، وهو طفل صغير من ثماني سنين أو نحوها، بحيث لو هلك لنصب بعده في مكانه حسبما اقتضاه، ما أخذه على الناس من العهد بذلك، واقتضاه من الأيمان الغليظة المحرجة بأن من يأخذ العهد لولده من الملوك.

---

(١) و(٢) موضع النقط شطر غير ظاهر بالمخطوط.

إلا أن عمره امتد إلى أن كان يوم تصيير الأمر إليه بعده في سن الكهولة. فالحَكَم رحمه الله بهذا الاعتبار ممن اشترطنا ذكره ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وكفى بذلك وبحال ابنه المؤيد هشام بعده، أي سائل أراد الاقتداء بذلك واختار الاعتداد به. رحمة الله عليهم أجمعين.

دولة المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله(١)

بويع الحكم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بعد موت أبيه تجديداً لعهده لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمسين وثلاثمائة.

وكان رحمه الله عالماً، فقيهاً بالمذاهب، إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر أوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان في ذلك حجة وقدوة وأصلاً يوقف عنده.

وفي أيامه سكتت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة، واستظهاره على الثوار بحسن السيرة، وطول العمر، ومساعدة الأيام.

وفي أيامه ظهرت المجوس المجلبة على المسلمين من بحر الخوف، فتحرك إلى المرية وقد حصر وأحض القبطة من حصونها فأوقع بهم.

وأنشأ الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن بين غزوي وغيره.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٩)، جمهرة الأنساب (٩٢)، جذوة المقتبس (١٣)، الكامل من سنة (٣٥٠:٣٦٦)، ابن خلدون (٤/ ١٤٤)، نفح الطيب (١/ ٣٨٢)، أزهار الرياض (٢/ ٢٨٦). قال الذهبي في سير الأعلام: كان حسن السيرة، جامعاً للعلم، مُكرماً للأفاضل، كبير القدر ذا نهمة مفرطة في العلم والفضائل، عاكفاً على المطالعة، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الملوك لا قبله ولا بعده، وتطلّبها وبذل في أثمانها الأموال، واشتريت له من البلاد البعيدة بأغلى الأثمان. مع صفاء السريرة، والعقل، والكرم، وتقريب العلماء. . .
ولقد ضاقت خزائنه بالكتب إلى أن صارت إليه، وآثرها على لذات الملوك، فغزر علمه، ودق نظره، وكان له يد بيضاء في معرفة الرجال، والأنساب، والأخبار، وقلما تجد له كتاباً إلاَّ وله فيه قراءة أو نظر من أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف، ومولده ووفاته، ويأتي في ذلك بغرائب لا تكاد توجد. ومن محاسنه أنه شدد في مملكته في إبطال الخمور تشديداً عظيماً. وكان أخوه محمد انموذجاً في محبة العلم، فقتل في أيام أبيه. وكان المستنصر موثقاً فيما ينقله. ذكره ابن الأبّار في تاريخه وقال: عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه.
مولده في سنة اثنتين وثلاثمائة. قال اليسع بن حزم: كان الحكم عالماً راوية للحديث فطناً ورعاً. . وكان موته بالفالج في صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وخلف ولداً وهو هشام، فأقيم في الخلافة بتدبير الوزير ابن أبي عامر القحطاني.

وفي سنة اثنتين وخمسين غزا الروم ففتح مدناً جليلة.

وهو الذي بنى الزيادة بالمسجد الأعظم وزينه / بالفسيفساء المجتلبة من قِبل [١٣٢/أ] ملك القسطنطينية مع الصناع المتمكنين من ذلك محاذياً بفعله ما فعله الوليد بن عبد الملك بمسجد دمشق، ففاق خدمه. . .[١] إلى أن كمل ما أراده.

وورد عليه أرسال ملوك البلاد، وجبابرة العباد، وألقت الأقطار إليه بالمقاليد ونجعت بالطاعة.

وورد عليه جعفر بن علي، وأخوه يحيى ملك الزاب الذي يمدح محمد بن هاني الشاعر بالقصيدة الشهيرة التي أولها:

ألـيـتـك إذا أرسـلـت وارداً وجـفـا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

فاحتفل لتلقيه وكان يوماً مشهوداً بالأندلس.

وفي سنة ثلاث وستين افتتح غالب مملوكه مدينة البصرة من أحواز أصيلا، وقفل إلى الحضرة، وقد استنزل ملوك الأدارسة الحسينيين.

وأخبار الحكم رحمه الله متميزة، وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية والحسنات الراقية، وولد له هشام ابنه في سن الكبر فعظم استبشاره به وسروره فوهبه الله فيه حدث عبادة لابن عبد الله.

قال: بُشر الخليفة الحكم يوماً في خلوته باشتمال جاريته صبح على حمل، وكان جعفر بن عثمان المصحفي بين يديه، فأنشده بديهة:

هـنـيـئـاً لـلإمـام ولـلأنـام ... كـريـم يـسـتـفـيـد عـلـى كـريـم

مُـرجّـاً لـلـخـلافـة وهـو مـاء ... ومـأمـول لآمـالٍ كـرام

أضـاء عـلـى كـريـمـتـه ضـيـاء ... فلم تعلم بعلم مشيئة الظلام

ولِـمَ لا يـسـتـضـاء بـجـانـبـيـهـا ... وبـيـن ضـلـوعـهـا بـدر الـتـمـام

قال: فولدت صبح من هذا الحمل هشام بن الحكم.

واتفق أن حضر جعفر عند الخليفة عندما أتاه البشير بولادته، فقال في ذلك:

طـلـع الـبـدر مـن سـحـابـه ... وأطـرق الـسـيـف مـن قـرابـه

وجـاءنـا وارث الـمـعـالـي ... لـيـثـبـت الـمـلـك فـي نـصـابـه

بُـشـرنـا بـسـيـد الـبـرايـا ... بـنـعـمـة الـلّـه فـي كـتـابـه

فـلـو مـنـحـت الـبـشـيـر عُـمـري ... لـكـان نـزراً لـمـن أتـى بـه

---

(١) عبارة مطموسة بالمخطوط.

وتوفي الحكم ليلة الأحد لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وعمره نحو من ثلاث / وستين سنة وأربعة أشهر. [١٣٢/ب]

دولة هشام المؤيد بن الحكم

هو هشام بن الحكم بن عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية(١).

ولما توفي الحكم المستنصر بالله بويع ولده ولي عهده هشام الملقب بالمؤيد بالله، والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدرك بحمائلها الجنى، وبلغ طورها، وانتهى دورها، فكانت كهامة، ثم زهرة بسامة، ثم ثمرة بهية، ثم فاكهة شهية، تؤكل بكرسي العامرية محلاها، ثم تلاها ما تلاها، وأرخص الحُطُوط أعلاها، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه، والملك تعوذ بالله أن لا يصيبه ما يعاينه، والمباني قد بلغت السماء سمواً، وزاحمت الكواكب علواً، والبلاء قد بلغ فيها إلى قاصي الاهتمام، وفرغت بُناتها من لَبِنَاتِ التمام، والآثار الصالحة مخارب، والمنابر الواضحة قد تعددت، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت، ورسم الخلافة قد أمحى، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى، والمصر قد خرج في العمارة عن المعتاد، وظهور الرياء والوهاد متزاحمة بجيوش الجهاد، والصنائع تجل والفتوحات من فوق المنابر تسل، والقرابة تضيق عن أعدادهم مجالس الملك ويقصر عن انتظام لياليهم الثمينة درع ذلك السلك.

---

(١) من مصادر ترجمته: الكامل في التاريخ من سنة (٣٦٦: ٤٠٣)، جذوة المقتبس (١٧)، النبراس (٢٢)، البيان المغرب (٢/ ٢٥٣)، ابن خلدون (٤/ ١٤٧)، نفح الطيب (١/ ١٨٧)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٧١)، بغية الملتمس (٢١)، المغرب في حلي المغرب (١/ ١٩٣)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٣).

قال الذهبي في سير الأعلام الموضع الثاني: صاحب الأندلس، بايعوه صبياً، فقام بتشييد الدولة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، فكان من رجال الدهر رأياً وحزماً ودهاء وشجاعة وإقداماً ـ أعني الحاجب ـ فعمد أول تغلبه إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها بمحضر من العلماء، وأمر بإبراز ما فيها من تصانيف الأوائل والفلاسفة، حاشا كتب الطب والحساب، وأمر بإحراقها، فأحرقت، وطمر بعضها، ففعل ذلك تحبباً إلى العوام، وتقبيحاً لمذهب الحكم.

ولم يزل المؤيد بالله هشام غائباً عن الناس لا يظهر ولا يُنَفِّذ أمراً. وقال الذهبي أيضاً في نفس الكتاب في الموضع الأول: الأموي الأندلسي أبو الوليد، ولي الأمر بعد والده وطالت أيامه، مولده بمدينة الزهراء في جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين، وبويع وله اثنا عشر عاماً بإشارة الدولة وقام بتدبير الخلافة المنصور محمد بن أبي عامر، واستبد بالأمر، فقبض أول شيء على عمه المغيرة بن الناصر. وكان هشام العاشر من ملوك بني أمية بالأندلس، وكان ضعيف الرأي، أخرق، محجوراً عليه، فكان صورة، وكان المنصور هو الكل، فساس المملكة أتمّ سياسة وغزا عدة غزوات ضخام.

ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول، وبني الأعمام الفحول أسود الهياج وغيوث المحول، وهشام يومئذ صبي يناهز عشر سنين مع ضعف في الأصل، وعدو في الخصل، والكل على علم من أنه لم يبلغ الحلم.

وحكى القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله: أن الحكم أباه لما وضع سريره للصلاة عليه قيل لجعفر بن عثمان: من يصلي على أمير المؤمنين؟

قال: ومن يصلي عليه إلا أمير المؤمنين ولده؟!

فتقدم هشام، وتقدم بارزاً عن صف الناس القاضي أبو العباس بن ذكوان ناوياً الإمامة لصغر هشام عن هذه الوظائف، وخلفه من أعلام مشيخة العلم والدين والشهرة والصلابة في الحق أمة لم يشتمل العراق عليها أيام احتفاله ووفور رجاله، ما منهم إلا عالم بسنه ومولده، ومحله من /الاضطلاع بأمورهم، والاستقلال بأعباء ما [١/١٣٤] نحلوه وأعطوه صفقات أيمانهم من بيعته، والقوم لا يؤتون من جهل ولا يهدون إلى سلوك سبيل مستقيم ما لم يؤمن ذلك.

وأخذ على الناس العقود به أياماً تباعاً حتى كمل الغرض، وتم ذلك الواجب المفترض، وكان الناس، لا بل وفي كل زمان أربعة:

فصنف همه الدنيا التي ينالها بسبب الولد بالغاً أو مراهقاً أو طفلاً في المهد، وجنيناً في المشيمة، وهم صنائع الحكم وخُدامه وعماله وفتيانه ورجاله، وكل ذي علاقة به ممن يحسب نفسه أجنبياً عن خليفة غيره إن لم يُعد عدواً تطرق الظن إلى ماله ونفسه.

وهذا الصنف بحر زاخر، وللحصا والقطر مكاثر، ويضاف إليه كل ذي علاقة قديمة سالفة أو حديثة ناشئة تنسب إلى النائب عنه وهو مُسْتَكْثِر من الأولياء لضرورة ما تحمله، والاستظهار على ما دخل فيه وهم أيضاً بحدثان وهول لا يثنيه ثانٍ.

وصنف مرتق من الديوان، مشهور العناية والمكان، أو مجهول الشأن، راضٍ بحظه من الزمان، لا يتشوف إلى المزيد، ولا يحذر من النقصان، قد تساوت في الدولة أحواله، وسكنت إلى الرزق المفروض آماله، فإن تعين الطفل أو الكهل لم تلحقه بازاء هذا مزية، ولا يقد لأجل هذا، حاله سنية، فهو هادن ساكن، وإلى فئة العافية راكن.

وصنف يزيل أمراً، ويشب إن قدر جمراً، ويرجو من القرابة الراجحة زيداً وعمراً، ومستحى يأسف لما خرج عن يده أو يعتقد الظلم فيمن عدل عنه إلى محل ولده، مستوحش يبخس حقه، وجحد سيفه، ولا يعلم حال الدنيا فيمن ادعى الاستحقاق، وفرض الوفاق، وإن حذا قياس فصح الأول والآخر، والغائب

والحاضر، وقطع الأعناق، وسحت الأرزاق، واكتسب النار، وأعقب الخسار وما تلبست الأيدي بشيء، ولا حصلت إلاّ على ظل وفيء، وقد جرت بذلك الأمثال المضروبة، والأقوال المشهورة كما قال امرىء القيس المجنون وقد خسر على ليلى حتى عقله ومسكنه، وذهب بها إلى رحله من تمتع بها بما خُرِم:

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ذاك ابتلانيا

وقال آخر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

[١٣٤/ب] / وقال آخر:

رب ساع لقاعدُ واسلمي أم خالد

لا بل سبحان الله الذي يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٢٦، ٢٧].

إن الحظوظ قد كتبت، والأمور قد أبرمت، والفلك قد سخر، والقَدَر قد قُدِّر، والنجوم قد أُمرت، والأحوال قد قُرِّرَت، والمواليد قد سُميت، والغيوب قد أُبهمت، وهذا الصنف المنازع المنافس بين أن يصمت فيموت بدائه أو يجهر بالمنازعة فينْتَهي إلى قدر الله وقضائه.

وكان في ذلك الوقت أضعف الأصناف لاستحكام الصبغة الحكمية التي لا تبالي ممن تقادم، ولا تظن عند الحكم أو الناصر كان آدم، فلم تسعهم يومئذ المجاملة، وجدت على الرضى المعاملة، وأسمع الدعاء والإطراء وأعمل الشكوى والإبراء.

وصنف من أهل الدنيا والآخرة قلدوا أقل الجل والعفو والقبول، والرد اجتهادهم وسألوا الله توفيقهم وسدادهم، واستكفوه الشرور التي تغال النفوس والأقوات، وتسيء المحيا والممات، واعتبروا من رأس الأمة المسلمة في أمهات البلدان من الفتيان والغلمان، والطواشية والخصيان، والأعجام التي تخاطب بالترجمان، والصبية والنسوان، وهم أشرف أوطاناً وأعظم سلطاناً، وأوفر أعلاماً، وأغضى إسلاماً، ورأوا أن الله قد سدّ ثلمهم بمن يحكم التلفيق، ويلتمس التوفيق وحُسن المناب، ويحكم السنة والكتاب، وأنه رأب الصدع برجل من أنفسهم يؤثر التقوى ويدفع عن الحوزة بالذراع الأقوى إلى أن يستقر هشام بأمر الحكم، وتفضي المذاهب إلى النهج الأمم.

فحمدوا الله على حُسن الكفاية واصطناع المنة، وإقامة رسم الكتاب والسُنَّة، فاغتبطوا وارتبطوا، ونشطوا، وانبسطوا، وكلما زادت الأحوال صلاحاً شكروا واعتبروا، وذكروا، واستبصروا، وهم جمهور الناس من الفقهاء، والعلماء، والخاصة، والدهماء، فلم تسمع عن أحدٍ هجرة أعملها، ولا فتيا سوغت الخلاف لمن سألها، ولم يستجيزوا ذريعة تؤدي إلى سفك الدماء، وتغيير النعماء، وشمات الأعداء، فصانوا أديانهم، وعرفوا زمانهم، واقتصروا على رسول الله ﷺ في الإرشاد وإلهام السداد.

وصنف غارم لا هم له إلا فيمن[1] / . . . . [١/١٢٥]

[نبذة عن بعض من كان على عهد حياة أبيه عند أخذ البيعة لهشام من العلماء والفقهاء والقضاة][2]

. . .[3] / ابن عيسى[4]. سمع قاسم بن أصبغ وكان من أصحاب الرأي [١/١٣٦] والتصرف والحفظ.

وأحمد بن محمد بن زكريا بن الوليد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن زيد بن مكيال مولى عبد العزيز بن مروان الرصافي القرطبي.

وأحمد بن قزمان أبو عمر بن العياط المملس.

والقاضي محمد بن يحيى بن زكريا التميمي[5]، سمع بقرطبة من ابن خلدون،

---

(١) سقطت اللوحة [١٥٣/أ،ب] من المخطوط فيلاحظ.

(٢) زيادة تصنيفية من صنع المحقق لتوضيح بعض ما سقط من المخطوط ووضع عنوان لما يتناوله المؤلف من الكلام.

(٣) موضع النقط سبق الإشارة إليه قبل قليل من كون الورقة [١٣٥/أ،ب] قد سقطت من المخطوط، وتحتوي على الصنف الخامس، وهو زائد عما وصف المؤلف من أنهم أربعة، أول الأعلام الذين كانوا على عهد أخذ البيعة.

(٤) سقط أول اسم العلم ولم يبق إلا أباه أو جده.

(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٧): القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى بن زكريا بن يحيى التميمي، القرطبي، المالكي، ابن برطال ولد سنة تسع وتسعين ومائتين. سمع من أحمد بن خالد الجباب الحافظ، ومحمد بن عيسى، وقاسم بن أصبغ، وإبراهيم بن فراس المكي، وإسماعيل بن الجراب، وعثمان بن محمد بن أحمد السمرقندي، ومحمد بن محمد بن الخياش، وعدة. وولي الخطابة وقضاء الجماعة إلى أن علت سنه، وتفلت ذهنه، فصرفه أبو عامر الحاجب عن القضاء إلى الوزارة. روى عنه: الفرضي، وسراج بن عبد الله، وعُمر دهراً. وكان حُجَّة في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. وتفرد بأشياء عالية. وتوفي سنة أربع وتسعين وثلاثمائة عن خمس وتسعين سنة. ومن مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٠٥)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٦)، تاريخ قضاة الأندلس (٨٤).

وقاسم بن أصبغ، وابن رفاعة، وابن دجيم.

وإبراهيم بن أحمد بن فتح[١] المعروف بابن الحداد القرطبي، روى عن ابن أيمن، وابن منصور، ومحمد ابن الحاج بن عبد الرحمن بن علقمة.

وأحمد بن محمد بن يوسف المعافري القسطنطيني، سمع أبا عيسى والدينوري.

وسعيد بن حمدون بن محمد المدني القيسي أبو عثمان، سمع ابن أصبغ، وابن أسامة وابن حزم، وابن مطرف.

وخطاب بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بشر الأيادي، سمع ابن لبابة وابن أصبغ، وحج فلقي ابن الأعرابي، والنحاسي.

ومسلمة بن محمد بن مسلمة[٢] أبو محمد الزاهد، سمع بمكة من الآجُري، وغيره.

وعتاب بن هارون بن عتاب بن بشر بن عبد الرحيم بن بشر بن الحارث بن سهل بن أيوب[٣]. سمع بمكة من ابن الأنماطي، والطوسي، والخزاعي.

---

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ١٨/ت٤٥): إبراهيم بن أحمد بن فتح، مولي قريش من فهر من أهل قرطبة، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحداد. روى عن محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن مسعود، وعبد الله بن يونس القبري، وأحمد بن زياد، وقاسم بن أصبغ، والحسن بن سعد، وأحمد بن يحيى بن الشامة، ونظرائهم. وكان حافظاً للمسائل عاقداً للشروط، عالماً بالفقه والعربية، فصيحاً ضابطاً. حدّث وقرىء عليه المدونة وغير ذلك، وسمعت منه. وتوفي يوم الأربعاء لأيام بقيت من شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين وثلاثمائة. ودفن يوم الخميس صلاة العصر، وصلى عليه محمد بن يبقي.

(٢) قال الحميدي أيضاً في المصدر السابق (٢/ ١٣٠/ ت١٤٢٤): مسلمة بن محمد بن مسلمة بن محمد بن سعيد بن بُتريّ الأيادي. من أهل قرطبة، يكنى: أبا محمد. كان زاهداً فاضلاً متبتلاً، مجتهداً، ورعاً، كثير الجهاد. وسمع من وهب بن مسرة، وأبي عيسى، وعبد الله بن محمد بن علي الباجي، ومحمد بن يحيى بن عبد العزيز، وأبي جعفر بن عون الله، وابن مفرج، وسمع من عمه الخطاب بن مسلمة. وله إلى المشرق رحلة سنة ثمان وخمسين سمع فيها من زياد بن يونس السُّدري، وسمع بمكة من أبي بكر الآجُري، ومن غيره يسيراً. وامتحن في الطريق بذهاب رحله، فلم يتحصل له كبير شيء من سماعه بمكة. قرأت عليه المدونة، والمستخرجة، وغير ذلك. وكان أكثر ما يحمله من الحديث على سبيل الإجازة وكانت العبادة أملك به وأغلب عليه.
توفي رحمه الله لست بقين من ذي الحجة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر، في مقبرة الزبض وصلى عليه أبو إسحاق المؤدب، وشهدته، وشهده خلق عظيم، وما انصرفنا من جنازته إلا بليل.

(٣) قال الحميدي أيضاً في جذوة المقتبس (٢/ ٣٠٠/ ت٨٨٨): عتاب بن هارون بن عتاب بن بشر الغافقي من أهل شذونة، يكنى أبا أيوب. روى عن أبيه وغيره، رحل إلى المشرق سنة إحدى =

وسعيد بن مُرشد العُكي، أبو عثمان، البدوي.

سمع وهب بن كرم[١].

وعثمان بن سعيد بن البشر بن غلاب[٢] اللخمي اللمدوني، سمع من ابن لبابة، وابن خالد.

وعمر بن محمد بن إبراهيم بن الرفايفي الأبهري، روى الأشراف عن مؤلفه ابن المنذر، وكان من أهل العلم والعمل.

وأحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف بن موسى بن بهز[٣] ابن الإمام أبو بكر.

وعبد الله بن محمد بن أزهر بن حريث بن قيس بن أيوب بن جبير.

وأحمد بن يوسف بن إسحاق بن إبراهيم[٤] الإسحاقي.

ومحمد بن عبد الله بن القاسم الأسمي، سمع ابن لبابة، وابن خالد، وابن أصبغ.

= وخمسين، وحج سنة اثنتين وخمسين، فسمع بمكة من أبي بكر محمد بن أحمد بن موسى الأنماطي، ومن أبي حفص الجمحي، وأبي محمد الطوسي، وأبي الحسن الخزاعي. وروى بمصر عن أبي بكر بن الحجاج التنيسي وغيره. رحلت إليه إلى شذونة، وقرأت عليه كثيراً، وأجاز لي ما سمعه، وكان حافظاً للرأي على مذهب مالك، وأصحابه حسن النظر، وكان يقال إنه مجاب الدعوة. سمعت أبا محمد عبد الله بن محمد بن قاسم الثغري يقول: لست أعلم بالأندلس أفضل من [أبي] أيوب بن بشر. قال لي أبو أيوب: ولدت في شهر ربيع الأول سنة إحدى عشر وثلاثمائة وتوفي رحمه الله ليلة السبت لأربع بقين من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة. ودفن يوم السبت بعد صلاة الظهر. وصلى عليه إبراهيم بن فُلَيس الفقيه.

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٧٢/ ت٥١٥): من أهل شذونة، يكنى أبا عثمان، سمع من وهب بن مسرة، وأحمد بن حزم، ومحمد بن أحمد بن أحمد بن الخراز القروي. وكان مشاوراً في الأحكام مع أصحابه. ورحل حاجاً في آخر عمره، فتم حجه، ودخل بيت المقدس، ثم قدم مصر منصرفاً، فتوفي بها في آخر يوم من شعبان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٣٠٧/ ت٩٠٧): ابن غالب بن فيض اللخمي. من أهل شذونة من ساكني اسْتَبَّة، يكنى أبا الأصبغ. سمع من عبد الله بن أبي الوليد، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأحمد بن خالد. كان فقيه استبة، وصاحب صلاتهم، وكان شيخاً صالحاً. حدّث، وتوفي باستبة سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة.

(٣) قال الحميدي في المصدر السابق (١/ ٥٦/ ت١٨٨): . . . ابن موسى بن حصيب (بدل بهز) يعرف بابن الإمام. من أهل تُطِيلة، يكنى أبا بكر. سمع من عمه عمر بن يوسف، ومحمد بن شبل. ولي القضاء بموضعه. وكان فقيهاً عالماً. ولد سنة سبع وعشرين وثلاثمائة. وتوفي يوم الأربعاء، ودفن يوم الخميس ضحاً صدر وشعبان سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

(٤) قال الحميدي في الجذوة (١/ ٥٢/ ت١٧٠): من أهل إسْتِجة، يكنى أبا القاسم. كان منصرفاً في الفتيا والشروط، متقلباً في حفظ الخبر، والشاهد، والمثل، وكان له من قرض الشعر نصيب. توفي رحمه الله في جمادى الآخرة سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة.

وعبد الله بن عبد الوارث بن منتهل[١] الطليطلي.

وأبي تمام غالب بن عبد الله بن تمام بن غالب المعافري.

وعبد الله بن فتح بن فرج بن معروف الخير[٢]، الطليطلي.

سمع من ابن الورد، والسكري، وابن أبي الموت.

وعبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة المعروف بالباجي[٣].

ومحمد بن عبد الله بن شيبة الإشبيلي.

ومحمد بن حسن بن عبيد الله بن مذحج[٤] الزبيري أبو بكر، قال ابن حيان: لم يكن له نظير بالأندلس.

---

(١) ذكره الحميدي في جذوة المقتبس في (١/ ٢٣٧/ ت٧٣٠) وفيها: عبد الله بن عبد الحارث بن منتيل. من أهل طليطلة، يكنى أبا الفرج. كان حافظاً للمسائل، فقيهاً، واستخلفه القاضي محمد بن يحيى بن عبد العزيز أيام كان قاضياً عندهم. وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وصلى عليه ابن عمه محمد بن أحمد بن سيد بن منتيل.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ٢٣٨/ ٧٣٣): عبد الله بن فتح بن فرج بن معروف بن أبي معروف التجيبي، واسم أبي معروف سلام. من أهل طليطلة، يكنى أبا محمد. سمع من وهب بن مسرة الحجاري، ووهب بن عيسى الطبطلي. ورحل إلى المشرق بعد الأربعين، فسمع من جماعة بمصر منهم ابن الورد، وابن السكري، وابن أبي الموت، وغيرهم. حدث، وتوفي رحمه الله ليلة الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت لشعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة. وصلى عليه أبو عبد الله محمد بن سعيد البكري الخطيب بطليطلة.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته (١٦/ ٣٧٧): العلامة الحافظ محدث الأندلس أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة، اللخمي، الإشبيلي، المشهور بابن الباجي. ولد سنة إحدى وتسعين ومائتين. وسمع عن محمد بن عبد الله بن القوقي، وعبد الله بن يونس القبري، والزاهد سيد أبيه، وسعيد بن جابر الإشبيلي، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأسلم بن عبد العزيز، ومحمد بن قُطيس وطبقتهم.

قال ابن الفرضي: كان حافظاً، ضابطاً، لم ألق مثله في الضبط، سمعت منه الكثير بقرطبة ورحلت إليه إلى إشبيلية مرتين. روى الناس عنه الكثير. ومات في رمضان سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة وله سبع وثمانون سنة. قلت: وممن روى عنه ولده أبو عمر، وحمام بن أحمد القاضي، وحدث عن القبري بمصنف ابن أبي شيبة.

من مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (١/ ٢٤٠)، جذوة المقتبس (٢٥٠)، بغية الملتمس (٣٣١)، طبقات الحفاظ (٣٩٨)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٠٤)، العبر (٣/ ٧).

(٤) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤١٧): إمام النحو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج، الزبيدي، الشامي، الحمصي، ثم الأندلسي، الإشبيلي، صاحب التصانيف. سمع سعيد بن فحلون، وقاسم بن أصبغ، وأبا علي القالي. وأخذ العربية عن القالي، وعن أبي عبد الله الرياحي. روى عنه ولده أبو الوليد محمد بن محمد، وإبراهيم بن محمد الأفليلي، وولده الآخر أبو القاسم أحمد الأديب قاضي إشبيلية. طلب المستنصر بالله صاحب الأندلس أبا بكر الزبيدي من =

محمد بن شراحيل أبو زكريا، البلنسي، له كتاب في توجيه حديث الموطأ.

وإدريس بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن خالد، كان حافظاً زاهداً.

وعيسى بن العلاء أبو الأصبغ التدمري، من أهل الفتيا بمحله.

ومحمد بن عيسى بن حُسين بن أبي أسعد بن سيد الدار.

وعبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر أبو محمد الأصيلي[1]، / [١٣٦/ب] انتهت إليه الرئاسة ببلده.

= إشبيلية إلى قرطبة للاستفادة منه، فأدب جماعة، واختصر كتاب «العين» وألّف «الواضح» في العربية، وهو مؤدب المؤيد بالله هشام.
توفي في جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وله ثلاث وستون سنة. وعاش ولده أبو الوليد إلى سنة نيف وأربعين وأربعمائة فكان آخر من حدث عن والده. قال ابن خلكان: كان أبو بكر أوحد عصره في علم النحو، وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب، والمعاني، والنوادر إلى علم السير والأخبار، لم يكن في الأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدل على علمه، منها كتاب «طبقات النحاة واللغويين». وله في الرد على ابن مَسرَّة، وأشياء مفيدة، وله نظم بديع.
انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس (٢/ ٨٩)، يتيمة الدهر (٢/ ٧٠)، جذوة المقتبس (٤٦)، الأنساب (٦/ ٢٤٩)، بغية الملتمس (٦٦/ ٦٧)، معجم الأدباء (٨/ ١٧٩)، إنباه الرواة (٣/ ١٠٨)، المحمدون من الشعراء (٧٣)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٢٥٠)، وفيات الأعيان (٤/ ٣٧٢)، العبر (٣/ ١٢)، تلخيص ابن مكتوم (٢٠٢)، الوافي بالوفيات (٢/ ٣٥١)، مرآة الجنان (٢/ ٤٠٩)، البلغة في تاريخ أئمة اللغة (٢١٨)، بغية الوعاة (١/ ٨٤)، شذرات الذهب (٤/ ٩٤).

(١) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٦٠): الإمام شيخ المالكية عالم الأندلس، أبو محمد عبد الله بن إبراهيم، الأصيلي. نشأ بأصيلا من بلاد العدوة، وتفقه بقرطبة. سمع من ابن المشاط، وابن سليم القاضي، ووهب بن مسرة، لقيه بوادي الحجارة، وأبا الطاهر الذهلي، وابن حيويه، وأبا إسحاق بن شعبان، وعدة بمصر، وكتب بمكة عن أبي زيد الفقيه «صحيح البخاري». ولحق أبا بكر الآجري، وأخذ ببغداد عن أبي بكر الشافعي، وابن الصواف والقاضي الأبهري. وله كتاب «الدلائل» في اختلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي. قال القاضي عياض: قال الدارقطني: حدثني أبو محمد الأصيلي ولم أر مثله.
قال عياض: كان من حفاظ مذهب مالك، ومن العالمين بالحديث وعلله ورجاله، يرى أن إتيان أدبار النساء على الكراهة، وينكر الغلو في الكرامات، ويثبت منها ما صح. ولي قضاء سرقسطة.
قال: وكان نظير ابن زيد بالقيروان، وعلى طريقته وهديه، وفيه زعارة، حمل الناس عنه. توفي في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وشيعه أمم. ومن مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (١/ ٢٤٩)، طبقات الشيرازي (١٦٤)، جذوة المقتبس (٢٥٧)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٤٢)، بغية الملتمس (٣٤٠)، معجم البلدان (١/ ٢١٢)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢٤)، العبر (٣/ ٥٢)، الديباج المذهب (١/ ٤٣٣)، وفيات ابن قنفذ (٢٢٣)، طبقات الحفاظ (٤٠٥)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٠)، شجرة النور الزكية (١/ ١٠٠).

وأصبغ بن الفرج بن الفارس الطائي، أبو القاسم أحد أكابر المفتين بقرطبة.

وعبد الرحمٰن بن محمد بن يحيى بن صاعد أبو المطرف، سمع الحريري، وابن جهضم، وابن رشيق، وقدم للشورى.

والقاضي أمية بن أحمد بن حمزة، ولي الشرطة والأحكام، وأفتى.

ومحمد بن أحمد بن محمد بن قادم بن زيد القرطبي، سمع من قاسم بن أصبغ، وابن حمدان، والصواف، وغيرهم ببغداد.

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن هانىء العطار، عرف بابن اللباب، أبو عمر، سمع قاسم بن أصبغ.

ومحمد بن وادع بن محمد القرطبي، سمع القاضي المرواني بالمدينة، والخزاعي بمكة.

وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن أبي زَمَنين[1]، المري، سمع من وهب بن مسرة، وابن المَشّاط، وابن عيسى، وابن فحلون، وابن حزم.

وأبي عمر محمد بن يحيى بن سعيد بن الحريري الطليطلي.

وأبي موسى بن أبي الحزم بن جوهر المرساني.

وأبي بكر محمد بن وهب التجيبي الحصار المعروف بابن القبري القرطبي، أخذ عن ثابت، وابن قطن، وأحمد بن هلال، والباجي، وصحب أبا محمد بن أبي زيد.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٨): الإمام القدوة الزاهد، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد بن أبي زمنين، المري، الأندلسي، الإلبيري، شيخ قرطبة. قرأ ببجانة على سعيد بن فحلون مختصر ابن عبد الحكم. وسمع من محمد بن معاوية الأموي، ومحمد بن المطرف، وأحمد بن الشامة، ووهب بن مسرة. وتفقه بإسحاق الطليطلي. وتفنن واستبحر من العلم، وصنف في الزهد والرقائق، وقال الشعر الرائق. وكان صاحب جد وإخلاص، ومجانبة للأمراء، روى عنه أبو عمرو الداني، وأبو عمر بن الحَذّاء، وجماعة. ولد في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وتوفي في ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة. اختصر «المدونة»، وله «منتخب الأحكام»، مشهور، وكتاب «الوثائق»، و«مختصر تفسير ابن سلام»، وكتاب «أصول السنة» وأشياء كثيرة.

وكان من حملة الحُجة. وزَمَنين: بفتح الميم ثم كسر النون. ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٥٦)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٧٢)، بغية الملتمس (٨٧)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢٩)، العبر (٣/ ٧١)، الوافي بالوفيات (٣/ ٣٢١)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣)، طبقات المفسرين للسيوطي (٣٤)، طبقات المفسرين للداوودي (٢/ ١٦١)، شذرات الذهب (٣/ ١٥٦)، شجرة النور الزكية (١/ ١٠١).

وأبي عثمان بن سعيد بن محسن، تقلّد الشورى بقرطبة.

وأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحضري المعروف بابن الشرقي، من الأئمة في الرواية، ولي الصلاة والخطبة بجامع قرطبة، وسمع ابن حزم وأبي مطرف.

وأحمد بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم الكلاعي أبو عمرو، سمع من أبي عيسى، ومسلمة بن محمد.

وأحمد بن سعيد بن محمد بن بشير بن الحصار[١]، القرطبي، أبو العباس، أبو العاصي، أبو المطرف.

وأحمد بن عبد الله بن الحسن[٢]، أبو عمر، القرطبي.

سمع قاسم بن أصبغ وغيره.

ووهب بن محمد بن محمود بن إسماعيل بن عبد الله بن يحيى[٣] الأموي أبو الحزم، سمع من قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة وغيرهما، وكان من أهل الرأي والشورى.

وأبو المطرف عبد الرحمٰن الرعيني بن مشاط القرطبي، ولي الشورى.

---

(١) قال صاحب جذوة المقتبس (١/ ٦٠(ت١٩٨): من أهل قرطبة، يكنى أبا العباس. سمع من قاسم بن أصبغ، وابن أبي دليم، والحبيب بن أحمد العلم، ومسلمة بن القاسم، وخالد بن سعد، وغير واحد من نظرائهم. وكان كثير السماع مشهوراً بطلب الحديث، وكان يعقد الشروط، ويفتي، وسمع الناس منه كثيراً، ولم يكن بالضباط لما كتب. وتوفي رحمه الله يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. ودفن يوم الاثنين صلاة العصر في مقبرة بني العباس، وهو ابن ست وسبعين سنة، وكان أعور.

(٢) قال الحميدي أيضاً في المصدر والموضع السابق في (ت:١٩٩): من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر. سمع من قاسم بن أصبغ وغيره، واستقضى بكورة ريّة من أول ولاية أمير المؤمنين المؤيد بالله إلى أن توفي. وكان مشاوراً، وبلغني أنه كُتب عنه. وتوفي ليلة الخميس لأحد عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ودفن بمقبرة قريش غداة يوم الجمعة ضحاً، وصلى عليه القاضي أحمد بن عبد الله بن ذكوان.

(٣) قال صاحب الجذوة فيها في (٣/ ١٦٦/ ت١٥٢٢): من أهل قرطبة، يكنى أبا الحزم. سمع من قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة وغيره، وكان حافظاً للرأي شاوره محمد بن إسحاق بن السليم أيامه على القضاء، ولما ولي محمد بن يبقى ترك مشاورته. وكان شيخاً صالحاً كثير الصلاة، مواظباً للمسجد الجامع، يجتمع إليه ويُستفتى، وقد حدّث.

توفي رحمه الله يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة، ودفن يوم الأربعاء لصلاة العصر في مقبرة الرّبض. وصلى عليه عبد العزيز بن أحمد بن جهور وكان أوصى إليه.

وأحمد بن علي بن أحمد المقرىء أبو العباس الباغلي، قال ابن حيان: كان رباني في علوم الإسلام، لم يخلف بعده أحد يقربه في علوم القرآن.

وعبد الرحمٰن بن أحمد بن سعيد البكري، المعروف بابن محجب.

وأبي عبد الله الحسن بن حي بن عبد الملك بن حي التجيبي، سمع الآجري، وتقدم للشورى.

وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله الترحالي.

وأبي عبد الله محمد الصابوني.

وأبو محمد بن بركة، من أهل الشورى.

وعيسى بن العلاء التدمري.

وأبي عبد الله محمد بن القاسم بن الجالطي بن الفراء، ولي الصلاة والخطبة بقرطبة.

[١/١٣٧] ويوسف بن محمد بن عمر بن يوسف، سمع من / [قاسم بن][1] أصبغ، ومحمد بن أبي دُليم، وابن الأحمر.

وأبي عمر أحمد بن عبد الله الباجي[2]، أبو محمد الإشبيلي.

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوط، أثبته من جذوة المقتبس (٣/ ٢٠٨/ت١٦٣٩)، وقال في ترجمته: يوسف بن محمد بن عمر بن يوسف بن عمروس. من أهل استجة، يكنى أبا عمر. سمع من القاسم بن أصبغ كثيراً، ومن محمد بن عبد الله بن أبي دُليم، ومحمد بن معاوية وغيرهم. وكان حافظاً للمسائل رأساً في الفتوى بموضعه، وكان له حظ من التهجد بالقرآن. وقد حدث وسمع منه غير واحد، وكُتب عنه. وأجاز لي جميع روايته، وقال لي: ولدت في رجب سنة عشرين وثلاثمائة. وتوفي باستجة يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٧٤): الإمام الحافظ المحقق، أبو عمر أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي الإشبيلي، عرف بابن الباجي. سمع من والده جميع ما عنده من ذلك «مصنف» ابن أبي شيبة بروايته عن القبري عن بقي بن مخلد عنه.
قال الخولاني: كان أبو عمر عارفاً بالحديث ووجوهه، إماماً مشهوراً، لم تر عيني مثله في المحدثين، وقاراً وسمتاً، رحل بابنه محمد، ولقي شيوخاً جلة، وولي أبو عمر قضاء إشبيلية مدة يسيرة، وأخذنا عنه كثيراً. توفي فشهدت جنازته في محفل عظيم في الحرم سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وله أربع وستون سنة.
وقال ابن عبد البر: كان يحفظ «غريبي الحديث» لأبي عبيد، وابن قتيبة. وشوور في الأحكام، وله ثمان عشرة سنة، وجمع أبوه علوم الأرض، ولم يحتج إلى أحد، ورحل بآخره، ولقي أبا بكر المهندس وطائفة، وكان فقيه عصره، وإمام زمانه، لم أر بالأندلس مثله، كَمُلَت عليه «مُصَنَّف» ابن أبي شيبة، وكان إماماً في الأصول والفروع.

=

وسعيد بن عبد الملك الجذامي الإشبيلي، أبو عثمان بن الملاح.

وسعيد بن موسى بن نصر[١] الغساني، لقي الأبهري.

وأبي محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد[٢] الجهني الطليطلي، سمع ابن الورد، وأبي السكن.

وأبي عبد الله محمد بن عيسى المزتلي الطليطلي، رجل ذا الشجاعة، والعلم، والعفة.

وأبي حفص عمر بن عبادل الرعيني.

وأحمد بن عبد الله بن محمد بن عروس الموروري الحضراي، ولي الوزارة.

ومحمد بن يعيش بن منذر الأسدي، قلده على عهده.

وأبي الحزم خلف بن عيسى بن سعيد الخيرقي أبي درهم الوشقي الفقيه.

وأبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن الفخار[٣]، الحافظ، إمام المالكية بقرطبة.

= من مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (١٢٨)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٨٤)، الأنساب (٢/ ١٨)، الصلة (١/ ١١)، بغية الملتمس (١٧٢)، اللباب (١/ ١٠٣)، المشتبه (٢/ ٦٢٨)، تاريخ الإسلام (٤/ ١٠٠)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٥٨)، العبر (٣/ ٦٠)، الديباج المذهب (١/ ٣٣٤)، طبقات الحفاظ (٤١٤)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٧).

(١) كذا في المخطوط: نصر، وفي جذوة المقتبس (١/ ١٧٦/ ت٥٣٣): «مهص» وعلق عليها المحقق بقوله: كذا بالأصل.

وقال الحميدي في ترجمته: من أهل إلبيرة من قرية فرخشبيط من قرى الإشات يُكنى أبا عثمان. رحل إلى المشرق، ودخل بغداد، فسمع بها من أبي بكر الأبهري شرح المختصر، وغير ذلك، وسمع من جماعة هناك، وانصرف إلى الأندلس، فخرج تُطيلة، فلم يزل مقيماً بها للرباط إلى أن توفي. وكان فقيهاً عالماً زاهداً ورعاً يصوم الدهر، وكان ينتقل في سكناه بين تطيلة، وبلغى، وكان كثير الجهاد ولم يحدث، قتل بمعترك الماشة قرب مدينة بلغى يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٨٣): الإمام العلامة، عالم الأندلس، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني الطليطلي، المالكي، البزاز. ولد سنة عشر وثلاثمائة. سمع من قاسم بن أصبغ وعدة، وارتحل فسمع من أبي محمد بن الورد، وأبي علي بن السكن بمصر، ومن أحمد بن محمد بن أبي الموت. وكان من أوعية العلم، رأساً في اللغة، فقيهاً محرراً، عالماً بالحديث كبير القدر. أكثر عنه أبو عمر بن عبد البر، وأبو المطرف بن فُطَيس، والخولاني، وأبو عمر بن الحذاء، وأبو مصعب بن أبي الوليد الفرضي، وكان ذا ورع واتقان، وتلاوة في المصحف. مات في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في آخر السنة.

من مصادر ترجمته: تاريخ علماء الأندلس (٢٤٨)، جذوة المقتبس (٢٥١)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٨٧)، بغية الملتمس (٣٣١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٨).

(٣) قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٧٢): الإمام، العلامة، الحافظ، شيخ =

وأبي بكر عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد التجيبي، بن حربيل القرطبي، سمع مطرفاً، وابن الأحمر، وابن السليم، وابن جابر، وأبي المطرف.

وعبد الرحمٰن بن هارون المعروف بابن القنازعي، سمع من بشر، وأبي القوطية وتفقه بابن المكْوي والأصيلي.

وأحمد بن يحيى بن أحكم العامل أبي اللباب القرطبي، قاضي طليطلة.

وأبي سعيد عمر بن عبد ربه المعافري القرطبي، مختصر الدلائل.

وأبي محمد بن الشاق.

وعبد الله بن سعيد بن محمد القرطبي، شيخ المفتين في وقته.

= الإسلام، عالم الأندلس، أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار، القرطبي، المالكي. ولد سنة نيف وأربعين وثلاثمائة. حدث عن أبي عيسى الليثي، وأبي محمد الباجي، وأبي جعفر بن عون الله، وطبقتهم، وحج وسمع بمصر من طائفة، وجاور بالمدينة. وقد تفقه بأبي محمد الأصيلي، وأبي عمر بن المكوي. وكان رأساً في الفقه، مقدماً في الزهد، موصوفاً بالحفظ، مفرط الذكاء، عارفاً بالإجماع والاختلاف، عديم النظير، يحفظ «المدونة» سرداً، و«النوادر» لأبي محمد بن أبي زيد.

أريد على الرُسليّة إلى أمراء البربر، فأبى وقال: بي جفاء، وأخاف أن أوذى، فقال الوزير: ورجل صالح يخاف الموت! فقال: إن أخفه فقد خافه أنبياء الله، هذا موسى قد حكى الله عنه: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ [الشعراء: ٢١]. قال ابن حيان: توفي الفقيه الحافظ المشاور المستبحر الرواية، البعيد الأثر، طول الهجرة في طلب العلم، الناسك المتقشف، أبو عبد الله بن الفخار بمدينة بلنسية في عاشر ربيع الأول سنة تسعة عشر وأربعمائة فكان الحفل في جنازته عظيماً، وعاين الناس فيها آية من طيور شبه الخُطاف وما هي بها تخللت الجمع رافة فوق النعش جانحة إليه مُشِفّة إليه لم تفارق نعشه إلى أن وري فتفرقت وتحدث الناس بذلك وقتاً، مكث مدة ببلسية مطاعاً عظيم القدر عند السلطان والعامة، وكان ذا منزلة عظيمة في الفقه والنسك، صاحب أنباء بديعة.

قال جُماهر بن عبد الرحمٰن: صلى على ابن الفخار الشيخ خليل التاجر، ورفرفت عليه الطير إلى أن تمت مواراته. وكذا ذكر الحسن بن محمد القُبسي من خبر الطيور، وزاد: كان عمره نحو الثمانين، وكان يقال: إنه مجاب الدعوة، واختبرت دعوته في أشياء. وقال أبو عمرو الداني مات في سابع ربيع الأول سنة أربعمائة وتسعة عشر عن سنة وسبعين سنة، وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنة بالأندلس رحمه الله.

وقال القاضي عياض: كان أحفظ الناس وأحضرهم علماً، وأسرعهم جواباً، وأوقفهم على اختلاف الفقهاء، وترجيح المذاهب، حافظاً للأثر مائلاً إلى الحجة والنظر. فرّ عن قرطبة إذ نذرت البربر دمه عند غلبتهم على قرطبة. قلت: سميه الحافظ أبو عبد الله بن الفخار المالكي مات سنة تسعين وخمسمائة.

من مصادر ترجمته: ترتيب المدارك (٤/ ٧٢٤)، الصلة (٢/ ٥١٠)، العبر (٣/ ١٣٢)، دول الإسلام (١/ ٢٤٩)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٤٥)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣٥)، النجوم الزاهرة (٤/ ٢٦٨)، نفح الطيب (٢/ ٦٠)، شذرات الذهب (١٣/ ٢١٣)، شجرة النور الزكية (١/ ١١٢).

وأبي محمد عبد الله بن يحيى بن دحون أحد جلة شيوخ المفتين بقرطبة.

وأبي محمد حماد بن عمار الزاهد.

وأبي القاسم يحيى بن محمد بن يحيى بن نهيل القرطبي، آخر من حمل عن [قاسم بن](١) أصبغ.

وأبي عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحذاء، سمع من دلهم، والأنطاكي، وغيرهما، وألَّف شرحاً على الموطأ.

وأبي عامر أحمد بن عفيف القرطبي، سمع من أبي زرفا، وابن السليم، والقاضي أبو المطرف بن الحصار.

وأبي عبد الله محمد بن علي بن هشام بن عبد الرؤوف الأنصاري، الحمودي، حاكم قرطبة.

والليث بن حُريش أبو الوليد المفتي.

وأبي محمد مكي بن أبي طالب(٢)، نزيل قرطبة، إمام القراءات في وقته.

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٩) في ترجمته: العلامة المقرىء أبو محمد مكي بن أبي طالب حمُّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني، ثم القرطبي، صاحب التصانيف. ولد بالقيروان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة. وأخذ عن ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي. وتلا بمصر على أبي عدي ابن الإمام، وأبي الطيب بن غلبون، وولده طاهر. وسمع من محمد بن علي الأُدْفُوي، وأحمد بن فراس المكي، وعدة. وكان من أوعية العلم مع الدين والسكينة والفهم، ارتحل مرتين الأولي في سنة ست وسبعين.
قال صاحبه أبو عمر أحمد بن مهدي المقرىء: أخبرني مكي أنه سافر إلى مصر وله ثلاث عشرة سنة، واشتغل، ثم رحل سنة ست وسبعين، وأنه جاور ثلاثة أعوام، ودخل الأندلس في سنة ثلاث وتسعين، فرأ بجامع قرطبة، وعظم اسمه وبعد صيته. قال ابن بشكوال: قلده أبو الحزم جهور خطابة قرطبة بعد يونس بن عبد الله، وقد ناب عن يونس. قال: وله ثمانون مصنفاً، وكان خَيِّراً متديناً مشهوراً بإجابة الدعوة، دعا على رجل كان يؤذيه ويسخر به إذا خطب، فزَمِنَ الرجل. توفي في المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. قلت: تلا عليه خلق منهم عبد الله بن سهل ومحمد بن أحمد بن مُطرف. وروى عنه بالإجازة أبو محمد بن عتاب.
ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٣٥١)، ترتيب المدارك (٤/ ٧٣٧)، نزهة الألباء (٣٤٧)، الصلة (٢/ ٦٣١)، بغية الملتمس (٤٦٩)، معجم الأدباء (١٩/ ١٦٧)، إنباه الرواة (٣/ ٣١٣)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٧٤)، معالم الإيمان (٣/ ٢١٣)، العبر (٣/ ١٨٧)، دول الإسلام (١/ ٢٥٨)، معرفة القراء الكبار (١/ ٣١٦)، تلخيص ابن مكتوم (٢٥١)، عيون التواريخ (١٢/ ٢١٧)، الوافي بالوفيات (١٦/ ٦٨)، مرآة الجنان (٣/ ٥٧)، الديباج المذهب (٢/ ٣٤٢)، غاية النهاية (٢/ ٣٠٩)، طبقات ابن قاضي شهبة (٢٥٧)، النجوم الزاهرة (٥/ ٤١)، بغية الوعاة (٢/ ٢٩٨)، مفتاح السعادة (١/ ٤١٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٦٠).

وأبي أيوب سليمان بن ربيع[1] الكهلي.
وقاضي القضاة أبي الوليد يونس بن عبد الله بن الصفار.
وأبي المطرف عبد الرحمٰن بن سعيد بن جريج، من أهل الشورى.
وأبي القاسم بن مختار.
وأبي محمد مروان بن عبد الملك بن الأصبغ.
وابنه عبد المهيمن.
وأبي عمر أحمد بن إبراهيم بن أبي سفيان الغافقي.
وعبد الرحمٰن بن أحمد بن نصر بن خالد أبو المطرف، من أهل الشورى بقرطبة.
وأبي القاسم خلف بن البنا الأمي.
وحمام بن أحمد بن عبد الله بن حمام.
[١٣٧/ب] وخلف بن / مروان الصخري.
وأبي محمد بن عبيد القرطبي.
وعبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعطي من بيوتات الشرف والعلم بقرطبة.
وأحمد بن عمر بن عبد الله بن منصور الحضري المعروف بابن خفيف.
وأحمد بن محمد بن عبد الله أبو عمر، الطلمنكي.
والقاضي أبو الوليد إسماعيل بن عباد الراسبي.
وأبي بكر زهر الأيادي.
وأبي الوليد بن مغفل.
وهاشم بن يحيى بن حجاج، قال أبي الحذاء: ما رأيت أتم ورعاً منه.
وأبي القاسم المهلب بن أحمد بن أبي صفرة[2] التميمي.
وأبي محمد بن إباج الأموي، جاور بمكة بضعاً وثلاثين سنة، وسمع الشجري وابن فراس وغيرهما.

---

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (١/ ١٨٧/ت ٥٦١): من أهل قرمونة. كان معتنياً بالعلم، مفتياً في موضعه، ذكره ابن خالد.

(٢) قال الحميدي في جذوة المقتبس (٣/ ٣٥٢/ ت٨٢٧): المهلب بن أحمد بن سيد بن أبي صفرة، أبو القاسم، التميمي. فقيه، محدث، سمع أبا محمد يحيى بن علي بن محمد الحضرمي، المصري، وعبد الوهاب بن الحسن بن منير، وغيرهم. وله كلام في شرح الموطأ، وفي كتاب الجامع لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. مات بالأندلس بعد العشرين وأربعمائة.

وأبي العباس أحمد بن أيوب أبي الربيع، من أهل البيرة، وسكن في قرطبة، ومن شيوخه ابن أبي زمنين، وأبو الحسن القابسي.

وأبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش بن منذر الأسدي الطليطلي.

وأبي عمرو صغرد بن داود بن دلقات، لقي ابن عابدل وغيره.

وأبي عمر أحمد بن حسين القاضي.

وأبي بكر عبد الله القرشي التميمي القرطبي.

وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الباجي الإشبيلي.

وخلف بن سعيد بن أحمد بن محمد الأزجي.

وأبي بكر محمد بن مغيرة بن عبد الملك بن مغيرة بن معاوية الإشبيلي.

وأبي بكر محمد ابن قاضي القضاة أبا العباس بن ذكوان.

وأبي المطرف عبد الرحمٰن بن مختار القرطبي.

وأبي الحسن مختار بن عبد الرحمٰن القرطبي.

وأبي عمر بن عبد الرحمٰن الفرداجي.

والقاضي الشهير أبي الوليد الباجي(١) صاحب التمهيد والاستذكار وغير ذلك.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٣٥): الإمام، العلامة، الحافظ، ذو الفنون، القاضي أبو الوليد: سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي. صاحب التصانيف، أصله من مدينة بطليوس، فتحول جده إلى باجة بليدة بقرب إشبيلية فنسب إليها، وما هو من باجة المدينة التي بإفريقية التي ينسب إليها الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي، وابنه الحافظ الأوحد أبو عمر أحمد بن عبد الله بن الباجي، وهما من علماء الأندلس أيضاً. ولد أبو الوليد في سنة ثلاث وأربعمائة، وأخذ عن يونس بن مغيث، ومكي بن أبي طالب، ومحمد بن إسماعيل، وأبي بكر محمد بن الحسن بن عبد الوارث. وارتحل سنة ست وعشرين، فحج، ولو مَدَّها إلى العراق، وأصبهان، لأدرك إسناداً عالياً، ولكنه جاور ثلاثة أعوام ملازماً للحافظ أبي ذرّ، فكان يسافر معه إلى السّراة ويخدمه، فأكثر عنه، وأخذ على الحديث والفقه والكلام.

ثم ارتحل إلى دمشق فسمع من أبي القاسم عبد الرحمٰن بن الطُّبَيز، والحسن بن السمسار، والحسن بن محمد بن جُميع، ومحمد بن عوف المزني، ورجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر سنة بعلم غزير حَصَّلَهُ مع الفقر والتقنع باليسير. حدث عنه: أبو عمر بن عبد البر، وأبو محمد بن حزم، وأبو بكر الخطيب، وعلي بن عبد الله الصقلي، وأبو عبد الله الحميدي، وخلق سواهم. وتفقه به أئمة واشتهر اسمه، وصنف التصانيف.

قال القاضي عياض: آجر أبو الوليد نفسه ببغداد لحراسة درب، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب للغزل، ويعقد الوثائق، قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء وفي يده أثر المطرقة =

وأبي عبد الله بن عتاب الفقيه المشهور.

والقاضي أبي زيد بن الحشار.

وأبي عيسى يحيى بن عبد الله الليثي[(١)]، سمع ابن عم أبيه، وابن لبابة، وأسلم ابن عبد العزيز.

ومحمد بن عبدون بن محمد بن فهد، روى عن أبي وضاح وجده.

وهذه نبذة يسيرة عن من كان على عهد أخذ البيعة لهشام في حياة أبيه، ثم نفذها وهو إذ ذاك صبي صغير بإجماع من المؤرخين، وأكثرهم من أهل قرطبة، وبعض أعلام ممن شايع الوفادة بعهد بلده، وكلهم من أصحاب إمام دار الهجرة، مالك بن أنس رضي الله عنه، ذكرهم أبو الفضيل بن عياض في مداركه، واستوفى أوصافهم، وجلبنا ذكرهم ليجد فيهم إثرة من باشر مثل ما باشروه، إن احتاج إلى ذلك واختاره وأراده.

كما عددنا جملة من بُويع قبل الاحتلام ليتأسى بها من جنح إلى مثل ذلك.

مع أن ذكر هؤلاء الفضلاء في هذا المحل بما أشار به الأمر بتغييره، أنجزه الله تعالى بعز طاعته وتولى توفيقه بفضله، ولقد رجح الظن باستبصارهم في صحة هذه

= إلى أن فشا علمه وهيبت الدنيا به، وعظم جاهه وأجزلت صِلاتُه، حتى مات عن مال وافر، وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم، ويقبل جوائزهم، وولي القضاء بمواضع من الأندلس، وصنف كتاب «المنتقى» في الفقه، وكتاب «المعاني في شرح الموطأ» فجاء في عشرين مجلداً عديم النظير. قال: وقد صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه «الاستيفاء»، وله كتاب «الإيماء» في الفقه خمس مجلدات، وكتاب «السراج» في الخلاف لم يتم، و«مختصر المختصر» في «مسائل المدونة»، وله كتاب في اختلاف المواطآت، وكتاب في الجرح والتعديل، وكتاب «التشديد إلى معرفة التوحيد»، وكتاب «الإشارة» في أصول الفقه، وكتاب «إحكام الفصول أحكام الأصول»، وكتاب «الحدود» وكتاب «شرح المنهاج» وكتاب «سُنن الصالحين وسنن العابدين» وكتاب «سبل المهتدين» وكتاب «فرق الفقهاء» وكتاب «التفسير» لم يتمه، وكتاب «سنن المنهاج وترتيب الحجاج»...
قال أبو علي بن سُكَّرة: مات أبو الوليد بالمرية في تاسع عشر رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة، فعمره إحدى وسبعون سنة سوى أشهر، فإن مولده في ذي الحجة من سنة ثلاث وأربعمائة. ومن مصادر ترجمته: الإكمال (١/ ٤٦٨)، قلائد العميان (٢١٥)، ترتيب المدارك الصلة (١/ ٢٠٠)، بغية الملتمس (٣٠٢)، معجم الأدباء (١١/ ٢٤٦)، اللباب (١/ ١٠٣)، المغرب (١/ ٤٠٤)، وفيات الأعيان (٢/ ٤٠٨)، دول الإسلام (٢/ ٦)، العبر (٣/ ٢٨١)، فوات الوفيات (٢/ ٦٤)، شذرات الذهب (٣/ ٣٤٤) وغير ذلك كثير جداً.

(١) قال الحميدي في جذوة المقتبس (٣/ ٣٧٦/ ت٨٩٦): يحيى بن عبد الله بن أبي عيسى، أبو عيسى، روى عن عم والده عبيد الله يحيى بن يحيى بن كثير، وعن أبي عبد الله محمد بن عمران بن لبابة، روى أبو الحزم خلف بن عيسى القاضي وغيره.

البيعة ما كان من انعقاد الفتيا في قضية عبد الملك بن منذر صاحب الرد من خدام الخلافة وطائفة من أصحابه[١].

وقد ذكر عنهم الشروع في خلع هشام، وعقد البيعة لعبد الرحمٰن بن عبد الله بن / الناصر لما أجروه مجرى المحاربين وجعلوا لهشام خليفتهم التخيير فيه بما تقرر [١٢٨/أ] ذلك في توصيفه.

فاستقر الأمر لهشام يكنفه الحاجب المنصور، وأسعد أهل الأندلس فولوا أشهرهم بأساً، وأبعدهم في حُسن الذكر الحازم العازم، العظيم السياسة، الشديد الصلابة، القوي، الثبت الموقف، معود الإقبال، ومبلغ الآمال، الذي صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات، وأظهر له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات، ولم تفارقه السعادة حالتي المحيا والممات. وكان هو وبنوه ستراً على هشام ورعيته، فلما زال لم تستر لهم عورة، ولا عدمت ثورة، ولا فقدت للكروب ولا للحروب فورة، فأنهبت كل يد ما ملكت، وفتنت الرعايا، وهلكت، وانشقت العصا، وضرب، وضرب طاغية الروم، فمن أطاع وجه من عصا، وصار كمعلم الصبيان في المكاتب إذ قعدوا فوق المراتب، يعرض الخرج ويَصُوب الفرج، ويكلف الصعب، وينشىء الرعب، وينفذ الهول، ويصمت القول، ويسمع الوعيد المسموع، ويطلق الجموع، ويضم الأقطار بكلتي يديه، فلا من يدفعه ولا من يعترض عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير، إذ كان في نفسه مراحل تركيبه مُضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، ومحادثة الأنامة، يحرص بزعمه على اكتساب البركات، والآلات المنسوبات، فكم ألفى بخزائنه من ألواح منسوبة إلى سفينة نوح ومن قرون منسوبة إلى كبش إسحاق[٢]، وحوافر منسوبة إلى حمار عزير، ومن خفاف منسوبة إلى ناقة صالح، لم يسترب في تعددها، ولا فكر في مقدار ما يحتاجه الحيوان منها، إلى مطلبات منسوبة لعباد، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد، يبذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها، وهي مجتلبة من المجان والمعاطب، ملتقاة من أيدي المخابث.

---

(١) جاء بهامش المخطوط تعليق على هذه الفقرة هذا نصه: ذكر قضية عياض في آخر كتاب «الشفا».

(٢) من المعلوم لدى الخاصة والعامة وأهل التحقيق من أهل العلم أن الذبيح كان إسماعيل، والكبش فدى به إسماعيل عليه السلام، والقول بغير ذلك هو قول النصارى.

وجب أن تلم بأحوال الدولة منسوبة إلى المنصور ملك الأندلس، وأكثر العدوة على الحقيقة، ما لسالك من الحرم على أقوم الطريقة.

أيام المنصور محمد بن أبي عامر(١)

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن اليزيد بن عبد الملك العامري.

دخل جده عبد الملك مع طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ونزل بالجزيرة، فساد أهلها، وخدم منهم محمد / أبو عامر بن الوليد، وابنه عامر في دول الأموية. [١٣٨/ب]

وكان أبو الحاجب المنصور من أهل الفضل والانقباض، حج وقفل إلى المغرب فتوطن بأطرابلس المغرب ونشأ محمد ابنه ظاهر النجابة مرحاً مخولاً في الفضل والنباهة تتفرس فيه مخائل الرئاسة. ولا يزال يخبر بذلك من نفسه حسبما هو مشهور.

ثم اتصل بالحكم وولي أعمالاً من قضاء وإمامة نقله عن طوريهما نظره إلى طور الخدمة، والمباشرة، والانتظام في أصحاب السلطان.

ومما ينقل عنه من تدبيره قوله: وقد نقل عن نمط الفقهاء، والقضاة، إلى

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠): الملك المنصور، حاجب الممالك الأندلسية أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد القحطاني المعافري القرطبي القائم بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس. فإن هذا المؤيد استخلف ابن تسع سنين، وردت مقاليد الأمور إلى الحاجب هذا. فعمد إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها ثم أفرد ما فيها من كتب الفلسفة فأحرقها بمشهد من العلماء وطمر كثيراً منها وكانت كثيرة إلى الغاية، فعله تقبيحاً لرأي المستنصر الحكم. وكان بطلاً شجاعاً حازماً سائساً، غزاءً عالماً، جم المحاسن كثير الفتوحات، عالي الهمة عديم النظير. دام في المملكة نيفاً وعشرين سنة، ودانت له الجزيرة، وأمنت به، وقد وزر له جماعة، وكان المؤيد معه، صورة بلا معنى، بل كان محجوباً لا يجتمع به أمير ولا كبير، بل كان أبو عامر يدخل عليه قصره ثم يخرج فيقول: رسم أمير المؤمنين بكذا وكذا، فلا يخالفه أحد، وإذا كان بعد سنة أو أكثر أركبه فرساً وجعل عليه برنساً، وحوله جواريه راكبات، فلا يعرفه أحد.
وقد غزا أبو عامر في مدته نيفاً وخمسين غزوة وكثر السبي حتى بيعت بنتُ عظيمٍ ذات حسن بعشرين دينار، ولقد جمع من غبار غزواته ما عملت منه لبنة، وألحدت على خَدِّه أو ذُرَّ على كفنه. توفي بأقصى الثغور بالبطن سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. وكان جواداً ممدحاً معطاءً، وتملك بعده ابنه أبو مروان بن عبد الملك. ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٧٨)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٥٦)، بغية الملتمس (١٠٥)، يتيمة الدهر (٢/ ٦٢)، الحلة السيراء (١/ ٢٦٨)، تكملة الصلة (١/ ٤٣٧)، المغرب (١/ ١٩٩)، البيان المغرب (٢/ ٣٠١)، تاريخ الإسلام (٤/ ٩٣)، شذرات الذهب (٣/ ١٤٣).

خواص الدولة، ووجوه الخدمة: قد قطعت الزنار، ونبذت الرهبانية.

وترشح إلى وكالة ولي العهد هشام لسنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

ثم أضاف الحكم له الخزانة، ثم قدمه على خطة المواريث، ثم استقضاه على كور إشبيلية، ثم رقاه إلى الشرطة الوسطى، ثم قدمه إلى الأمانات بالعدوة، ثم أضاف إليه النظر في الحشم آخر أيامه.

وتنفق للسيدة أم هشام بما استهواها به من الخدمة والإتحاف والمهاداة بلغ في ذلك ما لا يهتدي إليه من قصور الفضة، وصحب لذلك خواص العساكر، واصطنع أهل الخصوصية، فما من يوم إلاّ ويرتقي منزلة أو يستزيد أمره.

ولما توفي الخليفة، تقلد حجابة هشام بعده، جعفر بن عثمان المصحفي، وأنهض في اليوم بعينه أبو عامر للوزارة، وتعين بسبب الدالة على السيدة أم هشام رسولاً فيما بين ولدها وبين الحاجب المذكور، فتأكدت المداخلة ولم يكن إلاّ أن شاع خبر مهلك الحكم، فانتقض الطاغية، وشاع كَلَبُه على البلاد، فاضطرب الأمر واستغاث أهل الثغور، وكبر الأمر على جعفر، وندب الوزراء للذب عن الثغور. فقصروا عن ذلك وانقبضوا منه، وأشار بعضهم بإزالة الجسر المتخذ على وادي أنّة بين العدو وجمهور البلاد.

فأنف لذلك محمد بن أبي عامر وانتدب للقيام بالجهاد وتبرع به، وكفى السلطان ما أهمه، وشرع في الحركة، واختار الرجال والعُدة.

وخرج أول رجب سنة ست وستين وثلاثمائة فنازل حصن الحامة من عمل جليقية وحاصره، وفتح ربضة، وقفل غانماً إلى قرطبة عن خمسين يوماً.

فعظم السرور والتيمن بحركته، وبلي الجند من سعة درعه وكرم لقائه وحُسن عشرته وبذخ يديه ما أحسبوه له واغتبطوا به من أجله.

ولما وشجت قرونه، ناصب جعفراً، وابتز عِزَّه، فما زال يدفعه عن مرتبة ويستأثر بها دونه إلى أن أسقطه سقطة لم يستقلها عمره.

واستظهر محمد على المصحفي بسبب نظام الصقالبة المستأمرين بما جاء / [١/١٣٩] حجاب القصر.

وكانوا ينيفون على الألف فيهم من الأكابر المتسمين بالحلفاء زهاء عشرين، يجدون دنيا الملوك العظام، يتقدم الجماعة ما بين وجود ورفيع، وهؤلاء طوائف الخدم، والفحول.

وكان غرض رؤساء الصقالبة العدول عن تولية هشام إلى من يضطلع بالأمر من القرابة، ولهم الحُكم في ذلك. وجرت معهم فيه محاورة ألقت في نفس الحاجب

المصحفي، فجاء ابن أبي عامر من باب هواه في حسم دائهم، فألفاه شديد الانحطاط في ذلك الشغب.

فأُشير على جملة من معتمديهم المنافسين لغلبتهم بالرفع على أكابرهم، وإعلان السكون بهم.

فلما اتصل ذلك يد جعفر المصحفي، وارى هشام والسيدة أمه بدسيس المنصور أن إصلاح بواطنهم آكد في السياسة، برفع حكم ذينك الكبيرين عنهم، فصدر الأمر به، وضاق ذرعهما عن حمله نعرة وتعززاً، وعرّضا بالانصراف عن القصر، فكانت حاجة في النفوس قضيت، فأسعفا بالانصراف عن القصر إلى دورهما بالمدينة، ولهما أتباع وصنائع يطوقون الحاجب المصحفي الموحدة.

ثم عرض على جمهورهم المستبقين بالقصر، اختيارهم من يرجعون إليه.

وقد تقدم لهم في ذلك بتدبير وإطماع كثيراً.

فاختاروا كنف ابن أبي عامر، فحصل له بهم جناح كثيف مباشر للقصر شديد النفور عن جهة صده.

ثم سما في المظاهر عليه إلى أن أجلى من ذلك بمظاهرة كبير مماليك الحاكم غالب ذي السفن صاحب الثغر عليه، وسيف الدولة الحكمية، والناصرية، وأنف عزتها وقد كانت بينه وبين الحاجب جعفر وحشة جرتها الحساد وإن ألقمتها الكواشح.

فتمكن المنصور وعلت يده، وصح بالملك إفراده، وعليه اشتماله، ويغالب، وشيعه استظهاره وضبط المدينة والقصر بابن عمه وثقاته ضبطاً أنس به من سلف من الكفلة وأولي السياسة.

ثم غزا غزوته الثانية، واجتمع بطهره غالب وأظهر من موافقته، والسعي في مرضاته ما استخلص به ضميره، وملك به قياده.

ولما تمّ له الغرض من نكب جعفر المصحفي وإسخاط جهة السلطان عليه:

غرس صنائعه ورجاله عوضاً عن صنائع جعفر وشيعته.

وقدم أولياءه لمراتب الوزارة.

ومن رمى إلى الغرض البعيد من ضبط السلطان والحجر عليه، والاستبداد، وامتثال رسم المتغلبين على ملوك الشرق، وسما إلى ما سمت الملوك إليه، من الاختصاص بقصد ينزله وبلد يسكنه خوفاً مما تجره عليه الحيل / والدخول إلى قصر [١٣٩/ب] السلطان. فابتنى مدينة الزاهرة وانتقل إليها واتخذ فيها الدواوين للأعمال، والحجر للغلمان، والسقائف للحُراس، والقصور للوزراء والخاصة، والاصطبلات للطير

والكراع. وعمل داخلها الأسراء الواسعة، والخزائن الوثيقة.

وانتقل إليها ورتب فيها مقاعد للوزراء وسقائف للعمال.

وكتب: بأن تجلب إليها وظائف الجبايات والأموال وعطل قصر الخلافة وسد بابه، ونصب رسم الشرطة تلقاءه، وأدار عليه السور الحريز الوثيق.

وأشاع: أن السلطان فوّض إليه النظر في أمر الملك وتحلى بعبادة ربه، وبث ذلك في الرعية وأثبته في النفوس مع قوة ضبطه وسرعة بطشه.

فنافسه غالب لما رآه يطوي الدولة طيّاً، وينشئها خلقاً جديداً منسوباً إليه، معروفاً باصطناعه، فأضمر له الخديعة ورجا منه الإزاحة، وصانعه ومال في هواه، ودعا في إحدى غزواته فدخل بظاهر مدينته المدعوة بأنتنيسة من الثغر إلى وليمة أعدها له.

فلما صعد القلعة في خفّ من أصحابه، وانفرد به، شرع في كتافه، ثم كرّ عليه بسيفه فأصابه بجراح أبانت بعض أنامله وأثرت كثيراً بصدغه.

وفر أمامه، فأقحم فرسه مهراً من أعلى القلعة، أصاب عند استقراره شاباط بناء نشب فيه وتخلص جريحاً ونجا من ورطة كانت النجاة فيها غريبة من آيات سعده، وامتنع غالب بمعقله.

وبادر المنصور إلى مدينة سالم حيث دار غالب وولده، فسبق إليها الخبر، وقد ضمن له كاتب غالب أمرها، فاستولى عليها وعلى جميع ما كان له من مال ونعمة، ففرّق ذلك كله في الجيش ولم يستأثر به، وقفل إلى الحضرة.

واستجاش غالب من ملوك النصارى ومن يرى رأيه في الخلاف على ابن أبي عامر.

وكان غالب فارس الأندلس غير مدافع، وأبا الأبطال، ومخرج الفرسان والشجعان، ودَمِنَ الحروب، وبرز المنصور، فأتيح لغالب الظفر عليه، وكسر جيشه، وأسر وزراءه، وتكرر ذلك حتى ظن بابن عامر الإدبار وهو مع ذلك جاد في مطالبة غالب ومعاودته إلى أن أراه الله ما لم يكن يحتسب من آيات نصره.

قال المؤرخ:

نهض ابن أبي عامر في جموعه إلى مدينة سالم للقاء غالب، وقد كان غَرْسِيَة دخل إلى بلده عند حركة ابن أبي عامر ليذبه عنه، وهو يرى أنه قاصد لعادته، فلما استبان قصده لغالب، خرج إليه في جمع من النصارى فيهم طائفة من البشكنش مع ملكهم رُذْسير بن شانجة المعروف بذي قربة.

فنهض إليهم ابن أبي عامر إلى أنتنيسة حتى نزل حصن شنت بجنت بالقرب من

[١/١٤٠] أنتنيسة / يوم الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة إحدى وسبعين، وبرز له غالب، وقد عبأ ابن أبي عامر عسكره أحسن تعبئة، فصار في القلب مع الغلمان وطائف جند الحضرة، وصير الوزير جعفر بن علي مع البرابر في الميمنة، وأبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، وحسن بن أحمد بن عبد الودود في معظم أهل الثغر في الميسرة، فأطلقوا عقال الحرب يوم الخميس المذكور، ويوم الجمعة، وتواعدوا الصدق في غدة يوم السبت، وافترقوا على محاجزة، فأصبحوا يوم السبت لأربع خلون من المحرم على تعبئة، ووقعت الحرب في الحرب في كل جهة، فاشتدت وحمت، وأقبل غالب لما اتسع الضحى من هذا اليوم على فرس له مذكور عليه درعه السابغة وعلى رأسه طشتان مُذَهّب مرتفع السمك قد عصبه بعصابة حمراء أعلم بها، وشد جبينه بعصابة أخرى، وقد قارب في وقته الثمانين سنة، حوله كبكبة من أنجاد غلمانه وحماة رجاله، فوقف ينظر في صفوف ابن أبي عامر مصعداً أو مصوباً.

ثم قال لمن حوله: من هؤلاء؟ وأشار إلى الميمنة.

فقيل: ابن الأندلسي والبرابرة.

فقال: الأعداد وراء القابلة، شدوا عليهم.

فحمل عليهم حملة فصنهم فيها، ولم يثبت قدامه أحد، وانتقضت لجولتهم الميمنة، ثم عاد غالب إلى موقفه، فقال: من أولئك؟ وأشار إلى الميسرة.

فقيل له: معن، وصنيعتك ابن عبد الودود مع الجيران والصحابة.

فقال: الغادرون أولو القطيعة خصوهم على اسم الله بحملة.

وشد عليهم ثانية كالليث الغادي، فانقلعوا قدامه طائرين لا يلوي أحد منهم على صاحبه.

فاستوى له فض الجهتين في وقت، والقلب قائم مكانه يضبطه ابن أبي عامر بهيبته وهو على أحد من الحفر يصفق بيده دَهِشاً ورجلاه تضطربان في ركابه، ينظر من أين يحاط به، ولا يشك حتفه، وهو مع ذلك يُطمئن نفسه، ويردّ حائل مكروهنا فيسكن جأشه.

وخرج غالب من غمرة الشدة الأخرى، فخرج إلى موقفه، وقال لأصحابه: كيف ترون عاقبة الصبر؟ قد كسرنا جناحي القوم، وبقي القلب، وإنما ثبت من فيه حياءً من هذا الأحدب الملعون - يعني ابن أبي عامر - وليسوا ذو حفاظ، فما أخلفهم بإسلامه، فاصدقوا الحملة عسى الله أن يمكن منهم بغدرته. ثم رفع يديه وقال: اللهم إن كنت تعلم أن بقائي أصلح للمسلمين، وأعود عليهم من بقاء محمد بن أبي عامر فأهلكه وانصرني عليه، وإن كان هو أولى بذلك مني فانصره عليّ وأرحني. فكانت مُباهلة حكم الله فيها لمحمد.

وحمل غالب على أثر ذلك، وخوض القلب، وخلط بين صفوفه / وثار نقع [١٤٠/ب] عظيم فقد فيه شخصه، وسقط في مجال الخيل، فحار فرسه، وأصيب محمولاً بجنبه . . . [١] من السلاح في جسده، فقيل: إن قربوس سرجه الأندلسي، وكان شديد الإسراف عزيز، بجانبه قوة ضربة أصابت جانب قلبه.

وقالوا غير ذلك، ولم يتيقنوا حتفه إلى اليوم، وقد زعم قوم من غلمانه أنه عدل عنهم في أول هذه الصدمة عقب المباهلة فانحازوا عنه ورأوا أنه يريد الحاجة، وتوارى عنهم في وهداه فأبطأ، فاستشرفوا حاله فوجدوه ساقطاً ميتاً لا حراك به وفرسه يعلك اللجام بقربه فسقط في أيديهم، وانحرفوا على وجوههم.

وسبق إلى ابن أبي عامر رجل من أصحاب غالب، فبشره بهلاكه، فلم يكد يصدقه حتى جيء بيده وفيها خاتمه، ثم جيء برأسه، فخرّ ساجداً، وكبّر المسلمون تكبيراً خلع قلوب المشركين، وولوا على وجوههم طائرين بكل سبيل، ولم يكن لهم معرج على أنتنيسة.

وركب المسلمون أحفارهم فقتلوا منهم خلقاً عظيماً فيهم ذي قربة، ونجا غرسيه، ولم يكرر إلى بلاده، واستضاف ابن أبي عامر جيشه وبلاده وأمواله، ليعلم أن الله على كل شيء قدير.

فلما استوسق له الأمر، وتقررت له فوق المنابر الألقاب، وخضعت له الرقاب، أعمل الحيلة على جعفر بن علي، بأن نادمه ليلة، وانحط في هواه، وتنازل إلى ما لم يعتد منه، وسقاه، وأغرى السقاة به، ثم أرصد له في طريقه إلى منزله من ثار به وقتله.

ونادى بترات سالفة منسوبة إلى أيامه بإفريقية، ولم يغب ذلك عن أخيه فصرح به بما أوجب مكانه وإزعاجه عن الأندلس إلى المشرق.

وكرّ من بعد ذلك على ابن عم لنفسه ابن أبي عامر.

ولم يُبق يداً يحذر بطشها إلا شلها، ولا عيناً بريبة تنظرها إلا فقأها.

وفرغ عن أمر القصر سداً لا نبأ لها، واستطلاعاً مع الأنفاس لجريات حركاته وإذكاء للعيون على من به، واستناداً بسقائفه إلى ثقاته، مع بر من به، وإيجاب حقه، وإنساء رزقه، والغيرة على حرمه، والصون لحشمه، وحفظ رسومه، ومواصلة تفقده ومطالعته، فلم تفقد الخاصة ولا العامة إلا الأعلام والأعمال، ثم نيابته شيئاً من وظائف ملوكهم وأئمتهم، بل عُرفت الزيادة والتوسع والاطلاع بأمور الدين والدنيا.

---

(١) موضع النقط ثلاث كلمات مطموسة.

صرف سعيه إلى الجهاد وتمهيد البلاد، فأسهم بفرسان الهيجاء، وأبطال الكريهة وأعلام السمرة من فرسان العرب وزَنَاتَه الواردين على بابه في سبيل الحسائف، [١/١٤٣] والدماء الواقعة بينهم وبين ناسهم فارتاش منهم بأجنحةٍ وافرة / . . .[١]/ وودعه وجعل يقبّل وجهه ولحيته.

قال: وأرسله نحو المدينة، فوطنا على بعد، ثم أرسل أخاه عبد الرحمٰن خلفه إلى جهة أخرى، وتحول من العرنين إلى الحجارية عند. . . فركبها ولا يكاد يملك أطرافه رجفاً ورعشاً وإنما ركبها توطيناً لمن حوله ممن ثبت مقامه، وكان إلى جنبه جُملة من جنائبه.

فقال لي: لا ترد عنها أبداً، فإنهم أولى بها من العدو.

وظل قائماً في جمعه يستغيث بالله وينشده عهده، والحرب تقوى، والأمر يصعب إلى أن اشتد له مع اشتداد الزلزال رأي كأن من أقوى أمنيات الفتح، وذلك أنه أمر برفع محلته عن الربوة التي أعجله العدو عن الظهور منها إلى الربوة التي كان قائماً عليها.

فصاح بمن حوله في إنفاذ الثقل، وأوعدهم على تأخيره، وجعل لهم على السير به إلى ذلك التل جعلاً وافراً، فوافوا به لوقتهم حملاً على الأعناق.

فلما عاين العدو شخصه سقط في أيديهم وعلموا أن بالمسلمين قوة ووراءهم مدد، فنكصوا عقب ذلك، واستمرت الهزيمة بهم، وركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم كيف شاؤوا.

ووجدت الحبال بأيدي أكثرهم وقد أخذوها ليفرقوا أسرى المسلمين.

وغنم جميع ما في محلتهم من الكراع والسلاح والآنية، واتبعت الخيل منهزمتهم فراسخ فأصيب كثير من فرسانهم، ونصر الله المسلمين عليهم نصراً ما سمع بأعظم منه.

واستشهد في هذه الوقعة من صنوف المدونة وغيرهم أزيد من سبعمائة رجل وذلك يوم الاثنين لست بقين من شعبان سنة تسعين.

ولم يجم المنصور عن وجهته، بل أوغل في أرض قشتهبلة، فافتتحها يوم الفطر من هذه السنة.

وفصل منها إلى بليلونة، فأثّر هناك آثاراً عظيمة.

ولم يظهر إليه بالبلدين أحد.

---

(١) سقطت الورقة [١٤١/أ،ب]، الورقة [١٤٢/أ،ب].

ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى مائة وتسعة أيام.

وعتب المنصور على كافة جنده، فأظهر من نكوصهم، وأمر كاتبه على الرسائل عبد الملك بن إدريس بإنشاء كلام انتخبه القواد ليقرأوه على كافتهم منه.

فصل

وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون مُلاقاة الرجال الفحول، فحين جاءكم ذلك بالأمنية وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفتم حتى برزتم فراراً ليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الربال عن المقشصي، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار، وحرروا رقابكم من الذل، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم، وخرجت للإمام والأمة عن عهدتكم، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر، وحُسن / عُقبى، فلا بد أن ينصر دينه بمن شاء. [١٤٣/ب]

وفي ذلك يقول صاعد يهنيء بهذا الفتح، وهي من أفخر شعره:

جددت شكري للهوى المتجدد ... وعهدت عندك منه ما لم يُعهد

اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى ... غضاً وعاد الملك عذب المورد

ووقفت في ثاني حنين وقفةً ... فرأيت صنع اللّه يؤخذ باليدِ

من فاته بدراً وأدرك عمره ... جرفيد فهو من الرعيل الأسعد

فوددت لم حتم القضاء بأنني ... في القوم أول طالع مستشهد

ما أستكين لروعة ومحمد وبنوه ... أنصار النبي محمد

عهدي به واللّه ينظر صبره ... والموت بين مصوب ومصعد

غطى عليه المشركون فلم يكن ... في القوم إلا صخرة في فَرْقَدِ

حتى تحصن بالملائكة التي ... حفته بين معفر ومردد

حملت بأيديهم عليك نشيجة ... كالسيل يحطم جَلْمُداً عن جلمد

ورأوك فارتدوا على أعقابهم ... مثل ارتداد تنفس المتنهد

وركبت فَلّهم بكلِ مهندٍ ... يقضى به في الروع كل مهند

ما ناجزوك وفي الجوانح موضع ... لتصبر ومكانه لتجلد

طال الشقاء عليهم وتبرموا ... بالجيش في الذلّ المقيم المقعد

فتحالفوا لمُحنث وتجمعوا لمفرق ... وتألفوا لمبدد

ثم واصل المنصور الغزو بنفسه وولده، ورجاله، على شانجة ملك النصارى

حتى أذعن لائذاً بعفوه، واستأذنه في القدوم عليه بنفسه، فأذن له وسُرَّ بمجيئه سروراً ما سُرَّ قط مثله.

فتقدم في الاستعداد له واستحضار طبقات الأولياء.

فوصل لثلاث خلون من رجب سنة اثنتين وثمانين.

وأركب المنصور الجيوش والمطوعة لتلقيه في دخوله قصر الزاهرة.

فكان يومه أحد أيام الدنيا الشهيرة حتى بهت الذي كفر، ورأى من وفور المسلمين ونباهة أسلحتهم، وجمال زيهم، وكثرة عددهم، ما لم يكن ظاناً أن الدنيا تجمعه، ولا الأيام تحشده، ولا الخزائن تكنفه.

[١٤٤/أ] ولقيه ولد المنصور عبد الرحمٰن ـ حفيده من بنته كما قدمنا ذكره ـ وقد / حف به وزراء السلطان، ووجوه القواد، وأكابر أهل الخدمة، والمماليك، في أحسن زي وأكمل تعبئة.

فلما وقعت عينه على الصبي ترجل وباس رجله فأمر بالركوب وأقبل معه إلى أبيه وهو بين صفي حديد حفاف الطرفين أميالاً، ثم إلى الدروع الشابرية والجواشي المذهبة، والأبطال قد لبسوا الشوق والسواعد، واستبغوا الحلي، وعلقوا الدرق، وخلفهم صفوف الرُّماة مشدود عليهم المناطق المذهبة.

والملك الرومي يقلب الطرف قد غشي قلبه ذعراً، إلى أن وصل إلى مجلس المنصور في الساعة السابعة من النهار، وقد قعد له أفخم قعود وأعلاه مرتبة، مكتنفاً سريره بالوزراء وأعاظم رجال الدولة، وامتد الوصفاء والصقالبة صفين من باب المجلس إلى باب القصر.

فحين وقعت عينه على المنصور بن أبي عامر أهوى إلى الأرض مقبلاً، يعيد ذلك مرات وهو يستدنيه حتى قبّل رجليه ويده.

وأمر فألقي له كرسي مُذهب قعد عليه، وأشار فخرج الناس، وخلا به، قاضياً وطره من عدله والعِلج يقابله بالاعتراف.

ثم خرج وتبعه بالخلع السلطانية، ومشت بين يديه المراكب والبدور، وما انفض المجلس إلا تحت جناح الليل.

ولما حصد ابن أبي عامر شوكة النصراني بقشتالة وليون وما إلى ذلك الصقع، صرف الوجه إلى غزو الفرنجة المتصلة بأرض إفرانسية، ورومة، وهي الأمة التي لا يطاق قتالها صبراً وسلاحاً وجفوة وكثرة فدوخها، ودخل برجلونة، وكان مما اتخذه لقتالهم القرامد التي تغشى بها السواعد من الهند، ليتلقى بها الفرسان سيوف الفرنج من فوق رؤوسها ووجوهها وتقتحم بها الشدائد مفرجة بها.

وإن أطلنا في أخبار ابن أبي عمر القول فلم نقف عند غاية منها، فقد أجمع المشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له، وأصحب سعداً لا نحس يخالطه، وأعطى إقبالاً لا إدبار معا، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره.

ولقد حذر يوماً من رجل ينبز بالربو بالربذ بالشؤم تعلق وقصت عليه أخبار من شؤمه، فقال المنصور: لا مرحباً بسعدى إن كان لا يعفى على شؤم هذا ومثله.

فزعموا أن حال ذلك الرجل استقلت بمعرفته إياه. وكان الناس يعجبون من نجح رأيه كلما ارتكب في الشورى مخالفة أو سك مضاضة، وكان رئيساً وقوراً إذا خلى كان أحسن الناس مجلساً، وأبرهم بمن يحضر منادماً ومؤانساً، وكان شديد القلق من التبسط عليه والواله لا يغفرها ولا يحلم عنها جريرة، ولم يكن / يبلغ في [١٤٤/ب] نقصان الهيئة وحفظ الطاعة أحداً من ولد ولا في خاصة، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف وحكاياته بهذا الكتاب شهيرة.

وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي يخلقه إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله لا يفضل لذة على لذة تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره ينفذ الأمور والكأس تدور والجبال للطرب تمور.

زعموا أنه أكثر في ذلك ليلة على كاتبه الأخص عيسى بن سعيد، وكان أول كاتب له قبل ملكه، فكان ينبسط عليه فسأله خدمته وقديم صحبته، فلما باعد بينه وبين شهوته، وقطع به عن لذته قال: اللهم غُفْراً إما شراب ولذة، وإما خدمة ومشقة، فإذا عزت عليّ صلة النهار بالليل فاسكت المسمعة، ولتحضر الخريطة، ثم امر بما شئت نقم به على الحقيقة. فخلط الجد بالهزل مفسدة، وإنما نستجم بهذه الساعة الضيقة لقطع الأوقات الطويلة.

فضحك المنصور وقال: أضمرت يا عيسى، وليس منا في شيء ومن عدل بالأمر والنهي لذة، فقد انتفى من الذكورة، ثم توفر ببقية الليل على المنادمة.

وحدث فتاهُ شغله مُلازِمه، قال: غلب على الفجر عند مولاه، وقد اختلفت ما بينه وبين الخليفة، فكان يفر على الحرم، ويصعد إلى قبته المسماة بـ«لؤلؤة» وغيرها من مستشرفاته يرعى النجوم وينفرد بنفسه، ويكب على الفكرة والشمعة بين يديه، والدرج مُلقى على الدواة إلى جانبه، فإذا ثاب له رأي أثبته، ولا يزال كذلك إلى أن يدنو الفجر فيستلقي على مهاد يجده في كل وجهه من أماكن خلوته فلا يتحصل له على حقيقة مكان مرقده، ولا يزال قائماً على القدم حتى يُدنى منه سواكه ووضوءه، ويؤذنه المؤذن بالصلاة، فيقضيها، ويربط الدرج في منديل كمه ويرفع الستر عنه

فيدخل من رسمه البكور من الخاصة والوزراء والصحابة فيناظرهم فيما رسمه ليله ويأمر بتنفيذ ما شاء الله منه إلى أن يرتفع النهار ويجتمع الناس فيأخذ في النظر العام ويناولني الدرج فأقطعه صغاراً وأغرقه فيما ورد بحضرته حتى تخفى أجزاؤه.

ولقد قلت له: قد أفرط مولانا في السهر، وبدنك يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يجرك عليه السهر من علة الغضب.

فقال: يا شعلة، حارس الدنيا لا ينام إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد عين نائمة ولو كنت من صاحب القصر - وأشار إلى ناحية الخليفة - على / مثل مسافة بسطة لأحرمت النوم، فكيف وإنما بيننا من أصبحه وأمساه [١/١٢٥] أنماره في بناء الثغور، وزيادة المسجد الجامع، والجباب لسقي الناس، وبنيان القناطر بنهري قرطبة واستجة، فآثار عظيمة ولو لم يكن من الآثار غير الزاهرة ذات القصور الفخمة، والمنتزهات المخترعة.

وكان من شدة حذره من الحادث الواقع بعد دولته، وتقية المكروه من جهة أهل بنت سلطانه، قد اتخذ رجلاً ثبتاً أميناً جعله عيناً على من بالمدينة من ولد الخلفاء، وأمر المروانيين مع ذلك بلزوم منازلهم في المدينة، وحظر عليهم الركوب والخروج رأساً إلا لضرورة، ووكل بهم ثقات من مشيخة الفتيان الحاكمين على دول متعاقبة يطالعون ما ينكرونه من أحوالهم، وأخذ بتقريب من حولهم إلاّ لمن يأذن فيه من غلام أو وكيل أو معلم أو طبيب، وحذرهم صحبة سواهم من الناس.

وألزمهم القصر في أمورهم والإقبال على ما يعنيهم.

وكان يأخذهم بالخروج معه إلى الغزوات حتى خشعوا واقتصروا على بيوتهم، وأهمتهم أنفسهم.

وكان له كاتب يدور في الدواوير يترصد ما يجري من قصة أو يحدث بين ولاتها من مناظرة، فيثبت ذلك، ويطالع به. وكان شأنه في الأخذ على المتكهنين والمنجمين ومن ينذر بذكر قاطع على الدولة أو اقتراب من المدة، فكان يمتعض لذلك ويذهب فيه بقطع الأعناق والألسنة بعد العقاب الأليم.

وكان أحرص الناس على التثمير والاعتمار والمشاحة للعمال. وعلى الجملة فكان نسيج وحده في صقعه، وقل أن يسمع بمثله في غيره.

قال بعض من تغنى بأخباره: كان آية من آيات الله فطرة ودهاء ومكر وسياسة، أنحى بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم. ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه.

ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر: هل من مبارز؟.

فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره.

ومن أعجب أحواله أنه كان على بصيرة من أمره هانئاً بما دخرت له الأيام في حداثة سنه، فكان يتكلم في ذلك بين أصحابه ولداته، ويشير بما خبأ الله له من غيبه.

فحدث ابن أبي الغياض في كتابه قال:

أخبرنا الفقيه أبو محمد علي بن أحمد، قال: أخبرني محمد بن موسى بن عدرون قال: أخبرني فقال:

اجتمعنا يوماً في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة ومعنا ابن أبي عامر وهو في حداثته وابن عمه عمر ابن /عمه فلان، والكاب بن السمسار عزا ورجل يعرف بابن [١٤٥/ب] الحسن من جهة مالقة، وكانت معنا سفرة فيها طعام.

فقال المنصور من ذلك الكلام الذي يتكلم به: لا بد لي أن أملك الأندلس، وينفذ حكمي فيها، ونحن نضحك منه، ونهزأ به.

وقال: تمنوا عليّ.

فقال ابن عمه: نتمنى أن تتولى المدينة.

وقال ابن المارعزا: نتمنى أن نتولى السوق.

وقال ابن الحسن: نتمنى أن توليني القضاء بجهتي، فإني أحب التِّين حتى أتشفى من أكل التين.

قال موسى بن عدرون: وقال: تمنى أنت.

قال: فأسمعته كلاماً قبيحاً.

فلم يك إلا أن صار المُلك إليه، فولى ابن عمه المدينة، وبلغه أمله من ضرب الأبشار.

وولي ابن المارعزا السوق.

وكتب لابن الحسن بالقضاء عساه يشبع من التين.

قال: وأغرمني أنا مالاً عظيماً أجحفني وأفقرني لقبح ما كنت جئته به.

قلت: والشيء يذكر بالشيء، وقف عندي على هذه الحكاية الشيخ القاضي اليوم علي بن الحسن الملقب بجعسوس أطروفة الدنيا وأضحوكتها شكلاً وعلماً وخلقاً، فحسبها فرصة تغتنم، فضعف عقله وظهر له باشتراك اسمه مع ابن الحسن المذكور أن ينسخ من هذا الكتاب عدة نسخ، أنفق عليها ما تضفي عنه حاله الضعيفة، وجعل كلما فرغ من الكتاب باعه، وهداه، لا يقف في ذلك عند حد ولا غاية.

فقلت للكاتب ابن زمدك المولع بالعبث به، وحفظ نوادره: ما ترى ما يذهب إليه أبو الحسن بن الحسن من اقتصاره على نسخ هذا الكتاب والاشتغال به عن ضرورياته؟

فقال لي: إنه سمع الحديث: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم».

فقدّر جارياً على أقيسته الفقهية: أن كل مكثر لشيء ما فهو مأجور.

فقلت له: أجري الحديث بحضرته إذا جاء إلينا للطعام.

ففعل، فقال: يا سيدي هو ذكر جميل وفيه فخر للولد.

فقلت: سبحان الله، وعلى فرض أن يكتب بظهر كل منتسخ: عقد بأنك ابن الحسن، وأن هذا جدك، وأي فخر فيمن تبين أن سبب طلبه القضاء الذي يستعفي عنه أهل الفضل والورع هو حب التين والشبع من أرماطه وهي شهوة يتوصل إليها في ساحلكم ببيضة دجاجة، أو كسرة خبز، بل بغير ثمن، وهلا إذا ظهر له أن يذكر السبب؟

قال: لنجري الأحكام بالحق أو أن نستدعي الشهود، وننظر في الأجناس الضائعة، أو سكت وطلب القضاء فقط.

وأما جعل هذا الرطيب الدني ذريعة ووسيلة إلى الشبع من التين، فلا يقوم مدح صاحبه بالقضاء، وتعرفه بابن أبي عامر في وقت الخمول بمدينة النهم والخسية إنما كان الأمر يقرب لو قال المؤرخ:

رغب أهل مالقة في تقديمه، واستخار الخليفة الله فهداه إليه.

ولو أدركت هذا الرجل الذي ترغب في الخلاص إليه للقيته بطير العصير، وهو عندنا طائر معروف يأكل التين.

فقال: يا سيدي، ومتى ينظر أحد بنظرك أو يعطي هذه الأشياء ما تعطيها من اعتبارك ما ثَمّ اليوم أحد من العلماء يصل بفكره إلى مثل هذا.

فقال ابن زمرك: حضرني أبيات أخاطب بها سيدي الفقيه.

فقلت: افعل.

فأنشده هذه الأبيات وهو من المستظرف معناه:

أحافد عند التين يملأ بطنه ... من التين والمسوى لهم من غير

لقد كنت قبل اليوم فيك محيراً ... إلى أن هديت للفكر منه لليسر

فقد طبت من طهر العُصير نسبه ... فخرت بها بين القضاة على الغير

فأنت إذاً من دون جدي نابت ... كما تنبت الأشجار من رق الطير

وذهبنا في الدعابة على مذهب وحرد، وأراد أن يجيبه فارتج عليه.

والنوادر المتعلقة بذكر ابن الحسن هذا المتأخر غريبة جداً قد تضمنها كتاب يسمى بـ«خلع الزمن في التعريف بأحوال ابن الحسن»، مما دوِّن للمولى السلطان المقدس أبي فارس عبد العزيز رحمه الله، لا شيء فوقه في الظرف والاستظراف يسلي الثكالى، ونستغفر الله تعالى.

رجع الحديث(١)

وكذلك كان المنصور على علم من مدته، فحدث ابن مروان عن أبيه عن أحمد بن سعيد بن حزم وزير ابن أبي عامر الأخص به، قال:

كنا معه يوماً بالزورق وهو مركب النزهة في النهر بين يدي قصر الزاهرة في نفر من خاصته، منهم أبو عمر أحمد بن محمد بن حُدير، ومحمد بن أبي عامر يصعد ببصره ويصوب في قصوره بالزاهرة(٢)، ومصانعه المطلة، ومبانيه المشرفة، وقد قيدت الألحاظ حُسناً وبهجة، فقال محمد:

---

(١) أي عود على بدء، حيث انتقل من الحديث عن التاريخ وأخبار المنصور إلى تلك الطراقات والنكت الظراف للترويح عن القارىء.

(٢) هي في معجم البلدان لياقوت: «الزهراء»، ووصفها بما جاء في هذا الكتاب من حسن بناء وتقسيم النفقة أثلاثاً وجلب الجبايات والأرزاق إليها وجعلها مقراً للحكم، ثم ذكر في مدح الشعراء لحسنها نماذج من أشعارهم فقال: وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وعظم النفقة عليها، وقول الشعراء فيها، وصنفوا في ذلك التصانيف، وقال أبو الوليد بن زيدون يذكر الزهراء، ويتشوقها:

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح … تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقاصر ملك أشرقت جنباتها … فخلنا العشاء الجون أثناء هاجحا
يمثل قرطبها إلى الوهم جهرة … فقبتها فالكوكب الرّحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه … إذا عزّ أن يصدى الفتى فيه أو يضحى
تعرضت من شدو القيان خلاها … صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
أجل أن ليلى فوق شاطىء نيطة … لأقصر من ليلى بآنة فالبطحاء

وقال أيضاً:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً … والأفق طلق ووجه الأرض راق
وللنسيم اعتلال في أصائله … كأنما رق لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم … كما حللت عن اللبات أطواق
يوم كأيام لذات لنا انصرمت … بتنا لها حين نام الدهر سراقا

وذكر زهراء أخرى فقال: والزهراء أيضاً موضع آخر في قول مصعب بن الطفيل القشيري:

نظرت بزهراء المغابر نظرة … ليرفع أجبالاً بأكمة آلها
فلما رأى أن لا التفات وراءه … بزهراء خلى عبرة العين جالها

واهاً لك يا زاهرة الحُسن، لقد جمل مرآكِ، وراق منظركِ فليت شعري من المدبر المشؤوم الذي يهدمك؟!

قال: فاستعظمنا ما كان منه وحسبنا أن النبيذ أعمل فيه.

وأفرط أبو عمر في استنكار ما جاء به حتى تحداه بالقول، وقال له: كأنك تسمع بهذا يا أبا عمر وهو عندي وعند سلفك عن صاحبكم الحكم كالحتم المنتظر، ولكن تتجاهل سيظهر عليها عدونا فيهدمها ويلقي حجارتها في هذا النهر.

فأخذنا في التعليل لهذه الآثار.

وقال: كان المنصور يعلم الذي يزول أمرهم على يديه وصفته بما اطلعه من تلك الآثار وجلب أحاديث اختصرناها.

[١٤٦/ب] وتوفي المنصور / رحمه الله منصرف غزوته إلى بلد برغومس، ثم أحب قشتالة بمدينة سالم التي بناها بوادي الحجاز من الثغر وشيدها وأقامها في نحر العدو، محمولاً إليها من بلد الحرب على الرؤوس عزيزاً على فراش التجلية وحجاب الملك والعمل المختوم بالجهاد ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة[١].

ودفن بصحن قصرها، وقبره هناك.

أخبرني به بعض الطلبة ممن وجهته لتأكيد عقد الصلح مع صاحب قشتالة، فدخل مدينة سالم في محريقة، وقد أوصيته إلا أن رسومه من شعر منقوش، وتاريخ مكتوب وأمر منوه به مفقود.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث تلك السنة: وفيها توفي أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافري الملقب بالمنصور أمير الأندلس مع المؤيد هشام بن الحكم. وكان أصله من الجزيرة الخضراء من بيت مشهور بها، وتقدم قرطبة طالباً للعلم، وكانت له همة، فتعلق بوالده المؤيد في حياة أبيه المستنصر، فلما ولي هشام كان صغيراً فتكفل المنصور لوالده القيام بأمره، وإخماد الفتنة الثائرة عليه، وإقرار الملك عليه فولاه أمره. وكان شهماً شجاعاً قوي النفس حسن التدبير، فاستمال العساكر وأحسن إليهم فقوي أمره وتلقب بالمنصور، وتابع الغزوات إلى الفرنج وغيرهم، وسكنت البلاد معه، فلما يضطرب منها شيء. وكان عالماً محباً للعلماء، يكثر مجالستهم، ويناظرهم. وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه وصنفوا لها تصانيف كثيرة.

ولما مرض كان متوجهاً إلى الغزو، فلم يرجع ودخل بلاد العدو فنال منهم وعاد وهو مثقل، فتوفي بمدينة سالم. وكان قد جمع الغبار الذي وقع على درعه في غزواته، فكان شيئاً صالحاً، فأمر أن يجعل في كفنه تبركاً به. وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، وكانت أيامه أعياداً لنضارتها، وأمن الناس فيها رحمه الله، وله شعر جيد، وكانت أمه تميمة. ولما مات ولي بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك، فجرى مجرى أبيه.

وحدَّث مَن سمعه يوصي ابنه عبد الملك في مرضه الذي مات فيه، فقال له:

يا بني لست تجد أنصح لك ولا أشفق مني عليك، فلا تتعدين وصيتي فقد جودت لك رأسي ورويتي على حين اجتماع من ذهني فاجعلها مثلاً بين عينيك، وقد وطئت لك مهاد الدولة وعزلت طبقات أوليائها وقايست لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت لك جباية تزيد على ما يقويك بجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدي الإنفاق، ولا تغض لظلمة العمال، فينحل أمرك سريعاً، فكل سرف إلى اختلال، فاقصد في أمرك جهدك واستلبث[١] فيما يرفع إليك أهل البطالة، والرعية قد استصفيت لك تقويمها وأعظم مناها إلى أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبة.

وصاحب القصر[٢] قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قِبله شيء تكرهه، والإلفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب به فلا تنم عن هذه الطائفة جهدك، ولا ترفع عنها سوء الظن[٣] والنميمة[٤] وعاجل بها من خفته على أقل تهمة[٥]، مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه، فليس لك ولأوليائك شيء يقيكم الحنث في يمين بيعته إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة[٦].

وأما الانفراد بالتدبير مع ما بلوته من جهله وعجزه فإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنَّة، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند شدة تخاف منها على سائر جسدك[٧].

---

(١) يريد: تريث فيما يرفع إليك الوشاة حتى لا تظلم أحداً من حاشيتك أو رعيتك.

(٢) يريد: هشام بن الحكم المؤيد بالله وأنه لا يتحرك إليه إلا أن يحركه من حوله ممن يرغبون في السلطان.

(٣) يريد أن ينبهه على أن يحذر ممن يظن به أن تكون له مصلحة في القضاء عليه أو اغتياله، هذا في أمر الملك، وفي الأمور العامة يجب على الإنسان أن يحذر ولا يُخَوِّن حتى لا يتهم مسلم بالظن الذي هو أكذب الحديث، وبئس مطية الرجل زعموا.

(٤) يريد: التجسس على من يظن به هذا الأمر حتى يأمن جانبه، وأن يكون على بيِّنة من أمره حتى لا يباغته بما يكره، ويقصد بالنميمة هنا أيضاً: النقمة أو عاجل بالانتقام.

(٥) هذا هو شأن كل حاكم إلاّ من رحم الله، فمن أجل البقاء في سُدّة الحكم فهو يضحي بكل غال ورخيص بادئاً في ذلك ببنيه فهو يقتل بنيه إن ظن منهم ذلك، ويقتل الولد والده في عصورنا هذه فكم من حركة حدثت قلب فيها نظام الحكم من ولد على والده حتى في بلادنا العربية.

(٦) يريد: أنك عليك أن تعطي هذا الرجل حقه بما استوجبه عليك من يمين البيعة التي أخذها عليك في أن تقوم له بالأمر نيابة عنه على أن لا تحيد عن الحق والعدل وترعى في ذلك كله حق الله تعالى وما شرعه الإسلام، والإسلام في الواقع لا يقرّ من ذلك شيئاً إنما يفعل باسمه ما يَهوى الملوك.

(٧) هذه النصيحة الخاصة بالمال المدخر عند والده المظفر إنما هو بمثابة الأموال السرية التي يحتفظ بها =

وأخوك عبد الرحمٰن قد صيّرت له في حياتي ما أرجو أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته من الثغر لئلا يجد العدو مسعى بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقرة إلى دولتي، وقد كفيتك الخبرة فيه فاكفني الحيف منك عليه، وكذلك سائر أهله فيما صنعت بهم بحسب ما قدرت به خلاص من مال / الله الذي بيدك وخلافتك أحرى مما صرفته إليهم، فلا تضع جميعهم، والحظهم بعينيّ فإنك أبوهم بعدي، فخرج ذكورهم باستخدامك، والحِف بناتهم جناحك جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليهم. [١/١٤٧]

وإن انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل، وإن اعتاصت[١] عليك فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة، ولا تبطر[٢] بك ولا بأحجابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني أمية وشيعهم بقرطبة، فإن قاومت من يوثب[٣] عليك منهم، فلا تذهل[٤] عن الحرم فيهم، وإن خفت الضعف فاقتبذ[٥] بخاصتك وغلمانك إلى بعض المعاقل التي حصنتها لك.

واحتقر غدك إن أنكرت يومك، وإياك أن تضع يدك في يدّ مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم[٦].

= الملوك في خزائن خاصة بعيدة عن دواوين الحكومة، وتسمى مصاريف سرية في عصرنا الحديث. ومنها ما لا يطلع عليه أحد كما يشير المنصور إلى ابنه بأن لا يخرجها إلا في أشد الحالات، وضرب له بذلك مثلاً قوياً لا يحتاج معه إلى زيادة إيضاح حيث جعله محل السمع والبصر إذ لا يمكنه الاستغناء عنهم إلاّ في حالة التخيير بينهما وبين إتلاف حياته كلها، أي قتله، فهنا يكون أخف الضررين فهو يوصيه أن يحافظ عليه لتقلبات الزمن، وكذا على كل عاقل إن كان الله قد وسع عليه فيجب أن لا ينسى أن يفعل ببعض ماله ذلك ويخاف من حساب الله تعالى له من بعد الموت ما دام يدفع زكاته. بل لا بأس بذلك ولا شبهة فيه حيث وصف الله تعالى المال المدخر المتبقي بعد موت الميت بالصفة الطيبة فقال سبحانه وتعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ [البقرة: ١٨٠] فسمى الله ما ترك من المال «خيراً».

(١) أي لم تطعك وتلين لك فلا تسلم قيادك لخصمك بسهولة من أول الأمر.
(٢) أي لا تنسيك النعمة ولا تجعلك متكبراً غافلاً.
(٣) ثار بك أو قاومك منهم أحد أو خصم.
(٤) أي لا تغفل حقوق الحُرمة فيهم.
(٥) أي فتحصن ولذ بهؤلاء فإنهم أمان لك.
(٦) قلت: إن صحت هذه الوصية من المنصور لولده المظفر لهي أغلى من كل جواهر ويواقيت الدنيا فقد جمع له فيها كل سياسات الحكم ومعاملة الرعية وعلاقته بإخوته وأهل مملكته وقصره وخواصه وأصدقائه وأعوانه وأعدائه وكيفية الاحتراز منهم، وأعدائه القدامى وعدم الأمان لهم مهما ظهر منهم من الصفاء والود، فإنه أرجعه إلى المخادعة والمهادنة، فجمع له في هذه الوصية ما لم يستطع شراءه بمال الدنيا كلها.

قال: وسمعته يقول لغلمانه عند هذه الوصية:

تنبهوا لأميركم، واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعته، عبد الملك أخيكم ومولاكم، ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعد من يطلب منهم سيئاتكم، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعهم من الحقد عليكم فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي[١].

وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكونوا كرجل واحد فإنه لا يطمع فيكم. وانصرف المظفر لشأنه وضبط سلطانه. وتخلف المنصور ينازع من أجله وانفراده بعمله، قد قطع الدهر به عن أمله فسبحان الحق الباقي لا إله إلا هو.

قلت:

ولم نطل القول فيما اختص بدولة هشام بن الحكم المؤيد بالله وكفالة المنصور بن أبي عامر إياه إلاَّ لكونه أشبه الأحوال بما نحن فيه من جهة اتفاق الخواص على مبايعة صبي لم يبلغ الحلم[٢] وفي قطر يقتدي الناس بأعلامه وأحكامه والتعويل في ذلك الرسم الإمامي على من يتولى وزارة التفويض وشأنها معروف إذا تعذر وجود جميع الشروط المعتبرة.

ووجب مراعاة حال المصلحة المقررة لا سيما ومن لهذه النيابة فقد عدم المطعن فيه عدالة وكفاية تمشت أمور المسلمين بذلك أحسن ما مشت فيما سلف من الأزمان.

وكونه عند من اقتصر عليه وأعطى صفقة يمينه فيه مما اقتضاه الاجتهاد الوقتي وغير ذلك من المناسبات.

---

(١) يحذرهم خيانة ابنه ويبين لهم أن عدوهم مهما أظهر لهم الحرص على مصالحه وبذل الخير لهم فإنما يخادعهم فهم للمنصور كالولد يشفق بهم كما يشفق بولده، وولده أشفق الناس عليهم بعده فلا يغرنكم تغرير المغررين من بني أمية وآل مروان.

(٢) في هذا القول عدم إنصاف حيث ذكر لنا المؤلف، رحمنا الله وإياه، كمّاً كبيراً من العلماء الذين كانوا أحياء أيام مبايعة هذا الصبي، ولكنه لم يذكر لنا موقف كل علم منهم أو قول كل إمام أو عالم منهم، بل سرد لنا أسماءهم دون ذكر شيء من موافقتهم على ذلك أو اعتراضهم عليه بما أوحى إلينا أن هؤلاء الأعلام كانوا موافقين تمام الموافقة على ذلك وهو أمر يخالف صريح ما يعرف عن الإسلام في شروط إمامة الإمام، والتي من أهمها بعد الإسلام البلوغ والعقل والتقوى وحسن التدبير، والعلم والعدالة... الخ. ولم يبين لنا أن من وافق هل كانت موافقته عن محض إرادته مبنية على أدلة اجتهد فيها دفعته على الموافقة على تلك البيعة أم أدّاها مقهراً عليها خوف بطش سلطان أو فتنة تثار أو ردعاً لعدو غدّار. فالله أعلم ما هي الظروف التي دفعتهم للبيعة فلا نحملهم تبعة ما لا نعلم حقيقة، والله أعلم.

فلذلك مددنا القول فيه لكي يعتضد الشكل بشكله، ويأنس صاحب هذه الوظيفة الشريفة بذكر سِيَرٍ مثله فيجتهد ليربى عليه في فضله وعدله، وينكب عما أنكر عليه من قبله فيحيد عن سُبُله بمقدار نُبله.

[١٤٧/ب] والله يجعلنا ممن قصد الخير في أمره كله / بقدرته وعونه وحوله.

وفي آخر الكتاب عند الوزان والكلام في الزمان والمكان، وفضل الدولة المرينية بالبرهان، وما يزيده من هذا الشأن بمشيئة الله.

دولة المظفر عبد الملك بن المنصور بن محمد بن أبي عامر(١)

وصار الأمر بعد محمد بن أبي عامر لولده عبد الملك الملقب بالمظفر سيف الدولة يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان(٢) سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

وخاطب الأقطار بالمغرب والأندلس يعرف الناس بوفاة أبيه وبما تصير له من أمره فاستوثق له الأمر، ولم يخالفه أحد واجتمع الناس على حبه، وكان مع كلفه بالنبيذ واستغراقه فيه مراقباً لله مُحباً للصالحين يظهر العدل، ويحمي الشرع، وينصر المظلوم، ويوفي بالرعية، ويقمع عدو الدين، ويا ليت شعري إلى أين يذهب الناس بعد هذا؟! وما الذي يريدونه؟ وكان مما تقرب به إلى قلوب الناس إسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، وابتدأ من الحد الذي وقف فيه أبوه مرامياً بهمته العالية وآماله الشريفة.

قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود ولد بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما فجدد الألقاب واقتفى الرسوم، فلقد ذكر أن المنصور توفي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء، والكُتاب، والشعراء، والأطباء، والمنجمين، فلم يكونوا أوفر عدداً، ولا أنسأ أرزاقاً منهم في أيامه مع عدم التلبس بشيء من أمرهم، إذ كان مقتصراً على شأنه من التجند والعمل بالسلاح حفظاً للرسوم والتماساً لجميل الذكر وحرصاً على التزيد والشغوف على غيره.

وكان مثلاً في الحياء والشجاعة، إذ ما كان عند الحياء والحشمة بكراً عزيزة، وفي مواقف الكريهة أسداً ورداً لا يقوم له شيء إلاّ حطمه.

قال أبو مروان في الكتاب المتين، فقال يصف مدته:

انصب منه الإقبال والتأبية على دولته انصباباً ما عهد مثله في دولة، وسكن الناس منه على عفاف ونزاهة ونقي سريرة وتوقٍ في بعد همته اطمأنوا بها إلى جنبه في

---

(١) راجع ترجمته في: نفح الطيب (١/ ٤٢٣)، الكامل (٨/ ٢٥).

(٢) كذا جاء بالمخطوط، وجاء بهامش المخطوط تعليق بغير خط الناسخ وشبه قلمه: شوال.

السر والعلانية فباحوا بالنعم واستأثروا الكنوز وتناهوا في الأحوال والمكاسب، وتحاسدوا في اقتناء الأصول وانتداء القصور وغالوا في الفرش والأقنية، واستفرهوا[١] المراكب والغلمان، وغالوا في الجواري والفتيان، فسمت أثمان ذلك بتلك المدة، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال حتى تناهت تلك الدولة في احتشاد / النعم عندها، وارتفاع حوادث الغير عنها، نذراً للزمان قضاه ولبسوها بعزة [١٤٨/أ] في كنف ملك مُقتبل السعد ميمون الظاهر، غافل عن الأيام، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها.

فاجتمع الناس على حبه ولم يدهنوا في طاعته، ورضي بالعافية منهم، وآتوه إياها، فصفا عيشه وانشرح قلبه وخلصه الله من الفتنة.

وقال في إطراء دينه:

كان في سر أموره عفيفاً متواضعاً على رفعة حالة، يبكي على ذنبه، يحب الصالحين ويمتري أدعيتهم.

وذكر لقاءه لولي الله على عهده أبي أيوب الفريسي نفع الله به، ثم قال:

وحكى الأستاذ أبو القاسم المغربي فقال: طرقه عبد الملك ليلاً وأحسسنا بذلك لقربنا من منزل الشيخ، فامتلأت المغيرة بخيل المظفر، وقصد باب الشيخ في خف من غلمانه، والقاضي أبو العباس بن ذكوان معه، فقرع الباب عليه وهو قائم يصلي فآذنته زوجته بمكانه ـ وكانت فاضلة ـ.

وقالت: يا أبا أيوب، أوجز في صلاتك، فهذا صاحب البلد واقف على بابك يبغي الدخول عليك، فانظر ما جناه عليك ابن...[٢].

فانصرف وقال لها: يا هذه بلوى حلت تسترفع بالصبر، ائذني له وقانا الله فتنته، فدخل وكلمه فوعظه، ثم تناول كفه مصافحاً. فقال له: يا مظفر أن لك كفاً ناعمة رخصة فاتق الله عليها من نضج الجحيم. فأقبل عبد الملك على البكاء والنحيب، ثم دعا له ويده في يده.

فقال: بسطها الله في الجهاد، وأطالها بالصدقة، ما يبلغني عنك بنعمة الله عليك إلا ما يبشر وقد وجب عليّ نصحك، فاتق الله ربك فيمن استُرعيت أمرهم، وتذكر من بعد عنك وعجز عن قصدك فاكشف عن مظالمهم جهدك وتوقي سوء دعائهم ما استطعت، واحترس من بطانتك أشد من عدوك، فإنهم أقرب إلى ضرك

---

(١) أي استحسنوا المراكب الفارهة دون غيرها من الدواب إظهاراً للأبهة من كثرة النعيم وسعة العيش.

(٢) موضع النقط بياض في المخطوط قدره كلمة.

يزينون لك شهواتك لينالوا رضاك، ولا يغنون عنك من الله شيئاً، والله الله في الجهاد، فبه أعز الله أباك رحمة الله عليه، وعليك بإصلاح السبيل فهي أهم ما تُرك إليك، وتقوى الله أول وآخر ما أوصيك به، فاشعره قلبك فإنك تأتي إليه وحدك لا يغني عنك أحد شيئاً، في كلام نحو هذا.

وذكر أن المظفر أرسل إليه بدرة من خمسمائة دينار وقال: إنها من أطيب تراثي، وأريد أن تضعها بمكان ينفع. فقال: ما أعلم إلاّ إمام المسجد هذا ليست له دار، فإن شاء أن يشتري بها داراً يوقفها على أئمة المسجد فنعما هي، وإلا فهو أعلم بصدقته.

فأمر عبد الملك بذلك الدار، وتعرف بهذا من يومئذ.

[١٤٨/ب] قال: /وكان مما سلك فيه عبد الملك مسلك والده من الأعمال الزكية نظره في السجون، وكشفه عمن طال سجنه وتعذر خلاصه، فيطلق من يؤمن إضراره بالمسلمين ويرجى سواهم.

قال: وكان عبد الملك لصحة عقده مع قلة عقله لا يحلف بالله البتة، ولا يحلف به تعظيماً لله، كتب عنه الكاتب يوماً يميناً من ذلك في وعيد، فلما مرَّ بسمعه أنكره، وأمر بمحو اليمين، وقال للكاتب: ومتى عهدتني خلافاً.

قلت: وقد ذكر الناس ذلك في مناقب أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

وذكر أن عبد الملك كان أبر خلق الله بوالديه.

وحكى عنه في ذلك خُلقاً شريفاً ألحفه الله رضوانه.

وذكر حياءه وعفته فقال: كان لا يكاد يرفع طرفه إلى سائل ولا يعتذر حياءً ورقة، وكان أعف خلق الله إزاراً، وأسترهم لعورته، وأبعدهم عن جميع ما يتدنس به الملوك من وليه وعمر خُلوة.

وأجرأ شجاعته فقال: وهذه خلة كانت أغلب خلل المظفر عليه. فحكى عن الوزير حكم بن بدر أنه أجرى لمحمد بن علي بن محمد بن خزر المغراوي عظيم زناته مفتخراً به للعصبية الأندلسية بعد موته بزمان، فقال: لا تشك يا أبا العاص في أنه لم يكن في عسكره فارس يعدله البتة.

قال أبي حيان: وكان من أحسن الغرائز في الناس ما جمع الله فيه من الحياء والشجاعة، فلقد استحق وصف القائل:

فتى هو أحيى من فتاة حيية وأشجع من ليث بخفان خادر

ثم تكلم في سعده، ويمن سلطانه، وتملكه ورفاهيته، ومبانيه وآثاره، فجاء بمبدعات تحسد لها الأمم البالية والدول الخالية، فيا ما أحسن الذكر الجميل في

بطون الأوراق، والمحاسن تنشأ بالأندلس، ثم تطير إلى الشام والعراق.

وسبحان الذي يقول حكاية عن نبيه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٤-٨٩].

وله في الروم وسبيل الجهاد آثار كريمة غزا سبع غزوات منها إلى برجلونة، وبلاد الفرنجة، ومنها إلى بلطونة، ومنها إلى غلسية، ومنها إلى غزوة الخريقة، ومنها غزوة قلونة، وآخرها التي مات قافلاً عنها.

وفي سنة أربع وتسعين تناهى ملكه، واحتكمت إليه ملوك النصارى فيما شجر بينهم، وما رُئي في أمر الجيوش أبسط يداً في الحركات الجهادية ولا أرغب معونة من المظفر، ولقد كان يفيض العطاء في المطوعة التي / تبحر البحر للجهاد معه من [١/١٤٩] أرض العدوة، وحال البرابرة، وعهد في غزوته التي فتح فيها حصن منغص من ثغر بلشونة إلى الخزان بتوزيع خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقات الأجناد الدارعين.

وفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة استدعي الخليفة إلى قصره بالزاهرة لنزهة أنشأها هنالك في قصوره ركب إليها من قصر الخلافة على سبيله المعهودة من الاستخفاء عن أعين الناس وطردهم عن طريقه بكل جهة، والحاجب المظفر بين يديه في الجيش على العادة، وفاوض عبد الملك فيما أراده، وتمتع من لقائه.

فلما انصرف من عنده أتبعه رقعة بخطه وهي بعد اسم الله:

من الخليفة هشام المؤيد بالله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أتم الله عليك نعمه، وهناك قسمه، وألبسك عفوه وعافيته، لما رأيناك مسلك الله ومن صنع الله الجسيم وفضله العظيم لنا عليك وما شفق الصدور وافر العيون، استخرنا الله تعالى في أن سميناك: «المظفر»، فنسأل الله سؤال الجاني، وضراعة وابتهال إليه أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم، ويحليك معناه، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين فضل ما حملت منه، وأن يخير لنا ولهم في أقضيته، ويقرن قيمته وسعادته بمنه وخفي صنعه، وكذلك أبحنا لك التكني في مجالسنا ومحافلنا وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائر ما يجري فيه اسمك معنا، ودوننا إنابة بمحلك لدينا، ودلالة على مكانك منا، وكذلك ما شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر قلادنا أسعده الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين وجعلنا بها في التكني على المشيخة والترتيب أثرك في الدولة، وأنت الحقيق منا بذلك كله وبمزيد المزيد عليه

لأنك تربيتنا، وسيف دولتنا، وولي دعوتنا، ونشيء نعمتنا، وجريح أدبنا، فاظهر ما جددناه في الموالي، وأهل الخدمة، واكتب به إلى أقطار المملكة وتصدقه بشكر النعمة، أحسن الله توفيقك، ومتعنا طويلاً بمعافاتك وأنسأنا ملياً بدوام سلامتك إنه ولي قادر عزيز قائم إن شاء الله تعالى.

وعنوان ما كتب به عبد الملك بعدله: من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور.

وكان عبد الملك قد أجحف بالمال لانطلاق يده في خاصته والتوسعة على الناس بسدسه وكثرة حركاته، والتجاوز في نفقاته، ثم مات في آخريات أيامه بهجر الفخر /والراحة، واستيقظ من الغفلة، وعكف على مباشرة أمره والإشراف على الجلوس وإحياء رسم والده، فانقلب إلى طرف من ماله قسم به أطماع العمال ووالى الجلوس للكشف عليهم بتقارب رغبته وحرصه وترابت أحواله المالية إلى الصلاح والوفور وبلغ من ذلك في المدة القصيرة ما رُجفت بعده الثورة وحسنت العافية. [١٤٩/ب]

وقضى الله باخترامه عند ترقيه في ذلك أشد ما كان في رأيه، وأضبط ما كان لشأنه، فمضى حميداً.

وكان قد اعتل منصرفه من غزوته بالصائفة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة عن بلاد شانجة بن غرسية.

ووصل إلى الحصرة منتصف المحرم في مقابيل علته متحدثاً بالانكفاء إلى الرضة.

فلم يستقر بقرطبة إلاّ ريثما تراجعت قوته إلى أن صح عزمه على مفاجأة العدو بالشانية، فخرج من قرطبة للنصف من صفر سنة تسع وتسعين فزاد به مرض الذبحة.

ووقع العمل على إعادته إلى القصر في العمارية، فكانت وفاته بها في الطريق قبالة ديراز ملاط من أحواز قرطبة رحمة الله عليه، يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وتسعين.

وولي الأمر بعده، أخوه عبد الرحمٰن بن المنصور.

دولة عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور محمد بن أبي عامر

ولما دخل المظفر قصر الزاهرة ميتاً، وقد كان أخوه ضبطه مستخلفاً عنه، فقام بالأمر، وأنفق الأموال، وثقف المدينة، وجلس مجلس أخيه، ودخل الناس عليه مهنئين. ثم ركب إلى قصر الخليفة فعزاه بأخيه وانصرف، وقد خلع عليه خلعاً سلطانية، وقلده الحجابة، وأقدر له بخطه تسميته بالمأمون فتلقب بالناصر، ثم

بالمأمون. فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة.

وساء تصرفه، وانتهى إليه مَلَل الناس، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، وسلك خلاف مسلك أبيه وأخيه في مداخلة الخليفة والوقوف في أمره عند ضرورة السياسة، فتنفق إليه، وفتح الباب إلى تيسير أغراضه واستماله وخلطه بنفسه، وطره العمل في استدعائه إلى النزهة على رسمه من الحجبة عن الرعية.

وكان رسمه أن يكسى برنساً في جملة الخواص فلا يعرف منتهى أو غرب الاحتفال له، وسولت لعبد / الرحمٰن نفسه أن يلتمس ولاية عهد هشام والقيام بأمر [١/١٥٠] المسلمين من بعده إذ كان هشام قد عدم الولد ضعفاً ومهانة، فأمنه بذلك مشيراً على نفسه الفاقرة، فأمن المروانيين من أهل بيته، وكانوا يرتقبون عادة الدهر بالكرة التي تعيد الأمر إليهم مسلماً من العارية، فهم يتعللون بالأحلام، وأضغاث المنام، ويزجرون ساعات الأيام.

فلما رأوا انصراف العهد إلى بني أبي عامر وخروجه عن بني مروان بلوا ما لا يسعه ذرع التحمل وشرع رجالهم في مبادرة الأمر والاستمالة من دونه.

وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها وإلقاء بذرى أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها.

وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة مؤثر عنهم في العامريين نوادر حارة واستراحات عنهم، كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ويأمرهم بإنهاء وعيده، ويشافههم بإنكاره، ولا يزال حكامه يبالغون في تغيير ذلك إنكاره أقصى المبالغة ضرباً للظهور وقطعاً للألسنة.

فلما ذهب عبد الرحمٰن هذا المذهب، وأطاع هذا الخرف، كثر الحمل واشتهرت البغضة.

قال أبو مروان بن حيان:

وقد سبق القول في تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة عجرفية من غير تحاويل ولا عقيدة، وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة بل صيّرها بالعجلة، ولم يمهل الخليفة بعد منصرفهم من نزهتهم التي أوقعوا فيها هذه الوهلة حتى عدا عليهم اليوم الرابعة في جيوشه المتكافئة وعدده المتظاهرة، فأخذ عليه أنقاب قصر الخلافة بعد أن أحضر من شاء من طبقات أهل الحضرة.

فأجلس لهم هناك وأشهدهم فيما أمضاه من الولاية، وأخرج كتاباً قرىء بحضرته من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن بُرة رحمه الله.

وهذه نسخة العهد بالبيعة:

هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله أطال الله بقاءه إلى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين وخصه به من إمرة المؤمنين، راعى حلول القدر بما به يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، [١٥٠/ب] وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدور ذلك به ولم يرفع /لهذه الأمة علماً تأوي إليه ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها ساهياً عن آداء الحق إليها، ونفض عن ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه بعد اطراح من الهوى والتجرد للحق والتزلف إلى الله عز وجل بما يرضيه، وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص، فلم يجد أحد هو أجدر أن يقلده الخلافة ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده في فضل نفسه وكرم قيمه وشرف قيمه وعلو منصبه مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه من المأمون الغيب الناصح الجيب النازح عن كل عيب ناصر الدولة أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر رفعه الله إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً إلى الخيرات مستولياً على الغايات جامعاً للمأثور، وارثاً للمكرمات، يجذب بصنيعه إلى أرفع منازل الطاعة ويسموا بعينه إلى أعلى الدرج في النصيحة، أب منقطع القرين، وصنو معدوم النظير، ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه، ويجري من حلل المجد بما حواه مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله لما أطلعه من مكنون الغيب ووعاه من مخزون الأثر أمل أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأن يتحقق فيه ما أسنده أبو هريرة إلى النبي ﷺ: «أن لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه». فلما استوى له الاختيار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً ولا على غيره معولاً، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته، طائعاً راضياً مجتهداً متخيراً غير مجاب له ولا مائل بهواه إليه، ولا متركٍ نصح الإسلام وأهله فيه، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها إن رأى بقاء ذلك في أمير المؤمنين أعزه الله أمضى أمير المؤمنين أعزه الله عهده هذا، وأنفذه وأجازه وبتله ولم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك سره وجهره [١٥١/أ] وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه ﷺ /وذمة الخلفاء الراشدين من الذين أمامه، وذمة نفسه بأن لا يُبدل ولا يُغير ولا يحوّل ولا يتأوّل، وأشهد على ذلك الله وملائكته، وكفى بالله شهيداً، وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب، وهو أعزه

الله جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور وفقه الله، وقبوله لما قلده والتزامه لما ألزمه.

وذلك في شهر ربيع سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

وهذا الكتاب نسختان أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ويليه الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً يليه أسماء مائة وثمانين رجلاً من أهل الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكام والقضاة والفقهاء والمشاورين وغيرهم.

قال ابن عون:

وصدر عبد الرحمٰن في أهل المملكة إلى القصر بالزاهرة يختال في ثوب الخلافة، ويحسب أنها له نحلة، فلما استقر به مجلسه أذن لخاصته من الوزراء والأصحاب، وأكابر أهل الخدمة بالدخول إليه، فأفاضوا في ذكر تهنئته بما أكرمه الله به والدعاء له والمعونة عليه يمدون في غيه وقلوبهم منكرة عليه، وهو يوليهم قبولاً ويوسعهم بكرمه. وأمر بإنفاذ الكتب عنه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة يخبر بولايته العهد والإذعان إليهم بالدعاء له على منابرهم بالعهد بعد الدعاء للخليفة مع نسق أسمائه المجموعة له.

قال: وغدا وجوه الناس من أهل قرطبة لتهنئة المغرور عبد الرحمٰن بهذه المنحة التي كانت عندهم أشد محنة، كلهم يعزي عنها نفسه ويكفكف عليها عبرته.

ثم تحملوا بالغلس وجلس لهم عبد الرحمٰن بقصر الزاهرة في مرتبة الملك لا ينقصه دقيقة وصفاً، رجال المملكة قيام بين يديه على مراتبهم في رائق أبهاتهم وأذن لمن حضر الباب بالدخول إليه لتهنئته.

فدخلوا على منازلهم يقدمون المبعدون عن الخلافة من أهل بيت المؤيد هشام المروانية وغيرهم من بطون قريش، تبدوا عليهم في ظاهرهم الاستكانة والكبوة، وتساءل بعدهم وجوه الناس من الحضرة، فقضوا حق تهنئته وغبطوه بما ارتمى إليه من رفيع مرتبته، فأحسن الرد عليهم وخرجوا من عنده وقلوبهم ذوية عالية موقدة ببغضه.

وولّى عبد الرحمٰن ابنه عبد العزيز خُطة الحجابة مجموعة بسيف الدولة لقب عمه المظفر، فوسم هذا الطفل بالحجابة بعد موت أخيه.

/ وانهمك عبد الرحمٰن بعد هذه الحادثة في غيه، وأقبل على بطالته، وجاهر [١٥١/ب] بلذته. . .(١)، ونادم وجوه الجنسين ـ أعني البرابرة والأندلسيين ـ فأكثروا الشغل

---

(١) موضع النقط عبارة مطموسة بالمخطوط.

بالمراهنات والاشتغال بالمحالات حتى تفاقم الأمر، وهو ذاهل عن ذلك كله مشغول بشأنه.

قال ابن الرقيق في كتابه:

لما تم له ما أراد من ولاية العهد ودبر سائر الأمور، أخذ في التخليط، والفسق، والانهماك في مجلس شرابه وخلوته.

قال ابن حيان:

ومن مختار ما قالته الشعراء في تهنئة عبد الرحمٰن بولايته العهد، قول أبي العلاء صاعد البغدادي[١]:

قرأت كتاب الجود وحورته أولاً ... وأوضحت منه كل ما كان مشكلا

فلما تجلى الحسن منه لبسته ... فأحسنت في الأقوام أن تتفضلا

أما والذي أعطى الخلافة ربها ... أغر معمّاً في التبايع مخولا

لقد حازها مرخ عليها جناحه ... عُقاب إذا ما أعلى الصيد جلجلا

وقال أبو منصور زيادة الله في ذلك بديهة:

تخيّر اللّه والسلطان للأمم ... ولي عهد براك اللّه من كرم

لا تعدم الملك منه أن ينشد له ... عزاً شديداً بضرب السيف والقلم

اختاره اللّه للإسلام يحفظه ... وخصه بعلو القدر والهمم

وقال أيضاً:

---

(١) قال الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣٤٤) في ترجمته: صاعد بن محمد أبو العلاء النيسابوري، ثم الاستوائي، من أهل استواء، وهي قرية من رستاق بنيسابور. سمع عبد الله بن محمد بن علي بن زياد، وإسماعيل بن نجيد النيسابوريين، وبشر بن أحمد الإسفراييني، ومن بعدهم. وورد العراق في حداثة سنه حاجاً فسمع بالكوفة من علي بن عبد الرحمٰن البكائي. وولي بعد ذلك قضاء نيسابور، ثم عزل وولي مكانه أبو الهيثم عتبة بن خيثمة. وكان أحد شيوخه، فحدثني علي بن المحسن التنوخي قال: لما عزل صاعد بن محمد عن قضاء نيسابور بأستاذه أبي الهيثم عتبة بن خيثمة، كتب إليه أبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي هذين البيتين وأنشدناهما لنفسه:

وإذا لم يكن من الصرف بدٌّ ... فليكن بالكبار لا بالصغار

وإذا كانت المحاسن بعد الـ ... صرف محروسة فليس بعار

وكان صاعد عالماً فاضلاً صدوقاً، انتهت إليه رياسة أصحاب الرأي بخراسان، وقدم بغداد وحدّث بها، فحدثني القاضي أبو عبد الله الصيمري حدثنا القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد الفقيه ببغداد وأسند لي عنه حديثاً، فسألت الصيمري عن قدوم صاعد بغداد فقال: آخر سنة قدمها سنة ثلاث وأربعمائة. قلت: ولقد لقيته أنا بنيسابور وسمعت منه وبلغني أنه مات في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة.

تولى عهد المسلمين كما التقى وابيض وجه الدين حتى أشرقا
الآن أبلغت الخلافة سؤلها وغدا لها رأي الإمام موفقا
عقد الإمام لها فأثبت عزها بولاية المأمون عهداً موثقا
ملك ترى نور الهدى بجبينه متبلجاً وسنا التقى مُتألقا
زان المغارب في ولاية عهده بالبر والتقوى فساق المشرقا
لو أن مكة تستطيع زيارة لأتت إليه مودة وتشوقا[١]

وقال قاسم بن محمود المرواني:

[١/١٥٢]

/لقد وفق اللّٰه الإمام المؤيدا وألهمه للحق فيه وأرشدا
فقلدك العهد الذي تم عقده لك اللّٰه منة في الرحاب وأكدا
شهدت بأن اللّٰه ولا خير من به استن الدين الحنيف وشيدا
وإنك يا مأمون أفضل مُنتقى وأجدر مَن عهد الخلافة قلدا
وهل ذخر الرحمٰن ذا الملك لأمر في سواك وأهداه إليك وممهدا
ألا يا ولي العهد وفيت عزة بأيمن وقت به الزمان وأسعدا
تقلده وابشر بالخلافة بعده ودون ذوي العلى الحسام المهندا
فأنت الذي جاءت به النذر التي أتى الأثر المروي فيها مرددا
وأنت أمين اللّٰه مهدي يعرب ابن قحطان فيها طبت نفساً ومحتذا
لكم كان هذا الأمر بدءاً أو فيكم يكون مدا مستأنف الدهر سرمدا

وقال كاتب الرسائل وأفرط في قوله، وهو مولى بني مروان:

الآن عاد الدهر غضاً مشرقاً وتمكنت أرجاؤه واستوسقا
وغدا هلال الحق بدراً بعدما قد كان أصبح شمله متفرقا
بولي عهد المسلمين ومن غدا في المشركين إذا تقحم يبلغا
فاللّٰه يشهد للمؤيد أنه قد حاط أمَّة أحمد منه بقسا
وأحلهم في باذج متمتع صعب حواشيه عسير الملتقا

---

(١) صدق الله العظيم في وصف الشعراء، ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٧] فإلى هذا الحد يصل بهم التيه والهيام دون اعتبار لحرمة وإلى أي مدى يغوصون في النفاق حتى يصف البيت هذا الرجل الذي قالوا عنه في الفجور ما قالوا؟! سبحانك اللهم لا عجب.

أمسى يفتش قومه وعشيره شحاً عليهم والحميم الألصقا
ورجا بأن يلقى إذا ما فتشوا في عبد شمس للخلافة معلقا
فرآهم متخلفين عن العلى لا يصلحون لأن يسوسوا جردقا
فرسى إلى المأمون أمر جميعهم إذ لم يزل حَدِباً عليها مشفقا
قالوا إذا ضعفت قريش أخرت وأبو هريرة قال ذاك مُصدقا
وأتى عن الفاروق أكرم أسوة خبر غدا للخافقين مطبقا
لو أن فيكم سالماً قدمته لِيَلِي الأمور مُغرباً ومشرقا(١)

وهذا الذي جلبنا بعض من كل، وقليل من كثير، ولو أننا رأينا أخبار العامرية [١٥٢/ب] / غير مستثقلة لذهبنا في الاختصار أقرب من هذا المذهب.

وتحرك إلى الغزو ثانية تسع وتسعين وثلاثمائة التي اجتثت أمره وكان فتاه الأكبر نصح له في ترك الغزو وخوّفه من اضطراب الناس، وأبلغه عن بعض المروانيين نصحه في محاولة رجل منهم القيام عليه، واستجابة خلق من الجند إليه.

فأعرض عما ذكر واستهان به، وقال: والله لو اجتمع بنو مروان إلى مرقدي وأنا نائم لما أيقظوني.

وهذا سبيل الغرور التي سلك عليها معظم أهل الدول إلا القليل من الحَزَمَةِ كالمنصور، فإن الحازم من لا يأمن الدهر فإنه يجمع العجائب ولا يبطل طبيعة الممكن، فإن الغريب في الدنيا بعيد، والبعيد قريب والحازم من يزن كُلاً بميزانه ويعد له عدته ويعطيه حظاً من فكره وكفلاً من احتياطه، فإن اتسق حال السلامة لم يضر حازماً حزمه ولا محتاطاً احتياطه، ولو لم يكن في ذلك صلاح إلا أنه شجى للعدو وكمد للمكايدين في أن يُبصره بعيداً عن الغفلة فيتهيب رأيه ويترك مهاجمته ويغتنم السلامة معه والنجاة منه لكفى ذلك، ثم أنه لو ضبط القصر بأولى غناء من رجاله وذوي كفاية من بطانته.

ولكنه نفذ لسبيله في وقت لم يسمع بأشد منه قوة بَردٍ وكلب مطر، واقتحم بليقة من ثغر طليطلة على سبيل منكرة من اللهو والبطالة.

وكان يوغر إلى صاحب الشرطة في المحلة أن ينادي في الناس: يأمركم أمير المؤمنين بكذا وكذا، فيفعل.

ويقول له إذا عاد: كيف رأيت الناس؟ هل أنكر أحد منهم شيئاً؟

---

(١) كل هذه الأشعار لا تحكي حقيقة وإنما هي محض رياء وافتراء وكذب واختلاف، رزقنا الله وإياكم الصدق وحسن الختام.

فيقول: لا.

فيقول له: عاود ذلك مراراً كثيرة.

إلى أن وصل طليطلة، وبها اتصل به أن محمد بن هشام بن عبد الجبار، قام بقرطبة، واستولى على القصر، وفتح مدينة الزاهرة، وأخذ أموالها، ثم حرقها وهدمها.

فهاله ذلك وضبط الجيش وأتى قلعة رباح[1]، فأقام بها حائراً بنفسه لا يدري ما يصنع إلا أن يستحلف الجند بقتال المبتز.

وقد صحبه في موكبه غرمسي كبير من زعماء النصارى المتوسلين إليه قربى أمه من عمومه الملك.

فلما رأى اضطرابه عرض عليه رأي الخلاص من اللحاق والنجاة، وبيّن له الأمور.

فقال له: إما على علم إني إذا ظهرت لأهل قرطبة لا يبقى أحد على ابن عبد الجبار.

فقال له الرومي: أنا على علم من أنك مغرور وآهاً لك، ولكن لا يوسعني الوفاء لك إلا الموت معك مع أنني قد أمكنتني / خلاص نفسي، فدونك وما شئت. [١٥٢/أ]

قال: ودعا أهل العسكر إلى مبايعته على حرب أهل قرطبة ونصر الخليفة المظلوم. فلم يمتنع عليه أحد، وأقبلوا يحلفون له أياماً متوالية.

وقال يعلي الزناتي:

دعاني وقال لي: أصدقني عن نفسك، وعن قومك فلا رأي للمكذوب.

فقلت: نعم، لا تغتر فليس يقاتل عنك أحد من زنات والناس تبع لهم.

فشق عليه ذلك وقال: ما الدليل على قولك؟

فقلت: تأمر بتقديم مطبختك إلى طريق طليطلة وتظهر الرحيل، فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان في «رباح»: قلعة رباح مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، استولى عليها الإفرنج منذ سبعين سنة أو نحوها (هذا على عهد ياقوت) وهي غربي طليطلة وبين المشرق والجوف من قرطبة. ولها عدة قرى ونواح، ويسمونها الأجزاء، يقوم مقام الإقليم كما ذكرنا في اصطلاحهم في لفظ الإقليم في أول الكتاب منها جزء البكريين وجزء اللخميين وغير ذلك. وقد نسب إلى هذه النسبة قوم منهم محمد بن سعيد الرباحي صاحب نحو ولغة وشعر، ويقال له: الجياني أيضاً، نسب إلى مدينة جيان. والفقيه المحدث محمد بن أبي سهلويه الرباحي، وقاسم بن الشارح الرباحي المحدث الفقيه.

فقال: صدقت.

ثم لم يفعل ورحل إلى قرطبة، وقد زيّن له عداته دخولها عنوة.

وأخرج إليه ابن عبد الجبار حاجب بن دري وقد فرّ عنه الناس.

فقتل رحمه الله، وقتل معه ابن غرمسي، وذلك بمنزل هانىء من دار ملاط أدنى محلاته إلى قرطبة، يوم السبت لأربع خلون من رجب من السنة.

وانقضى أمر العامرية، وإلى دولتهم بلغت حدود التناهي في دول مُلك الأندلس بحسب ضيق الخطة، وبعد النجعة، إذ الأمور لا تقاس إلا بأشكالها، ولا تناظر إلاّ بأمثالها.

فذكر أبو مروان خلف رحمه الله:

في كتابه الذي أنافت على المائة أسفاره المسمى بـ«أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية، وما جرى فيها من الأحداث»، فقال:

كتب إليّ أبو القاسم محمد مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السّن مُعرفاً بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ست وثلاثين وأربعمائة، أثبتها نقلاً من كتابه وهي مبلغ الجباية أيام المنصور أربعة آلاف ألف دينار، سوى رسوم المواريث بقرطبة، وكور الأندلس، كانت تجري على الإمامة وسوى مال السَّبي والغنائم على اتساعه في هذه الفترة، وسوى ما يتصل به السلطان من أموال المصادرات، ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون.

قال: وكانوا يعتدونها أربع صنوف تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفاً إلى أزيد، خلا شهر يونية العجمي فيتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة، فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها.

[١٥٣/ب] وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه / السلطان في بيت ماله، مع ذلك من ضروب استفاداته.

قال: وكتب أبو محمد عبد الله بن مروان:

أحد حذاق كُتّاب المحاسبة اليوم وممن لحق طرفاً من تلك الدولة:

أن محمد بن أبي عامر أحب الوقوف على حاصل الأطعمة في الأمراء عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة أربع وسبعين، فارتفعت جُملته إلى مائتي ألف ونيف عليها.

قال: فلحقه العُجب بذلك حتى قال: أنا أكثر طعاماً من يوسف صاحب

الخزائن[١]. فلم تمطله بَغْيُ كلمته إذ برأها من الاعتصام من ربه تعالى، واعتورته السنون الشداد المتوالية من سنة ثمان وسبعين، فانتسفت أطعمته باتصال الإنفاق وعدم الاغتلال حتى أشفى على المجاعة، وهمّ بالجواز إلى العُدوة لخصبها يومئذ حتى أغاث الله بلاد الأندلس، وأخرج أرزاقها، وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئاً من الأطعمة، ولا يقتصر على ما يجتلبه منها حتى يخرج المال في شرابها في سني الخصب، فهلك وحاصله منها جملة غليظة.

وكتب إلى أبو عبد الله بن سعيد التجاني بما أثبته، فقال:

كان عدد جميع الأجناد العامريين من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار، وجميعهم مرتزقون في الديوان يُقلع لهم بالحملان والحلية، والسلاح، والمنازل، والنفقة، والعلوفة على مراتب مختلفة، اثني عشر ألف فارس، ومائة زيادة.

قال: وانتهى تحصيل المنصور بن أبي عامر لجميع من ضمه عسكره في بعض صوائفه الحافلة من الفرسان خاصة إلى ستة أربعين ألف فارس.

فكان عدد فرسان الحرس لحمل العُدة وخدمة العساكر ستمائة فارس. وعدد الشرطة والرواد المتصرفين في خدمة العساكر مائتي فارس. وعدة الطبالين مائة وثلاثين فارس.

وانتهى عدد الرجالة معهم إلى ستة وعشرين ألف راجل.

قال: وذكر أن المنصور بن أبي عامر لما اعتد للصائفة التي توفي في قفوله عنها سنة اثنتين وتسعين أنفذ الكتب إلى جميع الثغور بأن يلحق ببابه جميع طبقات المترجلين من فرسان الجند بسائر القوات ليشرف عن حملهم بنفسه، فجمعهم جميعاً بالأركاب لكثرة ما تكامل من الخيل يومئذ.

وقاد مع نفسه في العسكر بعد ذلك سبعمائة رأس من الخيل عراة، عدة لما يحدث في طريقه.

ومعه خمسون / فرساً من العتاق لركابه إلى قريب من عدتها تخلفها بقرطبة. [١٥٤/أ]

وأفضل مع ذلك كله في الاصطبلات بقرطبة مقدار ألف فرس عدوية كانت طرية العبور استغنى عنها، وأمر بالقيام عليها.

---

(١) يريد سيدنا يوسف عليه السلام، وبطر نعمة الله ولم يشكر من قال: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ فأراه العذاب الشديد سبحانه، اللهم لا تعاقبنا بسفاهاتنا وعاملنا بفضلك ولطفك وجودك وكرمك يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين اللهم آمين وارزقنا حسن الختام بالموت على دينك دين الإسلام.

قال: ووصل الاتباع على ذلك في طريقه كله من الوفود وغيرهم إلى أن ورد مدينة سالم، وفوده من الأمراء نحو ألف فرس.

وكان له من المطايا والبغلات سوى ما يحمل عليه مائتان وخمسون رأساً منها لركابه خمسين.

وكان له من البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى الزوامل الخادمة للخيل ومطايا الوكلاء.

وكان له من الجمال المتصرفة في حمل الأثقال أربعة آلاف إلا مائة بمسارح كورة تدمير.

وكان له من الرباط المستنتجة بحراز إشبيلية المعروفة بالمدائن على أجناسها ثلاثة آلاف فرس يعد لها من فحول الخيل للضراب أوان الاستنتاج مائة رأس تعزل عند العلوف.

قال: وكانت حمولة ابن أبي عامر لغزاته الصائفة:

الحافلة ما بين أثقاله وأثقال غلمانه خاصة تنتهي إلى ألفي رأس في أعم السنين إلى مائة رأس كانت معه تحمل الأرحاء للطحن موزعة على جهات العسكر لطحن الأزواد.

وربما قصر ظهره هذا عن حمولته في بعض الأوقات فيحتاج إلى الاكتراء من الناس من بلد إلى بلد.

ثم قال: ومن تفصيل حمولته، وفصل ألقاباً من السرادق الكبير، والمطبخ، وآلات الوضوء، ودار الصناعة، وأغلال السجن، وجمل المال، وأرحُل النساء الغوازي، وأخبية الفتيان، وكان من جملتها:

ما داخل السرادق ومائتان إلا ستة تحمل لمن لا قطيعة له من الجند.

وثلاثمائة خباء تتحمل للرجالة.

وثلاثون خباء فاضلة للأضياف والواردين.

ثم ذكر عدداً كثيراً للغطاء والوطاء على ضيوفه، وآلات الطبخ والسقاء، والوضوء، والمائدة، وتوابيت الكسي والخلع، وآلات المنجنيق، وتوابيت النبال، وصناعات العسكر، والزيت والنفط والقطران، والمشاقة، وما يستضاف إلى ذلك.

وأحمال الدروع والعدة، وأرحل الزمالين والمقدمين.

ثم قال: وهذا كله زائد على ما كان يُقَدم إلى الثغر من العدة على دواب الأكرياء والمستأجرة.

فحمل ستمائة ترس عامري.

وألفا ترس سلطاني.

وألفي حربة إفرنجية.

وألفي رضم للرجم.

وأربعمائة واثنتين وعشرين خباء.

ومائة وسبعة وسبعين خباء من الأخبية المعروفة بالفرود.

وخمسين ربُعاً من الزيت.

وستة مجانيق من مدينة سالم.

ومائتي ألف سهم.

وخمسة آلاف ترس سلطاني من مدينة سالم.

ومائتي /زوج من أزواج المطاعن وآلات الحديد. [١٥٤/ب]

وكان يدفع لأهل الحملات للموالي فرس من وطيئة، وسرج، ولجام.

ولكل واحد نفقة شهرين من الطعام والعلوفة.

وتعين لهم الدور للسكنى.

وكان الرسم أن يصنع من الأخبية عدة للجند كل عام على أجناسها، ثلاثة آلاف خباء، إلى ما يقيمه السلطان لنفسه ولمن ينامون إياه من كبار خدمته وغلمانه.

وكان يضع بدار التراسين من أصناف التراس كل سنة حسبما تلقيته من يحيى التراس، أحد من بقي من مشيخة التراسين في وقتنا، فقال:

كان الطريحة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ترس.

وطريحة القسي في السنة اثني عشر ألف قوس بشطرين عربية.

وتركية ستة آلاف من قِبل أبي العباس البغدادي المعلم الأكبر بقرطبة.

ومثلها من قبل طلحة الصقلبي بالزهراء.

وكانت طريحة النبل في الشهر عشرين ألفاً.

قال التجاني: وكان بالزاهرة على ذلك كله من التراس الحصونية المعدة للتوزيع على رجّالة قرطبة وغيرهم من المحشودة أيام البرور والترفيه أربعون ألفاً.

وكان فيها من أبدان الدروع المستعدة فيها لذلك سبعة آلاف درع.

ومن أجناس الدروع السوابغ، والغلائل السامرية، خمسة آلاف درع.

ومن الجواشن المتشية والخراسانية سبعمائة قطعة.

قال: وكان الجاري من اللحم على صقالبة ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر، وقسط المياومة[١] سبعة وعشرين ألف رطل.

والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهن منه تسعة آلاف رطل سوى وظيفة مطبخه الخاصة المقامة كل يوم فإنه لم يقف عليها.

وزعم أن عدة الفرسان، والبرابرة الغرباء في ديوانه ثلاثة آلاف فارس فيضاف إليها رَجَّالَة الرقاصة السودان الداخلين في عدادهم ألفا رجل تتمة خمسة آلاف.

وذكر أحوال الطراز وما يُصنع فيها، ومقدار ما كان يرد على بابه من الرصاص والخشب، فرأينا أنا نُطوّل بجلب ذلك.

قال: وكان يزد ربع لدواب السلطان من شعير القصيل القضيم خيل الحملان وغيرها مفتتح الزريعة من كل شتوة بالأجعال السلطانية في أعم السنين خمسمائة مُدّ من الشعير.

وكان حاصل الابتداع من الخيل في أعم السنين ثمانية آلاف فرس سوى ما يُبتاع من البغال بأرض الأندلس.

[١/١٥٥] قال: /ولما عزم على غزو منتمير واحتاج إلى الاستكثار من البغال، وأمر بإحضار ما يصلح منها وقعد لما يقاد بين يديه منها فابتاع في سبعة أيام متوالية من شوال من هذه السنة ثلاث آلاف رأس.

وقال: وشهدت عند التقابض في خزائنه السلاح بين محمد بن إسماعيل المقريطي، وعبد الله بن اللباد.

فأذكر أن المقريطي دخل فيها من العدة على نحو خمسة عشر ألف جنة ما بين درع سابغة وبدن وجوشن خاصة.

وأما سائر الأسلحة من الدرق، والتراس، والسيوف، والرماح، والبيض، والطشتانيات، والسنون، والسواعد، والدبابيس، والطبورنيات وغير ذلك.

ففات إحصائي كثرة إلى ما شارفته في خزائن الحلية من أجناس المراكب المفضضة والمزينة، والحزم والمناطق والسروج واللجم المختلفة الصفات وغير ذلك مما يحير اللب اتساعاً وكثرة.

كل هذا أحاط به النهب يوم قيام ابن عبد الجبار خطفه في ساعة لم يحصل منه على شركة، فأعظم بها نكبة.

وبلغت المدينة من الاتساع والانبساط، وبعد الأقطار إلى أن كانت أرباضها

(١) أي التعيين الجاري يومياً لا يتغير ولا يقف ولا ينقطع لأي سبب، أو التموين اليومي.

إحدى وعشرين ربضاً كل ربض منها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس بالجهة الغربية، منها تسعة:

ربض الرقاقين.

ربض مسجد الكهف.

ربض حوانيت الريحان.

ربض مسجد الشفا.

ربض مسجد سرور.

ربض بلاط مغيث.

ربض حمام الإلبيري.

ربض السجن القديم.

ربض الروض المحدث.

وبالجهة القبلية اثنان:

ربض شقندة.

ربض منية المغيرة.

وبالشرقية:

ربض منية عبد الله.

ربض فرن بريل.

ربض مجص الناعورة.

ربض المدينة القصية العتيقة واسطة البلد، وكان ينقسم على ربضين:

الجامع وما حوله ربض واحد يتولاه عريفه، ومحارسة على حده.

وربض آخر بذاته ينفرد به أيضاً عريفه.

وكان ذرع مساحة الخندق المضروب على قرطبة أيام قتال البرابرة من جهاتها الثلاثة له:

أعني النهر الأعظم من مد الحفير عليها من الجهة القبلية سبعة وأربعين ألف ذراع، وخمسمائة ذراع يجب لها ستة عشر ميلاً غير سدين ميل.

قال: وملك المنصور عن سبعة خلفاء من فتيانه الأكابر.

وكان شأنهم في ملك الأموية كبيراً وهو يثور بثقل كلفتهم الباهظة.

فلما تولى ولده عبد الملك بعده الأمر بلغ بهم ستة وعشرين خليفة فضاعف مؤنتهم أضعافاً كثيرة.

وكان من مشاهيرهم واضح بشير نظيف نجا شغله فطفر زهير خيره نصر نصير ظرفه شفيع بمن وائق، بشير واضح بشرى، والزاب يليق كوثر خلف / جعفر خلفه، [١٥٥/ب] هذا آخر شيء من كلام التجاني.

قلت: وابن خيران، ومجاهد، ما كانت قد طوت بهم الأخبار ونسبت لهم المآثر والآثار.

وفي خط الميزاني الكاتب في تاريخه قال: أحب المنصور أن يتعرف بمقدار ما يدخل قرطبة من جهاتها من أحمال الحطب في اليوم الواحد من أيام درووه للاحتكار، فوكل بإحصاء ذلك عدة من ثقاته فقعدوا له راصدين بسائر طرق قرطبة وأنقابها، وكتب كل واحد منهم ما أحصاه ورفعوا جميعه فبلغ إلى ستة آلاف وستمائة حمل على اختلافها.

وذكر أن الخليفة الحكم وكّل من أحصي له ما يباع بقرطبة من السمك المملوح المسمى بالسردين خاصة المجلوب من الساحل، فانتهى البيع فيه في يوم واحد إلى عشرين ألف دينار.

هذه نبذة من أحوال تلك المدينة التي كان أهلها تحت بيعة صبي لم يبلغ الحلم بعمره، ولا يباشر شيئاً من أمره، وانظر نائب عنه يحمي حماه، ويدافع عداه، ويصون حرمته ويمنيه فضل الله قبله ونعمته، ويوفي إجلاله وإيثاره، ويعطي وظائف الدين حقها، ويوضح من شرائع الشرائع طرقها.

وقد تقرر ما انتهى إليه أمر عامر بعده، وكيف ذهبت سعادتها بذهاب سعده، وأنجز لها الدهر كالي وعده، فحالت أحوالها وتغير جمالها، وشقت عن العورات أسمالها، وصارت معتبراً لذوي الاعتبار، ومندباً لناظم الأشعار، فمما ينسب في ذلك إلى الوزير أبي عامر ابن شهير من شهرائها وأبناء وزرائها:

أفي الطلول من الأجلة مُخبر ... فمن الذي عن حالها مستخبر
لا تسألن سوى العراق فإنه ... ينبئك عنهم انجروا أم غورُ
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
بزغ الزمان يصوغ في عرصاتهم ... نوراً تكاد له العيون تنور
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجرُ
وإذ أقال اللّه عثرة أهلها ... فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريق منهم ... متفطر لفراقها متحيرُ

عهدي بها والشمل فيها جامع من أهلها والعيش فيها أخضرُ
/ ورياح زهرتها تلوح عليهم بروائح يفتر منها العنبر [١٥٦/أ]
والدار قد ضرب الكمال رواقه فيها وباع النقص فيها يقصر
والقوم قد أمنوا تغير حسنها فتعهدوا بجمالها وتآزروا
يا طيبهم بقصورها وخدورها وبدورها بقصر ودها تتحدّر
والقصر قصر بني أمية وافر من كل أمر والخلافة أوفر
والزاهرية بالمراكب تزهر والعامرية بالكواكب تعمر
والجامع الأعلى يغص بكل من يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
وسالك الأسواق شهد أنها لا يستغل بسالكيها المخسر
يا جنة عصفت بها وبأهلها ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من الممات وحق لي إذ لم تزل بك في حياتك تفجر
كانت عراصك للميمم مسكة يأوي إليها الخائفون فينصروا
يا منزلاً نزلت به وبأهله طير النوى فتغيروا وتنكروا
جاد الفرات بساحتيك ودجلة والنيل جاد بها وجاد الكوثر
وسُقيت من ماء الحياة غمامة تحيا بها منك الرياض وتزهر
أسفي على دار عهدت ربوعها وظباؤها بفنائها تتمخترُ
أيام كانت عين كل كرامة من كل ناحية إليها تنظرُ
أيام كان الأمر فيها واحداً لأميرها وأمير من يتأمرُ
أيام كانت كف كل سلامة تسمو إليها بالسلام وتبدرُ
حزني على سرواتها ورواتها وثقاتها وحماتها يتكررُ
نفسي على الأئمة وصباتها وبهائها وصفائها يتحسرُ
كبدي على علمائها حُلمائها أدبائها طربائها تتفطرُ

قال: وممن رثى قرطبة أيضاً من وجوه أهلها وأرباب النعم الموائلة بها وأكثر التفجع على دياره منها لما استولى الخراب عليها عند فرار البربر عنها، الفقيه الأديب أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد[1] / ابن وزير آل محمد الأكبر. فإني وجدت بخطه [١٥٦/ب]

(١) هو علم أعلام الأندلس بل والمغرب كله، ابن حزم، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤): الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن =

في خبر ذكره قال:

وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرض الغربية، منازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة، فرأيتها قد محيت رسومها، وطمت أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلاء فصارت صحاري مُجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وآكاماً مشوهة بعد الحُسن، وخراب مفرغة بعد الأمن، مأوى للذئاب، وملاعب للجنان، ومغاني للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابيء للصوص بعد طول غنائها برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، تفيض لديهم النعم الفاشية، وتغص منهم بكثرة الفطين الجليسة، وتكنس في مقاصيرهم ظباء الأندلس الفاتنة تحت زبرج من نضارة الدنيا تُذكّر نعيم الآخرة.

مال الدهر عليهم بعد طول النضرة فبدد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبَأ تنطق عنهم الموعظة.

فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المرفئة التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة يغير حسنها الأبصار ويجلي منظرها الهموم كأن لم تغن بالأمس، ولا حلتها سادة الإنس، قد عبث بها الخراب وعمها الهدم، فأصبحت

= غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي، القرطبي، اليزيدي، مولي الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي رضي الله عنه، المعروف بيزيد الخير، نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق، الفقيه، الحافظ، المتكلم، الأديب، الوزير، الظاهري، صاحب التصانيف، كان جده يزيد مولي للأمير يزيد أخي معاوية كان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبد الرحمٰن بن هشام المعروف بالداخل.

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. ثم ذكر له ترجمة طويلة جداً ثم قال قرب نهايتها: قال أبو القاسم بن بشكوال الحافظ في «الصلة» له: قال القاضي صاعد بن أحمد: كتب إليّ ابن حزم بخطه يقول: ولدت بقرطبة في الجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بطالع العقرب، وهو اليوم السابع من نُوَنْبِرْ. قال صاعد: ونقلت من خط ابنه أبي رافع: أن أباه توفي عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة فكان عمره إحدى وسبعين سنة وأشهراً رحمه الله. قلت: وله تصانيف كثيرة أشهرها «المحلى».

وقد صنفت في سيرته الكتب، ومن مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٣٠٨)، تاريخ الحكماء (٢٣٢)، الصلة (٢/ ٤١٥)، بغية الملتمس (٤١٥)، معجم الأدباء (١٢/ ٢٣٥)، المطرب (٩٢)، المعجب (٣٢)، المغرب (١/ ٣٥٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٤٦)، العبر (٣/ ٢٣٩)، دول الإسلام (١/ ٢٦٨)، مرآة الجنان (٣/ ١٩)، البداية والنهاية (١٢/ ٩١)، الإحاطة (٤/ ١١١: ١١٦)ـ للمؤلف ـ لسان الميزان (٤/ ١٩٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ٧٥)، طبقات الحفاظ (٤٣٦)، نفح الطيب (٢/ ٧٧)، شذرات الذهب (٣/ ٢٩٩)، وغير ذلك كثير جداً.

أوحش من أفواه السباع فاغرة تؤذن بفناء الدنيا وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل ذا نفس مائلاً فيها، وتزهدك فيها.

وكررت النظر ورددت البصر، فكدت أستطار حزناً عليها، وتذكرت أيام راحتي فيها، وصبابة لذاتي بها مع كواعب غيد إلى مثلها يصبو الحليم.

ومثلت لنفسي انطوائهن بالفناء وكونهن تحت الثرى إثر تقطع جمعنا بالتفريق والجلاء في الآفاق النائية والنواحي البعيدة، وتصدقت نفسي عن فناء تلك البغية، وانصداع تلك البيضة، بعدما عهدته من حسنها، ونضارتها وزبرجها وغضارتها ونضوبه بفراقها من الحال الحسنة والمرتبة الرفيعة التي رفلت في حللها ناشئاً فيها.

وراعيت سمعي صوت الصدا، والبوم زاعقاً فيها بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها التي كان ليلها تبعاً لنهارها في انتشارها بسكانها، والتقاء عمارها، فعاد نهارها تبعاً لليلها في الهدوء والاستيحاش والخفوت والإجهاش، فأبكى ذلك عيني على جمودها وفزع كبدي على خرابها، وهاج قلبي على نكارتها وحركني للقول على نبوء طبعي فقلت:

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاء من الأهلين موحشة قفرا

/تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعاً ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا [1/157]

فيا دار لم يُقفرك منا اختيارنا ... ولو أننا نستطيع كنتِ لنا قَرْا

ولكن أقدار من اللّه أنفذت ... تُدمِرنا طوعاً لما حل أو قهرا

ويا خير دار قد تركت حميدة ... سقتك الغوادي ما أحل وما أسرا

ويا مجتلي تلك البساتين حفها ... رياض قوارير غدت بعدنا غُبرا

ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي ... ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النهر

فصبراً لسطو الدهر فيهم وحكمه ... وإن كان طعم الصبر مستثقلاً مُرا

لئن أظمأنا فقد طال ما سقى ... وإن ساءنا فيها فقد طال ما سرا

وأيتها الدار الحبيبة لا يرم ... ربُوعك جون المزن لميمي بها القطرا

كأنك لم يسكنك غيد أو إنس ... وصيد رجال أشبهوا الأنجم الزهرا

تفانوا وبادوا واستمرت نواهم ... لمثلهم أسكبت مقلتي العبرا

سنصبر بعد العسر لليسر طاعة ... لعل جميل الصبر يُعقبنا يُسرا

وإني وإن عادت وعُدنا لعهدها ... فكيف بمن من أهلها سكن القبرا

ويا دهرنا فيها متى أنتَ عائد ... فنحمد منك العود إن عدت والكرّا

فيا رُبّ يومٍ في دارها وليلة ... وصلنا هناك الشمس باللهو والبدرا

فواجسمي المضني وواقلبي المُعزى ... ووانفسي الثكلى وواكبدي الحرا
ويا هم ما أعدى ويا شجو ما أبدى ... ويا وجد ما أشجى ويا بئس ما أقرا
ويا دهر لا تبعد ويا عهد لا تحل ... ويا دمع لا تجمد ويا سقم لا تبرا
سأندب ذاك العهد ما قامت الخضراء ... على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله[1]

كنيته: أبو أيوب.

ولقبه: المهدي.

وكان عبد الملك بن المنصور قد وتر محمداً هذا بقتل أبيه هشام بن عبد الجبار، لاتهامه بالتدبير على دولته، فكان يطلب له الغوائل.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٨)، جذوة المقتبس (١٨)، نفح الطيب (١/ ٤٢٦)، بغية الملتمس (٢٢، ٢٣). وقال الذهبي في ترجمته في السير: وأما محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله عبد الرحمٰن، فتلقب بالمهدي ونصب الديوان، واستخدم، فلم يبق زاهد ولا جاهل ولا حجام حتى جاءه، فاجتمع له نحو من خمسين ألفاً، ودانت له الوزراء والصقالبة وبايعوه. فأمر بنهب دور آل المنصور أبي عامر، وانتهب جميع ما في الزهراء من الأموال والسلاح، وقلعت الأبواب. فقيل: وصل منها إلى خزانة المهدي هذا خمسة آلاف ألف دينار سوى الفضة. وصلى بالناس الجمعة بقرطبة وقُرِئ كتابه بلعن شنشول، ثم سار إلى حربه. فكان القاضي ابن ذكوان يحرض على قتاله ويقول: هو كافر. وكان شنشول قد استعان بعسكر الفرنج لأن أمه منهم، وقام معه ابن غومش. فجاء إلى قرطبة، فتسحب جنده، فقال له ابن غومش: ارجع بنا قبل أن تؤخذ، فأبى. ومال إلى دير شربش جوعان سهران، فأنزل له راهب دجاجة وخُبزاً، فأكل وشرب، وسكر، وجاء لحرب ابن عمه المهدي، وحاجبه محمد بن المغيرة الأموي، فقبض عليه، فظهر منه الجزع، وقَبّل قدم ابن المغيرة وقال: أنا في طاعة المهدي. ثم ضرب عنقه، وطيف برأسه: هذا شنشول المأبون المخذول. فلما استوثق الأمر للمهدي، أظهر من الخلاعة والفساد أكثر مما عمله شنشول.
وقال الحميدي: فقام على المهدي ابن عمه هشام بن سليمان بن الناصر لدين الله في شوال سنة تسع وتسعين، وقام معه البربر وأسر هشام هذا فقتله المهدي. وقال غيره: زاد المهدي في الغي وأخذ الحُرَم، وعمد إلى نصراني يشبه المؤيد بالله، ففصده حتى مات، وأخرجه إلى الناس، وقال: هذا المؤيد، فصلى عليه ودفنه. وقدم على المهدي رسول فلفل بن سعيد الزناتي صاحب طرابلس داخلاً في طاعته يلتمس إرسال سكة على اسمه ليعينه على باديس. فغلب باديس على طرابلس وتملكها، وكتب إلى ابن عمه حماد ليغري القبائل على المهدي لخذلانه، وتقدهم البربر الذي حوله ولوّح بذلك. فهذا سبب خروجهم عليه مع ابن عمه هشام بن سليمان.

فلما توفي المظفر كان من قدر الله أن اتهمته الزلفى حظية المنصور بالتدبير عليها، وقتله / بالسم أخاه عبد الرحمٰن المتأمر بعده. [١٥٧/ب]

فداخلت المروانيين في أمر الوثوب عليه بواسطة بشر الطفيلي من الفتيان العامرية المنحرفين عن موالاة عبد الرحمٰن.

فأرشده المروانيون إلى فاتك من فُتاك بينهم في ذلك الوقت جرار جسور ثائر مخاطر خليع مداخل للصقور، والفُتاك لا يدري في أي وادٍ هلك وهو المهدي هذا.

ففتح معه باب الدبير، ووعده عن الزلفى الإعانة بالمال.

واستظهر بسائر ولد الناصر وفتيان المروانية، وقد سملتهم بغض فبايعوا محمداً سِرّاً واستمالوا له خلقاً كثيراً، يلقونه بأطراف قرطبة وسفح جبلها على حال اكتتام وخفية، وخفي عن شيعة السلطان أكثر ذلك.

فلما ذهب عبد الرحمٰن لوجهته من الغزو وأبعد عن الحضرة، تمكن محمد بن [هشام بن] عبد الجبار من وثوبه.

فأقدم على باب السلطان في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

واهتبل الغرة لاشتغال صاحب كرسي المدينة القاعد به يومئذ أكثر حرسه في احتفار كرومه أمناً وطمأنينة واغتراراً بالأيام.

وقد كان ابن عبد الجبار قد بثَّ بتلك النواحي وانتبذ هو في غُدوة النهر قبالة القصر يرتقب الميقات.

إلى أن تألف إليه من أصحابه اثني عشر فتى فيهم طرسوس المجُونسي وهو أشهم القوم عاملين على الكر وراء الباب وإظهار الأمر.

فانكفأ إلى هنالك، وقد بث العصابة أمامه فتكنفوا الباب كأنهم نظارة إلى أن طلع عليهم ابن عبد الجبار، فشهر سيفه وهجم للحين على صاحب المدينة، واقتحم عليه مجلسه.

فجيء به إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار مختبئاً لفرط جزعه، فأمر بضرب عنقه بين يديه ورفع رأسه على قناةٍ.

وحين أبصرت العامة رأس المذكور تداعت إلى ابن عبد الجبار كالسيول من السفلة والغوغاء، فقويت بهم نفسه، وجعل يحركهم على العامرية فخاطبهم بوجه قيامه واحتسابه وبادر بكسر سجن العامرية وفيه اللصوص والدعار وأصحاب الجرائم.

وتلاحق به بنو عمه المروانيون يستدعون الناس.

وأغلق هشام المؤيد باب القصر، وارتقى إلى السطح، وأشرف على العامة بين مصحفين يحملهما خادمان، وأشار إلى من تحته من العامة يسكنهم بيده. فصاحوا به: لا حاجة لنا بك، وهذا أولى بالملك منك.

فولى عنهم منصرفاً إلى قصره، وأمر الخدم بالكف عن دفاعهم حتى يقضي الله قضاءه. ودخل محرابه، فلم يتحول عنه إلى أن تم أمر الله تعالى عليه.

[١٥٨/أ] وأمر محمد بنقب القصر فشرع /في ذلك، وجلبت السلاليم، وخاف هشام على نفسه وأهله، لما رآه أعجز من بالزاهرة عن نصره، وتمالق الناس عليه.

فأرسل إلى ابن عبد الجبار، وجرت بينه وبين هشام محاورة في عشي هذا اليوم.

وقصدت الزهراء أمم من أخلاط الناس، فمانعهم أهلها ليلتهم، ثم خذلهم الله بعدها.

وأنزل ابن عبد الجبار الناس من سقف القصر، وذادهم عن أنقابه.

وأجلس كرسي الشرطة محمد بن المغيرة ابن عمه.

ونصب ابن عبد الجبار ابن عمه الآخر مكان الحاجب.

واستدنى سليمان بن هشام منهم، وسماه ولي العهد.

وبعث ليلتئذ إلى هشام مغلومة مُغَنّتاً على فيه إلى أبي عامر، ويدعوه إلى خلع نفسه.

فاعتذر بالعجز عن الإراحة منهم، وبادر إلى ما سئل منه من الخلع.

فَسُرّ ابن عبد الجبار بذلك، وبادر بالأرسال عن الناس ليلته لم يطبق جفناً، فسارع المشيخة وأهل البيت من قريش والأعمام والوزراء وطبقات الخدام والقضاة والفقهاء والعدول.

وقد بادر إليه هشام بخلعٍ فاخرة غير بها للوقت من أحواله، ودخل عليه الأشهاد.

فصحّت الخلافة لمحمد بن عبد الجبار في صبح تلك الليلة، وتلقب بالمهدي، لقب لم يلبسه مرواني قبله.

وكان جسوراً، مضطرب الرأي.

ويقال: إن عدة من تبعه من سفلة قرطبة، فأثبت أسماءهم في العطاء، خمسون ألفاً، وانتهب الزاهرة فتقسمت الأيدي كل ما اشتملت عليه من مال مخزون، وآلة،

ومتاع، وعدد سلطانية، وفُرش، وآنية حتى اقتلعت الأبواب الوثيقة، والخشب الضخمة وتوصل منها القائم فيما زعموا بعد ذلك بخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف دينار دراهم، ومن الذهب لألف ألف وخمسمائة ألف.

واستخرج من بعض الدفائين مائتي ألف لم يُغن عنه شيئاً مع الاضطراب والفتنة، وأطلق من حُرَم آل عامر الحرائر، واصطفيته الإماء.

ولما فرغ من تحويل ما كان بالزاهرة أمر بهدمها، وحط أسوارها، وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها، وطمس آثارها، وتعجيل ذلك، توقعاً لتدارك عبد الرحمٰن بن أبي عامر ومن لديه من الجيوش أمره، وسوّغ الناس أنقاضها، فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لا تبلغه الدهور المتعاقبة، فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس.

وذكروا أن المنصور بن أبي عامر بانيها كان يرى في منامه كأن الله اطلع عليها وتجلى لها، فسأل عن ذلك ابن الهمداني، فأخبره بخرابها وتلا / قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٣]. [١٥٨/ب]

فكان المنصور متى ذكر هذه الرؤيا بغض عيشه.

وكان ما تقدم به المعريف من عند عبد الرحمٰن بن المنصور وأقرابه بالجيش على قرطبة وفرار الناس عنه إلى ابن عبد الجبار وقتله.

وسرت أهل قرطبة بولاية المهدي سروراً عظيماً وأفرطوا في اتخاذ الأعراس له بالرحبات، والأرباض، غافلين عما خبأ القدر لهم في ذلك من المكروه الذي أباد خضرائهم، وفرّق جموعهم، وأجاع بطونهم وسلب أموالهم، وهدم دورهم، وألبسهم لباس الجوع والخوف سُنّة الله في الرعايا إذا بطرت وملت العافية، ودانت بحب الإدالة والقلى بالملوك والشره إلى الشوّار.

والتف الجيش الغازي مع عبد الرحمٰن بن أبي عامر على صاحب الأمر، ودانوا بطاعته، فكان من أسباب إدباره: قعود من وكّل بأبوابه من السفلة ومحدثي الاستعمال والاستخدام[١] من أراذل العامة المستنجدة بكل من يجب بره وتسويده من وجوه الناس وأعلام الملة وشيوخ البرابرة.

---

(١) يريد أن من أسباب هزيمته أنه استخدم أهل الثقة لا أهل الخبرة، ثم إنهم لم يكونوا أيضاً أهل خبرة حيث إن ولاءهم يكون لمن يدفع أكثر أو لمن له سلطان أقوى حيث لا حساب لديهم لسوى ذلك الأمر حيث إن هدفهم في الحياة هو الثراء أو الاشتباع من متع الدنيا وزينتها ولا كرامة لهم ولا ولاء إلا لذلك، ثم إن أهل الخبرة دائماً تكون قد تكونت لديهم بالإضافة إلى الخبرة العقيدة والتي تكوّن لمن يكون الولاء الحقيقي عمن يجب أن يكون الدفاع بالروح والدم؟.

فكانوا يطالبونهم بإلقاء السلاح، ويبادرونهم بالتحية، ويسمعونهم الخنا من غير تمييز بين أعلاهم وأدناهم حتى انبعثوا منهم حقداً، وأثاروا على إسلام ابن أبي عامر ندامة.

وهاجت طائفة فتعدت على دور البرابرة بالرصافة فنهبتها.

ففسدت طاعته، وانخرقت النفوس عنه، فلما استوثق له الأمر، وكتب إليه واضح العامري صاحب طليطلة بالطاعة، وتم مراده من انتظام المُلك.

وأحضر للناس رجلاً ميتاً شبيهاً به، قيل: إنه يهودياً أو نصرانياً فعاينه الوزراء وشهدوا بأنه هشام المؤيد غير شك فيه.

وقام بحق مواراته يوم الاثنين لثلاث بقين من شعبان هذه السنة.

ثم أسقط سبعة آلاف ممن كان قد استخلف من جنوده، فاستهدف لانحرافهم وعداوتهم.

وأعلن ببغض البرابرة، وتنقصهم جهلاً بمحلهم من البأس والعصية[١].

فتألفت من هذه الأصناف جُملة على هشام بن سليمان بن عبد الرحمٰن.

وانجلت الحال عن القبض على هشام بن سليمان والإتيان به إلى ابن عبد الجبار، وتفرق من كان قد التف به من البرابرة المستوحشين من ابن عبد الجبار لكونهم صنائع ابن أبي عامر، وغيرهم من / الباديين والصنائع والفتيان. [١/١٥٩]

فقتل هشام بن سليمان صبراً بين يديه، وانتهب دوره، ودور من تلبس به من البرابرة وغيرهم.

وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط خارج قرطبة عشية يوم الجمعة بعد محاورة بينهم وبين العامة، ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر.

ثم راسلهم ابن عبد الجبار، فلم يلتفتوا إليه، وكان سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله[٢] قد فرَّ من قرطبة طالباً النجاة بنفسه لما

---

(١) هذا من سوء تقدير الحاكم أو تزيين بطانته له بعض الأمور التي تودي بحياته وبالبلاد إلى الدمار والخراب والفشل في الإدارة، ولذلك مثال في تاريخنا المعاصر حيث قام الخومين بقتل كل قادة الجيش الذين كانوا في إيران عقب توليه الحكم، ثم دخل في حرب مع جيرانه بقوات لا خبرة لها في الحرب مع معاداته لكل جيرانه فما كان من ذلك إلا نتيجة حتمية هي الهزيمة وهلاك الناس أثناء تلك الحروب الطاحنة التي استمرت أكثر من ثمان سنوات اضطر في آخرها إلى التوقف. فلو قال قائل: إن القواد كانوا غير موالين له بل موالين للشاه المخلوع، لقيل لهم: كان يجب عليه أن ينظر في سبب ولاءهم له ويصلح ذلك ومَن لم يصلح أقاله واستعاض عنه بمن هو في كفاءته وولاءه للعهد الجديد.

(٢) هو ابن أخي هشام المقتول.

قُتل من قتل من بني أمية، فصار من جملتهم.

ولما سألوه عن نفسه فصدهم عن أمره، قدموه وعقدوا له الخلافة، وتسمى المستعين بالله، وذلك في عقب شوال من سنة تسع المذكورة(١).

ونهضوا به إلى شانجة بن غرسية بن فردلند وعاقدوه على أن يعين سليمان بن الحكم على دخول قرطبة.

فتحرك معهم في عسكر عظيم من النصارى، واحتل قرطبة.

وبرز إليهم المهدي فيمن معه فهزمهم سليمان وقتل النصارى يومئذ من أهل قرطبة أزيد من ثلاثين ألفاً.

وكانت أول ما رأت المشركين على المؤمنين ولما عظم الأمر على ابن عبد الجبار، ورأى انحراف الناس عنه بدا له في أمر هشام المؤيد بالله المخلوع، وظن أن الناس يتعصبون له إذا رأوه، فأخرجه للناس رجاء أن يتمسك الحال به.

فلم يجد ذلك، وقد تمكن الداء، وأعضل المشتكى.

وعجز ابن عبد الجبار، ورأى [أن](٢) إبراز هشام للناس لم يغن [شيئاً](٢).

فدبر الحيلة، أذعن لسليمان ومن معه من البرابرة، وسلم في القصر لسليمان. فوجه إليه والده الحكم ليضبط أمره بخلال ما يتم خروج ابن عبد الجبار عنه بأهله، ويدخله ضحوة اليوم، ففرّ ابن عبد الجبار من ليلته، واختفى في المدينة أياماً، ثم خرج متنكراً إلى طليطلة في خبر غريب(٣).

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٢٩): وجمعوا له مالاً حتى صار له نحو من مائة ألف دينار. فتوجه بالبربر إلى طليطلة فتملكها، وقتل واليها. فجزع المهدي، واعتد للحصار، وتجرأت عليه العامة، ثم بعث عسكراً فهزمهم سليمان المستعين، ثم سار حتى شارف قرطبة فبرز لحربه عسكر المهدي، فناجزهم سليمان فكان من غرق منهم في الوادي أكثر ممن قُتل. وكانت وقعة هائلة هلك فيها خلق من الأخيار والأئمة والمؤذنين. فلما أصبح المهدي بالله أخرج للناس الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم، الذي كان أظهر لهم موته، فأجلسه للناس وأقبل قاضي الجماعة يقول: هذا أمير المؤمنين وإنما محمد بن هشام بن عبد الجبار نائبه. فقال له البربر: يا ابن ذكوان، بالأمس تصلي عليه واليوم تُحييه؟! ثم خرج أهل قرطبة إلى المستعين سليمان فأحسن ملقاهم واختفى محمد المهدي واستوثق أمر المستعين، ودخل قصر الإمارة، وواري الناس قتلاهم فكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً.

(٢) زيادة يتطلبها السياق وربما تكون سقطت من المخطوط.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٠): ثم تسحب المهدي إلى طليطلة، فقام معه وكتب إلى الفرنج ووعدهم بالأموال، فاجتمع إليه خلق عظيم. وهو أول مال انتقل من بيت المال بالأندلس إلى الفرنج. وكانت الثغور كلها باقية على طاعة المهدي فقصد قرطبة في جحفل عظيم، فالتقى الجمعان على عقبة البقر على بريد من قرطبة، فاقتتلوا أشد قتال، فانهزم سليمان المستعين، =

بعض حديث اختفائه وحيلته وما جرى عليه من الخطوب

فكان اتصاله بطليطلة وانحيازه إلى واضح الحكمي بها في أول جمادى الأولى من سنة أربعمائة.

وقبله أهل طليطلة أحسن قبول، وكان من أمره ما يُذكر.

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله

والحديث قد تقدم بقيام البربر بدعوته ونزوله بظاهر قرطبة من بعد هزيمة ابن عبد الجبار، ثم انخلاعه لهم عن الأمر، واختفائه.

[١٥٩/ب] ودخل سليمان قصر قرطبة مرته الأولى / في السابع عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ثاني يوم من فرار المهدي، وطلبه فأعياه.

واستقر سليمان بمقر المُلك، وخاطب البلاد، وقدم العمال ولحين لحاق ابن عبد الجبار بطليطلة مستظهراً بواضح، وبادر فأحكم له أيضاً العقد مع الفرنج على أن خرج لهم عن مدينة سالم بقصرها إلى ما التزم لهم عن نفسه من مال ونفقة. وتحرك الجميع إلى قرطبة.

وبلغ ذلك سليمان، فاستنفر الناس، وخرج إلى لقائهم لأربع عشرة خلت من شوال هذه السنة.

ولما أحكمت البرابرة المغيبة للحرب، جعلوا سليمان في أخرياتهم، ومعه خيل من المغاربة، وقالوا له:

لا تبرح من مكانك ولو وطئتك الخيل. فلما دفعت الفرنج وخرقت صفوف البربر، لم يدر أن البرابرة أفرجت لها إذ لا يقوم لصدمتها شيء، وإنها تلتف عليها بعد. فلم يشك أن البربر قد اصطلموا، فانهزم فيمن كان معه على ذلك.

فقتلت يومئذ البرابرة مغسد ملك الروميين وخمسين من كبار قومه.

وقتل من البربر نحو من ثلاثمائة من رجالتهم إذ لم يقتل لهم يومئذ فارس.

وانحازوا إلى الزهراء، فرفعوا أولادهم، وفروا على وجوههم، وتصبر سليمان

= واستولي المهدي على قرطبة ثانية، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جماهير البربر، والتقاهم بوادي آره فهزموه أقبح هزيمة. وقتل من جنده الفرنج ثلاثة آلاف، وغرق خلق، فجاء إلى قرطبة، ثم وثب عليه العبيد فضربت عنقه، وقطعت أربعته، وكفى الله شره في ثامن ذي الحجة عام أربعمائة وعاش أربعاً وثلاثين سنة.

بما رأى إلى شاطئه. وخرج أهل قرطبة، فانتهبوا أثاث البربر، وقتلوا من وجدوا.

وأتى محمد بن عبد الجبار، وواضح قرطبة فدخلاها.

أيام محمد بن هشام في الرجعة الثانية

قال: ولما عاد ابن عبد الجبار إلى قرطبة جدد البيعة لبنيه، فكان أول من بايعه هشام المؤيد.

وطلب الناس بمال يفرضونه لمن معه من النصارى وكانوا في سبعة آلاف.

ثم أقسم بالأيمان المغلظة أن لا يستقر ولا يحل شعار الحرب حتى يفرغ من أمر البربر.

وقد كانوا أسروا بأولادهم وعيالهم يحملونهم على سروج دوابهم، وغير ذلك إلى جهة الخطر البادي بحمية بلادهم الغربية، ونزلوا بوادي بارة[1] من أحواز مرفلة.

وتحرك إليهم بكل من قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة، وبواديها، حتى نزلوا على البربر، يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة أربعمائة.

فاقتتلوا قتالاً شديداً، وخشي ابن عبد الجبار فرسان الثغر، وبلوا من البربر قتال المستميت الذي لا يطمع في الحياة بعده، ومن قاتل كذلك، فقد كتب الله له الطائلة.

فانهزم واضح، وابن عبد الجبار، والفرنجة، أعظم هزيمة فقتل من الفرنجة عدد قليل ذليل إلا أنه / أثبت رجله في مستنقع الموت ولم يعول على الحياة. [١٦٠/أ]

فقتل من الفرنجة يومئذ أكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم بوادي السقايين ـ وهو وادي بارة ـ خلق كثير.

واحتوى البرابرة على ما في عسكرهم وعسكر واضح، وابن عبد الجبار من مضارب، ومال، وسلاح، ودواب.

ووصل المنهزمون إلى قرطبة ثاني يوم الوقيعة. ورغب ابن عبد الجبار، وواضح، من النصارى، في الرجوع معهما إلى البربر، فأبوا ذلك، ورحلوا إلى بلادهم مغلولين.

وشرع ابن عبد الجبار في الحركة والرجوع، وطلب من أهل المدينة المال تجلداً وغرامة كاذبة، ولم يكن إلاّ أن رحل عن الحضرة، ثم غلب رأي الانحجار والاحتجار، وأمر باحتفار الخندق. وتكالب البربر، وظهرت خيلهم مغيرة على

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: البَارَة: إقليم من أعمال الجزيرة الخضراء بالأندلس فيه جبال شامخة، وثارت من أهله فتن قديماً وحديثاً، وهو بلد ثمر لا بلد زرع.

الأطراف، وتملكوا جبل يشتر قاعدة خلاف بن حفصون في القديم.

وأجحف ابن عبد الجبار بالناس، فنفروا عنه، وتشاءموا به، وبدا لهم سوء ما دخر لهم القدر من أيامه، وأحسوا بعقاب الله إياهم في بطر العافية المقترنة بدول العامرية التي ملّوها، وسئموا نعيمها، وضجوا من مواصلة جهادها في سوء الجوار، وكفران الحق لهذا العهد.

وأتت النفقات على أسباب السلطان، وذهب عتاده وزينه، وأصبح حقيراً فقيراً، واستأسد العدو، واستقال سليمان بن الحكم أمير البرابرة العشرة، واقتضى نظر واضح ومن معه قتل ابن عبد الجبار إعادة هشام المؤيد.

فأجلس ابن عبد الجبار بين يديه فعاتبه طويلاً لما جنى عليه في نفسه وحرمه، ثم أخرج من بين يديه فقتل، ومُثّل به.

واختفى ولده ولي عهده إلى أن لحق بطليطلة.

أيام هشام بن الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله في المرة الثانية

لما قُتل المهدي بن عبد الجبار، أُجلس هشام للناس، وتقدم لحجابته واضح، وجدد له البيعة، وبعث إلى سليمان أمير البرابرة، وإلى من معه ودعاهم إلى الدخول في ما دخل فيه الناس، والاستقالة من الفتنة.

فلم يقبلوا ذلك، واغتبطوا بأميرهم.

[١٦٠/ب] وفي أُخريات ربيع الأول من هذه السنة نزلوا قرطبة، ودخلوا مدينة الزهراء / وانضم الخلق من الأحواز إلى المدينة، وانتشرت الغارات، وعظم العياث فيما اتصل بالبلد، وانتشرت البرابرة على كور الأندلس، مالقة[١]، والسرة، وما اتصل بأحواز قرطبة، يخربون الديار، وينسفون النعم، ويسبون الحريم، ويصادرون بالفداء من يتهم باليسار من الرعية[٢].

وطلبوا الناس بالأموال، وقطعوا الميرة[٣] عن قرطبة، فاشتد الغلاء، وعظم

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مَالَقَةُ: كلمة أعجمية، مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رَيّة سورها على الشاطىء بين الجزيرة الخضراء والمرية. وقال الحميدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق. والقولان متقاربان، وأصل وضعها قديم، ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها، أي الرستاق.

(٢) أي يخطفون رجلاً أو امرأة أو طفلاً من ذوي اليسار، ثم يطلبون فدية لتركه نوعاً من الابتذاذ وإلا قتلوا من بأيديهم من ذويه، فيضطر المخطوف له أن يدفع الفدية المطلوبة التي عادة ما يكون مبالغ فيها.

(٣) الميرة: هي الطعام أو المواد التموينية.

البلاء. واضطر هشام وواضح إلى خطة الخسف من استصراخ النصارى والاستعانة بملكهم على شرط تمكنه من البلاد.

ووصلت رسله إلى قرطبة، فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتين حصن مما فتح الملوك المجاهدون من سامية، وكافل أمرهم المنصور، وأكده وحضر لذلك الفقهاء، والقضاة، والمفتون. وانصرف الجميع مستبشرين بنصر العدو إياهم خذلاناً وعماية ولجاجة في الغي والنقمة من الله لبطر العافية.

وارتكب العوام والرعاع بين المنافرة للبربر، والمجالبة الطبيعية، وعدم الإغماض في استصلاحهم مرتكباً من اللجاج والتخاصم مكن خزي الله من وجوههم، وتل ربق القهر في رقابهم.

فلقد كانت من واضح، وهشام، وبعض الأحائيين مراوضة في السلم والصلاح، وصل للكلام فيها من قبل القوم رجل يعرف بابن بُكير، وقع الناس عليه فقتلوه، ومثلوا به.

وقد عجز صاحب الأمر عن قصره، وتجرد الناس لقتال البربر، وتكلفوا المال للجيش حتى تلفت أموالهم وكان مما يلزم رسم الحبس خمسمائة فارس. واضطر السلطان إلى المال، فأخرج ما في قصره من حلي ثمين، وذخيرة، وآنية فضة، وذهب، وثوب، ومتاع حتى الكتب، والخزن، والمواعين، والفرن، ومن الأدوية الطبية، والعقاقير المجلوبة، ذكر أرباب التواريخ من ذلك أموراً تجدها تبعث الحسرة، ولم يغن ذلك من شيء لعياث الأيدي فيه، وامتياز أيدي العوام به، وشره أهل الجاه والتمكن إليه.

وجمع السلطان الناس إلى القصر وشكا إليهم القلة والحاجة، فأظهروا العجز، وقالوا: لم يبق فينا مطمع ولا عُلالة، فاخرج بنا إلى العدو فإننا لا نقيم على هذه الحالة والموت خير منها.

وتحير واضح وارتبك عليه أمره، فعزم على الفرار إلى الثغر.

وفطن له الجند فضعف في أعينهم فاجترأوا عليه، واجتمعوا على ابن وداعة من وجوه العسكر وزحفوا عليه فعاقبوه بما أتلف من الأموال، وما عزم عليه من خراب الدولة، ثم سَلّوا السيوف فقتلوه، واحتزوا رأسه وطافوا به البلد.

وألقوا جثته بالموضع الذي طرح فيه جثة ابن عبد الجبار، ونهب دوره، وخزائنه، وألفيت أمواله ميسرة، ورجاله مشدودة. وتجلد هشام بعده، وأظهر الاستغناء عن الوزير، وتجرد لمباشرة الأمر بنفسه.

وكتب سليمان بن الحكم إلى أهل قرطبة فحذرهم الفتنة، فلجوا وبلغت الغاية، وانتهى الأمر.

وطال على الناس لزوم المحارس والمراصد والبيتات فملوا وعجزوا، وبان للعدو فشلهم وإخلادهم إلى الأرض، فاشتد فيهم طمعه وهم على خمسة أضعاف الحاصر، وتوالت عليهم الهزائم، وأكلتهم السلاح وأصرعتهم الحاجة.

واقتحم البرابرة أرباض قرطبة عنوة، فكان الأمر في هول يومئذ يجل عن الوصف، ويشذ عن العبارة من استيلاء السيف والسبي والنار والتخريب.

ولجأ من تأخر أجله إلى المدينة. وخرج القاضي ابن ذكوان، وكان له توسل، إلى أميرهم سليمان بن الحكم، وقد رأى مد يده في مصالحة قومه فعقدوا للناس أماناً تحت صغارٍ وذلةٍ ودنيةٍ وخفيفة. ودخل سليمان القصر بقرطبة بعد[1].

أيام سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر لدين الله عبد الرحمٰن[2] في المرة الثانية

دخل سليمان القصر بقرطبة يوم الاثنين لثلاث بقين من شوال سنة ثلاث وأربعمائة.

وأحضر هشاماً فوبخه، وقال: كنت تبرأت من الخلافة، وأعطيت صفقة يمينك

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٣): وبالجملة، فالذي جرى على أهل الأندلس من جندها البربر لا يحد ولا يوصف، وقد عملوا ما يصنعه كفار التُرك وأبلغ، وأحرقوا الزهراء، وجامعها، وقصورها، وكانت أحسن مدينة في الدنيا وأطرأها، وقد قال ابن نبيط:

ثلاث من طبعها الفساد ... الفأر والبربر والجراد

وقال محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي في كتاب «المعجب»: دخلت البربر قرطبة وعليهم سليمان المستعين في شوال سنة ثلاث وأربعمائة فقتلوا المؤيد بالله. وقتل في هذه الكائنة بقرطبة من أهلها نيف وعشرون ألفاً.

(٢) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٣)، جمهرة الأنساب (١٠٢)، جذوة المقتبس (١٩)، الذخيرة في محاسن الجزيرة (١/ ١/ ٣٥: ٤٨)، بغية الملتمس (٢٤)، المعجب (٤٢)، الحلة السيراء (٢/ ٥)، البيان المغرب (٣/ ٩١)، المختصر في أخبار البشر (٢/ ١٤٥)، فوات الوفيات (٢/ ٦٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٠)، نفح الطيب (١/ ٤٢٨)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٣)، وقال فيها: في هذه السنة ملك سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله الأموي، ولقب المستعين. وهذه غير ولايته منصف شوال على ما ذكرناه في سنة أربعمائة، وبايعه الناس، وخرج أهل قرطبة إليه يسلمون عليه، فأنشد متمثلاً:

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية ... يقولون: من هذا وقد عرفوني

يقولون لي أهلاً وسهلاً مرحباً ... ولو ظفروا بي ساعة قتلوني

وكان سليمان أديباً شاعراً بليغاً. وأريق في أيامه دماء كثيرة لا تحد، وقد تقدم ذلك سنة أربعمائة. وكان البربر هم الحاكمون في دولته لا يقدر على خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده، وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه.

فنقضت عهدك. فاعتذر إليه بأنه مغلوب على أمره، ثم تبرأ له من الأمر.

وانتقل سليمان إلى سكنى الزهراء، ورتب الأمر وكتب بالتمكين إلى الجهات، وأخرج الولاة، وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية، وكانوا ستة:

فأعطى صنهاجة منهم بني زيدي بن مناد البَيْرَةُ[1].

وأعطى معراوة جنوبي البلاد.

ومنذر بن يحيى سَرَقُسْطَة[2].

وبني برزال وبني يفرن حياز ودواتها والمغارب.

وبني دمروازداجة شَذُونَة[3] وموزور[4].

وولى ابنه علي بن حمزة سَبْتَة[5].

والقاسم بن حمود مدينة طنجة، وأصيلا، والخضراء[6].

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: بَيْرَة: بالفتح كذا ضبطه الحميدي وقال: هي بليدة قريبة من ساحل البحر بالأندلس، ولها مرسى ترسي فيه السفن ما بين مرسيه والمرية. قاله سعد الخير، وأما الحميدي فإنه قال: هي بالأندلس، ولم يزد. وقال ابن الفقيه: بيرة جزيرة فيها أثنتا عشرة مدينة وملكها مسلم يقال له في هذا الوقت سودان بن يوسف، وهي في أيدي المسلمين منذ دهر، وأهلها يغزون الروم والروم يغزونهم، ومنها يتوجه إلى القيروان، هكذا قال. ولا أعرف هذه الجزيرة، ولا سمعت لها بذكر في غير هذا الموضع. وكان ابن الفقيه في حدود سنة (٣٤٠هـ).

(٢) وقال صاحب المصدر السابق: بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تُطيلة. ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس، مبنية على نهر كبير، وهو نهر منبعث من جبال القلاع، قد انفردت بصنعة السمور ولطف تدبيره تقوم في طرزها بكمالها منفردة بالنسخ في منوالها، وهي الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية، هذه خصوصية لأهل هذا الصقع، وهذا السمور المذكور هنا لا أتحقق ما هو ولا أي شيء يعني، وإن كان نباتاً عندهم أو وبر الدابة المعروفة، فإن كانت الدابة المعروفة، فيقال لها: الجند بادستر أيضاً. وهي دابة تكون في البحر، وتخرج إلى البر وعنده قوة ميزة. . . ولها مدن ومعاقل، وهي الآن بيد الإفرنج صارت بأيديهم منذ سنة (٥١٢هـ).

(٣) وقال عن هذه: مدينة بالأندلس تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، وهي منحرفة عن موزور إلى الغرب مائلة إلى القبلة.

(٤) وقال عن مَوْزُورُ: اسم لكورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة، وهي عن قرطبة بين المغرب والقبلة، كثيرة الزيتون والفواكه، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخاً.

(٥) قال ياقوت في سَبْتَةُ: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر. وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بإفريقية على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند، وهي ذات أنياف وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر الزقاق، ومن جنوبيها بحر ينعطف إليها من بحر الزقاق، بينها وبين فاس عشرة أيام.

(٦) قال ياقوت في معجم البلدان: طَنْجَةُ: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو =

ولما استقر الأمر لسليمان كان رؤساء البرابرة غالبين على أموره، فحذر لذلك العامرية، وفروا إلى بلاد شرق الأندلس فتبادلوا بها الملك حسبما يأتي بحول الله.

وفي هذا العهد لأوَّل عودة سليمان بن الحكم هلك هشام رحمه الله.

وكان الفتيان العامريون، والبغايا الشاميون، لما يأسوا من حسن العقبى، وأيقنوا باستيلاء البرابرة مع سليمان على قرطبة قصدوا ليلة الاثنين الذي فتح فيه البرابرة قرطبة إلى باب الشدة، وقد تأهبوا للبرابرة، وجهدوا في الدخول إلى هشام فلم يمكنهم من ذلك، فجعلوا يميلونه ويعرضون عليه الدخول إلى المدينة الزهراء كيما يجتمع الجند إليه بها.

فأبى وقال: المدينة من قرطبة، ومن فاته رأس الأمر فلا يأخذ بِذَنَبِهِ، وقد علم الله أنني ما أحببت الدخول في شيء مما أدخلتموني فيه، قضاء الله بكربي وهو حسبي.

قالوا: فاركب معنا الليلة في خف من رحلك وصفوة من أهلك.

فخرجنا في جمعنا، ونقطع من الليل فنلحقك بقلعة مثابة بمحل عصمة فلا يبغي أن يلحق بك الناس، وينحل أمر عدوك بسرعة.

فقال وجفوه أشد: أعود حال سليمان وألقِح الفتنة والهرج للأمة؟! أهذا ما لا يكون أبداً.

فلما يأسوا منه مالوا إلى الصلح من غد وطمعوا في الحياة واستجابوا لخلع هشام، ومكنوا من ناصيته.

= من البر الأعظم، وبلاد البربر، قال ابن حوقل: طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة، وبناؤها بالحجارة، قائمة على البحر، والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سورة، وهي على ظهر جبل وماؤها في قناة يجري إليها من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة، وهي خصبة، وبين طنجة وسبتة مسيرة يوم واحد. وقيل: إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله وهي على آخر حدود إفريقية.

وقال عن أَصِيْل: بلد بالأندلس، قال سعد الخير: ربما كان من أعمال طليطلة. وذكره أبو عبيد البكري في كتابه في المسالك عند ذكره بلاد البربر بالعُدْوة بالبر الأعظم، فقال: ومدينة أصيلة أول مدينة العدوة مما يلي الغرب، وهي في سهل من الأرض، حولها رواب لطاف، والبحر بغربيها وجنوبها، وكان عليها سور ولها خمسة أبواب. فإذا ارتج البحر بلغ الموج حائط المسجد، وسوقها حافلة يوم الجمعة، وماء آبارها شروب وبخارجها آبار عذبة، وهي الآن خراب. وهي بغربي طنجة بينهما مرحلة.

وقال عن الخضراء في نفس المصدر: الجزيرة الخضراء: بالأندلس، ذكره في الجزيرة، والمدينة الخضراء بلدة بينها وبين مِليانة يوم واحد، وهي مدينة جليلة كثيرة البساتين، على شاطىء نهر، من أخصب مدن إفريقية.

فحمل إلى سليمان وعاتبه، ثم صرفه، وقد رَقَّ له مع محمد بن سليمان ولده، ووصاه بالجميل في أمره.

فأقام معه أياماً لا يخبر مكانه، ثم غيب شخصه، فكان آخر العهد به.

وشاع يومئذ أن محمداً أعجل عليه دون إذن والده سليمان فاغتاله خنقاً منفرداً بذلك مع بطانته ابن حدير وغيره لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة.

فكانت مدته في هذه الكرة سنتين، وأربعة أشهر، أنست ما قبلها من أماد الشر، وأزمان الفتنة.

وكانت سِنّهُ يوم الخلع الثاني: ثمانياً وأربعين سنة، وأربعة أشهر. ولم يخلف عقباً من ذكر ولا أنثى.

واقتدر قاتلوه على ما لا شيء فوقه من كتم أمره[1]، وأشاعوا أنه فرّ لوجهه مأذوناً له.

فتعيش زماناً سقاء بالمرية، وكان من غرائب الدهر.

وكان لعربان الدهر لغرائب كله ضم بن عباد بإشبيلية شيخاً مابوناً من عرض الرعاع حجبه، وزعم أنه هشاماً أيام حياته، فشهدوا بوجوده حياً.

وقام بدعوته، وندب الناس إليه، ووقف عليه معاينوا هشام أيام حياته فشهدوا بوجوده حياً لديه.

فخطب له بأكثر بلاد الأندلس: قرطبة، وإشبيلية وغيرهم زمناً، وتوصل بذلك إلى كثير من تدبيره حتى توطد له الأمر بإشبيلية، واستحكم بناؤه، وأورثه بنيه بعده.

ولما تنفس مخنق العامريين الموالي والصنائع الهاشميين.

وعادوا على سليمان بالحقود البربرية من بعضهم إلى علي بن حمود أمير سبتة من الحسنيين عهداً منسوباً إلى هشام المؤيد، وبخطه: زعموا العهد فيه بعده إلى علي بن حمود، وتوليه القلب الطلب، وسهلوا عليه سبيل طلب / الخلافة، فأظهر به [١/١٦٢] الخلاف على سليمان بن الحكم، وكان أملك لنفسه. ثم تحرك بعد أن التف عليه بشر كثير، وبعد أن خاطب أخاه القاسم بقرطبة، فلحق ببلاده الخضراء.

فكان استبراء علي بن حمود سنة أربع وأربعمائة. وقتل قاضيها محمد بن عيسى، والفقيه ابن يربوع عميدها، لاتهامهما بميلهما إلى سليمان. وقد بعث عيوناً

(١) أغرب من هؤلاء وقوف هؤلاء في كتم السر هم إخوة يوسف عليه السلام فقد كانوا عشرة ومكث سرهم أكثر من عشرين سنة، وقيل أربعين، وقيل ثمانين سنة لم يفشه أحد منهم إلى أن كشفه الله تعالى أمام الجميع.

تتطلع له طلع أحوال سبتة.

وفي السنة المذكورة جاز علي بن حمود من سبتة إلى مالقة بعد أن بعث منها إلى جوس الصنهاج وإلى خيران الفتى العامري، فأشار عليه بقصد مالقة.

وخرج سليمان المستعين بالله من قرطبة إليه، فالتقيا في شهر محرم من سنة سبع وأربعمائة.

فكانت على سليمان الهزيمة، وقبض على سليمان وأخيه، وابنه الحكم.

وسيقوا إلى علي بن حمود، فدخل قرطبة...[١] بين يديه، وبحث عن هشام فعرف أنه قتل وعرض عليه قبره، فأخرجه منه وأصلح من شأن مواراته، وصلى عليه، ثم ضرب عنق سليمان وأخيه وابنه محمد وابنه الحكم بيده.

وقال بلسان الزناتي: لا يقتل الزلطان إلا المزلطان.

وقيل: إن علي بن حمود قال للشيخ الحكم: يا شيخ هكذا فعلتم بهشام؟

فقال: لا والله ما قتلناه، وما هو إلآ حيّ يرزق.

فعند ذلك عجّل علي بقتله.

وكان هذا الشيخ الحكم بن سليمان فاضلاً لم يتلبس من أمر ابنه بكبير شيء.

وجعلت رؤوس ثلاثتهم في طست، وأخرجت من المحلة إلى القصر ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاماً.

وانفصل أمر سليمان على هذا السبيل، وكان أديباً شاعراً مدركاً متأتياً، إلا أنه خرج الأمر في تلفيق الأمور عن يده.

وشعره متداول مشهور، وهو أحد من شرف الشعر باسمه، وتصرف على حكمه، ومن المشهور له قوله يعارض الرشيد هارون في قوله بسبب جواريه الثلاث:

ملك الثلاث الآنسات عنان ... وحللن من قبلي بكل مكانِ
ما لي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصيانِ
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ... وبه قوين أعز من سلطانِ

بقوله:

عجباً يهاب الليث حدّ سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيباً ... منها سوى الإعراض والهجران
وتملّكت نفسي ثلاث كالدُّمى ... زهر الوجوه نواعم الأبدان

---

(١) موضع النقط كلمة بالمخطوط غير مقروءة.

كـكـواكـب الظـلـمـاء لـحن لـنـاظـري ... مـن فـوق أغـصـان عـلـى كـثـبـان
/ هذي الهلال، وتلك بنت المشتري ... حُسناً وهذي أخت غصن البانِ [١٦٢/ب]
حاكمت فيهن السُّلُوَّ إلى الصبا ... فقضي بسلطان على سلطانِ[1]
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني ... في عز مُلكي كالأسير العانِ
لا تعزلوا ملكاً تذلل في الهوى ... ذل الـهـوى عـز ومـلـك ثـانِ
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى ... كلفاً بهن لا كنت[2] من مروانِ

واعتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية. وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة واشتدت فاقتهم، وجمعت طباعهم، وكانوا كالبراة الفره الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة فلم يبل صداهم، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشأنه، واشتداد حاجة سلطانه.

فمن ذلك ما أنشده شاعر الأندلس على عهده المكان فيها يومئذ بمنزلة المتنبي بصقع الشام أبو عمر بن دراج القسطلي:

هنيئاً لهذا الملك روح وريحان ... وللـديـن والـدنـيـا أمـان وإيـمـان
فإن قعيد الخزي قد ثل عرشه ... وإن أمـيـر الـمـؤمـنـيـن سـلـيـمـان
فمن الذي انقاد الأنام لأمره ... فلم يعصه في الأرض إنس ولا جان
. . . العُلى للحمد غادٍ وراء شيخ ... وخلف التقى للّه راضٍ وغضبان
به رد في جو الخلافة نورها ... وقد أظلمت منها قصور وأوطان
وأنقذ دين اللّه من قبضة العِدَا ... وقـد قـاده لـلـشـر ذُل وإذعـان
وقام فقامت للمعالي معالم ... وللخير أسواق وللعدل ميزان
وجدد للإسلام ثوب خلافة ... عليها من الرحمٰن نور وبرهان
ووكدها عهداً لأكرم من وفى ... بعهد زكت فيه عهود وأيمان
به شدّ إزر العدل والعلم والعلا ... وفاض على الأيام حُسن وإحسان
فتى نكصت عنه العيون مهابة ... فليس له إلا الرغائب أقران
يهون عليه يوم يروي سيوفه ... دماً أن يوافيه الدُّجى وهو ظمآن

---

(١) جاء بعد هذا البيت في سير أعلام النبلاء:
وإذا تجاوز في الهوى أهل الهوى ... عـاش الـهـوى فـي غـبـطـة وأمـان
ولم يأت بالأبيات الثلاثة التي بعده.

(٢) في الهامش بالمخطوط تصويب: «كلفاً بهن فلست».

صهر النبي المصطفى وابن عمه ... ووارث ما شادت قريش وعدنان

[I/١٦٣] / ....(١)

وكان ملكه الذي عفا على محاسن العباد والبلاد فوطن الجهاد، وذهب منه بالقارة والبلاد، وإذ قرطبة خضرة الدنيا، وأم القواعد من غير ثناء، حر النار وبرد الشفار وترك حديثها محلاً للاعتبار، ثلاث سنين وعشرة أشهر ألوت بمحاسن المضر الأنيق، وذهب برونقه الشهير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير.

وعقد سليمان بن الحكم العهد لابنه محمد بن سليمان في منتصف جمادى الآخرة سنة أربعمائة، وكان يومئذ واحد، وهو صبي، فأعلن بتوليته عهده، وزعم أنه من حُسن اختياره لرعيته بعد أن شاور في / ذلك وزراءه ورجال مملكته من الطائفتين [I/١٦٤] فتوخى معظمهم موافقته فليمضي به العهد، وأوقع الدعاء له بذلك في سائر عمله، وجرى ذكره بالتأمين والتكنية والمخاطبة، فتمت ولايته على هذا الوجه دون نفقة ولا عطاء لقلة المال.

فكان أول من افتتح بذلك، وتلاه من جاء بعده من المتوثبين في الفتنة، حتى صار العهد لخطة من الخطط يقتصر فيه على مقروءه.

وأمر بنقش اسمه في السكة والأعلام والطرز.

وتقدم إلى الخطيب قاضي الجماعة ابن ذكوان بالدعاء له فوق المنبر على الرسم.

ونفذت الكتب بذلك عن سليمان، فكانت نسختها:

أما بعد:

فإن أمير المؤمنين لما جبله الله عليه وحببه إليه من الاجتهاد للمسلمين والنظر لهم، والفكر في عواقبهم، والحرص على مصالحهم، والإشفاق من اختلافهم وافتراق كلمتهم، رأى أن يجتهد لهم لمماته كما اجتهد لهم في حياته، فإن يرفع لهم علماً يهتدون إليه وينصب لهم وزراً يلجأون إليه، وموئلاً يتعطفون عليه، يؤلف شملهم، ويجمع كلمتهم، ويلم شعثهم، ويسكن نفرتهم، ويؤمن روعتهم، مقتدياً في ذلك بالأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين الذين نظروا للأمة بعدهم وأشفقوا من اختلاف كلمتهم، وتفرق مذاهبهم عندما يفاجأهم ما لا محيد لهم عنه ولا بد منه من بغتات الأقدار، ونفاد الأعمار الليل والنهار.

---

(١) في قصيدة طويلة جاوز الخمسين بيتاً تركتها لسوء خط المخطوط، وسوء التصوير وما فيها سوى المدح والثناء والاطراح البعيد عن الحقيقة على عادة الشعراء في كل العصور.

فأطال استخارة الله عز وجل والرغبة إليه في الأخذ له بتوفيقه، ومعاضدته، وتسديده، وحمله على ما فيه الخير له ولجميع المسلمين بجميل العافية في الدنيا والآخرة، فألقى الله في روعه، وثبت في خَلَدِهِ، وقرر في نفسه أن محمد ابن أمير المؤمنين أولى أهل بيته الخلافة بولاية عهد المسلمين، غير مجابٍ له ولا آخذ بمولده فيه، بل لما قد علمته الخاصة والعامة من تكامل خلال الخير له، واجتماع أدوات الفضل فيه، وما هو عليه في دينه وهديه وورعه وفضله وطهارة أثوابه وعفان مذهبه، وصلف نفسه، واكتمال حلمه، وسعة علمه، وكمال أدبه، واضطلاعه بأعباء الخلافة، ومعرفته بمعاني السياسة، ونفاذه في التدبير والإدارة.

فأمضى أمير المؤمنين ما استخار الله تعالى فيه وعزم عليه، وجعل ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين بالله أمير المؤمنين، وهو يعتقد أنه قد خرج لجماعة المسلمين عما ألزمه الله من حقهم، وتبرأ إلى الله /مما كلفه من أمرهم، وأداء الأمانة [١٦٤/ب] التي حمله الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم وفضله الجسيم، ونظره لأمة محمد ﷺ، وتحصيناً عليها واحتياطاً لها، وهروباً من التقصير في حقها، والله يريه وجماعة المسلمين الخير والخيرة، واليمن والبركة والسعادة والغبطة فيما وفق أمير المؤمنين له وألهمه إياه. فاعلم ذلك من عقد أمير المؤمنين وعهده، وما أنشده من فعله، وتقدم إلى أصحاب الصلوات في جوامع عملك بالدعاء له في خُطب الجُمع بما أدرجناه طي كتابنا هذا.

والله يسأل أمير المؤمنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير لهم وسبل العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارضه بجميل نيته لهم وكريم مذهبه فيهم إنه ولي المجازاة بالإحسان عن الإحسان والممتن بالفضل والامتنان إن شاء الله[١].

وكتب في النصف من جمادى الآخرة سنة أربعمائة.

قال أبو مروان في المتين: ومن غريب ما طرحه أهل التنجيم في مبتدأ هذه الفتنة وكنه تأثيرها على أصولهم وزعمهم أن القران الشنيع الحادث في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة المؤذن بها كان في برج ذو جسدين قيل له السنبلة، فأنذروا بذلك بأن تكون لمن قام بالملك في هذه الفتنة دولتان لا محالة.

---

(١) هذا نص رسالة أو كتاب تولية محمد بن المستعين بالله، وكذا كل كتاب تولية بعهد أو ما شابه ذلك تنتقى كلماته ويظهر فيه كاتبه حرصه الشديد على الإسلام والرعية وخوفه الشديد من المسؤولية وابتغاؤه من عمله هذا وجه الله رب البرية ومتأسياً في عمله هذا خير البرية وأصحابه هداة البشرية وكأن الأمر في ظاهره صحيح وليس فيه هوى ولا حظ لدنيا أو متاع زائل أو سلطان مزيف والحقيقة أن العكس هو الصحيح وأن الرعية تسقى كؤوس الحنظل من جراء ذلك.

فرصدت ذلك فإذا القضاء قد أخرجه من القول إلى الفعل حسبما ذكروه وتناسق على الكرور في الملك خمسة أملاك ملكوا مرتين مرتين وهم:

محمد بن هشام هذا.

ثم هشام بن الحكم صاحب الجماعة.

ثم سليمان بن الحكم صاحب البرابرة.

ثم اثنان من ملوك الحمودية:

القاسم بن حمود.

وابن أخيه يحيى بن علي بن حمود.

وارتفعت بعد هذه العادة على أن أباه على ابن حمود عاتب سليمان بن الحكم.

وأول ملوك بني حمود شذ عن هذا الترتيب في تثنية الملك، ومن سميناه فلم يَدُل إلاّ مرة واحدة، والله أعلم بأمره وأحكم.

ذكر دولة الأدارسة الحَسَنيين بقرطبة
وما يتخللها من أفذاذ بني أمية من بعد الجماعة

دولة علي بن حمود بقرطبة

وهو: علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن / حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله [١٦٥/أ] عنه(١).

وهو أول ملوك بني هاشم بالأندلس.

والكلام في هذا البيت ولحاق أهله من البلاد الحجازية بالمغربية مما يرجأ القول فيه إلى الجزء الثالث بعد هذا إن شاء الله تعالى.

لقبه: الناصر لدين الله.

وكنيته: أبو الحسن.

وكان من جملة أمراء المغاربة المرشحين في ديوان بني أمية بقرطبة.

ولما التفت البرابرة والمغاربة بسليمان استحيا شيئاً من العصائب الأندلسية وتشمر لمقارعتها، وأجفل البرابرة إلى وادي باروا منهزمين لحق بالعدوة الغربية، وتغلب على سبتة محتالاً، ثم عاد إلى الأندلس لما استوثق الأمر لسليمان، واختص

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٥)، جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٥٠)، جذوة المقتبس (٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٩٦)، بغية الملتمس (٢٧)، الكامل لابن الأثير أحداث سنة (٤٠٧)، المعجب (٩٨)، البيان المغرب (٣/ ١١٩)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، الأعلام (١٢٨)، نفح الطيب (١/ ٤٣١). وقال الذهبي في ترجمته: استولى على الأمر بقرطبة في أول سنة سبع وأربعمائة، وكانت دولته اثنين وعشرين شهراً. ثم خالف عليه مواليه الذين قاموا بنصره وبيعته، فخرجوا عليه، وقدموا عليه الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر لدين الله الأموي، ولقبوه بالمرتضى. وزحفوا إلى غرناطة، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من قُوته وصرامته وثبات جأشه، فخافوا من غائلته، ففروا عنه، ودسوا عليه من قتله غيلة. أما علي بن حمود، فوثب عليه غلمان له سقالبة في الحمام فقتلوه في آخر سنة ثمان وأربعمائة. وخلف من الأولاد يحيى المُعْتلي، وإدريس، فشيخنا جعفر بن محمد الإدريسي من ذريته.

كور أيالته التي اقتسمتها البرابرة واقتطعوها بسبتة.

وأخوه القاسم بالجزيرة كما ذكرنا آنفاً.

ولم يغب [عن][(١)] وجوه أصحاب سليمان بن الحكم فساد رأيه في إشراك بني حمود مع نفسه في الولايات، وجنايته على نفسه في ترشيحهم إلى طلب ما بيده.

ولكن الله غالب على أمره، فلقد دخل على سليمان البرزالي من رؤساء البرابرة لما بلغه تقديم بني حمود بضفتي العدوتين، فقال له: بلغني أنك وليت بني حمود على المغرب؟

فقال: نعم.

فقال: أليس العلويون طالبين؟

فقال: نعم.

فقال له: تأتي إلى الأحناش فتردهم ثعابين؟

فقال له: قد نفذ الأمر بذلك.

وقال ابن حيان: ومن الاتفاق العجيب على سليمان:

أنه لما استوثق له الأمر بعد فراغه من هشام أنفذ عزمه من قواد جيشه في اختيار علي بن حمود للتقديم بسبتة رأياً ذهل عنه ونبذها إلى ضر له مُكَاشح شريك في الدعوة والقرابة.

فتلقفها علي وهجم عليه فسلب ملكه، وحول دولته، ومزق عشيرته.

وإذا أراد الله أمراً أمضاه.

وذكر أن هشاماً كان معنياً بقائم على المروانية بسبتة أول اسمه عين، حسبما تلقى ذلك من كتب الملاحم والحدثان.

فلم يزل يرتقب ظهوره إلى أن قام على سبتة، فكتب له عهده، فكان من أخذه بثأره على ما تقدم.

ولما صارت إليه الدولة قهر البرابرة وأمضى الأحكام، وأقام العدل.

وكان الأغلب على خلقه السماحة، والشجاعة، والإنابة، وكان مفتح الباب مرفوع الحجاب، يقيم الحدود، ويعذب الظالمين المتظلمين، فانتشر الناس في الأرض.

ثم ساء في الناس رأيه فألزمهم المغارم، وانتزع منهم السلاح وتوصل إلى

---

(١) زيادة يتطلبها السياق.

خيارهم بسبب الأطماع، فامتحن لذلك جملة من أعيان قرطبة.

وكان، فيما زعموا، يصيب بعينه[١]، فلما يستحسن شيئاً إلا أسرعت إليه الآفة وأزورت عنه خواصه، والكثير من الرؤساء والعامرية.

وفي سنة ثمان وأربعمائة / كان مقتله بأيدي أحداث من صقالبته بجماع خنجره، [١٦٥/ب] لم يشركهم سواهم، ولما استطال بقاؤه في الحمام دخلوا عليه فألفوه صريعاً يسيل دمه...[٢]، وبعث إلى القاسم أخيه بإشبيلية فلحق بقرطبة وصلى على أخيه، وقعد مكانه، وعثر على اثنين من الصبية فقتلا، وصلبا، ولم تنتقل التهمة إلى غيرهم فسكنت الأحوال.

دولة القاسم بن حمود[٣] بقرطبة

وقد تقدم نسبه، وذكر أخيه.

وكان لقبه: المأمون.

وكنيته: أبو محمد.

وولي الأمر مرتين مداولاً لابن أخيه، يحيى أولاهما لأربع خلون من ذي القعدة، سادس يوم من موت أخيه.

---

(١) يريد أنه كان حسوداً وهذه الصفة يوصف بها أناس كثيرين، والحقيقة أن الحسد موجود وورد ذكره في القرآن الكريم وأمرنا بالاستعاذة بالله من هؤلاء الحساد، غير أن هناك من الناس من يبالغ في هذا الأمر ويظن أن الحسد يسبق القدر وهذا اعتقاد فاسد.

(٢) في المخطوط كلمة مختلطة المداد.

(٣) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٦)، جمهرة ابن حزم (٥٠)، جذوة المقتبس (٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٤/ ٤٨١)، بغية الملتمس (٢٨)، الكامل في أحداث سنة (٤٠٨هـ)، البيان المغرب (٣/ ١٣٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣١).
وقال الذهبي في ترجمته: وكان هادئاً ساكناً أمن الناس معه، وكان يتشيع قليلاً، فبقي في الملك إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة في ربيع الأول فخرج عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود المعتلي.
فهرب القاسم من غير قتال إلى إشبيلية فاستمال البربر، وجمع وحشد وجاء إلى قرطبة، فهرب منه المعتلي. ثم اضطرب أمر القاسم بعد قليل، وخذله البربر، وتفرقوا في سنة أربع عشرة، وتغلبت كل فرقة على بلد من الأندلس وجرت خطوب وأمور يطول شرحها. فلحق القاسم بشريش، فقصده المُعتلي وحاصره وظفر به، وسجنه دهراً. وأما أهل إشبيلية فطردوا عنها ابني القاسم بن حمود.
وأمروا عليهم ثلاثة: قاضي البلد محمد بن إسماعيل بن عباد، ومحمد بن بريم الإلهاني، ومحمد بن الحسن الزبيدي، فساسوهم، ثم تملك عليهم القاضي وأظهر لهم ذلك الحصري الذي يقال أنه المؤيد. وتملك مالقة يحيى المعتلي، والجزيرة الخضراء. وغلب أخوه إدريس بن علي على طنجة، وطال أسر القاسم، وعاش ثمانين سنة. ثم خنق في سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وأحسن تلقي الناس، وأجمل موعدهم، وأمَّنَهُم، وأسقط عنهم ما كان قد طلبهم به أخوه، وأقر الحكام، وأرباب الألقاب على ما تخلفهم عليه أخوه.

ثم ضعف أمره وتلاشى وغلبه عليه رؤساء البرابرة المستولون على الكور، وأمراء الثغر، والفتيان العامرية بالبلاد الشرقية.

واتفق أمير الثغر منذر بن يحيى، وابن ذي النون، وزهير العامري على إعادة الدولة المروانية.

فبايعوا من بني أمية عبد الرحمٰن بن حمود الناصر لدين الله.

بيعة المرتضى من بني أمية وهو عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر

وكان من أسباب ذلك أن خيران الفتى العامري لما دخل قرطبة مع علي بن حمود طمع في أن يجد هشاماً المؤيد بالله حياً[1]، فلما لم يجده استراب من علي بن حمود، وحذره، وشرع في الفرار، واتبعه علي بذلك طبقة زُهَيْر، ولحق في أمنه وشيعته ونصبوا هذا المرتضى وزحفوا به إلى قرطبة بعد أن أحكموا أمره، وراشوا جناحه، وأقاموا آلات الملك، ونزلوا بغرناطة بادرين وأميرها يومئذ زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي.

فكانت بينه وبين القوم محاورات ومخاطبات ثم اقتتلوا قتالاً شديداً أياماً، ثم أن المرتضى خذله أنصاره من هؤلاء الأمراء وكانوا قد بدا لهم في أمره، فانهزموا عنه، وهم في أضعاف مضاعفة من عدوهم.

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في موضوع ذكر ظهور عبد الرحمٰن الأموي: لما خالف خيران علياً أرسل يسأل عن بني أمية، فدل على عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر الأموي، وكان قد خرج من قرطبة مستخفياً ونزل بجيان، وكان أصلح من بقي من بني أمية، فبايعه خيران وغيره ولقبوه المرتضى. وأرسل خيران منذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى وراسل أهل شاطبة، وبلنسة، وطرطوشة، والبونت، فأجابوا كلهم إلى بيعته، والخلاف على علي بن حمود. فاتفق عليه أكثر أهل الأندلس، واجتمعوا بموضع يعرف بالرياحين في الأضحى سنة ثمان وأربعمائة، ومعهم الفقهاء والشيوخ وجعلوا الخلافة شورى، وأصفقوا على بيعته. وساروا معه إلى صنهاجة، والنزول على غرناطة. وأقبل المرتضى على أهل بلنسة وشاطبة، وأظهر الجفاء لمنذر بن يحيى التجيبي ولخيران ولم يقبل عليهما، فندما على ما كان منهما. وسار حتى وصل إلى غرناطة فوصل إليها ونزل عليها وقاتلوها أياماً قتالاً شديداً فغلبهم أهل غرناطة وأميرهم زاوي بن زيري الصنهاجي، وانهزم المرتضى وعسكره، واتبعهم صنهاجة يقاتلون ويأسرون، وقتل المرتضى في هذه الهزيمة وعمره أربعون سنة وهو أصغر من أخيه هشام. وسار أخوه هشام إلى البونت وأقام بها إلى أن خوطب بالخلافة، ولم يزل علي بن حمود بعد هذه الهزيمة يقصد بلاد خيران والعامريين مرة بعد مرة.

وقتل المرتضى، واستولى الصنهاجيون أصحاب زاوي على محلبة من الآلات، والخيل، والظهر، والقباب على ما يجوز الوصف كثرة.

وورد على القاسم بن حمود الخبر بمقتل المرتضى وهزيمة /الأندلسيين من قِبل [١٦٦/أ] زاوي مع نهبه الغنيمة، وفي الجملة...[١] المرتضى...[١] من على نهر قرطبة، وغشيه الناس ينظرون إليه وقلوبهم تتقطع أسى وحسرة.

بعد هذه الوقيعة توكدت ريح المروانية وتقطعوا في الأرض واستيئسوا فلم تقم لهم قائمة.

وكان ممن تخطاه الملك يومئذ أبو بكر بن هشام بن عبد الرحمٰن أخو المرتضى ولحق بالموالي العامريين فزهدوا فيه، فاستقر عند ابن القاسم صاحب حصن البندها جاره، فلم يزل عنده إلى أن استدعي للأمر بقرطبة حسبما يأتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى.

ومن بعد هذه الوقيعة أزمع زاوي بن زيري الرحيل عن الأندلس إلى وطنه بإفريقية مغتبطاً بما تهيأ له وحذراً من العواقب بعده، إذ رأى أن الذي جَرَّ له الهزيمة على الأمراء إنما كان إغماضهم وتخاذلهم عن نصر صاحبهم.

وكانت هذه الوقيعة في سنة تسع وأربعمائة.

رجع الحديث إلى دولة القاسم[٢]

ولما ضعف أمر القاسم شرع أبناء أخيه: يحيى الكائن بسبتة.

وإدريس الكائن بمالقة.

في مطالبته، فأجاز منهم يحيى بن علي بن حمود البحر إلى مالقة فضبطها.

وتخلف إدريس بسبتة.

وجمع يحيى جيشاً ممن انضاف إليه بمالقة ومن أعانه من جيرانه البرابرة وأقدم على عمه بقرطبة.

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٤٠٤هـ) في ذكره ولاية القاسم بن حمود العلوي بقرطبة: قد ذكرنا قتل أخيه علي بن حمود سنة سبع وأربعمائة، فلما قتل بايع الناس أخاه القاسم ولقب المأمون، فلما ولي واستقر ملكه كاتب العامريين واستمالهم، وأقطع زهيراً جيان، وقلعة رباح وبياسة، وكاتب خيران واستعطفه فلجأ إليه واجتمع به ثم عاد عنه إلى المرية. وبقي القاسم ملكاً لقرطبة وغيرها إلى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة. وكان وادعاً ليناً يحب العافية فأَمِنَ الناس معه، وكان يتشيع إلا أنه لم يظهر شيئاً من ذلك فسار عن قرطبة إلى إشبيلية، فخالفه يحيى ابن أخيه فيها.

واستجار قاسم برؤساء البرابرة جيرانه فقعدوا، وأرادوا التقريب بين أولئك الحَسَنِيين.

ولما عجز القاسم عن مقاومته فرّ إلى إشبيلية فضبط أمرها لثمان خلون من ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

وضبط بها من العدويين إلى أن لحق يحيى بن علي بقرطبة.

دولة يحيى بن علي الحمودي الحسني[(١)] بقرطبة

بويع له بقرطبة يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، واجتمع عليه الفريقان من البرابرة والأندلسيين بقرطبة وأعمالها.

وكان شريف الأرومة من بيت كريم الولادة، رابع أربعة من أبناء القرشيات في

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٧)، جذوة المقتبس (٢٤)، الذخيرة في محاسن الجزيرة (١/ ٤/ ٣١٦)، بغية الملتمس (٣٠)، الكامل لابن الأثير في أحداث سنة (٤١٢هـ)، المعجب (٥٠)، البيان المغرب (٣/ ١١٨)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٣)، بلغة الظرفاء (٤٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣١)، قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧) في ذكر دولة يحيى بن علي بن حمود وما كان منه ومن عمه: لما سار القاسم بن حمود عن قرطبة إلى إشبيلية سار ابن أخيه يحيى بن علي من مالقة إلى قرطبة فدخلها بغير مانع، فلما تمكن بقرطبة دعا الناس إلى بيعته فأجابوه، فكانت البيعة مستهل جمادى الأولي من سنة اثنتين عشرة وأربعمائة، ولُقب بالمعتلي، وبقي بقرطبة يُدعى له بالخلافة وعمه القاسم بإشبيلية يُدعى له بالخلافة إلى ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. فسار يحيى عن قرطبة إلى مالقة ووصل الخبر إلى عمه فركب وجد في السير ليلاً ونهاراً إلى أن وصل إلى قرطبة فدخلها ثامن عشر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة. وكانت مدة إقامته بإشبيلية قد استمال العسكر من البربر وقوي بهم، وبقي القاسم بقرطبة شهوراً ثم اضطرب أمره بها. وسار ابن أخيه يحيى بن علي إلى الجزيرة الخضراء، وغلب عليها وبها أهل عمه وماله. وغلب أخوه إدريس بن علي صاحب سبتة على طنجة، وهي كانت عدة القاسم التي يلجأ إليها إن رأى ما يخاف بالأندلس. فلما ملك أبناء أخيه بلاده طمع فيه الناس وتسلط البربر على قرطبة فأخذوا أموالهم، فاجتمع أهلها وبرزوا إلى قتاله عاشر جمادى الأولي سنة أربع عشرة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم سكنت الحرب وأمّن بعضهم بعضاً إلى منتصف جمادى الأولي من السنة. والقاسم بالقصر يظهر التودد لأهل قرطبة، وإنه معهم وباطنه مع البربر. فلما كان يوم الجمعة منتصف جمادى الآخر صلى الناس الجمعة، فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح، فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد ودخلوا قصر الإمارة. فخرج عنها القاسم واجتمع معه البربر وقاتلوا أهل البلد، وضيقوا عليهم، وكانوا أكثر من أهله، فبقوا كذلك نيفاً وخمسين يوماً والقتال متصل، فخاف أهل قرطبة وسألوا البربر في أن يفتحوا لهم الطريق ويؤمنوهم على أنفسهم وأهليهم، فأبوا إلا أن يقتلوهم، فصبروا حينئذ على القتال، وخرجوا من البلد ثاني عشرة شعبان، وقاتلوهم قتال مستقتل فنصرهم الله تعالى على البربر ومن بُغي عليه لينصرنه الله، وانهزم البربر هزيمة عظيمة ولحق كل طائفة منهم ببلد فاستولوا عليه.

الإسلام، أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم الحسن الأمين.

ثم زبيدة بنت جعفر.

وسلك لأول أمره مسلك أبيه في التخفي بالفروسية والصيد ومجانبة العصبية، وإيثار السلامة.

إلا أن الكِبر والعُجب شانته وثلث خصاله بالإضاعة والراحة واستكفاء غير الكفي طَرَّقا الخلل إلى أمره وضيقت عليه، فاضطر إلى ارتكاب ما نعاه الناس على غيره، فساءت حاله، ونهشت مدة ولايته الأولى هذه وهي سنة واحدة وستة أشهر.

/ثم جرت مسالمة ومعاقدة بينه وبين عمه المجاور له بإشبيلية. [١٦٦/ب]

فقال أبو محمد بن حزم: ولم نسمع بخليفتين تصالحا ولا بادل على الأمصار منه.

واضطر إلى الفرار عن قرطبة لاثنتي عشرة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

دولة القاسم بن حمود الحسيني في كرّته الثانية

ولما فرّ يحيى بن علي بن حمود من قرطبة وخلعه من بها من جند البر وغيرهم، استدعى الأمر القاسم من إشبيلية ثانية.

فدخل قرطبة يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة[١].

---

(١) وقال ابن الأثير في الكامل في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في ذكر دولة يحيى بن علي وما كان من عمه: وأما القاسم بن حمود فإنه سار إلى إشبيلية وكتب إلى أهلها في إخلاء ألف دار ليسكنها البربر، فعظم ذلك عليهم، وكان بها ابناه الحسن ومحمد، فثار بهما أهلها، فأخرجوهما عنهم ومن معهما، وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من شيوخهم وكبرائهم وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، ومحمد بن يريم الألهاني، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي. وكانوا يدبرون أمر البلد والناس. ثم اجتمع ابن يريم والزبيدي وسألوا ابن عباد أن ينفرد بتدبير أمورهم، فامتنع وألحوا عليه. فلما خاف على البلد بامتناعه أجابهم إلى ذلك، وانفرد بتدبير وحفظ البلد. فلما رأى القاسم ذلك سار في تلك البلاد ثم أنه نزل بشريش، فزحف إليه يحيى ابن أخيه علي ومعه جمع من البربر فحصروه، ثم أخذوه أسيراً فحبسه فبقي في حبسه إلى أن توفي يحيى، وملك أخوه إدريس. فلما ملك قتله، وقيل: بل مات حتف أنفه وحمل إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه. وكانت مدة ولاية القاسم بقرطبة مذ تسمى بالخلافة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام، وبقي محبوساً ستة عشر سنة إلى أن قتل سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان له ثمانون =

فاستمرت أيامه بقرطبة وإشبيلية، وابن أخيه يحيى بمالقة يدعى لكل واحد منهما بأمير المؤمنين.

إلى أن ساءت حاله وفسد ما بينه وبين أهل المدينة بسبب من حقد من البربر، فثار الناس وأعلنوا بخلعه كلمة إجماع، وأزعجوه عن المدينة يوم الثلاثاء لتسع بقين من جمادى الآخرة منها بعد حصره في القصر أياماً يراوحونه القتال ويغادونه إلى أن انتقل إلى الربض الغربي منها في جيش البربر.

واتصل منه العطاء بقرطبة نحو شهرين إلى أن أتيح عليهم النصر على أهل المدينة ووقعت عليهم هزيمة شنيعة خروا لها مغلولين، وذلك لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان من السنة.

وفرّ القاسم إلى إشبيلية، وبها ابناه محمد والحسن وأهله فسد أهلها أبواب المدينة في وجهه وعميدهم القاضي بإشبيلية محمد بن إسماعيل بن عباد أول الطائفة العبادية.

وهذه الحال كانت أمس دولتهم.

وانصرف القاسم طريداً إلى مدينة شريش، فاستقر بها، وأعمل إليه الحركة يحيى المعتلي بالله ابن أخيه، فداوله بقرطبة فنازله بمدينة شريش إلى أن فتحها، وأسره فسجنه مع بنيه بمالقة.

ثم انقضى قتله خنقاً فيما زعموا.

ولما فر القاسم عن قرطبة منهزماً مع البرابر وظهر عليهم القرطبيون طمعوا في حيز الدعوة المروانية فاختاروا من أبناء المروانية أمثل ما في بقاية الوقت سليمان بن عبد الرحمٰن، وكتبوا بيعته ولقبوه بالمرتضى.

فبينما هم بالمسجد الأعظم، قد شرعوا في أخذ البيعة له إذ هجم إليهم عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار أخو المهدي القائم على بني عامر المستولي على أمر هشام المؤيد في شرذمة من الناس يدعو إلى نفسه، فرجعوا إليه طوعاً وكرهاً وبُتر اسم سليمان من الرق وجعل فيه اسمه، وذلك من النادر الغريب.

= سنة. وله من الولد: محمد والحسن وأمهما أميرة بنت الحسن بن القاسم المعروف بفنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان أسمر عين أكحل مصفر اللون طويلاً خفيف العارضين.

دولة عبد الرحمٰن بن هاشم بن عبد الجبار(١)

بويع يوم خروج القاسم والبرابرة من ربض قرطبة منهزمين يوم الثلاثاء السادس عشرين رمضان المعظم سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وتلقب بـ«الظافر بالله»(٢).

وكان قد همّ بالوثوب عند اضطراب أمر القاسم بن حمود وبث دعاته فلم يتأت له ذلك.

ونذر به الوزراء والمشيخة، فحذروا من شر الوثوب. ووقع الطلب عليه فلم يظهر إلا يوم هجومه فأسفوه بذلك وإن كانوا قد علقوه بالشورى وجعلوه ثالث ثلاثة بعد سليمان بن المرتضى، ومحمد بن العراقي فاستقل بالأمر يومئذ وتكنفه أمير الدائرة محمود، وعنبر المقدمان على الرجال المستخدمين بقرطبة لحمايتها من القاسم والبرابرة، فساء الوزراء والمشيخة لذلك ولم يمهلهم أن قبض عليهم واعتقلهم بالمطبق وأغرمهم أموالاً، فسعوا عليه من المطبق، وكاتبوا الناس فاستجابوا لهم، وثاروا فكسروا المطبق إذ لم يكن بقرطبة معقل يملك السلطان فيه نفسه إلا القصر اغتراراً بأوفية العافية وحُسن ظن بالأيام.

وخرج الوزراء والمشيخة والتف بهم الناس وتغلبوا على القصر وأقعدوا به محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله، ولقبوه بالمستكفي بالله.

وقال بعض المؤرخين:

إنما ثار به الناس لإكرامه وفد من البرابرة قدموا عليه.

فصاح: عاد شر البرابرة، جزعاً ووافقهم الدائرة.

فقتلوا الضيوف من البرابر وماجوا في البلد، فسمعهم من المطبق من مشيختهم فاستغاثوا بهم.

---

(١) من مصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٢٥، ٢٦)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/١/٤٨)، بغية الملتمس (٣١)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤١٤هـ)، المعجب (١٠٥)، تتمة المختصر (١/٤٩٧)، نفح الطيب (١/٤٣٥).

(٢) في سير أعلام النبلاء: المستظهر بالله، وقال في ترجمته: المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله المرواني. قام معه كبراء قرطبة وملكوه بعد ذهاب القاسم الإدريسي فبايعوه في رمضان سنة أربع عشر وأربعمائة وله ثنتان وعشرون سنة. وكان عجباً في الذكاء والبلاغة، يُكنى أبا المطرف وزر له ابن حزم الظاهري. ولم تطل أيامه بل قُتل بعد أيام من ذي القعدة من عامه، توثب عليه ابن عمه المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن، وتملك ستة أشهر ونزع.

فكسروا أقفاله، وما راعه إلا تسور الناس السقف عليه، وأحيط به من كل جانب وجهة وركب يطمع في الخروج.

فقامت الدابرة من وجهه يسبونه، فترجل، وخلع ثيابه واختلى في أثر حمام القصر، وسبيت حُرمه بما لم يجر على حُرم مثله، وبحث عنه، فاستخرج بحال قبيحة، فبطش به أحد الرجالة القائمين على رأس ابن عمه المبايع.

فقتل ومضى لسبيله يوم السبت لثلاث خلون من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وكان لولا قاطع الأدبار عليهم من ذوي الفضل البارع والظرف الناصع.

قال ابن بسام: كان على حدوث سِنّه ذكياً فطناً يقظاً لبيباً أديباً حسن الكلام، جيد القريحة، فليح البلاغة، يتصرف فيما شاء ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة يزين ذلك بطهارة أثواب وعفة وبراءة من شرب النبيذ، وكان في وقته فسيح، وحدّ به ختم فضلاء أهل بيته الناصريين.

بيعة المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن عبد الرحمٰن الناصر لدين الله[١]

[١٦٧/ب] / وكنيته: أبو عبد الرحمٰن.

وكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

ووافق لقبه لقب سميه من العباسية، وكثير من الخلال منها:

توثبهما في الفتنة.

واستظهارهما بالفسقة.

واعتزل كل واحد منهما على ابن عم.

(١) من مصادر ترجمته: جمهرة أنساب العرب (١٠٠)، جذوة المقتبس (٧٦)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ١/ ٤٣٣)، بغية الملتمس (٣٣)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٤)، البيان المغرب (٣/ ١٤١)، الوافي بالوفيات (٣/ ٢٣٠)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٢)، نفح الطيب (١/ ٤٣٢). قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٨): تملك ستة أشهر، وكان أحمق، قليل العقل، وزر له أحمد بن خالد الحائك، ثم قُتل وزيره، وخُلع هو، وسجنوه ثلاثاً لم يطعموه فيها شيئاً، ثم نفوه المُعثر فلحق بالثغور، وأضمرته البلاد. وقيل: بل سم في دجاجة فهلك، وعاد أمر الناس إلى المعتلي. وقال في السير أيضاً (١٧/ ٣٩٧): الأموي المرواني، خرج على ابن عمه الملقب بالمستظهر بقرطبة في ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، وقتله وتمكن. وكان أحمق طائشاً.

وتوسيط كل واحد منهما في شأنه امرأة خبيثة، فلذلك حسناء الشيرازية، ولهذا بنت المروزية. قاله ابن حيان.

وكان منقطعاً إلى البطالة عطلاً من الخصال ضداً لقتيله المستظهر.

وفي أيامه عاجل ابن عمه ابن العراقي بالخنق.

وفي أيامه استؤصلت القصور الناصرية بالخراب.

وفي سنة ستة عشر وأربعمائة اتصل بأهل قرطبة تحرك يحيى بن علي بن حمود إليهم من مالقة، فدخل الوزراء والمشيخة على المستكفي، فأغلظوا عليه الكلام، وقالوا: قد اضطررنا إلى مكافحة عدونا ونحن خارجون إليه ولا ندري ما يحدث عليك بعدنا، فاخرج معنا. فأوعل الرد عليهم، وخرج فاراً بنفسه في هيئة النساء منتقباً بين امرأتين، فذكر له من خرج معه من رجاله اتهموه بمال فاغتالوه[1]، وقتلوه بأقليح من الثغر، وكان خروجه في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ربيع الأول من السنة.

وعاد يحيى بن علي بن حمود إلى قرطبة.

دولة يحيى بن علي بن حمود بقرطبة كرته الثانية

وقدم يحيى بن علي من مالقة بعد انصراف المستكفي عن قرطبة، فدخل القصر يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست عشرة المذكورة، وبقي به إلى تمام السنة، ثم خرج إلى مالقة يوم الثلاثاء لثمان خلون من المحرم، وتحرك بقرطبة وزيره وكاتبه أبو جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح إلى أن قصد إلى قرطبة الموفى زهير وخيران العامريان من قبل حبوس بن ماكسن.

فلما أحَسّ أهل قرطبة بهما وثبوا بمن كان عندهم من البرابر فقتلوهم يوم الثلاثاء لعشر بقين من ربيع الأول من السنة، وبلغ عددهم ألف رجل.

وفرّ أحمد بن موسى ودوناس فنجيا.

وكان يحيى بن علي بن حمود قد انتقل إلى قرمونة[2] مضيقاً على ابن عباد،

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧) في ذكر ولاية محمد بن عبد الرحمٰن: كان همه لا يعدو فرجه وبطنه، وليس له هم ولا فكر سواهما... فخلعوه، وخرج عن قرطبة ومعه جماعة.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قرْمُونِيَةُ: كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية، قديمة البنيان عصت على عبد الرحمٰن بن محمد الأموي، فنزل عليها بجنوده حتى افتتحها وخرّبها ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه. وبينها وبين إشبيلية سبعة فراسخ، وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً. وأكثر الناس يقولون: قرمونة.

وطمع فيه ابن عباد لاستئثار اللهو واللعب به، فوجه إليه إسماعيل بن عباد ابنه مع جيش من صنائعه، وطائفة من البرابر المستخدمين لديه، فطرقوا أحواز قرمونة ليلاً، وقد كمنوا وستروا أنفسهم.

واتصل خبرهم بيحيى بن علي وهو عاكف على شرابه ثمل، فنعر وقال: وأبياض يحيى الليلة، وابن عباد زائره.

وبادر الخروج برجاله، ومضى يضرب أبطن فرسه، وألقى بنفسه على القوم في أوائل / خيله[١]، فنال منهم منالاً يفضحهم لولا أن انتفضت الكمائن، وحاد صبره، ثم انهزم أصحابه وصُرع فجز رأسه، وطير به إلى ابن عباد بإشبيلية. [١٦٨/أ]

فخر ابن عباد فيما زعموا ساجداً، وانطبق البلد فرحاً.

وكان لديه محمد بن عبد الله البرزالي كبير البرابرة من بني برزال، فابتدر قرمونة لوقته، وقد ملك أبواب سورها يحيى بن علي، فتوصل من بعض الأماكن حتى دخلها عن حيلة، فحاز ما اشتملت عليه، وانقضى أمر يحيى بن علي بن حمود على هذه الوتيرة[٢]، وذلك في سنة سبع عشرة وأربعمائة.

---

(١) رقم الصفحة: [١٦٧/أ،ب] محذوف حيث إنه وضع على صفحة مكررة التصوير فتركت الترقيم على ما في المخطوط معتبراً للرقم المحذوف مع هذه الإشارة إليه.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في ذكر عودة يحيى العلوي إلى قرطبة وقتله: ولما مات أبو عبد الرحمٰن الأموي وصح عند أهل قرطبة خبر موته سعى معهم بعض أهلها ليحيى بن علي بن حمود العلوي ليعيدوه إلى الخلافة، وكان بمالقة يخطب لنفسه بالخلافة فكتبوا إليه وخاطبوه بالخلافة، وخطبوا له في رمضان سنة ست عشرة وأربعمائة فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إليهم عبد الرحمٰن بن عطاف اليفرني والياً عليهم، ولم يحضر هو باختياره. فبقي عبد الرحمٰن فيها إلى محرم سنة سبع عشرة، فسار إليه مجاهد وخيران العامريان في ربيع الأول منها في جيش كثير، فلما قاربوا قرطبة، ثار أهلها بعبد الرحمٰن فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون. وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر، ثم اختلفا فخاف كل واحد منهما صاحبه. فعاد خيران عن قرطبة لسبع بقين من ربيع الآخر من السنة إلى المرية وبقي بها إلى سنة ثمان عشرة، وتوفي، وقيل: سنة تسع عشرة. وصارت المرية بعده لصاحبه زهير العامري فخالف حبوس بن ماكسن الصنهاجي البربري، وأخوه على طاعة يحيى بن علي العلوي. وبقي مجاهد مدة ثم سار إلى دانية وقطعت خطبة يحيى منها وأعيدت خطبة الأمويين، وبقي يتردد عليها بالعساكر. واتفق البربر على طاعته وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن، فقوي وعظم شأنه وبقي كذلك مدة. ثم سار إلى قرمونة، فأقام بها محاصراً لإشبيلية طامعاً في أخذها، فأتاه الخبر يوماً أن خيلاً لأهل إشبيلية قد أخرجها القاضي أبو القاسم بن عباد إلى نواحي قرمونة. فركب إليه ولقيه وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرع من أن قتل. وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وخلف من الولد: الحسن وإدريس لأي ولد. وكان أسمر أعين أكحل طويل الظهر قصير الساقين وقوراً هيناً ليناً. وكان عمره اثنتين وأربعين وأمه بربرية.

فكانت مدته هذه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

وكان من حديث بني حمود ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قال: واجتمع أهل قرطبة بعد هذه الكائنة، على خلع الفاطميين من بني حمود. ونشأت بينهم الترات التي تأبى المهادنة، فنظروا من يسددون به الرسم من بني أمية؟.

دولة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر

وتقدم أن المرتضى الذي بايعه العامريون قُتل بظاهر غرناطة لما حلّ بها طالباً الأمر لنفسه على يد زاوي بن زيري، وأن أخاه هشاماً هذا فرَّ يومئذ من الوقيعة، واستقر يحض البنت عند صاحب عبد الله بن قاسم الفهري.

ولما خلع الحموديون بايعه أهل قرطبة بمكانه من الثغر المذكور يوم الأحد لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وأربعمائة، وأقام كذلك سنتين وسبعة عشر وأربعمائة.

وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر وثمانية أيام، فخطب له بقرطبة غائباً عنها ثم أتى قرطبة في سنة عشرين ولم تطل مدته إلى أن خلع بسبب وزير له يُعرف بسعيد بن الحكم، ويدعى بالقزاز أساء معاملة الوزارة والرعية.

وكان إحسان معاملة من ذكر يومئذ معوزاً بكل حال لسوء خلق المدينة، وشذوذ أهلها عن ضبط السياسة ومرانهم على الوثوب، وضعف السلطان وعجزه عن مؤنة من يقهر به العامة، فبطشوا به وقتلوه[1].

وكان المعزي بهشام ابن عم له هو أمية بن عبد العزيز العراقي من أبناء الناصر، فتى شديد التهور والجهل سولت له نفسه الاستيلاء، فلما قتل ابن حكم قام أمية هذا، وهو: أمية بن عبد الرحمٰن بن هشام بن سليمان[2] بن عبد الرحمٰن الناصر.

واجتمع عليه العوام، وتقدم إلى القصر، وهشام الشيخ غافل بين يدي نسائه.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٢): واتفق في هذا العام [٤٢٧هـ] موت الأمير المعتمد بالله أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك ابن الناصر المرواني. وكان قد بويع ونهض بأمره عميد قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد، فعقدوا له في سنة ثمان عشرة، وبقي متردداً في الثغور ثلاث سنين وثارت فتن وبلايا واضطراب، ثم خلعه الجند وأهين، فالتجأ إلى ابن هود بسرقسطة إلى أن مات عن ثلاث وستين سنة، فهو آخر المروانية.

(٢) في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ): أمية بن عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر.

فبادر حين بلغه الخبر والرجفة الصعود إلى العلية متمنعاً بها.

ونهبت العامة القصر، وبادر العامة إلى الشيخ أبي الحزم بن جهور كبيرهم، فهتف على الناس بكف الأيدي.

وأمية مع هذا مقيم بالقصر، قد تبوأ مجلس هشام، واستوى على فراشه، ورتب من النهاية من ينفذ أوامره، محرضاً على هشام لا يشك في تمام الأمر له / [١٦٨/ب] وأعمل الوزراء والمشيخة.

فاتفقوا على خلع الشيخ وإبطال رسم الخلافة جملة لعدم المشاكلة، وعلى نفي المروانية وإجلاءهم، وأنفذوا إلى هشام المعتز بالله[١] وإلى أمية بالخروج عن قرطبة.

فأنزل الشيخ هشام من العلية إلى ساباط الجامع المفضي إلى المقصورة، فيمن تألف إليه من ولده ونسائه طارحاً نفسه على الجماعة ينشدهم الله في مهجته.

فأُعلم بكره الناس له.

فقال: ليتني قرب الجزيرة مؤنتي في اللجة فيكون أخفى لنسائي، فافعلوا ما شئتم، واحفظوني في أهلي وولدي. وبقي بمكانه يومه وليلته أسيراً ذليلاً خائفاً شاخص البصر إلى جهة تهجم منها المنية عليه.

وذكر بعض خدمة المسجد أن أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كُسَيْرَة يسد بها جوع طفلة صغيرة له، إذ كان قد ضمها إليه ساتراً إياها بكفه من برد ليلته، وكانت تشكو له الجوع ذاهلة عما أحاط به فزيد به في همه.

وسأل سراجاً يتأنس به نساءه، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادة الدهر.

وبات الناس ليلتين بالجامع ليفرغ الوزراء من شأنه.

ثم أُخرج إلى حصن ابن الشور[٢] من غير أن يؤخذ حظه بالخلع ولا يشهد بعجزه عن تدبير الخلافة وإحلال الأمة من بيعته على السبيل المعهودة.

---

(١) وفي الكامل أيضاً: المعتمد بالله، وقال في خبره: تسور القصر مع جماعة من الأحداث ودعا إلى نفسه، فبايعه من السواد ناس كثير. فقال له بعض أهل قرطبة: نخشى عليك أن تقتل في هذه الفتنة، فإن السعادة قد ولت عنكم. فقال: بايعوني اليوم واقتلوني غداً. فأنفذ أهل قرطبة وأعيانهم إليه وإلى المعتمد بالله يأمرونهما بالخروج عن قرطبة. فودع المعتمد أهله وخرج إلى حصن محمد بن الشور بجبل قرطبة، فبقي معه إلى أن غدر أهل الحصن بمحمد بن الشور فقتلوه وأخرجوا المعتمد إلى حصن آخر حبسوه فيه. فاحتال في الخروج منه ليلاً، وسار إلى سليمان بن هود الجذامي، فأكرمه وبقي عنده إلى أن مات في صفر سنة ثمان وعشرين، ودفن بناحية لاردة، وهو آخر ملوك بني أمية بالأندلس.

(٢) في المخطوط: «الشرب» وهو تحريف، والتصويب من الكامل في التاريخ.

وأنساهم الله ذلك تهاوناً بحقه ونسياناً. وأما أمية بن العراقي فلم يبرح من القصر حتى أزعج مطلقاً لسانه من الحمل على الوزراء بما شاء.

ومشى البربر في الأسواق، والأرباض، بأن لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد.

وكان القائم بإخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم، أبا الحزم بن جهور حسبما يأتي الكلام فيه.

وانتهى أمر بني مروان لهذا الحد، ومحى رسم الجماعة، وتقسم البلاد، والأقطار رؤساء الطوائف، قد استخار كل منهم استبداده بنفسه ورضي بذلك من بقواعدهم من المسلمين على وفور الفضلاء وتعدد العلماء، وانفساح الأقطار، وتزاحم الاعتمار.

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ونكر بالقول على تمام حديث العلويين الفاطميين من بني حمود.

ذكر تلخيص الكلام في الأمراء من بني حمود

قد ذكرنا منهم فيما سلف كثير، منهم:

علي بن حمود، والقاسم أخاه، ويحيى بن علي بن حمود.

وانتهينا إلى ذكر مقتل يحيى بن علي بظاهر قرمونة على يدي ابن عباد، وتغلب محمد بن عبد الله البرزالي على قومه.

/ فنصل ذكر القوم بعده، فنقول: [١/١٦٩]

ولما بلغ إدريس بن علي بن حمود[١] الكائن بسبتة، خبر يحيى أخيه، أسرع

---

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤١)، جذوة المقتبس (٣٠)، بغية الملتمس (٣٧)، البيان المغرب (٣/ ٢٨٩)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٢٤)، نفح الطيب (١/ ٤٣١)، وقال الذهبي في ترجمته في السير: الحسني الإدريسي أخو المعتلي بالله لما قتل أخوه بادر أبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنة، ونجا الصقلبي الخادم، فأتيا مالقة وهي دار ملكهم فأخبرا إدريس بن علي بقتل أخيه بسبتة، فدخل الأندلس. بويع بمالقة ولقب بالمتأيد بالله، وجعل ابن أخيه حسن بن المعتلي والياً على سبتة. ثم إنه استنجد بإدريس محمد البربري على حرب عسكر إشبيلية، فأمده بجيش عليهم ابن بقنة فهزموا عسكر إشبيلية، وكان عليه إسماعيل ولد القاضي ابن عباد، وقتل إسماعيل وحمل رأسه إلى إدريس بن علي، فوافاه وهو عليل، فلم يعش إلا يومين ومات. وخلف من الولد: محمداً الذي لُقب بالمهدي، والحسن الذي لُقب بالسامي.

... ولما بلغ نجا الصقلبي وهو بسبتة موت إدريس عدّى على مالقة ومعه حسن بن يحيى بن علي، فخارت قوى ابن بقنة وهرب، فتحصن بحصن لمارش وهو على بريد من مالقة، فبويع الحسن بن =

اللحاق بمالقة، ودعا إلى نفسه، ونهض بالبيعة حبوس بن ماكسن مع صنهاجة، فبايعوه واستضافوا لجملتهم زهير الفتى.

فخطب له بالمرية لمطاوعة زهير خليفهُ وجاره بالبيرة، وذلك في منتصف ذي حجة من السنة.

وتوجهوا إلى قرمونة وإشبيلية، فحللوهما نهباً وغارة.

ولم يتجه لهم فيهما أكثر من ذلك.

ثم توفي إدريس صاحب سبتة ومالقة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

فبويع بعده:

أخوه حسن بن علي بسبتة، وتسمى بالمستنصر بالله.

ولما توفي حسن بن علي، قام بعده بأمره ولده: **يحيى.**

ودام ملكه بها سنتين، ثم قام عليه ابن عمه حسن بن علي نسيبه فخلعه.

ويذكر أن والد حسن هذا، وهو يحيى بن علي، أسند إليه عهده فسبقه عمه إدريس أبو هذا القتيل إليه.

وعبر حسن بن يحيى إلى مالقة، وكان له أخ اسمه إدريس...[1] فتفقده في القصر. ثم تمادى ملك حسن بمالقة إلى أن توفي بها مسموماً، وترك ولداً صغيراً له بسبتة، فبايعه أبو الفوز نجا العلوي، قائده وثقته بها.

وهو من شرط كتابنا ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وأجار البحر لتقاد البلاد بأقصى الجزيرة وبها أبناء القاسم بن حمود، وأراد إخراجهم منها.

فبرزت إليه سبيعة أمهم حاسرة، وقالت: يا أبا الفوز أتقطع أيام مواليك، وتخرجهم وتكشفهم عن البلاد؟

فخجل رحمه الله من ذلك وانصرف إلى مالقة، وقد صحبه قوم من برغواطة كانوا إخواناً لحسن المتوفى بمالقة.

فترصدوا غفلة من أبي الفوز نجا العلوي فقتلوه بالطريق من مالقة.

ثم نهضوا إليها، فسبقوا الخبر، ودخلوا على أحمد بن موسى الوزير قائدها

= يحيى بالخلافة وتسمى بالمستعلي، ثم آمن ابن بقنة، فلما قدم عليه قتله، ثم قتل ابن عمه يحيى بن إدريس بن علي، ورجع نجا إلى سبتة، ثم هلك المستعلي بعد سنتين.

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى[١] من سجنه، فبايعوه بها هم ومن فيها من رؤساء البرابرة.

ولقبه: العالي بالله.

وخطبوا باسمه سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، ثم ثار على العالي ابن عمه محمد بن إدريس بن علي بن حمود، فخلعه في شعبان من سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة.

اهتبلوا غرته وقد خرج إلى قلعة ببشتر، فسدت الأبواب في وجهه، فعاد إلى ببشتر[٢]، ثم ترحل بأهله وولده إلى سبتة فأقام بها عند سراجات البرغواطي القائم بأمره لذلك العهد ـ ويأتي التعريف به ـ.

واستقام أمر محمد بن إدريس بمالقة، وتلقب: بالمهدي.

وكان محمد بن إدريس هذا سفاكاً للدماء، فأعملت الحيلة في هلاكه بكأس مسمومة، ووجهها إليه باديس بن حبوس الصنهاجي أمير غرناطة مع رجل من خاصته فقال: هذه كأس جُلبت للحاجب المظفر باديس، فلم يرها /تصلح إلاّ للخلافة [١٦٩/ب] فاختصك بها.

فأُعجب بذلك محمد بن إدريس، وما أن أوصلها إلى فِيهِ حتى أحسّ في نفسه ريبة فأمر الرجل الذي أوصلها إليه أن يشرب ما فيها فتهرأ لحمه من حينه[٣].

---

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤٣، ٦٥٧)، جذوة المقتبس (٣٣)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ١/ ٨٦١)، بغية الملتمس (٣٩)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧)، الحلة السيراء (٢/ ٢٦)، البيان المغرب (٣/ ٢١٨)، الوافي بالوفيات (٨/ ٣٢٤)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٥)، وقال الذهبي في ترجمته: أخرجه البربر من السجن وملكوه بعد مصرع نجا الخادم بعد موت أخيه الحسن بن يحيى وكان العالي فيه رقة ورحمة، لكنه قليل العقل يقرب السفهاء، ولا يحجب عنهم حظاياه، وكان سيىء التدبير. فمالت البربر إلى محمد بن القاسم الإدريسي فملكوه بالجزيرة الخضراء، ولقبوه بالمهدي. وصارت الأندلس ضُحْكَة، بها أربعة كل واحد يُدعى أمير المؤمنين في مسير أربع ليال. ثم لم يتم أمر المهدي وفاجأه الموت عن ثمان بنين، وقام بالجزيرة ابنه القاسم بن محمد، ولم يتلقب بالخلافة. وقام بعد العالي ولده محمد، ثم مات بمالقة سنة خمس وأربعين وأربعمائة في حياة أبيه، ثم ردوا أباه إلى مالقة وغرناطة، ثم قهرهم ملك إشبيلية المعتضد بن عباد. وزالت دولة الإدريسية.

(٢) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: بُبَشْتَر: بالضم، ثم الفتح، وسكون الشين المعجمة، وفتح التاء فوقها نقطتان وراء: حصن منفرد بالامتناع من أعمال ريّة بالأندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخاً. وربما أشبعوا الباء الثانية فنشأت ألفاً، فقالوا: بباشتر.

(٣) هذه عادة الملوك عند الريبة يكون الضحية الخادم القائم على الإطعام أو الشراب، وربما لم يكن له أي ذنب ولا دراية بما يحمل بل وربما كان في نفسه وهو ساع إلى الملك بذلك السم الزعاف أن يمنحه الملك منحة عظيمة وهو لا يدري أنه يسير إلى حتفه بقدميه، ويحمل داءه بين يديه.

وبقي محمد بن إدريس ثلاث أيام، ومات في آخر سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وقام بعده بالأمر:

ابن أخيه وهو: إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود.

وتسمى بالشافي.

ثم أحمل نفسه وركب البحر كأنه تاجر، ونزل في ريف غمارة فقبض عليه وأُتي به إلى سبتة، فقتله سراجات البرغواطي.

وبقي العالي عنده إلى أن مات في سنة أربعين وأربعمائة.

وولوا بعده ولده: محمد، وتسمى بالمستعلي.

واتفق أمراء البرابر على البيعة **لمحمد بن القاسم بن حمود** الكائن بعد أبيه بالجزيرة الخضراء، وما إليها.

ولقبوه بالمهدي.

وخطب له بجميع بلادهم، وتوجه إليه من رؤسائهم جماعة كبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة، وإسحاق بن محمد بن عبد الله الزناتي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح صاحب مورور، وعبدوس بن معروف صاحب أركش.

وانضاف إليهم فتح الله بن يحيى من أمراء ولية الغرب.

وابن الأفطس صاحب بطليوس[1].

ونهضوا به إلى بلاد ابن عباد بإشبيلية، ونازلوه وأشفوا أرضهم ثم انصرفوا، وقد عجزوا منه.

وذلك في سنة تسع وأربعين.

ولما توفي محمد بن القاسم بايعوا ولده **محمد بن القاسم.**

على رسمه، ثم مات، وولي بعده القاسم ولده بالملقب بالمستعلي.

ثم تغلب باديس بن حبوس على مالقة وأخرجه عنها، ولم يبق لهذا العهد على ملك الحسنيين إلا الجزيرة الخضراء وأميرها القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود.

فنازله قائد ابن عباد عبد الله بن سالم في البر.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة، ولها عمل واسع. ينسب إليها خلق كثير منهم: أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي اللغوي، صاحب التصانيف والشعر، مات في سنة (٥٢١هـ). وأبو الوليد هشام بن يحيى بن حجاج البطليوسي.

ونازله أساطيله في البحر.

فلما عجز عن مقاومته تخلى له عن البلد عن أمان أكده.

وركب البحر معرضاً عن جهة سراجات بسبتة إلى المرية، فأقام بها إلى أن مات وانقرضت مدتهم.

وكانت من يوم ولي علي بن حمود إلى تخلي القاسم عن الجزيرة ثمانياً وخمسين سنة.

قال أبو محمد بن حزم:

اجتمع عندنا بالأندلس في صقع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يخطب له بالخلافة وتلك فصيحة لم ير مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاث أيام كلهم يُسمى بالخليفة، وإمارة المؤمنين، وهم:

خلف المصري بإشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام، وشهد له خصيان ونسيان.

فخطب له على منابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله.

ومحمد بن القاسم خليفة /بالجزيرة. [١/١٧٠]

ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة.

وإدريس بن يحيى بن علي ببشتر.

ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الخلائف

نقول وبالله الاستعانة ومنه الحول والقوة ذهب أهل الأندلس في الانشقاق، والانشعاب، والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعُبَّاد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإمامة مكتسب، فاقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبائر، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكُتاب الأعلام وأنشدهم الشعراء، ودوّنت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء. وهم ما بين مجبوب وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائراً ولا لحرب الحق مغايراً، وقصارى أحدهم أن يقول: أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يُقبل عليه ولألقى غير الدية.

ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً وخلفوا آثاراً، وإن كانوا لم يألوا غير آراء من معتمد، ومعتضد، ومرتضي، وموفي، ومستكفي، ومستظهر، ومستعين، ومنصور، وناصر، ومتوكل، كما قال الشاعر:

مما يزهد في أرض أندلس سماع معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالمرء يحكي انتفاخاً صولة[1] الأسد

جلبنا منهم ذكراً ليغتبط مطالعه بحاله، ويَرْضَى الواقف عليه من زمانه، ويبتهج بشأنه، ويرى أنه أوثق عهدة وأحكم عقدة، وأرحب عطفاً وآمن وطناً.

وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير ما لديه.

ذكر أيام بني جهور بقرطبة وما إليها

قلت: وكان من الترتيب أن نقدم ذكر من تقدم بالزمان من هؤلاء الرؤساء، واستحق تقدم الذكر بتقدم وقت ظهوره.

وإنما ابتدأنا بهؤلاء الجهاورة اعتناءً بمحل ولايتهم، دار الملك قرطبة أعادها الله تعالى، ونبدأ أولاً بشيء من ذكرها فنقول[2]:

---

(١) كذا في المتن، وفي الهامش: «سورة» وربما كان ما في المتن تصحيح من الناسخ وأثبت الخطأ بالهامش.

(٢) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: قُرْطُبَة: كلمة فيما أحسب أعجمية رومية ولها في العربية مجال يجوز أن تكون من القرطبة وهو العدو الشديد... وقال الأصمعي: طعنه فقرطبه إذا صرعه... وقال: القُرطُبا السيف، كأنه من قرطبه أي قطعه. وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها وقصبتها، وبها كانت ملوك بني أمية، ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقع، وبينها وبين البحر خمسة أيام. قال ابن حوقل التاجر الموصلي، وكان طرق تلك البلاد في حدود سنة (٣٥٠هـ): وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيهاً في كثرة الأهل وسعة الرقعة. ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة. والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسفله، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع. ومساكن العامة بربضها، أهلها متمولون متخصصون، وأكثر ركوبهم البغلات من خَوَرِهم وجبنهم، أجنادهم وعامتهم. ويبلغ ثمن البغلة عندهم خمسمائة دينار، وأما المائة والمائتان فكثير لحسن شكلها وألوانها وقدودها وعلوها وصحة قوامها.

قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف هذا الكتاب: كانت صفتها هكذا إلى حدود (٤٤٠هـ) فإنه انقضت مدة الأمويين، وابن أبي عامر، وظهر المتغلبون بالأندلس، وقويت شوكة بني عباد وغيرهم، واستولى كل أمير على ناحية، وخلت قرطبة من سلطان يرجع إلى أمره، وصار كل من قويت يده عمرت =

قال أبو محمد الرشاطي:

قرطبة، قاعدة / البلاد، وأم المدائن، ومستقر الخلافة، ودار الإمارة، فيها كان [١٧٠/ب] الخلفاء من بني أمية وآثارهم بها ظاهرة وأبنيتهم فيها.

ومما جاورها منيّة وبها الجامع المشهور أمره الشائع ذكره من أجل مجامع الدنيا الكبير مساحة وإحكام صنعة وجمال صفته واتقان بنيه، تمم به الخلفاء من بني أمية فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتحصيناً أثرتهم حتى بلغ الغاية في الاتقان، واستولى على أمر الإحسان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حُسنه الوصف.

وقرطبة على نهر كبير فوهته بجبل شقورة ويمر على قرطبة، وينصب فيه تحت قرطبة أودية، ثم يمر إلى إشبيلية، وقد ذكرناه في باب الإشبيلي.

وعليه بقرطبة قنطرة عظيمة حصينة من أجلّ البنيان قدراً، وأعظمه خطراً، وهي من الجامع في قبلته وبالقرب منه، فانتظم به الشكل إلى الشكل، وجاءت كالفرع لذلك الأصل.

ولما كانت قرطبة على الشكل الذي ذكرنا محل الإمارة، ومستقر الخلافة، كثر بها العلم والعلماء، واستقر فيها الفضلاء والنبلاء، وصارت دار هجرة للعلم، ومكان رحلة لأولي الفهم.

وكان من بها من الخلفاء رضي الله عنهم يجلون العلماء، ويكبرون من يولونه منهم خطة القضاء، ويختارون للخطة أهلها، ويوفونهم حقوقهم فيها.

فكانت للقضاة بها المنزلة العالية، والرتبة السامية، مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم، موافقين لنقضهم وإبرامهم.

مع ما خصّ به أهل قرطبة من علو الهمة، واجتماع الكلمة، وتألفهم على الحقائق واتباعهم لأحسن الطرائق، فصارت لهم بذلك النخوة والعزة، وجازوا أعلى منازل الرفعة.

فممن ولي القضاء بقرطبة، وكان بها على الصفة التي ذكرنا، محمد بن بشير.

ووقع لي ذكرها في بعض كتب الفتوحات، فقلت:

قرطبة، وما أدراك ما قرطبة، ذات الأرجاء الخالية الطامية، والأطواد الراسخة

= مدينته. وخربت قرطبة بالجور عليها، فعمرت إشبيلية ببني عباد عمارة صارت بها سرير ملك الأندلس، فهي إلى الآن على ذلك من العمارة. وخربت قرطبة وصارت كإحدى المدن المتوسطة وقد رثوها فأكثروا فيها. وممن تشوق إليها القاضي محمد بن أبي عيسى بن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة (فذكر في ذلك شعره).

الراسية، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية، والمحاسن غير المتناهية، حيث هالة من بدر السماء قد استدارت من الطور المشيد البناء داراً، وتمر المجرة من نهرها الفياض المسلول حسامه من غمود الغياض، قد لسن بها جاراً، وفلك الدولاب المعتدل الانقلاب قد استقام مداراً ورجَّع الحنين اشتياقاً إلى الحس الأول وإذكاراً حيث الطود كالتاج يزدان بلجين العذب المجاج فاق تاج كسرى، ودارا حيث جسور القصور المدبرة فكأنها عَوجُ المطي العديدة، تعبر النهر قطاراً حيث /آثار العامري [١٧٦/أ] المجاهد تعبق من تلك المجامر شذاً معطاراً، حيث كرائم عرائس السحاب تمر بمرابض الرياض، فتحمل لها من الدر نثاراً، حيث شمول الشمائل تدور على الأدراج بالغدو والرواح فترى الغصون سكارى وما هي بسكارى، حيث أيدي الافتتاح تفتض من شقائق البطاح أبكاراً، حيث ثغور الأقاحي البواسم تُقَلِيها زوّار النواسم، فتخفي من قلوب النجوم الغيارة، حيث. . .[1] العتيق قد رحب مجالاً وطال فناراً وإزاراً ببلاط الوليد احتقاراً، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح تجب عن مثل أسنمة المهارى، والبطون كأنها لتدميث الغمائم بطون العذارى، والأدواح العالية تخترق أعلامها الهادية بالجداول الحيارى، فما شئت من جوّ صقيل، ومعرس للحُسن ومقيل، ومالك للعقل وعقيل، وخمائل كم فيها للبلابل من قالٍ وقيل، وخصيب مجاوب فيقبل، وسنابل تحكي من فوق سوقها، وقصب يسوقها الهمزات فوق الألقاب، والعصافير البديعة الصفات فوق الغُصن[2] المؤتلفات تميل لهبوب الصبا، والجنوب مالئة الجيوب بذور الحبوب وبطاح لا تعرف غير المحل يتطلب بالرحل ولا تصرفه في خدمة بيض قباب الأزهار عند افتتاح السوقين والمهارة غير العبدان من سودان النحل وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ولا يبلغ الطية البعيدة راحلة إلى الوادي وسمر النوادي ومدار دموع الغوادي المتجاسر على تخطب عند تمطية الخبر العادي، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد، والفراء الذي في جوفه كل صيد، أقل كرسيه خلافة الإسلام، وأعلى بالرصافة والجسر دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه ألسنة الأقلام، أو تعبر به عن ذلك الكمال فنون الكلام[3].

ولما خلع هشام الأخير واتفق رأي الجماعة بقرطبة على محو رسم الخلافة الأموية لعدم الضلوع في أهل بيتها، وسوء الجوار وفناء الأموال التي يرزق منها من

---

(١) كلمة غير ظاهرة.

(٢) في المخطوط: الغضب، وهو تحريف.

(٣) كل ما سبق ما هو إلا مقطوعة أدبية ليس لها من التاريخ وفنونه كبير نصيب وإنما ذلك لأن الكاتب شاعر أديب مؤرخ، ولكن الطابع الأدبي عليه غالب، مما يجعله كثيراً ما يخرج عن الموضوع ويطنب في الوعظ والوصف.

يقهر به السلطان كواف الناس، اتفق الملأ على إسناد الأمور بالحضرة إلى شيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة: **أبي الحزم جهور**[(١)] **بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن بخت بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمد بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن أبي عبدة.**

وكان لمدخل جدهم يوسف بن بخت أبي عبدة إلى الأندلس أثر عظيم من جميل الدفاع وسعة الباع، وأسندوا إليه فهمهم، وعدوا /من خصاله ما لم يختلفوا [١٧٦/ب] فيه، فأعطوا قوس السياسة باريها، فانسدل عليهم به الستر.

قال المؤرخ: وكان مع براعته ورفعة قدره أشد الناس تواضعاً، وعفة، وأشبههم أولاً بآخر، لم يختلف من الفتى إلى الكهولة فأبهج سعيه وألمّ الشعث في المدة القريبة فنعش الرفات وأحيا منها الموات، ودافع بحسن تدبيره البرابرة، وأحسن الجوار والمعاملة.

ثم توفي رحمه الله ليلة الجمعة السادس من شهر محرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

---

(١) في المخطوط: أبو الحزم بن جهور، ولفظ: «ابن» زائدة على السياق وضبطه من سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٣٩، ٥٢٥). ومصادر ترجمته: جمهرة الأنساب (٩٣)، جذوة المقتبس (٢٨)، مطمح الأنفس (١٦)، الذخيرة (٢/ ١/ ٦٠٢)، الصلة لابن بشكوال (١/ ١٣١)، بغية الملتمس (٣٤)، الحلة السيراء (٢/ ٣٠٠)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٦)، البيان المغرب (٣/ ١٨٥)، دول الإسلام (١/ ٢٥٧)، العبر (٣/ ١٨٣)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٩)، شذرات الذهب (٣/ ٢٥٥)، والكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، وقال في ذكر تفرق ممالك الأندلس: فأما قرطبة فاستولى عليها أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، وكان من وزراء الدولة العامرية، قديم الرئاسة موصوفاً بالدهاء والعقل، ولم يدخل في شيء من الفتن قبل هذا، بل كان يتصاون عنها. فلما خلا له الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه. واتفق عليه الناس فيسلمه إليه. ورتب البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة ولم يتحول هو عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك، وهو المشرف عليهم. وصيّر أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم ربح أموال تكون بأيديهم دَيْناً عليهم فيكون الربح لهم ورأس المال باقياً عليهم. وكان يتعاهدهم في الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، فكان أحدهم لا يفارقه سلاحه حتى يعجل حضوره إن احتاج إليه. وكان جهور يشهد الجنائز ويعود المرضى، ويحضر الأفراح على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبر الأمر تدبير الملوك. وكان مأمون الجانب، وأمن الناس في أيامه، وبقي كذلك إلى أن مات في صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة. وقام بأمرها بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات.

أيام أبي الوليد محمد بن جهور[1] رحمه الله

قال ابن حيان: وولي بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بن محمد بن جهور نهاية بيوت الشرف الأنبل بقرطبة على آخر الدهر المغرب شأوه في نظم قلادة خمسة ككعوب الرمح أنبوب على أنبوب، ثم تناقلوا الملك فيما بينهم وبين خامسهم عبيد الله، ولم تنقلها الفتنة إلى أن ورتها تربها، هذا السري الفاضل أبو الوليد.

ولما يعرف البؤس يوماً، فأعانه ذلك على الحسب والمروءة.

وأقر لوقته الحكام، وأولي المراتب، ثم اقتفى آثار أبيه في السياسة، فأصبح من العجب العجاب تكافىء الناس عن المظالم والتشافه بخلاف ما كانوا عليه تحت الضغط الشديد بأيدي جبابرة أصحاب الشرطة أيام الجماعة، فلا يكاد يسمع لشرارهم من معهود ذلك إلا النادرة.

ثم قال: فلم يفهم من الأمر بمثل ما قام به أبوه، بل قدم ولده عبد الملك على الناس وأخذ عليهم العهد والبيعة لابنه، فجار واعتدى، وصحب الأرذال، وأهمل الأمور، وأخاف السبيل، وأظهر الفساد، وتعاطى ما أحجم عنه سلفه من الاستبداد، فسمى بنفسه بذي السيرة سنين المنصور بالله الظافر بفضل الله، وخطب على المنبر باسمه، ولم يكن أبوه وجده شغلاً عن رسم الوزارة، ولا تلبساً بشيء من أمور الأموية.

أيام عبد الملك بن محمد بن جهور

وكان الرئيس أبو الوليد رحمه الله قد ألقى الله منه على ابنه الأصغر من ولديه محبة آثره لها على أخيه كبيره عبد الرحمٰن لمزية شهامة كانت في نفسه جنى بها خروج الأمر عنهم، وخص عبد الرحمٰن بحظ رحيب من أمره، فكان عبد الملك النظر في الجند والتولي لغرضهم والإشراف على أعطياتهم، ولعبد الرحمٰن النظر في الأشراف والجباية، ورضيا بذلك.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٤٠)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/ ١/ ٦٠٤)، الصلة (٢/ ٥٤٦)، بغية الملتمس (٣٥)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ)، المعجب (٦٠)، ووفاته فيه سنة (٤٤٣)، المغرب في حلي المغرب (١/ ٥٦)، البيان المغرب (٣/ ٢٢٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٩). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: حكم على قرطبة ثمانية أعوام، فقصده ابن عباد، وقهره، وأخذ البلد، ثم سجن أبا الوليد في حصن. وكان قد قرأ على مكي بن أبي طالب، وسمع من أبي المطرف القنازعي، ويونس بن عبد الله بن مغيث، وطائفة، وعُني بالحديث. فبقي في سجن ابن عباد إلى أن مات في نصف شوال سنة اثنتين وستين وأربعمائة. وقيل: بل غلب على قرطبة المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وقام بعده ابن عكاشة البربري، ثم غلب عليها أبو القاسم بن عباد وصارت تبعاً لإشبيلية.

إلا أن عبد الملك ابتزه ذلك وتغلب عليه وسجنه في منزله ورتب عليقة.

وقد أصابت الأب زمانة، واستولى عبد الملك على الأمر، وكان من تدبيره الانحطاط.

/ سلك المعتضد بن عباد جارهم المصاقب، فوالى مخاطبته ومداخلته، وزاره [١/١٧٢] بنفسه، فقام ابن عباد بحقه، وأغراه بما تسبب فيه إلى ما بيده من قتل وزير أبيه الكائن شجا في حلق ابن عباد المعروف بابن السقاء، واتصلت مصادفته لابن عباد بضده يحيى بن ذي النون، فصرف غربة إلى قرطبة التضييق عليها نُصب عينيه، واستهان في سبيل الحصول عليها الأموال، واصطنع الرجال، وتحرك إليها سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

فاستغاث عبد الملك بن أبي الوليد بن جهور بصديقه ابن عباد لعجزه عن الانفراد بمقامة ذي النون، فبعث إليه المعتضد بن عباد بكتيبة من ثلاثمائة فارس، ثم أتبعها ألف فارس لنظم قائديهما الكبيرين: خلف بن نجاح، ومحمد بن مؤنس، وتقدم إليهما بما يكون عملهما.

ولما اتصل يد عبد الملك يحيى بن عباد دافع ذي النون عن حوزته، فانصرف عنه ولم يجد فيه غرة بعد قتال ومدافعة، وكان مضطرب الجيش العبادي أيام مقامه في نصرة ابن جهور بالربض الشرقي من قرطبة، ووقعت المداخلة بين قائدي الجيش وبين بعض الإشبيليين في الإراحة من بني جهور وخلعهم وتصير الأمر إلى ابن عباد.

فلما صح انصراف ابن ذي النون، وذهب القائدان ومن معهما إلى وداع ابن جهور بباب المدينة، اقتحم رجاله الأبواب وملكوها ودخل الجيش، وقامت الدعوة باسم ابن عباد يوم الأحد لسبع بقين من شعبان سنة إحدى وستين وأربعمائة[١].

وامتنع عبد الملك وخويصة أهله في علية الدار حيث سكناه، ودافع عن نفسه إلى أن غشي الدار الجراد المنتشر من الناس، وشملها النهب.

---

(١) هذا الحدث نحو حدث أفغانستان أيام أن طلب رئيسها مساعدة الروس له على مقاومة بعض أفراد شعبه من أعضاء التيار الإسلامي فما كان من الروس إلا أن دخلوا فخلعوه واستولوا هم على مقاليد البلاد، وما كان من أفراد الشعب من التيار الإسلامي إلا الدفاع عن حوزتهم فهزموا الروس هزيمة نكراء بعد حرب طالت بينهم من أواخر السبعينات إلى أواخر الثمانينات، ثم تولى الشعب على السلطة، ثم دبر لهم العدو مكية جعلت الشعب يقوم بإبادة نفسه في حرب أهلية طاحنة استمرت حتى أوائل الألفين. ثم قام ابن لادن بضرب المركز التجاري الأمريكي مما دفع الأمريكان إلى الدخول إلى أفغانستان وضربها بكل أنواع الأسلحة والسيطرة عليها بواسطة عميل لهم أفغاني يدعى حامد قرضاي وها هو الشعب الأفغاني يقاوم حتى الآن لإخراج العدو الجديد من أرضه، وهذا جزاء من يستعين على عدوه بغير أهل دينه وملّته.

ونجى الشيخ أبو الوليد أبوه، فأوى إلى مقصورة المسجد ببناته وكرائمه، واقتحمتها طائفة من نصارى الجند الإشبيلي فجردوهم وانتهبوا ما أصابوا عندهم من ذخيرة.

وطلب عبد الملك الأمن لنفسه، ونزل إلى القائدين.

وتحصل البلد ورؤساؤه في أيديهما، فأطلقا النداء بكف الأيدي، وتوعدا بالسيف، وعجلا إخراج عبد الملك وأخيه عبد الرحمٰن إلى إشبيلية من يومهما مراعاة للحزم وألحقا بالجلاء مُوكلاً بالكل من يطلع بذلك ثم عطفا على النظر في حال الشيخ الزمن أبي الوليد صدر بيوتات الأندلس وأوثقها عروة وجاه وأشدها ركن، فصيراه إلى دار صغرى إلى أن وصل جواب ابن عباد بإخراج الشيخ ومن معه إلى جزيرة شاطيش من الجزر الكائنة في موقع نهر إشبيلية. فأخرج من بعد العز والجاه، واتصال الترف، محمولاً بين عدلي على ظهر زاملة، قد أركب خلفه من يمسكه[1].

قلت:

[١٧٢/ب] / وقد أفرد ابن حبان لهذه النكبة الجهورية كتاباً سماه «البطشة الكبرى» وكلامه فيه لباب بلاغته، وذكر أن الشيخ أبا الوليد بن جهور لما توسط القنطرة مخرجاً عن وطنه على تلك الحالة، رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء، وكان مما جاء عنه قوله:

اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا.

فمات لأربعين يوماً من نكبته بجزيرة شَلْطِيش[2]، رحمه الله وغفر له.

فكانت هذه سبيلهم رحمة الله عليهم أجمعين.

وشرع الوزيران في ضبط قرطبة، وكان بعض حوادث تخللت ذلك يطول الكتاب إن استقصيناها، فكانت مدة بني جهور بقرطبة أربعين سنة إلا يسيراً، والبقاء لله وحده.

وتأتّى لهذين الشيخين، وخصوصاً لأبي الحزم والدهم، ما لم يتأتّى الحكام من مسالمة من يليه، وانسحاب العافية على بلده مدة ولايته لرؤساء الطوائف بمنزلة الأب يفصل بينهم في القضايا، ويشفع في الحوائج، ويصلح بينهم في المنازعات، فلم يدر الناس ما فقدوا فيهم إلا بعد أن بلوا غيرهم وفقدوا خيرهم، والحكم لله سبحانه.

---

(١) هذه سنة الله في الخلق، أنه يرفع أقوام ويضع آخرين، فليعتبر من كان له لب حين نعمة السعة والغنى والصحة والأمن.

(٢) قال ابن ياقوت: بلدة صغيرة بالأندلس في غربي إشبيلية على البحر.

ولم يمتع المعتمد ابن عباد[1] بما حصل عليه من منيحة قرطبة، بل نقصه سرورها بما كان من هجوم ابن عكاشة على قرطبة ليلاً، فطرقها ولنظره بعض الحصون المجاورة للحضرة. وقد كان المعتمد تخلف فيها للظافر ولده والوزير محمد بن مرتين للحزم غريقين في اللذات.

واحتال ابن عكاشة حتى دخل المدينة ليلاً برجاله، وطرق دار الإمارة، وبرز الظافر إلى استجلاء الأمر، فقتل وحز رأسه، وبادر إلى ابن مرتين، وهو عالق على شراب ولهو، فقبض عليه.

وتأيد ابن عكاشة بمن بالبلد من أولياء ابن ذي النون.

فتمت الدعوة لابن ذي النون، ولم يمض إلا زمن قريب، وقتل ابن عكاشة، وعادت قرطبة إلى المعتمد إلى آخر أيامه.

ذكر أيام بني عباد بإشبيلية وغيرها

وبنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس من لخم.

قال أبو مروان:

جاز إلى الأندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا أقطارها، وانحاز منها إلى غربيها أخوان: نعيم، وعطاف.

فنزل أحدهما بقرية يومي، وتناسل ولده بها مدة من الزمان ثم انتقلوا إلى إشبيلية، فنموا وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكم المستنصر بالله، ودولة ابنه هشام، وحاجبه المنصور.

وقد كان نشأ فيهم صدريتهم ومؤسس مجدهم إسماعيل بن عباد، فقدمه المنصور على خطة القضاء بها.

[١٧٢/أ] / فاتصل استعماله بها إلى زمن انقراض الأموية، واستمرت حاله مع من نجم في الفتنة، فنظر في صلاح القطر وحمله على الطريقة المثلى من السياسة إلى أن نزل في عينه الماء سنة أربع عشرة وفرح، فعاد بعض بصره، فلم يستجري الحكم بين

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/٥٨)، مطمح الأنفس (١٠)، الذخيرة (١/٢/٤١)، خريدة القصر (٢/٢٥)، المعجب (١٥٨)، الحلة السيراء (٢/٥٢)، العبر (٣/٣٢١)، تتمة المختصر (٢/١٦)، وفيات الأعيان (٥/٢١)، البيان المغرب (٣/٢٠٧)، الوافي بالوفيات (٢/١٨٣)، عيون التواريخ (١٣/١٩)، تاريخ ابن خلدون (٥/١٥٨)، النجوم الزاهرة (٥/١٥٧)، القلائد (٤٠)، نفح الطيب (٤/٢١٢)، شذرات الذهب (٣/٣٨٦)، الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٨٤هـ)، (٤٨٨هـ).

الناس، فولى ولده أبا القاسم القضاء، واقتصر هو على رئاسة البلد وتولى رأي المشيخة، وكان نسيج وحده علماً ومعرفة وأدباً وحكمة، فحمى مدينة إشبيلية من سطوة البرابرة الذين اقتطعوا أحوازها، ونزلوا حولها بالتدبير الصحيح، والرأي الناجح، والنظر في الأمور السلطانية إلى أن هلك سنة أربع عشرة وأربعمائة.

ذكر أيام القاضي أبي القاسم محمد بن عباد أول ملوكهم بإشبيلية

هو: أبو القاسم ابن ذي الوزارتين، أبي الوليد إسماعيل [بن](١) قريش بن عباد بن عمر بن أسلم بن عمر بن عطاف بن نعيم اللخمي(٢).

---

(١) سقط من المخطوط.

(٢) كذا جاء نسبه في المخطوط وفي سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٥٧) على النحو التالي: أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بن قريش اللخمي. ومصادر ترجمته: جذوة المقتبس (٨٠)، الذخيرة (١/ ٢/ ١٣)، الصلة (٢/ ٥٢٣)، بغية الملتمس (١١٧)، الحلة السيراء (٢/ ٣٤)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٢)، البيان المغرب (٣/ ١٩٤)، دول الإسلام (١/ ٢٥٦)، العبر (٣/ ١٧٩)، الوافي بالوفيات (٢/ ٢١٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٦)، نفح الطيب (٤/ ٢٢٦)، شذرات الذهب (٣/ ٢٥٢).

وقال الذهبي في ترجمته: ابن عباد، القاضي الكبير، أمير إشبيلية، ومدبرها، وحاكمها، أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بن قريش اللخمي. من ذرية أمير الحيرة النعمان بن المنذر، أصله من الشام من بلد العريش، فدخل أبوه الأندلس، فنشأ أبو القاسم وبرع في العلم، وتنقلت به الأحوال، وولي قضاء إشبيلية في أيام بني حمود العلوية فساس البلد، وحمد، ورمقته العيون. ثم سار يحيى بن علي بن حمود، وكان ظلوماً، فحاصر إشبيلية، فاجتمع الأعيان على القاضي وأطاعوه ثم قالوا: انهض بنا إلى هذا الظالم ونملّكك، فأجابهم، وتهيأ للحرب. وذكر أن يحيى ركب إليهم سكران فقتل وتمكن القاضي، ودانت له الرعية، ولُقِّب بالظافر. ثم إنه تملك قرطبة وغيرها، وقصته مشهورة مع الشخص الذي زعم أنه المؤيد بالله المرواني. وكان خبر المرواني قد انقطع من عشرين سنة.

وجرت فتن صعبة في هذه السنين، فقيل لابن عباد: إن المؤيد حَيّ بقلعة رباح بمسجد، فطلبه، واحترمه، وبايعه بالخلافة، وصير نفسه كوزير له. قال الأمير عزيز: حُسِدَ ابن عباد، وقالوا: قتل يحيى الإدريسي من أهل البيت، وقتل ابن ذي النون ظلماً. فبقي يفكر فيما يفعله، فجاء رجل فقال: رأيت المؤيد. فقال: انظر ما تقول. قال: إي والله هو هو. وقال تومرت ـ عبد كان يخدم المؤيد ـ: وأنا إذا رأيت سيدي عرفته ولي فيه علامات. فأرسل رجل مع ذلك الرجل إلى قلعة رباح، فوجده، فقدم معهما. فلما رآه تومرت، وثب، وقبّل قدمه، وقال: مولاي والله. فقبّل حينئذ القاضي يده. ثم بويع، وأخرجه يوم الجمعة، ومشوا بين يديه إلى الجامع، ثم خطب المؤيد الناس وصلى بهم. وبقي ابن عباد الحاجب له على قاعدة الحاجب المنصور بن أبي عامر، غير أن المؤيد يخرج إلى الجمعة دائماً، ودانت له أكثر المدن.

قال عزيز: هرب المؤيد من قرطبة عام أربعمائة متنكراً حتى قدم مكة، ومعه كيس جواهر، فشعر به حراميّة مكة، فأخذوه منه، وبقي يومين لم يطعم، ثم عمل في الطين وتقوّت، ثم توصل إلى القدس، فتعلم نسج الحصر ثم رجع إلى الأندلس سنة (٤٢٤). قال عزيز: هذا رواه مشايخ. وقال =

وعطاف هو الداخل مع بلخ بن بشير.

وكان القاسم بن حمود لما ملك إشبيلية قد اختصه، واستظهر به على مهمات ملك الحضرة، واستنام إليه لمحلة من الجلالة والأصالة في النظر ووفور المالية.

فلما جرى على القاسم ما تقدم التعريف به من إيقاع أهل قرطبة بمن معه من برابرته، وإجلائه وإياهم عن الحضرة، وما أتيح لهم من هزيمته، خاطب بين يديه لحاقه بإشبيلية من بها بأن تُخلي له الدور لمن في صحبته من البرابرة.

فوقع الاتفاق من أهل البلد على سد أبواب المدينة في وجهه، وأن يخرج إليه أهله وولده، ففعلوا ووكل القاسم.

فامتنعوا عليه إلى أن قصد شريبة، كما مر قبل.

وتولى ضبط المدينة على كثرة الهرج القاضي أبو القاسم عميد البلدة مشترك النظر مع وجوه البلد وأعلام بيوتاتها إلى أن انفرد بالأمر دونهم.

وحدث له في تدبير الأحوال أمور شهيرة إلى أخلص بسابقته، وأجمع أهل عمله على طاعته، فدانوا له.

وسلك سيرة كأصحاب الممالك بالأندلس لأول وقته يضم الرجال ويشتري العبيد، والجند يساعده، والأمور تنقاد له إلى أن استولى على الأمد وبنى قواعد سلطانه. وكان من تدبير إسماعيل بن عباد لما ضاق ذرعاً بمزاحمة بني حمود الفاطميين من كل جهة، ولهم في الناس النداء المسموع والحق المعلوم، أن دعا إلى تجديد بيعة هشام الخليفة المؤيد المشكوك في موته، المدعي كثير من الناس أنه قرَّ لوجهه، وزعم أنه عثر عليه سائحاً في الأرض. وقد كان صاحب المرية زهير المحافري ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه بهشام، فموه زميناً به سنة ست وعشرين وأربعمائة.

= ابن حزم رحمه الله: فضيحة أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام يسمون أمير المؤمنين في وقت، أحدهم: خلف الحصري بإشبيلية على أنه المؤيد بالله. والثاني: محمد بن القاسم الإدريسي بالجزيرة الخضراء. والثالث: محمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة. الرابع: إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بشنترين. فهذه أُخلوة لم يسمع بمثلها. وخُطب لخلف على المنابر، وسفكت الدماء، وتصادمت الجيوش، فأقام في الأمر خمساً وعشرين سنة، وابن عباد القاضي كالوزير بين يديه.

قال الذهبي: قلت: مات القاضي في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ودفن بقصر إشبيلية. وخلفه ابنه المعتضد بالله عباد، ودامت دولته إلى سنة أربع وستين وأربعمائة، وقيل: بل بقي القاضي محمد إلى سنة تسع وثلاثين، وكان يستعين بالوزير محمد بن الحسن الزبيدي، بعيسى بن حجاج الحضرمي، وبعبد الله بن علي الهوزني. وكان له ابنان: إسماعيل، قتل في مصاف. والمعتضد الذي تملك بعده.

[١٧٢/ب] ثم تلاشى / الأمر في يده فطرده وأحكم ابن عباد أمره، فأعلى منه اليد فشبهه في الحال بها زمناً طويلاً، والدنيا عند الله حقيرة الوزان خاملة الشان.

قال ابن القطان حاكياً عنه، فذكر:

أن هشاماً فرّ من الفتنة، رفض الملك وكتم أمره، واستقر في قرية من قرى إشبيلية يؤذن في مسجدها، ويعمره، ويتقوت من العمل في الحلفاء[١].

فخرج إليه القاضي محمد بن إسماعيل هذا، وولده، وجميع خاصته، وعبيده، ومعه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم، ومراكبهم، ولم يشعر الرجل وهو خارج المسجد من القرية يعمل بيده في حَلْفَاء إلا بالقوم قد غشوه، وأحاطوا به.

وترجل القاضي، وابنه، ومن معهما، وقبلوا الأرض بين يديه، فبُهت الرجل لما عاين وجعل يقول: لست بالذي تعنون، ولا بالذي تطلبون.

وهم لا يردون عليه شيئاً سوى التضرع والرغبة، إلى أن أقاموه من مكانه، وجردوه من خلقانه[٢]، وألبسوه الخلافية، ووضعوا القلانس على رأسه، وأركبوه.

ومشى القاضي وجميع من معه أمامه، وكان الرجل أشبه الناس بهشام، ودخلوا به المدينة.

وصاح منادي: يا أهل إشبيلية اشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليكم، فهذا مولاكم قد صرف الله الخلافة من قرطبة إلى بلدكم.

واستقر بالقصبة، وجحد ابن عباد بابنه إسماعيل شأن المنصور مع هشام بقرطبة، وخاطب الناس بكل جهة في شأنه، فوجه الكثير منهم أرساله وثقاته ليقفوا على حقيقة أمره، فأدخلوا على الرجل وهو في بيت مظلم، وذكر لهم أنه يشكو عينيه وكلموه وكلمهم، غير أنهم لم يثبتوا صفته، فمنهم المُقِر والمُنْكِر، وأبى قبول ذلك ابن جهور، مُقِرّاً ابن عباد بلده إلى أن أظهر الموافقة وخطب له في القواعد التي تغلب عليها العامرية.

وعظم ملك ابن عباد، وضيق على الجهات، وأكثر الغارات إلى أن أصيب ولده إسماعيل بأيدي بني زيري المتغلبين على كورة البيرة في هزيمة اتجهت عليه له وعليه وقعات شهيرة إلى أن توفي القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

---

(١) الحلفاء: نوع من الحشائش تخرج على شواطىء الترع وحواف الطرق، وهي معروفة جداً لأهل الريف في مصر، ومنها نوع يخرج في الصحراء يسمى «حلف بر» وهو مفيد للعلاج، أما المراد هنا هو ما ينبت على شواطىء النزع وحواف الطرق، وهو يستخدم في صناعة الحُصر وعمل الحبال، وبعض الأطباء أو المشنات، وهو نبات شديد الخشونة طول دقيق كأعواد القمح.

(٢) الخلقان: هي الثياب الرثة البالية الحقيرة.

وولي الأمر بعده، ولده أبو عمر عباد بن محمد الملقب بالمعتضد.

أيام المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد

تولى الأمر بعد أبيه منسلخ جمادى الأولى من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة[١].

واستولى على غرب الأندلس كسلب، ولَبْلَة[٢]، وجبل العيون، وما إلى ذلك.

قال أبو مروان: وكان عباد قد أوتي من جمال الصورة وتمام الخلقة، وفخام الهيئة وبساطة البنان، وثقوب الذهن، وحضور الخاطر، وصدق / الحدس، ما فاق به [١/١٧٤] على نظرائه ونظر مع ذلك [قبل ميل الهوى إلى ما به إلى طلب السلطان][٣] في الأدب أدنى نظر بأذكى طبع، فحصل [لثقوب ذهنه][٣] منه على قطعة وافرة علقها من غير تعمد[٤].

---

(١) في متن المخطوط: ثلاثمائة، والتصويب من هامشه، ومن مصادر ترجمة المعتضد بالله: جذوة المقتبس (٢٩٦)، الذخيرة (٢/ ١/ ٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٥٦)، بغية الملتمس (٣٩٥)، المعجب (١٥١)، الحلة السيراء (٢/ ٣٩)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٣)، البيان المغرب (٣/ ٢٠٤)، العبر (٣/ ٢٥٦)، دول الإسلام (١/ ٢٧٤)، فوات الوفيات (٢/ ١٤٧)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٥٦)، النجوم الزاهرة (٥/ ٩٠)، نفح الطيب (٤/ ٢٤٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣١٦)، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (٨٦).

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قصبة كور بالأندلس كبيرة يتصل عملها بعمل اكشونية، وهي شرق من أكشونية وغرب من قرطبة بينهما وبين قرطبة على طريق إشبيلية خمسة أيام أربعة وأربعون فرسخاً، وبين إشبيلية اثنان وأربعون ميلاً وهي برية بحرية غزيرة الفضائل، والثمر، والزرع، والشجر، ولأدمها فضل على غيره، ولها مُدُن. وتعرف لبلة بالحمراء، وقد ذكرت في بابها. ومن لبلة يُجلب الجنطيانا أحد عقاقير العطارين.

(٣) زيادة من شذرات الذهب.

(٤) قال ابن العماد في شذرات الذهب في ترجمته فيمن توفي في سنة (أربع وستين وأربعمائة): وفيها المعتضد بالله أبو عمرو عباد ابن القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي صاحب إشبيلية، ولي بعد أبيه، وكان شهماً مهيباً صارماً ذا هيبة مقداماً، جرى على سنن أبيه، ثم تلقب بأمير المؤمنين، وقتل جماعة صبراً وصادر آخرين، ودانت له الملوك، قاله في العبر. وقال ابن خلكان: قال أبو الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة في حقه: ثم أفضى الأمر بعده محمد القاضي إلى عباد سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وتسمى أولاً بفخر الدولة ثم بالمعتضد قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ولا سلم منه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر، وهو متناقض، وأسد فرس الطلا، وهو رابض، مشهور يتحاماه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع فما أبقى ضبط شأنه بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده وكثر عديده، وعدده. وكان قد أوتي أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة وفخامة الهيئة. .إلى أن قال زائداً عما هنا: من غير عمد لها، ولا إمعان في عمارها، ولا إكثار من مطالعتها، ولا منافسة في اقتناء صحائفها، أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطعاً من الشعر، وهي في =

قالوا: ومن عجائب سعده أنه فتح ما يجاوره من البلاد أعاديه، وأجلى طواعيتهم عن جواره حتى أضاف قرمونة، وعمل الجزيرة وتحصلت في خزائنه جملة من رؤوس البرابرة، والأدارسة، مثل:

رأس محمد بن عبد الله أمير قرمونة شهاب الفتنة.

ورأس خزرون.

ورأس ابن نوح.

ورأس الخليقة يحيى بن علي بن جهور، وغيرهم ممن أرداهم بسيفه وجدها اللمثونيون لما دخلوا إشبيلية على ولده في مستودعات مفاخرة، والرقاع ملصقة بها معربة عن أسمائها.

هذا وهو قاعد فوق أريكته، منفذاً للعظائم من جوف قصره، وكان شديد الجرأة، قوي المنة، عظيم الجلادة، مستهيناً بالدماء، قَتَل ولده إسماعيل صبراً بيد نفسه، وقد اتهمه بالفساد عليه.

واحتال على طائفة من رؤساء أعدائه البرابرة حتى زاروه ببلده فأدخلهم الحمام في سبيل التكرمة، فسد بابه إلى أن هلكوا عن آخرهم.

وما زال الناس ينسبون إلى هذا اللقب مصاحبة الجرأة والفظاظة في كل زمان ومكان.

= معان أمدته فيها الطبيعة. وبلغ فيها الإرادة واكتتبها الأدباء للبراعة. جمع هذه الخلال الظاهرة إلى جود كف باري السحاب بها.

وأخبار المعتضد في جميع أنحائه وضروب أفعاله بديعة، وكان ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه، ففشا نسله لتوسعه في النكاح وقوته عليه، فذكر أنه كان له من الولد نحو العشرين ذكوراً ومن الأناث مثلهم. وأورد له عدة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ... بماء صباح والنسيم رقيق

معتقة كالتبر أما بخارها ... فضخم وأما جسمها فدقيق

ولولده المعتمد فيه جملة أبيات:

سميدع يهب الآلاف مبتدياً ... ويستقل عطاياه ويعتذر

له يَدٌ كل جبار يقبّلها ... لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ولم يزل في عز سلطانه واغتنام مساره حتى أصابته علة الذبحة فلم تطل مدتها. ولما أحسّ بتداني حِمَامَهُ استدعى مغنياً يغنيه ليجعل ما يبدأ به فالاً، فأول ما غنى:

نطوي الليالي علماً أن ستطوينا ... فشعشعيها بماء المزن واسقينا

فتطيّر من ذلك ولم يعش بعده سوى خمسة أيام، وقيل: ما غنى منها سوى خمسة أبيات. وتوفي يوم الاثنين غرة جمادى الآخرة، ودفن ثاني يوم بمدينة إشبيلية، وقام بالمملكة بعده ولده أبو القاسم محمد.

وقال بعضهم فيه:

لم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسِنَّة، وصير أكثر شغله فيها شن الحروب وكبار الملوك وإحراج البلاد، وأحزان البلاد من توفير حظه الأوفى من الأمور الملوكية، والعدد السلطانية، والآلات الرئاسية، فابتنى القصور السياسية واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة، والأعلاق السنية، وارتبط الخيل السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة فانتقاهم من كل فرقة، يتعهد طبقاتهم بإدرار العطية، وضمان الزيادة على صدق الصيال الوجلة بالعهود على النكول سياسة أعيت على أنداده من ملوك الأندلس.

وكان يتشبه في حزمه وضبطه لأموره بأبي جعفر المنصور[(١)].

وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس حتى عجز المظفر عن حربه، وجاء الله بالهدنة بينهما في ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة بسعي الشيخ ابن جهور أمير قرطبة.

وبعد ذلك فرغ ابن عباد إلى حرب الأمراء الباقين بالغرب فاتح له من الظفر بهم، والاستيلاء على بلادهم ما هو معلوم. ثم مد يده إلى الجزيرة الخضراء، فنازل فيها محمد بن القاسم كما ذكرنا، وتملكها من يده، ثم صعده إلى قرطبة ووجه إليها عزمه، فأتاه الحِمَام من دون ذلك.

وكان ملكها مدحوراً لولده المعتمد. وولي بعده الأمر ولده محمد المكنى بأبي القاسم، الملقب أول الأمر بالظافر، ثم بعده بالمعتمد على الله.

وكان المعتضد مع جوده وبسالته وعلو همته /يقرض الشعر، وترد عنه [١٧٤/ب] المقطعات الرائقة والمعاني الفائقة، فمن شعره المنسوب إليه قوله:

كأنما يا سمية الغصن ... كواكب في السماء تبيض

والطرق الحُمر في جوانبه ... كخد عذراء سنها غضى

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء وكانوا يشبهونه بالمنصور، لكن مملكة هذا سعة ستة أيام، ومملكة أبي جعفر مسيرة ثمانية أشهر في عرض أشهر، وقد همَّ ابنه بقتله، فما تم له، وسجنه أبوه ثم قتله، ثم عهد بالملك إلى ابنه المعتمد محمد، وكان جبار عسوفاً. مات سنة أربع وستين وأربعمائة، وقام بعده ابنه. وقيل: لما رأى ميل الكبار إلى خليفة مرواني أخبرهم بأن المؤيد بالله الذي زال ملكه سنة أربعمائة عنده، وأحضر جماعة شهدوا له، وقال: أنا حاجبه. وأمر بذكره على المنابر، واستمر ذلك مدة إلى أن نعاه الناس في سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وزعم أنه عهد إليه بالخلافة، وهذا محال لا يروج أصلاً، ولو كان المؤيد حياً إلى حين نعاه، لكان ابن مائة عام وزيادة. وقيل: إن طاغية الفرنج سَمَّ المعتضد في ثياب أهداها له.

وقوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق

معتقة حمراء أما بخارها فضخم، وأما جسمها فرقيق

دولة المعتمد على الله محمد بن عباد(١)

كنيته: أبو القاسم.

وهو الجواد الشجاع، البليغ، ذو الأخبار الشهيرة الذكر، والأنباء المأثورة في الدهر.

قال ابن الصيرفي:

المعتمد على الله محمد بن عباد نسيج وحده في الجود، وأصلب نظرائه مكثر، فذاً في البلاغة، طرفاً في الشعر والكتابة، بارع النظم والنثر، كثير الأدب، جزل الألفاظ، كثير المعاني، حر المآخذ، لدن معاطيه الكلام، رقيق الحاشية، كثيف المنن، كثير البديع، رائق الديباجة، لائق الاستعارة حسن الإشارة، جم التوليد، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرتهم. اجتلب إليه من أعلاق الثناء، ونثر عليه من دُرر الحمد، ووضع إليه من ثمر القريض.

قالوا: وكان شجاعاً، مقداماً، حسن السيرة، رفيقاً بالرعية، وسمت به سمته إلى تملك قرطبة، فدخلت في أمره حسبما وقع الإلماع به عند ذكر بني جهور، ووصل إليها فآنس أهلها، وبث المعروف فيها، وأحسن السيرة في أهلها، فسروا بإنالته، وولى عليها ابنه الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد بن عباد ليستخلفه فيها.

فوصله يوم الثلاثاء السادس من شوال تلك السنة، ودخلها دخولاً فخماً تضاعف له مروراً فيه.

وانصرف المعتمد عن إشبيلية وخلف ابنه والياً عليها، وترك معه القائد ابن مرتين بجماعة من الفرسان، قد أخل ابن ذي النون صاحب طليطلة في أمرها رَجُلاً من قواد الحصون المجاورة لقرطبة بهيمة من البُهم أحمد خاص الأسد يعرف بحكم بن عكاشة ضمن له غدر ابن عباد.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨)، مطمح الأنفس (١٠/ ٢٢)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٢/ ٤١)، خريدة القصر (٢/ ٢٥)، المعجب (١٥٨)، الحلة السيراء (٢/ ٥٢)، وفيات الأعيان (٥/ ٢١)، تتمة المختصر (٢/ ١٦)، الوافي بالوفيات (٣/ ١٨٣)، عيون التواريخ (١٣/ ١٩)، تاريخ ابن خلدون (٥/ ١٥٨)، النجوم الزاهرة (٥/ ١٥٧)، القلائد (٤٠)، نفح الطيب (٤/ ٢١٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣٨٦)، تراجم إسلامية (٢١٢).

ونمى ذلك إلى القائد ابن مرتين، فأكذب الخبر، وتهاون به إلى أن أتم ابن عكاشة ما أراده، ففتح له بعض أبوابها قوم من شيعته، ودخل المدينة ليلاً بحيث لا يشعر به، في شرذمة من خيله ورجله، فقصد دار ابن جهور حيث سكنى الأمير ابن عباد. وبرز ابن عباد عند سماع الهيعة يجالدهم بسيفه / حتى قُتِل. [١/١٧٥]

ثم نهضوا بعد قتله إلى دار ابن مرتين، وهو عاكف على شرابه ولهوه، ففرّ واختفى ببعض دور صنائعه، وعثر عليه بعد ثالثة، فاستحضر ابن عكاشة من كان بين يديه ليلتذ من القينات والملهين فجعل يسأله عن أسمائهن شماتاً له، ثم أكبله وبعثه إلى حصنه.

فلما وصل إلى ذي النون ودخل الحضرة أمر بقتله. ولم تصبح ليلة هجوم ابن عكاشة على المدينة إلا وقد انضم إليه أعداد من الأشرار، واستولى على البلد، وأقام فيها الدعوة الذنونية.

وخاطب ابن ذي النون، فتلاحق بقرطبة، فدخلها في أبهة عظيمة، وأخذ بيعة أهلها. وكان وصوله إليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم ينشب ابن ذي النون أن اعتل بقرطبة وتوفي فيها لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة من سنة سبع وستين.

وخاطب أهل قرطبة المعتمد، فأقبل إليهم، وقاموا بدعوته، وفرّ ابن عكاشة على وجهه يوهم المدافعة، فقتله بالقنطرة يهودي من رجال قرطبة.

واستولى ابن عباد على المدينة لثلاث ليال بقين من ذي القعدة من السنة المذكورة. من بعد ذلك اتصلت بها طاعة ابن عباد ما ينيف على ست عشرة سنة، وأسكن بها ولده، وعاد إلى إشبيلية.

واتصلت أيام المعتمد على الله أحسن أيام، ولذلك ما لهجت القصاص بأخباره وأحاديث حظيته المسماة اعتماد الجمع أسماء حروف لقبه، وهي أم الملوك الأربعة من ولده والمنسوبة «رُمَيكة»، إلى مولاها الذي اشتراها منه واسمه «رميك ابن فلان» إلى أن ضيم من صاحب قشتالة[1] اذفونش بن فردلاند في شأن الضريبة التي كان يؤدي إليه ملوك الأندلس، وشاحه اليهودي المتولي لقبضها منه بحيث أسمعه ما يكرهه.

فغضب رحمه الله، وأمر بقتله، وأسر من وصل صحبته من النصارى، فعظم ذلك على الطاغية، وأقسم أن لا يدفع عقالاً عن ابن عباد.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: إقليم عظيم بالأندلس قصبته اليوم طليطلة وجميعه اليوم بيد الإفرنج.

فاضطره ذلك إلى الجواز إلى المغرب واللحاق بالأمير يوسف بن تاشفين والاستظهار به على جهاد الطاغية، فأجابه لذلك، وخرج له عن الجزيرة الخضراء[1].

وكان ما يقع التعريف ببعضه من الوقيعة بالعدو على يدي يوسف بن تاشفين، وحسن بلاد المعتمد في ذلك إن شاء الله، وخبره مع ابن عمار.

وكان محمد بن عمار لدى المعتمد بن عباد بالمحل المعروف تربية وخدمة وطول صحبة، وكان نادر وقته براعة وأدباً وحسن مجالسة وشهامة نفس، فأخذ بمجامع قلب المعتمد وحل منه المحل المحمود على من سواه[2].

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: قال ابن خلكان الأذفونش قد قوي أمره وكانت الملوك بالأندلس يصالحونه ويحملون إليه ضرائب، وأخذ طليطلة في سنة ثمان وسبعين بعد حصار شديد من القادر بن ذي النون، فكان ذلك أول وهن دخل من الفرنج على المسلمين، وكان المعتمد يؤدي إليه، فلما تمكن لم يقبل الضريبة وتهدده، وطلب منه أن يسلم حصوناً، فضرب الرسول وقتل من معه، فتحرك اللعين. واجتمع العلماء، واتفقوا على أن يكاتبوا الأمير أبا يعقوب بن تاشفين صاحب مراكش لينجدهم، فعبر ابن تاشفين بجيوشه إلى الجزيرة، ثم اجتمع بالمعتمد، وأقبلت المطوعة من النواحي. وركب الأذفونش في أربعين فارس، وكتب إلى ابن تاشفين يتهدده. فكتب في ظهر كتابه: الذي يكون ستراه. ثم التقى الجمعان، واصطدم الجبلان بالزلاقة من أرض بطليوس. فانهزم الكلب، واستؤصل جمعه، وقلّ من نجا في رمضان سنة تسع وسبعين وجرح المعتمد في بدنه ووجهه، وشهد له بالشجاعة والإقدام، وغنم المسلمون ما لا يوصف وغدا ابن تاشفين. ثم عبر في العام الآتي، وتلقى المعتمد وحاصروا حصناً للفرنج، وترجل ابن تاشفين فمرّ بغرناطة، فأخرج إليه صاحبها ابن بلكين تقادم وهدايا، وتلقاه. فغدر به، واستولى على قصره، ورجع إلى مراكش، وقد بهره حُسن الأندلس، وبساتينها، وحسّن له أمراؤه أخذها ووحشوا قلبه على المعتمد.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٨٢) في ترجمة محمد بن عمار: المَهْري شاعر الأندلس، ذو الوزارتين، أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي، كان هو وابن زيدون كفرسي رهان. بلغ المَهْري أسنى المراتب حتى استوزره المعتمد بن عباد، ثم استنابه على مرسية، فعصى بها، وتملّكها، فلم يزل المعتمد يتلطف في الحيلة إلى أن وقع في يده، فذبحه صبراً للعصيان بعد فرط الإحسان، ولأنه هجا المعتمد وآباءه، فهو القائل:

مما يُقَبِّح عندي ذكر أندلسٍ ... سماع مُعْتَمِدٍ فيها ومُعْتَضِدِ
أسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وقد جال ابن عمار في الأندلس أولاً، ومدح الملوك والكبار والسوقة بحيث إنه مدح فلاحاً أعطاه مخلاة شعير لحماره، ثم آل بابن عمار الحال إلى الإمرة فملأ للفلاح مخلاته دراهم، وقال: لو ملأها بُرّاً لملأناها تبراً. وقد سجنه المعتمد مدة، وتوسل إليه بقصائد تلين الصخر فقتله في سنة (٤٧٩هـ). ومن مصادر ترجمته: قلائد العقبان (٨٥)، الذخيرة (٢/ ١/ ٣٦٨)، الخريدة (١١/ ١٦٤)، بغية الملتمس (١١٣)، المطرب (١٦٩)، المعجب (٧٧)، الحلة السيراء (٢/ ١٣١)، المغرب (١/ ٣٨٩)، وفيات الأعيان (٤/ ٤٢٥)، العبر (٣/ ٣٨٨)، الوافي بالوفيات (٤/ ٢٢٩)، نفح الطيب (١/ ٦٥٢)، شذرات الذهب (٣/ ٣٥٦).

وكان خيران العامري لما خرج / في مرسية تغلب عليها أبو عبد الرحمٰن بن طاهر [١٧٥/ب] من أعيانها وجلتها، ومحله في الأدب والفضل والمروءة معروف، قد قرر ذلك الفتح في كتاب القلائد وغيره إلى أن خالف عليه أهلها، وكاتبوا المعتمد يستدعونه إليها.

فوجه ابن عمار وزيره إليهم، وقائد جيشه عبد الرحمٰن بن رشيق، فدخل مرسية وتحصل ابن طاهر في اعتقاله وضبطها، واستقر فيها قراره إلى أن سولت له نفسه الانفراد بها، وكشف وجهه في الخلاف للمعتمد، وقيض لابن عمار من ابن رشيق جزاء عامل بسوء عمله، فاهتبل غرته وقد خرج لتفقد بعض شؤون حصونها، فوثب على مرسية، واستولى عليها وبلغ ابن عمار الخبر، ففر عنها ولحق بالمؤتمن بن هود بسرقسطة.

واستولى ابن رشيق على مرسية، فامتنع أيضاً بها، وجرى بينه وبين المعتمد في ذلك حديث طويل إلى أن خرج ابن رشيق عن مرسية ليوسف بن تاشفين أمير لشبونة عند جوازه إلى الأندلس.

واستَعْدَى المعتمد عليه، فلم يبلغ المعتمد بعد ذلك فيه كلام.

وبقي ابن عمار عند المؤتمن بن هود على شأنه عند المعتمد من سلطانه إلى أن أغراه بحصن شقورة[١]، ووعده من نفسه بفتحه، وتوجه إليه، فلما نزل بساحته كاده صاحب الحصن، وسهل عليه الأمر، وجعل البلد في يده باللسان، وطلب منه الصعود بنفسه لمباشرة قبضه.

فأسرع لذلك في طائفة يسيرة من مماليكه ورجاله، وقد أعمى عينه الحرص والغرور وتهوره المشهور.

فلما تحصل في قبضة صاحب الحصن وثب به وأكبله وأودعه المطبق، واتصل ذلك بابن عباد، فراسل صاحب الحصن في التمكين منه وراغبه فيما لديه حتى استنفره وأمكنه من رقبته، فأُدخل إشبيلية مدخل الشهرة فوق ظهر بعير بين عيدان، وحشد الناس إلى رؤيته.

وقد خرج لمسير كبير، وأُعيد اليوم ذليلاً أسيراً، وتلك عادة الأيام في تعاقب الصروف وجحد المعروف.

واعتقله المعتمد ببعض حُجر القصر، وكان يستحضره فيبالغ في عتبه.

ويتلقاه ابن عمار من الاستعطاف والاسترحام بما كاد يحل عقدة مودته، ويطمع

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: شَقُورَةُ: مدينة بالأندلس شمالي مُرسية وبها كانت دار إمارة همشك أحد ملوك تلك النواحي.

في الإبقاء عليه، لولا أن أعداءه شمروا للإغراء به، ونسبوا إليه أقوالاً في إساءة ذكره والنيل من أم ولده، فأمضى قتله بيده.

وصدرت من ابن عمار من الأشعار في غرض استقالته واستعطافه كلمات شهيرة تعالج بمراهمها جرائح القلوب، وتعين على مضبات الذنوب لولا ما فرغ منه القدر والمكتوب والأجل المحسوب، فمن ذلك قوله:

سجايك إن عافيت أدنى وأسمع ... وعُذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

[١/١٧٦] / وإن كان بين الخطتين قريبة ... فأنت إلى الأندلس من اللّه أجنح

وماذا عسى الأعداء أن يتزودوا ... بهوى إن ديني ثابت ومصحح

وأن رجائي أن عندك عزماً ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح اللّه باب مُفَتح

ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ... فكل إناء بالذي فيه بيرشح

وقالوا سيجزيه فلان بذنبه ... فقلت وقد يعفوا فُلان ويصفح

إلا أن بطشاً للمؤيد يرتقي ... ولكن حلماً للمؤيد يرجح

وبين ضلوعي من هواه تميمة ... ستشفع لو أن الحمام يجنح

سلام عليه يكف دار به الهوى ... إليّ فيدنو أو عليّ فيسرح

ويمنيه إن مت السلوى فإنني ... أموت وبي شوق إليه مُبرحُ

قلت: ولولا أن يطول الكتاب لاستوفيت من ذلك ما يعجب استيفاؤه.

وسبحان الذي جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد إلى أزِمّة حُب التشفي وطلب الإنصاف، فلا تتوقف في مطاوعة، وذلك أنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مُرغمة، ففراق الشهوات إلاّ القليل النادر ممن كانت نفسه متصفة بالرحمة في أصل جبلتها فهي ساكنة الفورة كالمأمون العباسي في العفو عن عمه الذي نادمه على كأس السلافة من بعد أن انتهر ثوب الخلافة فتركها مثلاً بعده، ولا يخلف الله وعده لمن اتصل بالحلم.

ومما يؤثر عن المأمون قوله:

لو علم الناس محبتنا في العفو لتقربوا إلينا بالجرائم.

وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقي على جانٍ من عبيده قد مكّنه الله من عنقه لا يؤمل الحصول على أمره، ولا يزيده العفو عنه إلاّ ترفعاً وعزاً وجلالة وهمة وذكراً جميلاً وأجراً جزيلاً، فلا شيء أهيىء للسيئة من الحسنة، ولا أمثل للشر من الخير، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

وطعنتهم بالمكرمات وباللهى   من حيث لو طعن القنا لتكسرا

وذكروا أن:

المعتمد قدم على قتله ولا معين.

ومن الحكم قوله:

أنت على ما لم تفعله أقدر منك على رد ما فعلته.

جعلنا الله ممن يملك عنان نفسه ويقدم لغده في أمسه.

وكان زمن المعتمد /بالأندلس مشهوراً بالراحات والأدب، وأيامه موصوفة [١٢٦/ب] باخضرار الجناب. ولما استوثق ليوسف بن تاشفين بسعيه أمر الجهاد وراقه حُسن ما بالأندلس من البلاد، وأغرى بملوك الطوائف، وقررت لديه مساويهم أزمع على خلعهم. فبدأ بصاحب غرناطة حفيد باديس. ثم ثنى بالمعتمد على الله، فنازله قواده بإشبيلية.

ونازلت ولده بقرطبة، وولده الراضي بِرُنْدة[١]. ولما ضاق به الأمر حده، راسله سلطان النصارى يستصرخ به ويطمعه.

فبعث إليه جيشاً أوقع بالمرابطين المحاصرين لأهل جَيّان[٢] وقيعة استأصلتهم، ولأجلها ذهبوا إلى الأخطار بدمه عند خلعه لو اتفقت الفتيا بذلك.

ثم وصل النصارى إلى بلد من أحواز إشبيلية فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون.

وعند ذلك يئس ابن عباد وأيقن بالغلبة، وترامى الناس من فوق أسوار إشبيلية، واستدعى أهلها أمراء المرابطين وركب المعتمد. وقد اقتُحم البلد يوم الثلاثاء منتصف رجب من سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وعليه قميص يشف عن بدنه، وقد

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: رُنْدَةُ: معقل حصين بالأندلس من أعمال تاكُرُنّا، وهي مدينة قديمة على نهر جار، وبها زرع واسع وضرع سابغ. قال السلفي: أبو الحسن سقي بن خلف بن سليمان الأسدي الرُندي كان يتردد إليّ بعد رجوعه من الحجاز سنة (٥٣٠) وقال: إن رندة حصن بين إشبيلية ومالقة، وكان ظاهر الخير سمع بالأندلس، ورجع إلى بلده. وأبو علي عمر بن محمد الرندي الأديب، حدث عن محمد بن إبراهيم الفخاري وأبي زيد السُهيلي، وكان شيخاً فاضلاً من مالقة.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: جَيّانُ: مدينة لها كورة واسعة بالأندلس تتصل بكورة البيرة مائلة عن البيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة، بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً، وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبُلداناً تذكر مرتبة في مواضعها من هذا الكتاب وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة، وينسب إليها جماعة وافرة.

اعتزل والسيف منتظم بيده، وحمل على الداخلين، فردهم على أعقابهم، وقتل منهم فارساً، وانزعج الناس أمامه، وخلفوا الباب، فأمر بسده، وعاد إلى القصر، وإلى تلك الحال يشير بقوله:

كم رمت يوم نزالهم   أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص   عن الحشى شيء دفوع
أجلي تأخر لم يكن   بهواي ذُلّي والخُشوع
ما سرت قط إلى القتال   وكان في أملي رجوع

وفي يوم الأحد لعشر بقين من رجب فتحت المدينة، فوقع النهب وفرّ أهلها إلى المحلة. وخرج ابن عباد، وابنه مالك، فقتل مالك بين يديه، وكوثر المعتمد، فأغمد سيفه، وانصرف إلى القصر ملقياً بيده ورفع البريد بكف الأيدي، ثم أخرج المعتمد فغرب مكبولاً مُدال العز، مسلوب الملك بعد أن جرت عليه أهوال، وتلفت بنته يوم الخروج. ثم جارت عليه بعد ذلك واستقر بإغمات[1] واقتات من غزل بناته، وجرت عليه خطوب يهون سماعها مصائب الزمان وحوادث الحدثان.

وبأغمات ماتت حظيته قبله، وله في التفجع عليها ورثاء نفسه، وإنذاره بسرعة لحاقه بها، وذكر معهده وأيامه وتقلب /الأحوال به أقوال مُفتة للقلوب، معجزة للغروب، مسلية عن متاع الدنيا المسلوب. [١/١٧٧]

وكانت وفاته بأغمات في ذي الحجة من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة[2].

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخيرات ومن ورائها البحر المحيط السوس الأقصى بأربعة مراحل، ومن سجلماسة ثماني مراحل نحو المغرب. وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا أكثر خصباً منها، تجمع بين فواكه الصرود، والجروم. وأهلها فرقتان يقال لإحداهما: الموسوية من أصحاب ابن ورصند، والغالب عليهم جفاء الطبع، وعدم الرقة. والفرقة الأخرى: مالكية حشوية. وبينهما القتال الدائم، وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى. كذا ذكر ابن حوقل التاجر الموصلي في كتابه، وكان شاهدها قديماً بعد الثلاثمائة من الهجرة، ولا أدري الآن كيف هي؟ فقد تداولتهم عدة دول منها: دولة الملثمين، وكان فيهم جدّ وصلابة في الدين. ثم عبد المؤمن وبنوه، ولهم ناموس يلتزمونه، وسياسة يقيمونها لا يثبت معها مثل هذه الأخلاط، والله أعلم. وبين مدينة أغلاط ومراكش ثلاثة فراسخ هي في سفح الجبل هناك، وهي للمصامدة يدبغ به جلود تفوق جودة على جميع جلود الدنيا وتُحمل منها إلى سائر بلاد المغرب، وينافسون فيها.

(٢) وقال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٤٠٧هـ) في تفرق ممالك الأندلس في ذكره للمعتمد على الله اختصاراً: وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد ابن القاضي أبي القاسم، ولقب المعتمد على الله، فاتسع ملكه، وشمخ سلطانه، وملك كثيراً من الأندلس وملك قرطبة أيضاً =

ولما أحسّ بالمنية ترهقه، وجاء لها تعلقه، أمر أن يكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرأي إذا قتلوك ... بالخِصب إن أجدبوا بالرِّي للصادِ
نعم هو الحق وافاني على قدر ... من السماء ووافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعي أعلمه ... إن الجبال تهادي جوف أهواد
فلا تزال صلوات اللّه دائمة ... على دفينك لا تحصى بتعداد

قلت: ووقفت على قبر المعتمد على الله بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة. وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض قد حفت به سِدوة وإلى جنبه قبر اعتماد[1] حظيته مولاة رُمَيْك وعليها وحَشة التغرب، ومعاناة الخمول من بعد الملك فلا تملك العين دمعتها عند رؤيتها، فأنشدته في الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أولى المهمات
لِمَ لا أزورك يا أندى الملوك يداً ... ويا ضياء الليالي المُدْلهمات
وأنت لم يخطىء الدهر مصرعه ... إلى حياتي أجادت فيه أبيات

= وولي عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة فحسده عليها فضمن له جرير بن عكاشة أن يجعل ملكها له. وسار إلى قرطبة وأقام بها يسعى في ذلك، وهو ينتهز فرصة، فاتفق أن في بعض الليالي جاء مطر عظيم، ومعه ريح شديد ورعد وبرق، فثار جرير فيمن معه ووصل إلى قصر الإمارة، فلم يجد من يمانعه. فدخل صاحب الباب إلى الظافر، وأعلمه فخرج بمن معه من العبيد والحرس، وكان صغير السن، وحمل عليهم ودافعهم عن الباب، ثم إنه عثر في بعض كراته فسقط فوثب بعض من يقاتله وقتله. ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد، وأهل البلد، إلاّ والقصر قد مُلك. وتلاحق بجرير أصحابه، وشيعته، وترك الظافر ملقى على الأرض عرياناً، فمرّ عليه بعض أهل قرطبة، فأبصره على تلك الحال، فنزع رداءه وألقاه عليه. وكان أبوه إذ ذكره يتمثل:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... على أنه قد سَلَّ عن ماجدٍ محض

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها وترك ولده المأمون فيها. فأقام بها حتى أخذها جيش أمير المسلمين يوسف بن ناشفين، وقتل فيها بعد حروب كثيرة... سنة أربع وثمانين. وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد في السنة المذكورة، وبقي محبوساً في أغمات إلى أن مات بها رحمه الله. وكان هو وأولاده جميعهم: الرشيد، والمأمون، والراضي، والمعتمد، وأبوه، وجدّه، علماء فضلاء شعراء.

(١) قال الأستاذ عمر رضا كحالة في أعلام النساء (١/ ٧١): اعتماد الرُّمَيْكِيَّة: أديبة من أديبات الأندلس كان المعتمد على الله ابن عباد كثيراً ما يأنس بها ويستظرف من نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، وإنما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث حلوة النادرة كثيرة الفكاهة، لها في كل ذلك نوادر محكية، وتوفيت سنة (٤٨٨).

أناف قبرك في هضب يمنوه فتنتحيه حفيات التحياتِ
كرمت حيّاً وميّتاً واشتهرت عليّ فأنت سلطان أحياء وأمواتِ
ما رئي مثلك في ماضي ومعتقدي أن لا يرى الدهر في حال ولا آتِ

وقال ابن الصيرفي:

لما انفصل الناس من مصلى العيد الذي توفي المعتمد في شهره، حفّ بقبره ملأ من الناس يتوجعون له ويترحمون عليه، وأقبل شاعره ابن عبد الصمد في جملتهم، وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه، فوقف على قبره وأنشد:

ملك الملوك أسامع فأناد أم قد عدتك عن السماع عَوَادِ
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
[١٧٧/ب] / قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الإنشاد

ثم خرّ يبكي، ويعفر في تراب قبره.

قال: فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم وارتفع نشيجهم وعويلهم[1]، فللّه در ابن عبد الصمد، وملأ ذلك البلد.

قلت: وتمام رثائه:

---

(١) ومما ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء من سيرته في آخر أيامه من خروجه وسجنه وتدهور حاله ودوران الدوائر عليه وشعره في ذلك أن قال: قال عبد الواحد: برز المعتمد من قصره في غلالة بلا درع، ولا دَرَقة، وبيده سيفه، فرماه فارس بحربة أصاب الغلالة، وضرب الفاس فثلّه، فولت المرابطون. ثم وقت العصر، كرت البربر، وظهروا على البلد من واديه، ورموا فيه النار، فانقطع العمل واتسع الخرق على الراتق، بقدوم سِيَر ابن أخي السلطان، ولم يترك البربر لأهل البلد شيئاً، ونهبت قصور المعتمد، وأكره على أن كتب إلى ولديه أن يُسلما الحصنين، وإلا قُتِلْتُ، فدمى رهن على ذلك، وهما: المُعْتَدُ، والراضي، وكانا في رُنْدَة، ومارْتلة، فنزلا بأمان ومواثيق كاذبة، فقتلوا المعتد، وقتلوا الراضي غِيلة. ومضوا بالمعتمد وآله إلى طنجة بعد أن أفقروهم، ثم سجن بأغمات عامين وزيادة في قلة وذلة، فقال:

تبدلت من ظل عز البنود بِذُلّ الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذلك وذا أدْهَماً يعض بساقيّ عض الأسود

وقيل: إن بنات المعتمد أتينه في عيد، وكنّ يغزلن بالأجرة في أغمات، فرآهن في أطمارٍ رَثّةٍ، فصدعن قلبه، فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

قد كنت أرجو أن تبرد دمعي ... قبران حزن أضرت بعوادي

فإذا بدمعي كلما أجريته ... زادت عليّ حرارة الأكباد

يا أيها القمر المنير اذكر ... أيخبوا ضياء النير الوقاد

أفقدت عيني مذ فقدت إنارة ... بمجالها في ظلمة وسواد

ما كان ظني بعد موتك أن أرى ... قبراً يضم شوامخ الأطواد

الهضبة الشماء بين ضريحه ... والبحر ذو التيار والأزباد

عهدي بملكك وهو طلق ضاحك ... متهلل النفحات للقُصاد

والمال ذو ثمن براد والندا ... غُر وشمل المجد غير بداد

أيام تخفق حولك الرايات فوق ... كتائب الرؤساء والأجناد

والأمر أمرك والزمان ميسر ... وممالك قد أذعنت وبلاد

والخيل تمرح والفوارس تنتجي ... بين الصوارم والقنا لمُنَاد

إذ تحسب الهيجاء روضاً يانعاً ... وترى الأزاهر من ضيا وصعاد

وتخال عنبرها دخان المندقد ... فعم الأنوف وغام فوق الناد

وكأن بيض المرهفات على الطلا ... ورق الحمام على الغصون شواد

ولكم هزت الغصن من طرب لها ... وجررت أذيالاً من الإزراء

وسقيت رمحك ثمّ من ماء الطلا ... وروي حسامك من بنات الهاد

وكأنما الدرع منك ربيعة ... ابن مُكرّم والحارث ابن عباد

حتى إذا ما الدهر أظهر حقده ... والدهر للأحرار ذو أحقاد

ألقت بأيديها معاقلك التي ... ملأت من العقار والآساد

وتهدمت أركان لكل سياسة ... وانهد حول الملك كل عماد

/ قالوا أضاع الحزم وهي بواطل ... نور الحقائق للنواظر باد [١٧٨/أ]

وإذا انقضت أيام ملك فالعنا ... في غاية الإكثار والأعداد

حازت بنو العباس ملك أمية ... .[1] والأعواد والأقداد

ورأ معاوية علياً هالكاً ... وعلى الليث الزبر العادِ

والدهر أذهب تبعاً وجنوده ... وأزال ملك الأرض عن شداد

ومنها:

---

(١) موضع النقط طمس بالمخطوط.

إني لأعجب بعد جندك كيف لا تستنكر الأسياف في الأغماد
أو يخطب الخطب بعدك ثغره أو يركع الهندي فوق الهاد
أو تلتقي الشجعان تحت عجاجة أو تقتضي الميدان سبق جواد
قد كانت الأقداح يجعل درها في كف أي مميز نقاد
من يفتح الأمصار بعد محمد من يعقد الرايات للقواد
من يطعن النجلاء في المزاق أو من يضرب الأخدود في المُراد
من يترك الأوراق في الأسطار مثل المحلي في اللبات والأجياد
من يفهم المعنى الخفي ومن له صدق الحديث وصحة الإيراد
من يلبس الخضراء وهي حصينة وكأنما هي من عيون جراد
ويقلد الصمصام وهو منمق بفريد أو حلي نجاد
من ذا يمد على العفاة ظلاله ويبلغ الآمال كل مراد
من يبذل الآلاف للزوار والمُداح والقصاد والشُّرواد
هيهات مات الجود بعد محمد وأصاب الفهم كل كساد
ودجا الزمان وأقحطت أيامه بالجدب موجود بكل مراد
مسح الزمان بأهله فتعرضوا من ذلك الإصلاح بالإفساد
يا ساكن القبر الذي بفراقه قتل الرجاء وبث في الأعضاد
كُنا نؤمل أن نرى لك عودة تعطى بها الأيام كل قياد
وتبيت خيلك في مرابضها على وعد من الإتمام والأنجاد
[١٧٨/ب] / وتمد السلطان في الأقطار للأصهار والحفداء والأولاد
فإذا المنايا قاطعات بالمُنى والدهر لا يردي سوى الأجواد
قد كان ذا الرمح عطف قده وأبا الحسام العضب مل غماد
. . . . . . [(١)] الجياد إلى الوغا وتضاحك الأنجاد للأنجاد
إذ حان حين العز أدركك الردى فكأن موتك كان بالمرصاد
لو كنت إذ ساروا بنعشك حاضراً لرأيت ثملاناً على الأعواد
إني لأعجب من ضجيعك . . . [(١)] قد كان قربك أقسما في الناد

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة بالمخطوط.

جاورتها في قبرها فكأنما قد كنتما في ذا على ميعاد

راحت وأمّلك الندى من بعدها فمشى إليها فوق نعشك غادِ

جمعتكما أغمات في الترب الذي وُسِّدْتُما منه بأي وساد

أما الملوك أما علمت فزائر لك ذو وفاء مخلص ووداد

أبْكَى العلى والمجد فَقْدُكُما الذي لبست له الدنيا ثياب حداد

لهفي على تلك السجايا إنها زهر الرُّبا موشية الأبراد

لهفي على تلك العطايا واللها كم أخجلت من واكفات غواد

لم نعمة خضراء قد ألبستني ومواهب والبيتها وأياد

ناديت كفك طامياً مستمطراً فقضى على يداك باستعباد

قد كنت لا أرضى البحار مناهل زهواً ولا أرضى السماك مهاد

في دولة غراء عبادية فلت من الأملاك كل عناد

ورئاسة يحمي البلاد رئيسها يوماه يوم ندى ويوم جلاد

والبدر ترسي والثريا معقلي والصبح سيفي والرياح جياد(١)

أغرقتني في بحرك الطامي الذي منع الظماء ورود كل ثماد

وسللت في نصري سيوف مكارم تركت سيوف الهند غير حداد

عادت بحاراً إذ سقيت ضحاضحي وغدت هضاباً إذ رفعت وهاد

/ ومددت كفي للكواكب قاعداً فبلغتها لما غدوت مصاد [١/١٧٩]

نفقتني والدهر يخسر قيمتي وأنفت من رخص به وكساد

وأقمتني لما رأيت حوادث الأيام قد أشرفن في إقعاد

فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرا في دمعه منهلة وسُهاد

وكأن قلبي في مخالب طائر وكأن جسمي فوق شوك قتاد

إن لم تطب فيك المراثي والثنا مني فلست بطيب الميلاد

لو فزت من ذاك الجمال بنظرة لجعلتها حتى القيامة زاد

إن السيادة التي قد حزتها تركتك منفرداً بلا أنداد

ولئن مضيت فإن ذكرك خالد يبقى مع الأيام والآباد

يا صاحب القفر الذي قد أصبحت زهر الرياض بضفتي بغداد

---

(١) هذا البيت غاية في الجمال من الناحية التصويرية، وحسن التشبيه.

راقت وجوه الكتب بالنكت التي ... منعت زنادك ثم من أصلاد
لما فقدت المثل آثرت الردى ... ومن الصحيح تنافر الأضداد
شُقوا الثياب وجددوا أحزانكم ... وصلوا التلهف يا بني عباد
كم رد ريح الخطب عنكم ظله ... وحماكُمُ من مثل عاصف عاد
لولا أمير المسلمين وفضله ... لم تكتحل أجفانكم برقاد
واللّه يبقيه لكم ليصونكم ... من كل حادثة تُخاف قعاد
أبقى عليه ستره وأقالكم ... قد يسعى الأمجاد للأمجاد
كان ابن عباد صباحاً مُسْفراً ... لغياهب إن أظلمت ووداد
كم بات منه البحر تحت سكينة ... والطود ذو الهضبات فوق وساد
ما كان إلاّ الروض موشى الحلى ... سقيت أزاهره بصوب عهاد
يهتز عند الحمد معطفه الذي ... يهتز عطف الأملد المياد
يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً ... صعب اللقاء على ذوي الألحاد
قد كان من أعلى الملوك رئاسة ... وفؤاده من أروع الزهاد
[١٧٩/ب] / يا موت لم تشفق لغربته ولم ... تر ما تخلفه من الأولاد
ما أورث الأبناء إلا مجده ... إن العُلى ميراث كل جواد
كنا نفدي موته بنفوسنا ... لو كان يقبل فيه منا الفادِ
. . . .[1] غير محمد ... قبل اختلالك كان في استعداد
كم رام في رجب لقائك جاهراً ... والحظ ليس ينال دون جهاد
أهوى الشهور سواه فهو أذلني ... وأحب أيامي سوى الآحَادِ
صبراً جميلاً يا بَنِيةِ فربما ... نال المُنا قوم بلا ميعاد
إني نظمت لكم للآلىء قوله ... عرضت على الأيام صفو وداد
ولقد تمازج حبهم بجوانحي ... كتمازج الأرواح بالأجساد
فسقى انسكاب الغيب قبر أبيكم ... من رائح متدفق أو غادِ
ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم ... واللّه يعلم ما يكن فؤاد[2]

---

(١) موضع النقط كلمات غير مقروءة لطمس بالمخطوط.

(٢) كذا يكون الوفاء لا الوفاء لمن ذهب شخصه وبقي سلطانه، ولكن هذا قد رثى من ذهب شخصه وسلطانه معه وبقي بعده أولاده في ذلة وصغار، اللهم أحسن إلى أهل الوفاء واجعلنا منهم يا رب العالمين آمين.

ذكر أيام بني هود بسرقسطة وما إليها

كان مبدأ قيامة هذا البيت سليمان بن محمد بن هود الجذامي الملقب بـ: المستعين.

وكان مدة الجماعة بالأندلس من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين الفتنة الشاملة.

فتغلب على مدينة الإردة، وقتل قائدها أبا الطرف التجيبي في خبر طويل.

واستولى على مدينة ماردة[١]، ومنشون، وأنظارهما في غرة محرم من سنة إحدى وثلاثون وأربعمائة.

أيام سليمان بن هود

ولما ثار أهل سرقسطة بيحيى بن منذر بن يحيى، صرفوا طاعتها إلى سليمان بن هود.

فضخم أمره، واشتهر ذكره، وبعد صيته، إلى أن توفي سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وخلف خمسة أولاد بأقطار ملكه، قسم عليهم.

فولى أحمد مدينة سرقسطة المدينة البيضاء.

وولى يوسف مدينة الإردة.

وولى محمداً مدينة قلعة أيوب[٢].

وولى لبّا تُطِيْلَة[٣].

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مَارِدَة: كورة واسعة من نواحي الأندلس متصلة بحوز فرّيش بين المغرب والجوف من أعمال قرطبة إحدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى من القياصرة والروم. وهي مدينة رائقة كثيرة الرخام عالية البنيان فيها آثار قديمة حسنة تقصد للفرجة والتعجب. وبينها وبين قرطبة ستة أيام، ولها حصون وقرى، وينسب إليها غير واحد من أهل العلم والرواية.

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان: قلعة أيوب: مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر، وكذا ينسب إليها فيقال: الثغرى. من أعمال سرقسطة، بقعتها كثيرة الأشجار والأنهار والثمار والمزارع. ولها عدة حصون، وبالقرب منها مدينة لُبْلَة.

(٣) قال ياقوت في المصدر السابق: تُطِيْلَة: مدينة بالأندلس في شرقي قرطبة تتصل بأعمال أشيقة، هي اليوم بيد الروم، شريفة البقعة، غزيرة المياه، كثيرة الأشجار والأنهار، اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية. قال أبو عبيد البكري: كان على رأس الأربعمائة بتطيلة امرأة لها لحية كاملة كلحية الرجال، وكانت تتصرف في الأسفار كما يتصرف الرجال، حتى أمر قاضي الناحية القوابل بامتحانها، فتمنعت عن ذلك، فأكرهتها فوجدنها امرأة، فأمر بأن تُحلق لحيتها ولا تسافر إلاّ مع ذي محرم. وبين تطيلة وسرقسطة سبعة عشر فرسخاً. وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم أبو مروان إسماعيل بن عبد الله التطيلي اليحصبي، وغيره.

واستبدوا بعد موته، وكان أحمد منهم مصنوعاً له وضايقهم فظهر عليهم إلى أن انتزع ما كان بأيديهم واستأصلهم إلى أن ذهب اسمهم ومسماهم في حديث طويل.

وتلقب أحمد بالمقتدر بالله.

/أيام المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود

[١٨٠/أ]

واستوثقت للمقتدر أحمد بن سليمان الطاعة بالثغر الجوفي وانتصاف مدينة طرطوشة[١] إلى عملة، وكانت تحت يد لبيب من الفتيان العامرية، ثم في يده مقاتل بعده، فاستحوذ عليها بعد مهلكهما.

وكانت بينه وبين الروم حروب عظيمة، ودخلت مدينة. . .[٢] من عمله عنوة، فاستولت من سبيها على ما يقارب مائة ألف نفس فعمروا المدينة.

فشمر المقتدر، وأحمد بن سليمان بن هود إلى استرجاعها، واستنفرا المسلمين من جميع بلادهم، ونازل المدينة، وكان في جيشه الذي احتشده من الرماة بالقسي العقارة أزيد من ستة آلاف ففتح الله المدينة على يده عنوة.

فشاع له بذلك ذكر جميل، وصيت شهير.

ثم زاحم أفيال الدولة على ابن مجاهد فاستنزل له على مدينة دانية[٣]، واستضاف عملها إلى ما بيده، فاتسعت خطته، وانفسحت عمالته، وتعدد جيشه. ثم هلك سنة خمس وسبعين وأربعمائة بسيء المِيتة من كلب أصابه كان يعض له أعضاءه، وذلك لقتله رجلاً صالحاً دخل عليه يعظه، وقد ضرب على رعيته ضريبة ما للروم.

فلم يمهله الله بأن أخذه أخذاً وبيلاً.

وولي الأمر بعده ابنه المؤتمن فلم تطل مدته بأن هلك.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: طَرْطُوشَةُ: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، وهي شرقي بلنسية، وقرطبة، قريبة من البحر، متقنة العمارة، مبنية على نهر إبرة، ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تُعدّ في جملتها تحلّها التجار، وتسافر منها إلى سائر الأمصار، واستولى الإفرنج عليها في سنة (٥٤٣هـ) وكذلك على جميع حصونها، وهي في أيديهم إلى الآن. وينسب إليها جماعة من أهل العلم.

(٢) موضع النقط كلمة مختلطة المداد في المخطوط لم أتبين اسم المدينة منها.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان: دَانِيَةُ: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على صفة البحر شرقاً، مرساها عجيب يسمى السمان، ولها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز. وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري وأهلها أقرأ أهل الأندلس، لأن مجاهداً كان يستجلب القراء ويُفضل عليهم، وينفق عليهم الأموال، فكانوا يقصدونه، ويقيمون عنده، فكثروا في بلاده، ومنها شيخ القراء أبو عمر عثمان بن سعيد الداني صاحب التصانيف في القراءات والقرآن.

أيام المؤتمن محمد بن المقتدر أحمد بن سليمان بن هود

تصير له ملك أبيه بالثغر كله، واستمر فيه أيامه إلى أن هلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة.

وولي بعده المستعين، وكان بينه وبين المعتمد بن عباد ما يكون بين الفحول في الهجمات، والليوث في الأجمدات، وبه تلاحق ابن عمار لما خالف على المعتمد حسبما تقدم ذلك في جملة من الكتاب.

دولة المستعين أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن هود

وقام بأمر الثغور إلى هذا العهد المستعين بالله أحمد بن هود في سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

نازل العدو مدينة وَشْقَة[1] من عمالة المستعين، وضيقوا بها، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين، وحمل إليها الميرة، والتقى الفريقان، ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس إلى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين.

وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد يضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة.

فرفع ما كان به من المال، ثم كر إلى مقامه، وأبلي إلى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام.

ففقد من الناس ما يناهز اثنين عشر ألفاً، والتمس أهل وشقة الأمان / لثلاث [١٨٠/ب] أيام من يوم الهزيمة.

ثم مما طمع العدو إلى سرقسطة حاضرة المستعين.

فنازلها جموع لا تحصى. وأجاز الأمير يوسف بن تاشفين البحر ووجه جيشاً لنظر قائده علي بن الحاج يمحص عن أحوال ملك الروم بسرقسطة، ويخبر أحوال جيشه، فشاع لما أطل على محلة الطاغية: أنه يوسف بن تاشفين، فأوقع الله الرعب في قلب العدو، وانهزم جمعه، فأعمل المسلمون فيهم السيف بما هو معروف، ونجا الطاغية في أفذاذ قليلة بعد مشارفته العطب.

والمستعين هذا ممن لم يهجه أمير لمتوقه ولا نازعه مما في يده، ولا تطرق لخلعه قبولاً منه للعهد، وإقراراً فيما بينه وبين العدو، لما تجره مضايقته من تصيير ما بيده إلى الروم، فكان يلاطفه.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: وَشْقَةُ: بليدة بالأندلس، ينسب إليها طائفة من أهل العلم.

ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك فقام بحقه، وصرفه مكرماً، وأصحبه كتابه بما نصه:

من أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده

كتبناه إليك والله عز وجل يوالي أيام سعدك ويعالي أعلام مجدك، ويطيل في طاعتك على أحسن ما تمناه عمرك، ويشد بتقواه أزرك، ويجري على كل لسان صدق ذكرك من حضرة مراكش حيث تتلى آيات شرفك ومآثر السادة القادة سلفك.

ونحن نحمد الله بجميع المحامد، ونستهديه أيمن المسالك، وأبين المقاصد، ونسأله أتم الفوائد، وأعم العوائد.

ونصلي على سيدنا محمد صفوة أوليائه وخاتم رُسُله وأنبيائه، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وأما الذي عندنا أيدك الله لجانبك الكريم ومجدك العميم، ومحلك المعلوم بالمفهوم، فَوُدّ صريح، وعقد في ذات الله تعالى صحيح.

وردنا، أدام الله إقبالك، وأجرى إلى غاية الأفضال آمالك، نشأة السيادة، والفضل، والنباهة، والنبل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة ونسباً، وابننا ودادة وتقرباً، زاد الله به عينك قرة، ونفسك سُرّة.

ومعه وزيراك: أبو الأصبغ، وأبو عامر، أكرمهما الله بتقواه.

وكلاً وفيناه حقّ قضائه وآتيناه برّه من بابه، وتلقيناه تكرمة بمقضى دواعية وأسبابه.

وأديا إلينا كتابك الخطير المقبول المبرور، فوقفنا به على وجه شخوصهما، وأصغينا في تفصيل جملة إلى تلخيصها، فألقينا إليهم مراجعة عن ذلك ما لقنوه وسفرنا لهما عن وجه مقصدنا فيه حتى استبينوه، وجملة الوفاق، وجماعة الانصياع في سلك ما/ يرضي الله تعالى والانسياق إن شاء الله. [١/١٨١]

. . .[١] احتل يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ست وتسعين وأربعمائة، أعاد إليه توجيه ولده عبد الملك الملقب بـ: عماد الدولة الكائن بحصن روطة بمدينة جليلة، وكان من جملتها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة محررة باسم المقتدر بن هود جدهم.

فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط مرابطية، وفرقها في طباق المرابطين ليلة النحر من تلك السنة. وفي ذلك الوقت عقد البيعة لولده علي بن يوسف، وحضر العهد عبد الملك بن المستعين.

---

(١) كلمة مطموسة بالمخطوط.

واتصلت أيام المستعين بن هود إلى سنة إحدى وخمسمائة، ففيها جدد البيعة لنفسه ولولده، وتحرك إلى الجهاد في جمادى الآخرة منها.

فدخل على تطيلة إلى لونية ونازلها ودخل أرباضها، واعتصم أهلها منه في كنيسة عتيقة.

فرحل عنها بعد مصالحتهم على مالٍ يؤدونه، وأخذ به رهائنهم، ثم انصرف.

وقد شنّ الغارات على تلك الأقطار فعمها إحراقاً ونهباً وتدميراً، فلما شارف بلاد الإسلام تلاحق به النصارى، فاجتلد الفريقان أحرّ جلاد إلى أن استشهد المستعين بن هود، وانهزم المسلمون.

فأتى القتل على كثير منهم رحمهم الله وذلك أول يوم من رجب من السنة المذكورة.

وولي بعده ابنه عبد الملك.

أيام عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود عماد الدولة[1]

بايع الناس عبد الملك بعد أن استشهد أبوه، واشترطوا عليه أن لا يتلبس بشيء من أمر الروم.

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧)، الحلة السيراء (٢/ ٢٤٨)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ٤٣٨)، الحلل الموشية (٧١)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦٣)، نفح الطيب (١/ ٤٤١)، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى (٢/ ٦٦)، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة (٩٠). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: كان أحد ملوك الأندلس في حدود الخمسمائة وهو من بيت مملكة تملكوا شرق الأندلس فلما استولى الملثمون على الأندلس أبقى يوسف بن تاشفين على ابن هود. فلما تملك علي بن يوسف بعد أبيه كان فيه سلامة باطن فحسّن له وزراؤه أخذ الملك من ابن هود حتى قالوا له: إن أموال المستنصر العبيدي صارت في غلاء مصر المفرط تحولت كلها إلى بني هود. وقالوا: الشرع يأمرك أن تسعى في خلعهم لكونهم مسالمين الروم. فجهز لهم الأمير أبا بكر بن تيفلوت، فتحصن عماد الدولة بروطة، وكتب إلى علي بن تاشفين يستعطفه في المسالمة، ويقول: لكم فيما فعله أبو بكر أسوة حسنة، وسيلعم مبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبته، والله حسيب من معي، وحسبنا الله وكفى. فأمر علي بن يوسف بالكف، وأنّى ذلك، فقد داخلته الرعية سرقسطة.

وكان ابن رذمير اللعين صاحب مملكة أرغونة من شرق الأندلس قسيساً مجرياً داهية مترهباً، فقوي على بلاد ابن هود فطواها وقنع عماد الدولة ابن هود بدار سكناه. وكان ابن رذمير لا يتجهز إلا في عسكر قليل كامل العدة فيلقى بالألف آلافاً. قال أليسع بن حزم: حدثني عنه أبو القاسم هلال، أحد وجوه العرب قال: كان بيني وبين المرابطين أمر ألجاني إلى الوفود على ابن رذمير، فرحب بي، وأمر لي براتب كبير، فحرضت معه حرباً طعن عنه حصانه، فوقفت عليه ذاباً عن حوزته، فلما انصرفنا إلى رشقة، أمر الطواغين بعمل كأس من ذهب، رصّعه بالدُّر، وكتب عليه: «لا يشرب منه إلا من وقف على لسطانه». فحضرت يوماً، فأخرج الكأس وملأه شراباً وناولني بحضرة ألف =

وطمع عبد الله ابن فاطمة قائد الملثمة في سرقسطة عند موت المستعين فتحرك

= فارس، ورأيت أعناقهم قد اسودت من صدأ الدروع. قال: فناديت وقلت: غيري أحق به. فقال: لا يشرب هذا إلا من عمل عملك. وكان هلال هذا من قوية هلال بن عامر تاب بعد وغزى معنا، فكان إذا حضر في الصف جبلاً راسياً يمنع تهائم الجيوش أن تميد، وقلباً في البسالة قاسياً، يقول في مقارعة الأبطال: هل من مزيد. أبصرته رحمه الله أمة وحده، يتحاماه الفوارس، فحدثني عن ابن رذمير وإنصافه قال: كنت معه في ظاهر روطة، وقد وجه إليه عماد الدولة وزيره أبا محمد عبد الله بن همشك الأمير رسولاً، فطلب فارس من ابن رذمير أن يمكن من مبارزة ابن همشك. فقال: لا، هو عندنا ضيف. فسمع بذلك ابن همشك، وأمضى ابن رذمير حاجته، وصرفه. فقال: لا بد لي من مبارزة هذا. فأمر الملك ذاك الفارس بالمبارزة، وقال: هذا أشجع الروم في زمانه. فانصرف عبد الله يريد روطة، وخرج وراءه الرومي شاكاً في سلاحه، وما مع ابن همشك درع ولا بيضة، فأخذ رمحه وطارقته من غلامه، وقصد الرومي، وحمل كلاً منهما على الآخر حملات، ثم ضربه ابن همشك في الطارقة، فأعانه الله، فانقطع حزام الفارس، ووقع بسرجه إلى الأرض، فطعنه ابن همشك فقتله والملك يشاهده على بعد. فهمت الروم بالحملة على ابن همشك، فمنعهم الملك، ونزل غلام ابن همشك فجرد الفارس وسلبه، وأخذ فرسه، وذهب لم يلتفت إلى ناحيتنا، فلا أدري ممن أعجب من إنصاف الملك أو من ابن همشك كيف مضى ولم يعرج إلينا؟!

وأقام ابن رذمير محاصراً سرقسطة زماناً، وأخذ كثيراً من حصونها. فلما رأى أبو عبد الله محمد بن غُلبون القائد، ما حلّ بتلك البلاد من الروم، ثار بدورقة، وقلعة أيوب، وملينة، وجمع وحشد وكافح ابن رذمير. واستولى أبو بكر بن تيفلوت على سرقسطة، وأقام بقصرها في لذاته. وأما ابن غلبون: فأحسن السيرة، وعدل، وجاهد، ورزق الجند. رأيته رجلاً طوالاً جداً، واجتمعت به، وأقام مشاغر لابن رذمير شجاً في حلقه، التقى مرة من ألف فارس لابن رذمير، والآخر في ألف، واشتد بينهما القتال وطال، ثم حمل ابن غلبون على ابن رذمير، فصرعه عن حصانه فدفع عنه أصحابه، فسلم، ثم انهزموا، ونجا اللعين في نحو المائتين فقط. وأما ابن تيفلوت فإنه راسل ابن غلبون، وخدعه حتى حسّن له زيارة أمير المسلمين علي بن يوسف، فاستخلف على بلاده ولده أبا المطرف، وكان من الأبطال الموصوفين أيضاً. وقدم محمد مراكش فأمسك وألزم بأن يخاطب بنيه في إخلاء بلاده من المرابطين، فأخلوها طاعة لأبيهم، وترحلوا إلى غرب الأندلس ففرح بذلك ابن رذمير وحصر سرقسطة وصنع عليها برجين عظيمين من خشب. وأن أهلها لما يئسوا من الغياث خرجوا وأحرقوا البرجين، واقتتلوا أشد قتال، وكتبوا إلى ابن تاشفين يستصرخون به.

ومات ابن تيفلوت، وذلك في سنة إحدى عشر وخمسمائة، فأنجدهم بأخيه تميم بن يوسف فقدم في جيش كبير، وعبّى رذمير جيوشه ففرح أهل سرقسطة بتميم، فكان عليهم لا لهم، جاء مواجه المدينة، ثم نكب عنها، وكان طائفة من خيلها ورجلها قد تلقوه، فحمل عليهم حملة قتل منهم جماعة كثيرة، ثم نكب عن لقاء العدو، فانصرف إلى جهات المورالة، فاشتد البلاء على البلد، ثم سلّموه بالأمان، على أن من شاء أقام به وكان ابن رذمير معروفاً بالوفاء، فحدثني من أثق به أن رجلاً كانت له بنت من أجمل النساء ففقدها، فأخبر أن كبيراً من رؤوس الروم خرج بها إلى سرقسطة، فتبعه أبوها وأقاربها فشكوه إلى ابن رذمير، فأحضره وقال: عليّ بالنار، كيف تفعل هذا بمن هو في جواري؟ فقال الرومي: لا تعجل عليّ، فإنها فرت إلى ديننا. فجيىء بها، فأنكرت أبويها وارتدت. ولما دخل سرقسطة أقرهم على الصلاة في جامعها سبعة أعوام، وبعد ذلك يعمل ما يرى. وحاصر =

إليها على شهر من الوقيعة، فلما قرب منها رحمه الله أشار عليه أهلها أن ينصرف عنهم ولا يبدأ بالفتنة ويُحيي عليهم استعانة أميرهم بالروم، فانصرف عنهم.

ثم إن عبد الملك تلبس بملك قشتالة وأنكر الناس ذلك، فاستدعوا قائد علي بن يوسف من بلنسية، فأقبل إليه، وفتحت له المدينة.

واستدعى عبد الملك النصارى فتحرك إليه ابن رذمير، وبادر ابن الحاج قائد عسكر المتوثبين إلى قتاله.

فخذل الناس، ووقعت الهزيمة، فاستشهد رحمه الله.

وأتت الهزيمة على كثير من المسلمين عشي يوم الأحد منتصف ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسمائة.

إلى أن أخرج أهل سرقسطة عبد الملك بن أحمد بن المؤتمن بن المقتدر بن المستعين من الحضرة.

واستدعى / عامل علي بن يوسف فدخلها يوم السبت العاشر من ذي القعدة من [١٨١/ب] سنة ثلاث وخمسمائة.

ولم يقم له ولا لأحد من عقبه بعد قائمة. وانحاز إلى فئة الروم.

أيام أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود(١)

كان هذا الرجل بقية بني هود، بقية الفتنة، بثغر روطة لما تصيرت دار ملكهم

= قتندة بعد سرقسطة سنتين، فلما كان في آخر سنة أربع عشرة قصده عبد الله بن حيونة في جيش فيهم قاضي المرية أبو عبد الله بن الفراء، وأبو علي بن سُكّرة، فبرز لهم اللعين، فقتل خلقاً، وأسر آخرون واستشهد المذكوران فبنى عليهم ابن رذمير قبوراً، ثم سلم البلد إليه، وأخذ في تلك المدة دورقة، وقلعة أيوب، وطرسونة، وأكثر من مائتي مسور، ولم يبق أكثر من ثلاثة مدائن لم يأخذها، وبقي من أعمال بني هود إلا: لارِدَة، وإفراغة، وطرطوشة، وغير ذلك معاملة عشرة أيام، لم يظفر اللعين بها، فقام بلارِدَة الهمام البطل أبو محمد. وقام بأفراغة الزاهد المجاهد محمد مردنيش الجذامي جد الأمير محمد بن سعد.

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤١)، الحلة السيراء (٢/ ٢٤٩)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ٤٣٨)، نفح الطيب (١/ ٤٤١)، معجم الأنساب والأسر الحاكمة (٩٠). قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء: الملقب بالمستنصر بالله الأندلسي. من بيت مملكة، وحشمة، وأموال عظيمة، كان بيده قطعة من الأندلس فاستعان بالفرنج على إقامة دولته. ذكره أليسع بن حزم وقال: انعقد الصلح بين المستنصر بن هود، وبين السُليطين ملك الروم وهو ابن بنت اذفونش إلى مدة عشرين سنة على أن يدفع للفرنج روطة، ويدفعوا إليه حصوناً عِوَضها، ويعينوه خمسين ألفاً من الروم يخرج بها إلى بلاد المسلمين ليملك، فجعل الله تدميره في تدبيره. وكنا نجد في الآثار عن =

سرقسطة إلى النصري متعلقاً بأذيال ابن رذمير إلى أن عارضه من روطة بخطه من مدينة طليطلة، فانتقل إليه بأهله.

= السلف فساد الأندلس على يدي بني هود وصلاحها بعد على أيديهم، فخرج اللعين السُليطين، وابن هود، في نحو مائة وأربعين ألف فارس، وتاشفين بالزهراء، فقصد ابن هود جهة إشبيلية، وبقي ينفق على جيوش السليطين نحو ثمانية أشهر، وشرط عليهم أنهم لا يأسرون أحداً.
وحدثني المستنصر، وقد ندم على فعله من شيطنة الشبيبة، وطلب ملك آبائه، فقال لي: الذي أنفقت في تلك السفرة من الذهب الخالص ثلاثة آلاف ألف دينار، والذي دفعت إليهم من مخازن روطة من الدروع أربعون ألف درع، ومن البيض مثلها، ومن الطوارق ثلاثون ألف. وذكر لي جماعة أنه دفع إلى السليطين خيمة كان يحملها أربعون بغل. وذكر لي محمد بن مالك الشاعر: أنه أبصر تلك الخيمة قال: فما سمع بأكبر منها قط. ولما طالت إقامته على البلاد، ولم يخرج إلى ابن هود أحد رجع ومعه ابن هود، ولم يكن مع ابن هود إلاّ نحو مائتي فارس، فأقام ابن هود بطليطلة ليذهب منها إلى حصونه التي عُوّضَ بها، ﴿وبئس للظالمين بدلا﴾.
ثم إن قرطبة اضطرب أمرها، واشتغل أمير المسلمين بما دهمه من خروج التومرتية، فجاء المستنصر بالله أحمد من مدينة غرليطش وقصد قرطبة، وكان محبباً إلى الناس بالصيت. فبرز إليه ابن حمدين زعيم قرطبة بعسكرها، فقصد عسكرها نحو ابن هود طائعين ففر حينئذ ابن حمدين إلى بُليدة.
ودخل ابن هود قرطبة بلا كلفة، ولا ضربة، ولا طعنة، فاستوزر أبا سعيد المعروف بفرج الدليل، وكاتب نواب البلاد، ففرحوا به لأصالته في الملك، ثم خرج فرج الدليل إلى حصن المدوّر، فقيل لابن هود: قد نافق وفارق، فخرج بنفسه واستنزله من الحصن، فنزل غير مظهر خلافاً، وكان رجلاً صالحاً، فقتله صبراً، فساء ذلك أهل قرطبة، وثارت نفوسهم، وعظم عليهم قتل أسد من آساد الله تعالى، فزحفوا إلى القصر، ففر ابن هود من قرطبة، فقصدها ابن حمدين، فأدخله أهلها، وكثر الهيج، واشتد البلاء بالأندلس وغلت مراجل الفتنة.
وأما أبو محمد بن عياض فكان على مملكة لارِدَة، فخرج في خمسمائة فارس يسعى في إصلاح أمر الأمة، وقصده أهل مرسية، وبلنسية، ليملكوه عليهم، فامتنع، ثم بايع أهل بلنسية عن الخليفة عبد الله العباس. ثم اتفق ابن عياض وابن هود على أن اسم الخلافة لأمير المؤمنين العباسي، وأن النظر في الجيوش والأموال لابن عياض، رحمه الله، وأن السلطة لابن هود، قال أليسع: فكتبت بينهما عهداً هذا نصه: كتاب اتفاق، ونظام، وائتلاف لجمع كلمة الإسلام، يفرح به المؤمنون، انعقد بين المستنصر بالله أحمد، وبين المجاهد المؤيد أبي محمد عبد الله بن عياض، وصل الله بهما أبواب التوفيق... إلى أن قال: وأنا لي في جزيرة الأندلس غرباء في مادة الروم، فَلِمَ لا تعزم على إذاعة العدل وتروم؟ وقد توجه نحوكم كاتبنا ابن أليسع، وكل ما عقده، وفي أموركم اعتمده أمضيناه.
قال: فلما وصلت المدينة وقرأت الكتاب فرحوا... إلى أن قال: فأغارت الروم على أحواز شاطبة فبعثني عبد الله بن عياض إلى المستنصر يقول له: أنا أحتفل للقاء القوم فلا تخرج، فلما جئته بهذه الرسالة، قال لي: إنما تريد أن تفسد ما بيني وبين الروم من وكيد الذمة وإذا أنا خرجت واجتمعت بملوكهم ردوا ما أخذوه. فأعلمت ابن عياض، فقال لي: هل يحسب هذا أن الروم تفي له، سيتبع رأيي حين لا ينفعه. فتضرعت إلى المستنصر، فأبى. فخرجنا جميعاً نَؤُم العدو حتى وصلنا، فأمرني بكتابين عنهما إلى الملكين: مُونَق، وفراندة، وكتاب عن ابن عياض إلى صهره أبي محمد ليصل بعسكر بلنسية. فقال له ابن عياض: يقرب صيدنا والحرب خدعة. فأبى وقال: إذا وصلهم كتابي =

ولما ثار ابن. . .[١] في صفر عام تسعة وثلاثين، نهض إلى قرطبة عند ثورة أحمد بن حمدين فدخلها.

ثم لم يلبث أن فرَّ منها، وقصد جياق وقد ثار ابن جوار بقلعة جيان، فتغلب عليه، وعاجل غرناطة، وقد ثار بها ابن أضحى قاضيها، واستدعى ابن حمدين فملك ابن هود المدينة، وشد حصار من بقصبتها من المرابطين شهوراً.

وجيَّش قاضي مرسية ابن أبي جعفر الجيش إليها وسبوا الملثمون فأوقعوا بهم الوقيعة التي قتل فيها ابن أبي جعفر.

وظهر الملثمون إلى أن عجز ابن هود عن مرام غرناطة، وفرّ إلى جيان.

وفرّ ابن أضحى إلى المنكب، واستولى الملثمون على آلات ابن هود.

واتصلت به ثورة ابن عياش بمرسية فتوجه إليها ودخلها في الحادي عشر لجمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة.

ثم إن الروم أغارت على مرسية، وجهات الشرق، وكان اللقاء بينهم وبين المسلمين في الموفي عشرين لشعبان، فهزم المسلمون هزيمة شنيعة قتل فيها ابن هود، وانقرض أمرهم بهذا العهد من الأندلس إلى أن ظهر المتوكل ابن هود يفخر بأنه من ذرية المستعين ابن هود، وفي ذلك يقول بعض شطار الأدباء يومئذ:

يقول المستعين أبي وجدي ... وطليق البأس والجنود المعين

فقلت الفضل بالتقوى فدعنا ... بفخر التراب والماء المهين

وهل في المستعين رأيت خيراً ... فكيف المُدعي في المستعين؟!

دولة ذي النون بطليطلة وما إليها

ذكر المؤرخون أن بني ذا النون هؤلاء الملوك من قبيل البربر الذين كانوا

= ردوا الغنائم. فلم يغن كتابه شيئاً.

إلى أن قال: فالتقينا نحن والروم، فكمنوا لنا ألفي فارس، وظهر لنا أربعة آلاف، ونحن نحو الألفين، ووقع الحرب، فمات من أهل بلنسية نحو سبعمائة، ومن الروم نحو الألف، وفرّ أهل مرسية عن ابن عياض، وفرّ ابن هود. فثبت ابن عياض في نحو مائة فارس، وانكسرت الروم، لكن خرج كمينهم، فانكسرنا بعد يأس شديد. واستشهد الأمير أبو محمد عبد الله بن مردنيش صهر ابن عياض، وأحمد بن مردنيش، فشق حينئذ ابن عياض وسط الروم، وجاز نهر شقر حتى وصل مدينة جنجالة، وتوصل الفال إليه، وفقدنا ابن هود، ودخلنا مُرسية، واستبشر أهلها بسلامة الملك المجاهد عبد الله بن عياض، وذلك سنة بضع وثلاثين وخمسمائة.

(١) الاسم مختلط المداد فلم أتبينه.

يخدمون في الدولة العامرية، وأن جدهم الذي ينسبون إليه هو زنون، فغير بالذال لطول المدة، ولم يكن لهم رئاسة ولا زعامة إلاّ في دولة المنصور محمد بن أبي عامر، ففيها قدموا واشتهروا، /وقادوا الجيوش، واستقروا بكورة شنتمرية. [١٨٢/أ]

ولما ضبط أمر طليطلة عبد الرحمٰن بن مثيوة بعده، وأساء في أهلها، خلعوه، واتفقوا على أن حملوا إلى ابن ذي النون، فوجه إليهم من شنتمرية ابنه إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن ذنون.

أيام إسماعيل بن ذنون بطليطلة وما إليها

قالوا: فاستولى هذا الفتى على ملك طليطلة وما إليها.

وساس أهل مملكته سياسة استقاموا عليها.

واستقام في أموره إلى شيخ البلدة أبي بكر الحديدي، وكان من أهل العلم والعمل والدهاء.

فكان إسماعيل لا يقطع أمراً دونه إلى أن حسده قوم من أهل طليطلة على منزلته لديه.

ثم توفي إسماعيل، وولي بعده ابنه يحيى المأمون.

أيام يحيى بن إسماعيل[1] بطليطلة وما إليها

فلما ملك يحيى بن إسماعيل طليطلة، جرى على سبيل أبيه في استعمال قانون

---

(١) من مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٠)، الذخيرة (١/ ٤/ ١٤٧)، المغرب في حلي المغرب (٢/ ١٢)، تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٦١)، أزهار الرياض (٢/ ٢٠٨)، نفح الطيب (١/ ٥٢٩)، معجم الأنساب والأسر الحاكمة (٨٩)، الأعلام (٨/ ١٣٨). وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمته: ملك طليطلة أبو زكريا يحيى ابن صاحب طليطلة الأمير إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن عامر بن ذي النون الهواري الأندلسي، استولى أبوه على البلد بعد العشرين وأربعمائة ونزعوا طاعة المروانية. وتملك المأمون بعد أبيه سنة خمس وثلاثين، فامتدت أيامه خمساً وعشرين سنة، عاكفاً على اللذات، والخلاعة، وصادر الرعية، وهادن العدو، وقدم الأطراف، فطمعت فيه الفرنج بل في الأندلس، وأخذت عدة حصون إلى أن أخذوا منه طليطلة في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وجعلوها دار ملكهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المأمون أراد أن يستنجد بالفرنج على تملك مدائن الأندلس، فكاتب طاغيتهم: أن تعالى في مائة فارس والملتقى في مكان كذا. فسار في مائتين، وأقبل الطاغية في ستة آلاف وجعلهم كميناً له، وقال: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فأحيطوا بنا. فلما اجتمع الملكان، أحاط بهم الجيش، فندم المأمون، وحار. فقال الفرنجي: يا يحيى، وحق الإنجيل كنت أظنك عاقلاً، وأنت أحمق، جئت إليّ، وسلمت مهجتك بلا عهد ولا عقد، فلا نجوت مني حتى تعطيني ما أطلب. قال: فاقتصد،

العدل. وأجرى أموره مع ابن الحديدي على سنن أبيه.

فاستقامة طاعته، واتفق ملكه، إلى أن وقعت المنازعة بينه وبين جاره سليمان بن هود، فوجه إليه جيشاً كثيفاً لنظر ولده أحمد بن سليمان ونازل مدينة وادي الحجارة، وبرز المأمون لمدافعته، وأتيح لابن هود عليه ظهور حصره لأجله بمدينة طليبرة.

ثم رحل عنه فألجأته ضيقته، وما أسلفه به ابن هود، إلى الاستعانة بملك النصارى وبذل له مالاً وأخرجه إلى قطر سليمان بن هود.

فجال العدو في أحوازه شهرين من زمن الصيف.

فلم يدع ما يقتاته الطائر، وخرب البلاد، وأهلك العباد.

وفتح عدة من الحصون، والمعاقل، وخالف ابن عباد، ووافقه على ما دعا إليه من الدعوة الهشامية، وأعلن بها على منابره، وقد بان الخرق بذلك، فلا يمكن أن يرقع أوان العمل به ينفع.

وفي السنة الآتية استعان ابن هود بالنصارى.

وخرج إلى أرض ابن ذنون من حُصُونه، ونازعه ابن ذنون، فأخرج للعام بعده النصارى إلى بلد ابن هود، ففتح قلعة قلبيرة التي كان فتحها ابن أبي عامر، وفارت بها أيدي الروم وذلك صدر عام سبعة وأربعمائة، وخرج الطاغية المتظاهر لسليمان بن هود من قلون حليقة إلى ثغر طليطلة، ودامت / الفتنة بين هذين الأسدين المشؤومين [١٨٢/ب] على المسلمين من سنة خمس وثلاثين إلى سنة ثمان وثلاثين، وفورقت بموت سليمان بن هود منهما.

فلما فتر... [١] يحيى بن ذنون من سليمان بن هود، رجع إلى مطالبة جاره ابن الأفطس.

ثم شغلته الشواغل عنه بابن عباد، وساء ما بينهما، وتحرك إلى قرطبة بما دعا ابن عباد إلى نصره صاحبها، ثم إلى غدره، والاستيلاء عليها، ثم تصيرت إلى يحيى بن ذنون على يد ابن عكاشة كما ذكرت قبل.

ثم توفي يحيى بن ذنون لإحدى عشرة ليلة من ذي قعدة سنة سبع وستين وأربعمائة.

وولي الأمر بعده حفيده وسميه يحيى بن ذنون.

= فسمى له حصوناً وقرر عليه مالاً في كل سنة، ورجع ذليلاً مخذولاً، وذلك بما قدمت يداه. وتوفي سنة ستين وأربعمائة.

(١) عبارة غير مقروءة.

أيام القادر بالله يحيى حفيد المأمون بن ذنون

وبويع ليحيى هذا بطليطلة أثر بلوغ الخبر بموت جده، ثم وصل ثافوته إلى مرقية وبها مجدد رسوم الجد. وكان قبل وفاته قد قسم وظائف الملك بجعل تدبير الأجناد إلى وزيره ابن الفرج وأمور الرعايا والمشورة والرأي إلى ابن الحديدي.

وأخذ المواثيق على ابن الحديدي ليبلغن كل مبلغ في مؤازرته وثبت أمره، علماً باستقلاله.

وكان هذا الحفيد، يحيى، مُضعفاً كثير الحيلة، خبيث الفكرة، يصاحبه مرض دزّي، فلما ينعش به، وأغرته الطائفة الغالية على أمره بابن الحديدي فعجل على مكروهه.

وكان جده قد سكن ملكه وقرر أسبابه، فسجن طائفة من أهل طليطلة مثار الشرور، وأسباب الفتن، بإشارة ابن الحديدي، فوثبوا بالمطبق واطرد الخبر بفقدهم، فلم يتمكن لابن ذنون الفتك بابن الحديدي لأصالته في المدينة إلاّ بعد الاستظهار عليه بأعدائه منهم فأخرجهم سراً.

ولما دخل ابن الحديدي المجلس، ووقعت عليهم عينه أيقن بالهلكة.

وقام ابن ذنون وهو يتعلق بأذياله، ويستجير، فلم يغنه ذلك، فتمكنوا منه، وقتلوه.

وهاجت العامة، فشغلت بنهب دوره وإطلاق أيديها على ماله.

وظن ابن ذنون أن الجو قد خلا له من ابن الحديدي، وإذا به قد بحث عن حتفه بظلفه، وإذا ملك الجماعة لما فرغوا من ابن الحديدي، رجعت على حفيد ابن ذنون بحساب جده.

وانتبذ ابن عبد العزيز كبير بلنسية بها، وخلع يده عن الطاعة ووقف أمره على المهادنة، إلى أن ثار بحفيد ابن ذنون وتلك الطائفة التي أخرجتها / من الاعتقال، [١/١٨٣] وصاحوا به، وسعوا في هلاكه، فأفلت من بعض الأبواب المعدّة للضرائر لا يملك شيئاً إلا نفسه.

وزعموا أن زوجه بنت المظفر، وابنته منها، تبعتاه يومئذ راجلتين أزيد من فرسخين إلى أن ركبتا، ولحق ببعض حصونه.

وأقام أهل طليطلة أياماً كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير، ولا فيهم بالصواب مشير، إلى أن جنحوا إلى المظفر بن الأفطس من ملوك الطوائف على بغداد، وامتزاج

أقطاره، فجاءهم متثاقلاً، كما قال المؤرخ: ....[١].

فدخل طليطلة سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

أيام المتوكل على الله عمر بن المظفر بن الأفطس بطليطلة

قالوا: وأقاموا المتوكل بطليطلة يسدد أمورها: «أضل من في رحم وأذل من لحم على وضم»[٢].

وقد كان ابن زنون بعد فراره تهيأ له دخول مدينة قُونْكَة[٣]، فتماسك أمره بها إلى أن فرّ عنها بعد تمام عشرة أشهر أيام إلحاح العدو، وقلة المال.

وعاد عمر بن المظفر إلى بلده، وقد حصل من ذخيرة ابن ذنون وماله وما عثر عليه من أسباب نصره على خطر رغيب.

عودة يحيى بن ذنون إلى طليطلة أعادها الله

ولما استقر حفيد ابن ذنون بمامنة، بعد الخروج من طليطلة، راسل إذفنش ملك قشتالة يذكره سالف عهده، إذ كان قد اضطر إلى اللحاق بابن ذنون، جده، ولجأ إليه لما غلبه أخواه على الملك، فأجاره إلى أن أعاد إليه أمره، فلبى دعواه، وسمع شكواه، وأقبل معه إلى طليطلة، وقد عاقده على أن يخلي بينه وبين المدينة إن بلغه أمله من دخولها. فنازلها وشد حصارها إلى أن بلغ الجهد من أهلها مبلغة وعجزوا عن الصبر، وتبرأوا من المسكة، وأعذروا في الدفاع إلى أن أُعيد حفيد ابن ذنون إلى طليطلة على شروط للنصارى لا يطاق حملها.

فدخلها والطاغية بين يديه يتفجع بيده عنده، واستقر بها شر استقرار. واقتضاه الطاغية الوعد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستوصلت الرمم، ونفذ عقاب الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومتعودي العقوق، ومقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمثل السائر في الآفاق، ولم تطل مدته شطر السنة حتى ملك الطاغية طليطلة.

---

(١) موضع النقط عبارة غير مقروءة بالمخطوط.

(٢) مثل عربي فصيح يضرب لبيان شدة الحيرة والتخبط في الأمور كمن يمشي على غير هدى أو من يتحرك في ظلام دامس، وقد تعرضت لهذا المثل في موسوعتي التي عنوانها: «علي رأي المثل» والتي هي موسوعة للأمثال العامية والعربية وتحوي أكثر من عشرين ألف مثل عامي وعربي.

(٣) قال ياقوت في معجم البلدان: مدينة بالأندلس من أعمال شنتبرية، ينسب إليها إبراهيم بن محمد بن خيرة القونكي...

وذكروا أن أهل العقد والحل من أهلها لما بلغ الصبر بهم مداه، خرجوا إلى محلته، فأدخلوه إلى المضرب الذي كان له /بعد حجاب غليظ، وإذلال كثير، فألفوه [١٨٣/ب] يمسح عينه من النوم، فقال لهم: إلى متى تختلفون؟ وماذا تصنعون؟

فقالوا: لنا بقية، وفي فلان وفلان أمنية. وسموا له جملة من ملوك الأندلس، فتهافت وسخر بهم، ودعا بإرسال من سموه فحضروا، وكلهم يؤدي خضوع مرسله، وينوب في لثم يده، ويتوسل بهديته، فخرجوا من عنده وقد سقط في أيديهم.

ولثلاث أيام من ذلك. . .[1] حلوا بينه وبين البلد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وانتقل حفيده إلى بلنسية بمشايعة لملك قشتالة، وجه معه جيشاً حتى دخلها، واستقر بها إلى شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وأربعمائة.

وقد تملك ابن عكاشة قائد يوسف بن تاشفين مرسية، فاستدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم، فأقبل إليها نائبه بجيش من اللمتونيين.

وخرج القاضي ابن حجّاف، والفقهاء لتلقيه وإدخاله البلد.

ففر ابن ذنون من القصر، ولم يمكنه الخروج من المدينة، فاختفى ببعض الدور الخالية فظهر ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من السنة، وسيق إلى القاضي ابن حجّاف، فأمر بقتله، وتولى ذلك فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة، وطيف برأسه.

واحتوى ابن حجّاف على ما كان له وطوحت جثته سبخة، فواراه رجل احتساباً وصدقة، ودفن دون كفن، فانقطعت مدته على هذا السبيل.

ذكر مدة بني مسلمة المعرفين ببني الأفطس

وهؤلاء من جملة ملوك الطوائف، وكان جدهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس.

أصله من قبائل مكناسة، ونزل بفحص البلوط من جوفي قرطبة.

وقال ابن حيان: ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب، وبهذه النسبة مدحته الشعراء آخر وقته، إذ يقول ابن شرف القيرواني:

يا مالكاً أمست تجيب به تحسد قحطان عليه نزار

لولاك لم تشرف معد بها جَلّ أبو ذر فجلت غفار

وكان به من قوم لا نباهة لهم إلا أنه كان من أهل المعرفة التامة والعقل والسياسة والدهاء.

---

(١) كلمة مطموسة لتراكب المداد.

ولما تفرق شمل الجماعة واقترن كل على ما بيده، استبد بالصقع الغربي ببطليوس وشنترين، وجميع الثغر الجوفي فتى من عبيد الحكم اسمه سابور، وكان غُفْلاً / من المعرفة، عطلاً إلا من خُلّة الشجاعة. [١/١٨٤]

فكان عبد الله بن محمد بن مسلمة من صنائعه يدبر له أمره، ويخدم دولته، إلى أن هلك سابور وترك ولدين لم يبلغا الحلم.

فقام مقامه عبد الله بالأمر وأمسكه على ولديه.

دولة عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس

خلف هذا الرجل سابور، وقام بأمر ولده في صِغَرِ سِنِّه وهو الذي نسميه اليوم بأرض برتقال، ودبر أمره، وأقام ملكها، وهو من ناب عنه من شرط كتابنا في ذكر من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، وحسبك بذلك الوطن جلالة، وبأهله وفوراً، فاشتمل عبد الله على ذلك الأمر واستأثر به، وحصل على ملك غرب الأندلس، واستقام له مدة إلى أن هلك لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة.

وولي بعده ولده المظفر.

دولة المظفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة بن الأفطس

ولي المظفر بعد أبيه على ما كان بيده، فاستقامت أموره، وكان فاضلاً عالماً، وشجاعاً فارساً، وله التأليف الكبير المسمى «بالمظفر» في نحو خمسين مجلداً.

وأقام بذلك الثغر ملكاً عظيماً، وكان ينكر الشعر على قائله في زمانه، ويقبل رأي من ارتسم في ديوانه، ويقول: من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت، ولا يرى بدون ذلك.

وكانت بينه وبين جاره ابن عباد حروب أذهبت الرسوم وأتلفت الأرواح والجسوم، والله ينصف الخصوم بالأعين لذلك الوقت المعلوم.

وفي مدته أخذ العدو مدينة قلبيرة من الفتوح العامرية بعد محاصرة طويلة، وكان قائده عليها مملوكاً له استأمن العدو في السر، وخرج إليه بأهله وولده.

وأصبح المسلمون بها وقد أخذوا أهبة القتال، فقال لهم العدو: كيف القتال وقائدكم عندنا منذ البارحة؟

فصبروا إلى أن نفدت أقواتهم، ودخلت عليهم عنوة، فقتل الرجال، وسبى الذرية والحريم في سنة ست وخمسين وأربعمائة، فكان الفجع بها أكبر.

وكانت مدة الإسلام بها بضعاً وسبعين سنة.

وأقبل المملوك قائدها إلى ابن الأفطس، وكان له مجل، من قبيلة، فأمر به فضربت عنقه.

وغلب[1] الطاغية على هذه الثغور الغربية، وضرب على أهلها الأتاوة حتى ضعفت لولا أن الله أهلكه سنة ثمان وخمسين وقام بعده ولده إذفونش فشغل بأبي عباد إلى أن / شغله الله بالمرابطين. [١٨٤/ب]

ولما تولى المظفر رحمه الله، ولي الأمر بعده ولداه: عمر، ويحيى.

وفي سنة إحدى وستين وأربعمائة عظم بينهما الخلاف والنزاع، وحصل الطاغية بسبب ذلك على ما أراد من بلاد المسلمين، وأموالهم، وذخيرتهم في سبيل التضريب بين متنازعيهم فشبت نار الفتنة بينهما، وتغلق منهما يحيى بولاية ابن ذنون.

ومال أخوه عمر إلى تولي المعتمد بن عباد. وما زالت السعايات تقدح بينهما حتى اصطلمت البلاد، واجتاحت الرعية، وأراح الله زمنهما بموت أحد الأخوين يحيى. واستوثق الأمر لأخيه عمر، فاستحق الانفراد بالذكر.

دولة المتوكل على الله عمر بن المقتدر بن الأفطس

وكان المتوكل ملكاً عالي القدر، مشهور الفضل، مثلاً في الجلالة والسير، ومن أهل الرأي والحزم والبلاغة.

وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم.

وقال الفتح عند ذكره في قلائده: ملك جند الكتائب، والجنود، وعقد الألوية والبنود. وأمر الأيام فأتمرت، وطافت بكفته واعتمرت إلى أمن وفصاحة، ورحب جناب للوافدين وساحة ونظم زرابي الدر النظيم، ونثر يسري في رقة النسيم، وأيام كأنها من حسنها جمع وليال كان فيها على الأنيس حضور ومجتمع.

وقال أبو طالب بن غالب: كُتب إلى المتوكل بهذين البيتين في ورقة كرنب من بعض الساقين:

انهض أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندا علينا

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا

وقد تقدم ذكر دخول طليطلة في أمره، وانتقاله إليها، ومقامه بها المدة المذكورة، واستمرت أيامه إلى أن تغلب اللمتونيون، المتسمون بالمرابطين، على

(١) في المخطوط: كلب، وهو تحريف ظاهر.

الأندلس، فضيق الأمير سيرين بن أبي بكر ببطليوس بالسرايا والغارات، والمتوكل يطمع بالتمسك بها لقربه من حدود النصارى.

فلما عيل صبره، وعجز عن مقاومتهم، راسل اذفونش ملك قشتالة، وأطمعه ـ زعموا ـ في المدينة، وخرج له عن مدينة شنترين فحصنها العدو وضبطها.

وعندما مكن العدو من شنترين انحرفت عنه الرعية، واتصل عليه الحمل، وضاقت الصدور.

وراسل أهل بطليوس المرابطين، فوصلتها الجيوش، وفتح الناس الأبواب، فدخل القوم عنوة، وقبض على المتوكل وعلى /بنيه وعبيده، واستخرج ما كان له من [١٨٥/أ] مال وذخيرة، وأزعج مع ابنين له إلى إشبيلية، وفي أثناء الطريق، لما بعد من بطليوس، أنزل وأمر بالتأهب للموت، فسأل أن يقدم ابناه ليحتسبهما فكان كذلك، وقتل الجميع صبراً.

وذلك في أخريات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان قد أشخص ولده الملقب بالمنصور إلى بعض مشايخه ليتحصن به، وجعل عنده ذخيرته.

أيام المتوكل بن المنصور عمر بن الأفطس بحصن شانحة

ولما اتصل به ما جرى القدر به في والده وأخويه الفضل وسعيد أبي عمر، وجه إلى ادفونش بأهله، وماله، ودخلوا ـ زعموا ـ في دينه، وصدر معه إلى بلاده بعد أن سقط الحصن برجاله.

وانتهى أمر بني الأفطس، وقد رثاهم الوزير أبو محمد بن عبدون عظيم ملكهم وناظم سلكهم بقصيدة اشتملت على كل قتل، وأشارت إلى من غُدر منهم وقُتل، تكبرها المسامع ويعتبر بها السامع، وهي:

ننشر بالشيء لكن كي تُغربه ... كالأيم ثار إلى الجافي من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم يبق منها وسل ذكراك من خبر

(١) ....

ذكر مدة بني صمادح الأمراء بالمرية

قالوا: كان جدهم محمد بن عبد الرحمٰن بن صمادح بن عبد الله بن المهاجر بن

(١) نذكر قصيدة قرابة الخمسين بيتاً هي في الوعظ والاعتبار بالأيام والممالك والحوادث الطارئة على الإنسان والدول والبلاد، وقد تركتها لا لشيء، إلا لأن قراءتها صعبة نظراً لسوء الخط وعيوب التصوير، وإن كانت ذات فائدة تاريخية غير ما هو مذكور قبل ذلك من القصائد.

عميرة بن شريح بن حرملة بن تميم بن المخصاف بن شبيب بن الدعاف بن سعد بن أشرس الواقع على والده تجيب، عرفوا بأمهم، كذا أثبت نسبهم ابن الصيرفي، وثبت في كتاب المغرب اسم جدهم: أبا يحيى بن أحمد بن صمادح.

فيظهر أن هذه الأسماء الثلاثة متأخرة عن عبد الرحمٰن هذا الذي ذكر ابن الصيرفي، ومتصله به.

وكان جدهم، حسبما ذكر ابن حيان، إذ قال: يحيى بن أحمد صاحب مدينة وشقة وأعمالها وطلعت نباهته في أيام المؤيد هشام. ثم أكد له ذلك سليمان بن الحكم فشق له الوزارة وأقضاه على عمله.

وكان أول أمره مماثلاً لابن عمه منذر بن يحيى يظهر موافقته ومكاتمة جنده لما لا [١٨٥/ب] شيء فوقه، ثم تكاشفا بعد / مضي سليمان، وتحاربا على ملك وشقة، فعجز ابن صمادح عن منذر لكثرة جمعه، وسلم له البلد، وفرّ بنفسه. وأما ابنه معن فيجيء ذكره.

أيام معن بن صمادح أبو يحيى

قالوا: قتل زهير الفتى بظاهر غرناطة على يدي باديس بن حبوس أمير صنهاجة حسبما يأتي ذكره.

صارت المرية دار ملكه إلى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية المذكور كذلك. ونافسه فيما صار إليه مجاهد مولى سلفه، فتحرك إلى بلاد عبد العزيز، وهو يومئذ قبلة الدهر من تركة زهير القتيل.

فخرج مبادراً إلى استصلاح مجاهد واستخلف بالمرية صهره ووزيره معن بن صمادح هذا، فكان شر مستخلف بدار ملك، فلم يكد يوازي عبد العزيز وجهه حتى خانه الأمانة وطرده عن الإمارة، ونصب له الحرب وفارت بها قدامة، واستقر فيها ملكه وخلفها ميراثاً لبنيه بعده.

ثم هلك، وقام بأمره بعده ولده أبو يحيى.

أيام محمد بن معن بن صمادح المعتصم بالله

قال المؤرخ: فارتقى ذروة الخلافة، وتلقب من ألقاب الخلفاء بالمعتصم بالله وبالرشيد.

وقال ابن بسام: ولم يكن أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة في شيء، فإنه أخلد إلى الدعوة، واكتفى بالضيق من السعة، واقتصر على. . . . . .[1] من اللذة واستوى

(١) عبارة غير مقروءة بالمخطوط.

عليه وبرز فيه، غير أنه كان رحب الفناء، جزل العطاء، حليماً عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتسع في شرحه المقال، وأحملت إلى حضرته الرحال.

ولزمه جملة من فحول الشعراء، كأبي عبد الله بن الحداد، وأبي عبادة، وابن الشهيد، وغيرهم.

وكانت بينه وبين ملوك الطوائف فتون مبيرة غلبوه عليها، أخرجوه من هجيبة إليها مكرهاً لم يكن مكانه منها بمكين، ولا صبحه بمبين.

ولما ملك يوسف بن تاشفين أرض الأندلس وعزم على خلع رؤسائها، ونازلت المحلات غرناطة، أمر الأمير يحيى بن واستوا منهم بمحاصرة المرية، والتضييق على المعتصم، فطال به الحصار، وتمالكت حصونها، وجهاتها، فلم يبق بيد المعتصم غيرها، وضاقت بها الأحوال، وشرع أهلها في الفرار.

واعتل المعتصم، ونزل به الموت أثناء محاصرتها، فذكروا أنه نظر إلى جارية عند رأسه تبكي عليه، فقال لها:

عـزِّفـيّ بـدمـعـك لا تـفـنـيـه   فـبـيـن يـديـك بـكـاء طـويـل

وأوصى ولده ولي عهده معز الدولة أن يتمسك بقصبة المرية.

فلما قام ابن عباد متمسكاً بإشبيلية، فإذا أمضى أمره إلى خلعه فليعبر البحر بأهله وولده إلى الجزائر...[1].

وكان قد راسل صاحب الجزائر ووجه إليه أحمد بن عبد العزيز بن عيسون من أهل بلده، فوصل إلى المنصور بن الناصر بن علناس، وهو يومئذ بالقلعة يخطب إليه جواره، والتحول إليه، فتلقاه بالرحب والسعة وخيره في أقطار بلاده.

ثم توفي المعتصم بن صمادح في ربيع الآخر من سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

ولما اتصل موته بالمعتمد بن عباد قال: رجل استصحب حال سعده من قصره إلى قبره، كأن الموت كأس بيده فحين استطابها تجرعها.

وذكر الفتح المعتصم ببعض ما يوجبه الإنصاف لشأنه أبياتاً كتب بها إليه ابن عمار، وقد طال مقامه ضيفاً لديه ومجوداً بسحائب يديه، وهي:

يا واضحاً فضح السحاب الجود في معنى السماح

ومطابقاً ياءً وجوه الجد من طرف المزاح

أسرفت في بر الضياف فجذ قليلاً في السَّراح

(١) عبارة غير مقروءة لاختلاط مداد التصوير.

فوقع له مجيباً ومن فراقه إياه كئيباً:

يا فاضلاً في شكره أهل السماء مع الصباح

هلا رفقت بمهجتي عند التكلم في السراح

إن السماح ببعدكم واللّه ليس من السماح

أيام معز الدولة ابن المعتصم بالله أبي يحيى بن صمادح

ولما توفي المعتصم أقام معز الدولة يصوب ويصعد ويعمل النظر في امتثال وصية أبيه، فجعل يبدي غرضه في نقل زوجه بنت مجاهد إلى دانية ويترك أسبابها إلى المدينة ليكون أقرب إلى الإيساق في البحر.

فلما كمل ما أراده من ذلك، وافاه اليقين بتغلب المرابطين على ابن عباد وخروجه عن ملكه، فأمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى إلى دار الصنعة، وركب بمن اختص به في قطعة وحمل المال والمتاع في ثنتين وأحدق بلق الأجفان خشية الاتباع فأمن عاديتها / [١٨٧/أ] ونزل بالجزائر على البحر، وطائر اليمن إلى أن هلك بمأواه وانقضت أيام بني صمادح.

ذكر أيام بني المنصور محمد بن أبي عامر

وكان هؤلاء البقايا العامريون ولد المظفر والمنصور ممن تخطفهم الملاك عند ثورة ابن عبد الجبار، وسَلمت لبعضهم دنيا عريضة. ولما استقر الأمر لسليمان بن الحكم مدته الأولى أمنهم واجتلبت صنائعهم، وأذن في مواراة شلو عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور، فبولغ بالتنويه به أقصى المبالغة، وأعلن النَّوح لها، وأقامت العامرية لها المآتم الملوكية.

وبرز الطفلان أبناء العم محمد بن المظفر، وعبد العزيز بن المنصور، وأشبهما لا يجاوز سبع سنين، فكانا تحت رَغْي إلى أن اختل أمر سليمان بن الحكم بعدوة عدوهما وقاتل أبيهما محمد بن عبد الجبار إلى قرطبة. فخرج عبد العزيز عنهما، وتأذن الله سبحانه بتجدد ملك كبير لعبد العزيز منهما بشرق الأندلس دام سنين عديدة.

دولة محمد بن المظفر عبد الملك بن محمد المنصور أبي عامر الملقب بالمعتصم

قال ابن أبي الفياض وغيره:

كان محمد جميلاً سخياً، وكان يوم وقعت الأزفة بدولتهم صبياً صغيراً في نحو

سبع سنين، واستقر بالثغر في كنف منذر بن يحيى، ثم انصرف إلى كورة جيان فظفر ببعض أحوازها، وضم إلى نفسه الرجال مستعيناً على ذلك بأموال عظيمة خصلت لأمه كانت تمده بها إلى أن ظهر أمره.

فلما استقل خيران الفتى العامري بقلعة أرقولة ومرسية، ونازع الموفق مجاهد العامري صاحب دانية، وأتيحت لمجاهد عليه الهزيمة عجز عن مقاومته مجاهد. فخاطب محمد بن المظفر يدعوه إلى ملك ما بيده، فأسرع إليه وملكه من أرقولة ومرسية، وخرج له عن الأمر، وصار في جملة من بين يديه.

ثم فسد ما بينه وبين خيران وتغير له حتى حذره خيران على نفسه ففر عنه، وقصد المرية، فاحتل بها ليلة الرابع عشر لربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

ثم تحرك منها إلى مرسية محارباً لمحمد المعتصم، فألحّ عليه حتى أخرجه عنها في السادس من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة.

وذلك أن محمداً أضاع الحزم فخرج عن المدينة وقد داخل خيران من أهل مرسية رجلاً يعرف بعميرة بن الفضل فسدّ الباب دونه، وضبط المدينة باسم خيران.

ولجأ المعتصم محمد بن المظفر إلى أريولة[1]، فصمد إليه خيران.

ولما علم محمد أنه لا طاقة /له بخيران فرّ عنها ولحق بمجاهد، فكان عنده [١٨٨/أ] مدة، ثم توجه إلى البلاد الغربية من جهة الأندلس، فاستقر بحصن دارة، وبها توفي من جدري أصابه في ليلة الجمعة لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة.

وأخبر الإمام أبو محمد بن حزم أنه لما أيقن بالموت، دق جوهراً عظيماً كانت قيمته مالاً نهاية له لئلا يتمتع به أحد بعده، فانقضى أمره على هذه السبيل.

وهو من شرط كتابنا إذ كان ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وكذلك ابن عمه الآتي الذكر.

أيام المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمٰن بن منصور محمد بن أبي عامر

قال أصحاب التاريخ:

كان الموالي العامريون عند ذهاب مجاهد كبيرهم عنهم قد أسندوا أمرهم إلى مشيخة منهم، وتشاوروا في ابتغاء أمير من أنفسهم يعترفون له.

---

(١) كذا في المخطوط، وهو أحياناً يذكرها: أرقولة، بالقاف بدل الياء.

فاتفقوا على ابن مولاهم عبد العزيز هذا إيثاراً له على ابن عمه محمد بن عبد الملك، وكان محمد مقيماً بقرطبة، وعبد العزيز بسرقسطة، فلحق ببلنسية.

واستقبله الموالي أفواجاً ينجعون له بالطاعة وقلدوه رئاستهم سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وكان عبد العزيز هذا من أوصلهم لرحمه، وأحفظهم لقرابته، قد ابتعثه الله رحمة للممتحنين من أهل بيته فآواهم وجبر كسرهم، ونعش فقيرهم طول مدته إلى أن بلغ من ذلك مبلغاً أعيا ملوك زمانه.

وخاطب لأول حينه الخليفة القاسم بن حمود بقرطبة ولاطفه بهدية حسنة، وذكره بزمام سلفه فتقبله، وسماه ذا السابقتين ولقبه المؤتمن.

فتوطد سلطانه، واشتمل على خدمته أربعة من الكُتّاب كانوا يسمون الطبائع الأربع، وهم:

ابن طالوت.

وابن عباس.

وابن عبد العزيز.

وابن الشاكرين.

فنال جسيماً من دنياه، وكان له من جهة سلفه للأمومة ملوك النصارى حظ انتفع به عندما نازعه الأمر مجاهد جاره بدانية، وضيق عليه، واستظهر بجيوش النصرانية في أخبار يطول شرحها.

وفي أيام عبد العزيز هذا، كانت الوقيعة على المسلمين ببطرنة حسبما هو مشهور.

وطالت مدة عبد العزيز إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وتوفي في ذي الحجة منها.

وعهد بالأمر إلى ولده عبد الملك.

أيام عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن أبي عامر

ولما هلك عبد العزيز اجتمع أهل دولته على ابنه عبد الملك وهو صبي لم يبلغ الحلم، فهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

[١٨٨/ب] وقام له بالأمر كله كاتب الدولة والده / المدبر لدولة ابن عبد العزيز المشهور مع معرفته بابن ريس القرطبي وكان موصوفاً بالرجاحة.

فأحسن معونته وتمهيد سلطانه، واستقل أمره وراعى هذا الكاتب الشهم من أمر الدولة في عبد الملك، فكان صهره وظهيره لابن ذنون المأمون إذ كان صهر عبد الملك أبا امرأته المساهم له في نصاب أبيه المعين له على سد ثلمة الراد عنه كل من طمع فيه.

ذكر أيام الدولة المنذرية

قال ابن حيان:

كان منذر بن يحيى رجلاً من عرض الجند، وترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر، وتناهى أمره في الفتنة إلى الإمارة.

وكان أبوه يحيى من الفرسان غير النبهاء، فأما ابنه هذا فكان فارساً لبق الفروسية، خارجاً من حد الجهل، يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة، وأما غوره فالنار برأس البقاع من... [1] غدره بهشام المؤيد رب نعمته.

ولم يقتصر على غدره حتى غزاه في عقر داره، وأنزله عن سريره، وأسلمه لحتفه، وباع دماء أهل قرطبة عشيرته.

وعاد بمثلها لمحمد بن سليمان أثيرة عندما استجار به في نكبته وهو ضيفه، فجاء بها صلعاء مشهورة لم تغسلها معذرة. إلا أنه كان كريماً وهب القُصَّاد مالاً عظيماً فوفروا عليه وعمرت بذلك حضرته بسرقسطة.

فحسنت أيامه، وهتف المداح بذكره.

وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الفرنجة فحفظت أطرافه إلى أن مضى لسبيله.

وفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة قتل منذر بن يحيى، قتله رجل من بني عمه يعرف بعبد الله بن حكم، دخل عليه وهو غافل في غلالة وليس عنده إلا بعض صقالبته وقد أكب يطالع كتاباً ففرّ الخصيان من بين يديه إلا خادماً منهم قتله عبد الله مع المنذر مولاه، وقطع رأس منذر، وأخرجه للوقت، وقعد في موضعه. وقد ركب من خطة الثغر مركباً لم يجرؤ عليه قاتل من قبله أسقطت فتكته كل فتك في الإسلام لوثوبه على ملك جوف قصره وبين يديه أزيد من مائة رجل سوى نسائه، قام بين الجميع كالأسد الورد، فأبلسوا، وبهتوا، فلم يكن من أحد منهم مُدافعة.

وأرسل من حينه إلى القاضي والمشيخة فدخلوا عليه وهو قاعد على فراش

(١) كلمة مختلطة المداد بالمخطوط.

منذر، وهو مزمل في مكانه إلى جانبه، ووصف أنه إنما جرى في سبيل الإصلاح والسدّ لسلطانهم، وأظهر الدعاء أولاً لابن هود.

فأروه قبول ما وصفه وتفرقوا عنه وكلمتهم متألفة عليه إلى أن ثاروا به، وقاتلوه.

[١/١٨٩] فخرج من باب بظهر القصر، ونجا بفاخر ما اشتمل عليه من / ذخائر إلى منذر، ولحق بحصن روطة، أحد معاقل سرقسطة المنيعة، وقد كان أعده لنفسه.

فقام به برصد الفتنة جهده، وجمل معه أخوين لمنذر: قبيلة، وأبا المغيرة بن حزم، ووزير منذر، وغيرهم مقيدين، فحبسهم عنده يطالبهم بالأموال.

ونهب القوم قصر سرقسطة إثر خروجه، حتى قلعوا مَرْمَرَهُ، وطمسوا أثره.

وبادر ابن هود، فتملك سرقسطة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وقال ابن حيان فيه:

كان قد ساس عظماء الفرنجة فحفظت أطرافه إلى أن مضى لسبيله، وثغره مسدود لا ثغر فيه.

وبلغ من استمالته الطوائف النصرانية أن جرى على يده بحضرته عقد مصاهرة لبعضهم فقرضته الألسنة إلى أن ألوت به المنية. فاعترف الناس برأيه، ولم يأت بعده من يسد مسده.

واشتمل منذر على قواد تلك الثغور، فاستوثقت له الأمور، واستكتب عدة من الكتاب النبهاء، وقصده أكابر الشعراء، وفيه يقول أبو عمر بن درّاج قصيدته لما صرف إليه وجهه وقدم عليه سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وهي:

بشراك من طول الترحل والسرا ... صبح بروح السَّفر لاح فأسفرا

من حاجب الشمس الذي حجب الرجا ... فجرى بأنهار الندا متفجرا

قاد الجنى على الندا ثم اعتلا ... سبل العُفاة مهللاً ومكبرا

لبيك أسمعنا نداك ودوننا ... نوء الكواكب مخوياً أو ممطرا

.... (١)

[١/١٩٠] / . . . وعلى ما تقرر من قتل منذر أكثر الحكايات إلا أن صاحب «المغرب»

---

(١) في قصيدة مدح وثناء وإطراء نيفت على الخمسين بيت ليس فيها من أخبار التاريخ أو مواضعيه شيء إنما هي على عادة الشعراء في استجلاب الأموال من الحكام أو الملوك بالفخر والتفخيم والتعظيم الذي ليس له من الحقيقة أي نصيب، فتركتها لسوء الخط فيها، وإنما ذكرها المؤلف لكونه منشغل بالأدب.

ذكر في كتابه في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة حديثه إلى المنذر فقال ما نصه:

وذلك أن أمر سرقسطة كان إلى رجل من التجيبيين مسمى منذر بن يحيى، فكان من قواد الدولة العامرية، ومات أهل البيت، فورث مكانه ابنه يحيى بن منذر، وكان سِنّه فيما ذكر سبع عشرة سنة، فسمي بالحاجب معز الدولة، فاحتقروه وتواطئوا على قتله مع كبير منهم، دخل يوماً للسلام عليه فضربه بسكين في صدره كانت سبب منيته. وخرج هذا القاتل فاجتمع عليه بنو عمه وولوه أمرهم.

وكان عاهر الفرج، فأنكروا فعله وقام عليه أهل سرقسطة، وهموا بقتله فخرج فاراً بنفسه.

وأقام أهل سرقسطة دون أمير، فبعثوا إلى سليمان بن هود فولوه على أنفسهم فبقي / أميرهم إلى أن مات. [١٩٠/ب]

فإن كان ما ذكره صحيحاً فيظهر أن منذر بن يحيى ولي بعده ولد له أو أخ يحيى لأبيه.

فجرت عليه الشبيهة بالحادثة عليه. وإلا فهو وَهْم من المؤرخ، والمشهور في ثوار الأندلس، وملوك الطوائف، إنما هو منذر بن يحيى.

ذكر شيء من حديث بني طاهر بمرسية

وكان هذا البيت بمرسية بيت أعلام، وحملة سيوف، وأقلام، تفرقت الجماعة بقرطبة وخرجت الحادثة على الدولة العامرية، ولجأ فتيانها إلى شرق الأندلس واستقر منهم خيران العامري بمرسية ثم انزعج عنها حسبما يتبين في موضعه، وتغلب عليها الرئيس أبو عبد الرحمٰن بن طاهر.

وكان صدر زمانه، والمثل السائر في بلاغته وبيانه.

فأجرى أمور بلده وذهب فيها من العز إلى أمده مستعيناً بوافر نسبه، وسائراً من الحزم على مذهبه إلى أن فسدت حاله مع جيرانه، فحسدوه، وموردي الردى أوردوه، وخاطبوا المعتمد على الله محمد بن عباد.

فوجه إليهم وزيره ابن عمار، وابن رشيق قائد عسكره، وثار البلد على ابن طاهر، وقبض عليه واستولى ابن عمار على مرسية وسولت له نفسه القيام بها على المعتمد ووجه إليه الجيش، وخاطب ابن رشيق في شأن الوثوب به، فترصد غرّته، وقد خرج عن مرسية، فملكها، ثم استأثر بها إلى نفسه حسبما تقدمت الإشارة إليه.

وتأتي في هذه التقلبات الخروج من الاعتقال لابن طاهر فلحق بابن عبد العزيز جاره ببلنسية وهو أيضاً كبير ذلك القطر وعين الأعيان والمشار إليه بالبنان.

قال الفتح في القلائد:

وعندما خلص من ذلك الشقاق خلوص القناة من الشِّقَّاق، جنح إلى الاستقرار ببلنسية إلى أن لحقته بها الحادثة، فأسر وبقي عند العدو مدة، ثم سنى الله خلاصه بقلة الطمع فيه لذهاب ذات يده، فلحق بشاطبة، ثم عاد إلى بلنسية، فأقام بها إلى أن توفي سنة سبع وخمسمائة، وقد نيف على التسعين سنة.

وكان رحمه الله فصيح القلم، ظريف التوقيع، خفيف الروح، عذب النادرة والفكاهة، حسبما يظهر ذلك من كتاب القلائد والمطمح.

ذكر شيء من حديث بني عبد العزيز

وكان الوزير أبو بكر عبد العزيز أحد رجال الكمال بالأندلس، وعين بلنسية التي بها تبصر /ولسانها تصمت به وتحصر. [١٩١/أ]

وكان طاغية الروم...[١] لرؤساء أهل الأندلس يكثر مداخلتهم إياه في أمر بلادهم، يقول إذا جرى ذكره رجال الأندلس: ثلاثة فيبعد فيهم ابن عبد العزيز.

ولما فرّ المتوكل بن المقتدر بن ذنون عن طليطلة وسوغها لصاحب قشتالة، لجأ إليه ببلنسية، وقد كان بها وزيراً لأبيه فكنفه، وقام بأمره.

وكانت آثار ابن عبد العزيز على الجملة هيلة. وكان نائباً لأبي الحزم بن جهور وشبيهاً له في الجهة الشرقية حمل جهته على سداد، وقام بها بحال استبداد، فطاول الجبال والآكام، وفل السيوف بالأقلام.

وكانت وفاته ببلنسية في العشر الأواخر من جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وأخبار ابن عبد العزيز شهيرة وآدابه في الشهرة كشمس الظهيرة.

أيام القاضي أبي أحمد بن جحاف رئيس بلنسية

وهو ثالث القوم ابن عبد العزيز، وابن طاهر، وفي نمطهم، وكان قاضي حضرة بلنسية، وله فيها الأصالة الماجدة الناطقة بالقدم الشاهدة، وكان قد سيم عدو الله الكنبطور ببلنسية، وسومه أهلها خطة الخسف، وسيم الذل، وضاق صدره بحفيد ابن ذنون المنتقل إليه بعد تمكين النصارى من طليطلة، فقوي بمكان دولة اللمتونيين، وانتشل على أيديهم كشف المحنة والخروج من الذل الكنبطور متعبد أهل بلنسية وحالب ضروع جباياتها بمصارمته.

---

(١) كلمة غير مقروءة لتراكب مدادها بالمخطوط.

فاستدعى محمد ابن عائشة، قائد يوسف بن تاشفين، فوجه إليه جمعاً من المرابطين وبرز الناس إلى لقائه، وفر عند ذلك حفيد ابن ذنون من قصره، وثار البلد به، وعثر عليه، فقتل بأمر القاضي ابن جحاف كما تقدم.

وتمت بمقتله الرئاسة في البلد لابن حجاف فرتب الأجناد والخدمة، واستشعر أئمة الملك، وعين الألقاب، وحذا حذو ابن عباد بإشبيلية، فلم تساعده الأيام.

وخاطبه عدو الله الكنبطور يُهنيه على ما تهيأ له، وفي قلبه من استظهاره بسلطان لمتونة النار المضرمة.

وأخذ يعرض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه من قتل سلطانه، ويطلبه بالأطعمة التي كانت له بحصون بلنسية، انتهبها رجاله في حال الحادثة.

فراجعه أن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والأطعمة قد انتهبت. فكتب إليه الكنبطور يقسم بحرمات أيمان دينه لا يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ويأخذ ثأر ابن ذنون.

وخاطب من يجاوره من أهل الحصون الذي لا / طاقة له يستمد الأقوات [١٩١/ب] للمحلة إلا منها، ثم كاد الكنبطور عدو الله تعالى ابن حجاف وخدعه، وداخله في إقامة أَوَدَهُ وتوطيد ملكه إذا صرف اللمتونيين وأزعجهم أنه يسوغه استبداده بالملك ويقيمه.

وقام ابن ذنون يقاتل عنه يريده، وكان استثقل القوم، وضاق بمؤنتهم، ففعل. وعند ذلك استنصر بالقصبي عليه، فعظم الغلاء، وتضاعف البلاء، واستصرخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

فبعث إليهم جيشاً عظيماً أُتيح للكنبطور عليه الظهور.

فأيقن الناس بالهلكة، واشتد عليهم كَلَب العدو إلى أن استنابوه لأنفسهم، وخرج إليه ابن حجاف وأحكم معه العقد.

ودخل العدو المدينة جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

وتجهزت إليه جيوش المسلمين ثانية، فما أغنت، وفازت بها قداحه، ولما تمكن فيها سام أهلها سوء العذاب واستخلص أموالهم، وأذاقهم وبال أمرهم بما هو معروف.

واعتقل القاضي أبا المطرف جعفر بن حجاف وعم بالنكبة جميع قرابته وأهله وطلبه بمال حفيد ذنون، فلما استصفى جميع ماله من ظاهر وباطن، أمر بإضرام النار، وسيق القاضي أبو المطرف يوسف في قيوده بين أهله وولده وقد حشر الناس من أهل الملتين.

وقال الكنبطور للملأ: ما جزاء من قتل أسيره عندكم في شرعكم؟

فصمتوا، فقال: أما نحن فجزاؤه عندنا الإحراق. وأمر به، وبجملته إلى تلك النار، وقد لحفت الوجوه على المسافة البعيدة. فضج المسلمون، والنصارى، وتضرعوا إليه في ترك الأطفال، والعيال، إذ لا ذنب لهم، فأسعف الرعية بعد جهد ومدة، واحتفر للقاضي أبي المطرف حفرته وأدخل فيها إلى حجزته وسوى التراب حوله وضمت إليه النار، فلما لفحت وجهه قال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم ضمها إلى جسده فاحترق رحمه الله.

ولم يكن غضبه عليه إلا لاجتهاده في طلب النصر، ودفعه إياه بالمطاولة.

وجاء في استمساك البلدة للإسلام واستبقاء الكلمة فيها.

وعهد بعد إحراقه إلى الجلّة من أهل بلنسية، فثقفهم بحال تفرقه بين سجون الرجال منهم والنساء، يتجاوب صراخهم أمام المحنة، حتى استأصل جميع ما عندهم وجعل الناس في الضغط إمرة على طبقاتهم، وهلك في الثقاف خلق كثير منهم رحمهم الله، وذلك في أخريات السنة.

ذكر شيء من أخبار بني رزين

[١/١٩٢] / قال ابن حيان:

وقد ذكرنا أبا مروان من رزين الملقب بحجاج الدولة، كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين صاحب الحملة، وسطه ما بين الثغر الأعلى والأدنى بقرطبة، وكان من أكابر برابرة الثغور، ورث ذلك عن سلفه، ثم سما لأول الفتنة إلى اقتطاع عمله والإمارة بجماعة، والتشبه بجاره إسماعيل بن ذنون في الشرود عن سلطان قرطبة.

فاستوى له من ذلك ما أوله هو وغيره إلاّ أنه كان مع تعززه على هشام لم يخرج عن طاعته، ولا وافق منذراً وأصحابه على التمالؤ عليه إلى أن ظفر سليمان بهشام المؤيد المخلوع آخر القوم بقرطبة، فسلك مسلكهم ورضي منه بذلك سليمان، وعقد له على ما في يده لعجزه عنه.

وتمرس منه منذر بن يحيى وطمع فيه فأجازه منه منعة معقله، وسَلِمَ من معرة الفتنة أكثر وقته، وتحطته الحوادث لقوة سعده، واقتصر مع ذلك على ضبط...[١] المرسوم بولاية ولده، وترك التجاوز لحده، والامتداد إلى شيء من أعمال غيره،

(١) كلمة غير مقروءة في المخطوط.

فاستقام أمره وعمر بلده، وانظر بعد جمهور الثوار بالأندلس مدة الحياة، وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من سهلته المنسوبة إلى بني رزين سلفه لاتصال عمارتها، فكثر ماله.

ونازعه جاره وشبهه إسماعيل بن ذنون في جميع المال، ومنافسه في خلال البخل، وفرط القسوة.

وكان شاباً جمل الوجه، حمي الأنف، غليظ العقاب، صار إليه أمر والده منبعث الفتنة وهو فتى كما اجتمع وجهه فأنجده الصبى على الجهالة، وقواه الشباب على البطالة، فبعد في الشر الشرور شأوه.

ولم يخالف أحد من الأمراء على آداء الأتاوة، ولا حظي أمر الفتنة بسوى إقامة الدعوة فقط إلى أن مضى إلى سبيله، والأخبار متتابعة بجهله وفظاظته حتى زعموا أنه سطى بوالديه، وتولى قتلهما بيديه.

وكان بارع الجمال، حسن الخَلْق، أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات.

وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس.

وتصير أمره إلى الحاجب ذي الرياستين أبي مروان عبد الملك بن رزين بن حسام الدولة، وعندها احتفل مجدهم، وبلغ النهاية في الإشراف نجدهم.

ذكره الفتح في القلائد، فقال فيه:

ورث الرئاسة عن ملوك عهدوا موازرهم، وشدوا دون النساء مآزرهم، لم يتوشحوا إلا بالجمائل، ولم يجنحوا اللباس إلاَّ في أعنة الصبا والشمائل، ركبوا الصعاب، وابتغوا سبباً للنجوم حتى انتعلوها فملكوا الملك بأيدٍ وعقلوه من النجدة بقيد، وكان / ذو الرئاستين منتهى فخارهم، وخطيب ثوارهم. [١٩٢/ب]

وأما شعره، فأخبر الكاتب أبو جعفر بن منصور:

أنه أصبح يوماً بحضرته. . .[1] والربيع على الأرض موش، وقد صقل الغمام والأزهار حتى أذهب تماسكها وسقاها فأروى عطشها، فكتب إليه:

فديتك لا يستطيع النظم والنثر — فأنت مليك الأرض وانفصل الأمر
شربنا نداك الغمر فانسل طرباً — كما سكبت وطفا أو فتق الفجر
وجاء الربيع الطلق يند إعطاره — تجيبك عنه الشمس والروض والنهر

(١) كلمة غير مقروءة لاختلاط مدادها بالمخطوط.

وما منهم إلا إليك انتماؤه حيتك والجنود المتمم البِشر
خلا منك وقت قد مضى بغيومه فلما أتت أيامك ابتسم الزهر
فنشرت آمالي بملكٍ هو الورى ودار من الدنيا ويوم هو الدهر

فأجابه:

إليك فلولا أنت لم ينظم الدُّرُّ ولا التام في مدح نظام ولا نثر
إذا قلت لم ينطق فصيح مذرب ولا شامخ في سمع غناء ولا زمر
لك السبق فكم روضت من عاطل الرُّبا وحللت من سحر إذا حرم السحر
ولما ملكت القول قسراً وعنوة أطاعك جيش النظم وأيتم النثر
فلا نقل إلا ما تقول بديهة ولا خمر ما لم تأت من فمك الخمر

وكبا به فرساً يوماً وقد طارد صيداً، فسقط سقطة أوهنت قواه ودعته إلى ملازمة مثواه، وبلغه أن أحد حساده شمت بوقعته، وسر بصرعته، فقال:

إني سقطت ولا جبن ولا خور وليس يدفع ما قد شاءه القدر
لا يشمت حسودي إن سقطت فقد يكبو الجواد وينجو الصارم الذكر
هذا الكسوف يُرى تأثيره أبداً ولا يعاب به شمس ولا قمر

ذكر بني قاسم أصحاب مدينة البُنت(١)

منهم: نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري، ولم تزل في أيديهم من أول البنتية.

وكان أول من نائل بها وبنى الرئاسة لقومه بسببها عبد الله هذا المذكور إلى أن هلك سنة إحدى / وعشرين وأربعمائة. [١/١٩٢]

ثم ولي بعده محمد ابنه الملقب بيمن الدولة، واستمرت أيامه فيها في جملة ثوار الأندلس وأولى طوائفها إلى سنة أربع وثلاثين.

ثم ولي بعده ولده أحمد بن محمد بن عبد الله الملقب بعز الدولة.

قال أبو مروان بن حيان عند ذكره:

وألقاب سلفه مياسم مهولة لمن حظه من الدنيا عدة أبرية تحيط عينه بها من جوف مرقبته، هلك هذا الفتى بمرقبته الشاهقة بخطه لم يُمْل له بعد أبيه.

---

(١) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: البُنْتُ: بلد بالأندلس من ناحية بلنسية ينسب إليها أبو عبد الله محمد البُنتي البلنسي الشاعر الأديب.

وكان موته في رجب من هذه السنة، فنصب أصحابه بعده ابناً له صبياً ابن سبع سنين أو نحوها، يسمى محمداً، وسموه بالإمارة مكانه، وتخطوا بها عمومته له، وآثره بها شيخ دولتهم المسمى بقاسم جد هذا الغلام لأمه، ودبر الأمة باسمه شهوراً ليبقي النعمة على ابن ابنته المؤمر إلى أن يدري.

فأتى عمه ابن محمد من ذلك وواطأ في السر جماعة من أصحاب أخيه على الوثوب بقاسم هذا، وإزالة ابن ابن ابنته والكون مكانه خوفاً على ما في أيديهم، فتهيأ له ذلك فيما بلغني آخر هذه السنة.

ووثب بقاسم فقيده وحبسه، وصرف الصبي ابن أخيه إلى حجر أمه ونكحها، فاستصلح إلى والدها المحبوس في يده وخلى عنه، وأعاده إلى حاله مع أخيه صهره الأول وقام بالإمارة مقام أخيه الهالك، فانتظمت له سريعاً، واستصلح إلى الملوك حوله وتسمى نظام الدولة، فاتصلت ولايته.

قلت: هؤلاء الرؤساء أشهر من كان على أثر انقراض الدولة الأموية من رؤساء الطوائف بالأندلس ما بين متناهي الخلافة جارى كبار الملوك في اتساع الخطة وكثرة الجباية وتوفر الجيش، وانتشار الشهرة، واحتفال المباني والآثار، واستخدام الكتاب والشعراء، ومحاورة العلماء، واختيار القضاة الفضلاء كبني عباد، وبني هود، وبني ذنون، وبني الأفطس، وبني منذر، وبني جهور، من أخدان السداد والعافية ومن أمثالهم بني عامر، وكان على عهد هؤلاء جملة لم تبلغ هذا المدى في الشهرة ولا برزت في ميدان الذكر، منهم:

ابن أبي الحجاج الشنياطي القائم بمدينة لاردة.

ومنهم أبو الأصبغ بن مزين، وموسى أخوه.

وكان أبوهما قاضي شلب وحصون الغرب، تسمى أحدهما بالمظفر، وانفرد بالأمر دون أخيه إلى أن غلب عليه المعتضد سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

فكانت مدتهم تسعاً وثلاثين سنة.

ومنهم: أبو عيسى بن ليون صاحب قلعة عبد السلام من الثغر قرب وادي الحجارة.

ومنهم سعيد بن أحمد بن زنفل الجماني المنتذي بقلعة شقورة المنيعة / من [١٩٢/ب] أطراف جيان.

ومنهم عبد الحميد بن منثور الدابري.

ومنهم يحيى بن عمران الدابري، المقترن بصخرة بن السراب المسماة بقراشي على باب قرطبة.

والدابري، والدوابر عند أهل الأندلس هم الصعاليك الذين يثورون في الحصون فيقطعون الطرقات، ولا يعطون طاعة.

ومنهم ابن بطال صاحب حصن الشوط من موسط كورة الغرب.

ومنهم المعروف بابن أخي حصاد صاحب القلعة المنسوبة إليه وسط كورة شدونة.

إلى عدد كثير شق علينا ذكرهم مع عدم الشهرة.

ومنهم عبد العزيز البكري أبو مصعب صاحب شلطيش استمرت حاله في رغادة من العيش لرضا أهل بلده به إلى أن تحرك إليه ابن عباد، فرأى أبو مصعب يزداد قدره على مدافعته، فخرج عنها وانتقل إلى قرطبة بأهله وولده.

ومنهم أبو نصر بن يحيى المسمى بالحاجب، ولي بعد أخيه، ثم بعد أبيه، رخي البال، صالح الأحوال، إلى أن أخرجه عنها ابن عباد.

وكانت مدة بني يحيى خمساً وأربعين سنة.

وقد مر ذكر ابن عمار، وابن رشيق، ونحن نذكر بعد هؤلاء من أمكن من موالي الملوك العامريين.

ذكر من تيسر من ملوك الموالي الأمويين والعامريين

نقول:

انتهت الشهرة في هؤلاء المماليك العامريين إلى الأمير خيران بعد انقراض الدولة العامرية، وكان ممن تخطته المقالة عند خلع هشام واستيلاء سليمان بن الحكم على قرطبة، وقتل من قبض عليه منهم، وأنجاه الفرار له عن الحضرة.

وكان نال بباب هشام الرياسة والقيادة على الصقلب والمشاركة في جماعة الفحول التائبين على الدولة.

فخلص من الحضرة مفلتاً بعد أن تضمر بها وخفي مكانه، وقد اتصل به افتراء أصحابه بشرق الأندلس.

فذهب إليهم عن تؤدة، وأبت له همته الانقياد لأحد من رؤساءه إذ كان منذ صباه في دار سلطانه أشهم أبناء جنسه نفساً وأعلاهم همة، فاستقر مصحباً بمن أخرجه من طرف كورة تدمير.

وكتب إلى جماعتهم من محل تخيرهم بمكانه بينهم وبين عدوهم من البرابرة ساداً لثغرهم، ويسألهم الإعانة على ذلك بشيء يذودهم عن كورة تدمير.

ففعلوا، واستقر خيران بذروة أرْيُولة وهو مثل في الحصانة والمنعة، وأقبل إليه ثوابت الفتنة من الدابرة والصعالكة، أقدم بهم على الكبير، وزاول جسام الأمور، فاعتلى قدحه، واشتهر أمره إلى أن استولى على الجهة. /ووجه له صاحب قرطبة [١/١٩٤] موسى بن مروان بن حديد، وكان في الصرامة والجرأة آية، وكان بينه وبين خيران وأصحابه وقيعة أجلت عن أمر موسى بن جرير، وقتل أصحابه ونصر خيران نصراً عزيزاً اعتلا به.

ثم تغلب على مرسية فكثف جمعهم.

ثم صرف وجهه إلى طلب المرية متصل الأندلس، وكان بها أجلح الصقلبي من هؤلاء رجل جلف شديد العتو والجهالة، مفرط النخوة، لا يحسن التفرد والاستقلال بنفسه، قد ذهب به العجب كل مذهب، ورأى لنفسه الفضل على سائر جنسه

بالشيخوخة، وقديم الملكة، فاستهان الناس.

فتعبأ له خيران في جيشه من مرسية غرة المحرم سنة خمس وأربعمائة فنازله ودخل المدينة، وتغلب على القصبة.

فقال أفلح وولده، وحازماً وجد فيها من مالٍ وعدة، وهتف في رعيتها بالأمان، واتخذ المدينة وطناً، نزله برجاله وماله، واستخلف على ما انصرف عنه وعول على المرية فأحسن ضبطها وحصَّن قصبتها، وسد عوراتها، إلى أن صيرها في الحدّ الذي هي اليوم فيه، فلا يرام التعلي بها.

واتخذها قاعدة لسلطانه، وحمل إليها أموال عمله، وعدل في سيرته، ورفق برعيته، واستوسع فيما يليها من الأعمال وضبطها مع عمله الأول بجيشه ورجاله.

واستعان على تدبيره بوزيره الشهير الدهاء والرجاحة عباس بن أبي زكريا، إلى أن نال بصحبته فوق ما ناله مجيل قلم من صحبة ملك حسبما هو مشهور.

وجرت بين خيران وبين من يجاوره من أمراء صنهاجة، بكورة البيرة، حروب، فلم يعلو من صرمه.

وله بالمرية الآثار الخالدة، والحسنات الشهيرة، فهو الذي أوصل إليها الماء، وبنى الحمّة العجيبة، وفي أيامه بلغت من العمارة والقوة وفشو الصنائع ما هو مشهور.

وكان مذهبه في الجود قصداً، لم يشتهر بكرم ولا وصم بلوم، وكان أغلبها إلى الخير.

عليه دهية وشجاعة ومصافة، اجتمع له إلى شجاعة النفس جودة الرأي وحُسن التدبير، فكان أكثر عمله في حروبه على المكر والتدبير والمخادعة، وهو رأي أولي المعرفة بها من الملوك الحَزَمَة.

وكان مذهبه مع جلالة شأنه الخفض من حاله، والقصد في أسمائه، فما كان يسامي في شيء مما يسامى فيه أملاك زمانه من ملوك الفتنة إلاّ ما كان من وصفه بالخليفة وبالفتى الكبير.

وإياه مدح شاعر الأندلس أبو عمر بن أحمد بن درّاج القسطلي، صدر سنة سبع وأربعمائة يصف محنته في ركوبه / البحر إليه بمنية، وهي: [١٩٤/ب]

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران ... وبشراك قد أولاك عز وسلطان

.... (١)

(١) في قصيدة مدح وثناء وإطراء نيفت على الستين بيت استغرقت الصفحة [١٩٤/ب] والصفحة =

/ . . . واعتل خيران بالمرية أشهراً، يقيم رسمه للناس عباس بن أبي زكريا، [١/١٩٥] إلى أن توفي بها ليلة الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وكانت مدة ولايته بها أربع عشرة سنة، وصار ملكه إلى زهير الفتى.

أيام الفتى زهير العامري

ولما توفي خيران اجتمع أحمد بن أبي زكريا بأهل العقد والحل، وعرفهم بموت خيران، وبأنه قدم أخاه زهير.

قال: فرضي الناس، وكان زهير فاضلاً شهماً، داهية، شديد المذهب، مؤثراً /للأناة، عالي الهمة. [١/١٩٦]

وكان خيران قد استقدمه وهو أمير بمرسية ورشحه لمكانه.

فقام بالأمر أحمد قيام يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى سنة تسع عشرة.

ودامت مدته عشرة أعوام ونصفاً.

وله في المرية آثار جميلة، وهو الذي بنى المسجد الجامع بها، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة.

وكان يشاور الفقهاء ويعمل بقولهم، وامتدت أطناب مملكته من المرية إلى قرطبة ونواحيها وإلى شاطبة وما يليها إلى بياسة إلى الفج من أول طليطلة.

ودبر أمر قرطبة منفرداً به أيام الفتنة، والاستغناء عن الخلافة، وسكن قصرها يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر، إلى أن فسد ما بينه وبين باديس بن حبوس من الحلف القديم.

وراسله معاتباً ومستدعياً تجديد المحالفة، فسارع زهير نحوه، فوضع الحزم واغتر بالعجب ووثق بالكثرة، أشبه شيء يمحي الأمير الضخم إلى العامل من عماله، قد ترك رسم الالتقاء بالنظر أو أعرض عن ذلك كله، وأقبل فتجاوز الحد بين العلمين من غير إذن باديس وصير الأوعار والمضايق خلفه.

= [١٩٥/أ] معظم الصفحة [١٩٥/ب] وليس في القصيدة ما يلزم نشرها في هذا الكتاب، وقد تركتها نظراً لسوء الخط، ورداءة التصوير، وهي من قبيل الأدب أو مجالها كتب الأدب ودواوين الشعر وهذا كتاب تاريخ كان يجب فيه الاقتصار على بيت أو بيتين على الأكثر لبيان جودة الشاعر أو بيان صفة المقصود به القول، والله أعلم.

ولما وصل إلى غرناطة وخرج باديس في جمعه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعده حاصلاً في قبضه، وبدأه بالخيل وأوسع عليه وعلى رجاله في القِرى والقضيم بما يمكن اغترارهم، ووقعت المناظرة بين زهير وباديس.

فنشأ عارض الخلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره على التشطط.

فعزم باديس على لقائه...[1] لحاه من لا يشعر وقطع في الطريق خلفه قنطرة لا محيد له عنها وغاداه على تعبئة محكمة، فدهش زهير وأصحابه لكنه أحسن تدبير الثبات وقام فنصب الحرب وثبت في قلب العسكر وقدم خليفته هذيل بوجوه أصحابه الموالي العامرية وعرف صنهاجة أنهم الحماة والشوكة ومتى حُصدوا لم يثبت من وراءهم، فاختلفوا بهم، واشتد القتال، فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة ليرى قدرته، فانهزم زهير وأصحابه وتقطعوا وأعمل السيف فيهم فمزقوا، وقتل زهير، وجهل مصرعه.

وغنم باديس من المال والخزائن والأسلحة والعدة والحلية والغلمان والخيام ما لا يحاط بوصفه.

وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال من سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية البُنت من خارج غرناطة.

[١٩٦/ب] واتصل خبر هذه الوقيعة بأهل المرية فضبطوا بلدهم وأسندوا أمرهم /إلى شيخهم أبي بكر الدهيمي، فضبط المدينة إلى أن كاتوا عبد العزيز بن أبي عامر، المتقدم الذكر، فجاءها من بلنسية حسبما ذكر في اسمه.

أيام أبي الجيش مجاهد العامري

ومجاهد العامري هذا، صاحب ملقية والجزائر الشرقية، ذو الأخبار الفخمة، والوقائع الشهيرة.

قال أبو مروان: كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل من أشبهها العلم والمعرفة، لم يكن في الأحرار ولا في الموالي أثبت قدماً منه فيها، يكاد يربي على متقلدها، من أكابر العلماء في وقته، لا سيما علم العربية فإنه تحقق به إلى ما يصير به من علم القرآن قراءته معانيه وغريبه وتفسيره، قد عُني بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله، فكان في النهاية من البصر به.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، وأتت إليه العلماء من كل

(١) كلمة غير ظاهرة بالمخطوط.

صقع، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم، ومشهور طبقاتهم:

كأبي بكر المغربي.

وابن عبد البر.

وابن معمر اللغوي.

وابن سِيدة.

فشاع العلم في حضرته حتى فشى في جواره وغلمانه، فكان له من الصنفين يقومون على قراءة القرآن ويشاركون في فنون من العلم يحملونه بها ويشرفون دولته.

ومنها التقدم في الفروسية والحذف في معانيها، فلم يك في ملوك الزمان فارس يعدله شكلاً ولباقة ورأي وهيئة وسن عمل في السلاح وتقليباً له إلى حد بأبواب الثقافة والرماية وتدقيق لمعانيها، وتسمى أول انتزاله بالجزائر بذي الوزارتين، خطته التي رَقَّاه إليها بعض ملوكهم.

وكان شديد الوطأة على رعيته، سام أهل الجزائر الخسف فسطا بوجوههم، ورؤسائهم، وألزم قلوبهم الرهق لما خافهم على دولته بقريب من التعبد والسياسة، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ـ وكانت عمدة أموالهم ـ فكتبها منعوتة فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً حتى يكتب على رَبِّه بنعته ويلزمه تربيته، والقيام عليه، إلى أن يصلح للرياضة فيقبض منه عند ذلك ويعطى عنه خمسة دنانير دراهم لا يزاد عليها في وقت ولا يبرأ منه إن نفق إلا ببراءة من ثقة.

ولقد قطع أذن رجل لقطعه أذن مهر، طلب التشويه بخلقه.

وأكثر التخليط في ذات أمره، فطوراً قلبك مخبت متبرىء من الباطل كله، منقطع إلى الجد وأهله، لا يستريح إلا إلى جزء يقرأه ودفتر يطالعه، أو عالم يذاكره.

وتارة لا يستأنس بشيء من الجد، ولا / يعرف غير المباطلة واللهو. [١/١٩٧]

وكان مذهبه في الجود قصداً لم ينهمك فيعزى إليه، ولا يكره عنه فيوصف بضده، فأعطى وحرم وجاد وبخل، ووضع الأشياء مواضعها، فكأنه عاين عهده الذم. وكان مع أدبه وعلمه أزهد الأمراء في الشعر وأنكره على منشده، لا يزال يتعشقه فنقده كاشفاً عن لفظة، أو شبهة، أو سرقة، أو إحالة، فأقصرت الشعراء لذلك.

وغزا، رحمه الله، إلى سردانة جزيرة الروم، وهي عظيمة، مسيرتها ثمانية أيام وفيها ملوك الربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة، افتتحها في مائة وعشرين مركباً حمل فيها ألف فارس.

ففتح أرضاً جليلة، وضرب على بعض ملوكها جزية.

وتجاوز حدها فاختط مدينة واسعة وشرع في بنائها، وانتقل إليها بأهله وولده بعد أن غنم وسبى ما لا يأخذه الحصر، إلى أن كثر في زمانه السبي، وبخست فيه الأثمان.

وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة، واستجاشوا. وبلغه من أمرهم ما لا يطيقه، فعزم على التحول إلى محله، والقفول إلى دار ملكه بدانية. فأعجله العدو عن ذلك وقطع به.

فكانت عليه وقيعة شنيعة، وظهور ما سمع بمثله، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى، وملكوا أسطوله، وتنقدوا، واستولوا على حريمه وفيهن نساؤه وبناته، وعلى ولده، وجُود[1] أمه النصرانية.

افتدى بعضهن سريعاً وتأخر البعض، كولده علي، فإنه وقع في سهم صاحب الألمانيين، وهم أمة من الفرنجة تلي صقلية يسمع أن دارعة مقاتلتهم ثمانون ألفاً، فاحتبس به للمباهاة، وأعْيَ على والده فِدَاؤه، وقد بذل عليه عشر آلاف إلى أن قبض بعد زمن طويل.

ولم يخلص من أسطوله أجمعه إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب.

وكان شحنة الأسطول المفلول من سبي سردانية يوم ظهور العدو عليه ثمانية آلاف فارس.

وكان مجاهد قد نصب بمحل ملكه خليفة دعا الناس إليه، وهو الفقيه أبو عبد الرحمٰن عبد الله بن عبيد الله بن الوليد، المعيطي المديني، أحد من أزعجته الفتنة من رجال الأشراف بقرطبة، وكان في عدد الفقهاء المشاورين بها، قيضه خليفة، وأخذ له على الناس البيعة في جميع عمله بدانية وميورقة وغيرها، وسماه: المنتصر بالله، وأثبت اسمه في سكته وفي أعلامه، وذلك أول سنة خمس وأربعمائة بدار ملكه.

فلما عاد منكوباً من غزوته سردانية، ألفاه قد استبد، وداخل الناس، وعمل على إبادته، فبادر المعيطي عند وصوله إلى الساحل / وهو ذاهل عنه، وهجم عليه [١٩٧/ب] وأقلعه عن مجلسه وقبض عليه[2] وعلى من شايعه من أصحابه، وتسلم منه سلطانه وعاقبه في سوء ما كافأه به، وعدد عليه يده، فاعترف له بهمومه به.

---

(١) كتب فوق هذه الكلمة في المخطوط بخط دقيق كلمة «اسم». يريد أن كلمة «جُود» هو اسم أم مجاهد وهي نصرانية، وقد سباها العدو ضمن من سبى من النساء والذرية.

(٢) تكررت عبارة: «وقبض عليه» في المخطوط فحذفت التكرار.

وقال له: بلغني ما أحدثته بعدي من العبث بالناس، والاستيثار بالفيء، والمجاهرة بالمعاصي، فلم يسعني إنظارك، وأردت قبض يدك عن ظلم العباد، وعلى ذلك بايعتني، ولا موادة لك عندي، كلاماً هذا معناه.

ثم احتمله وصيره في البحر إلى السدوة، فأنزله ببجاية واستقر عند البرابرة بها معلماً لصبيانهم لا يرفع رأساً إلى الدنيا، وطاولته هناك الحياة إلى أن هلك بعد مدة، وأصبح خبره للناس عبرة.

ولما هلك مجاهد الموفي قام بالأمر بعده ولده علي بن مجاهد، والمسمى بـ: إقبال الدولة.

أيام علي بن مجاهد إقبال الدولة

وكان مجاهد، رحمه الله، قد تم له افتكاك من أسر له من بناته ونسائه وأخواته في مدةٍ قريبة إلا والدته، وكانت نصرانية، فاختارت أهل ملتها وتبعتها أختٌ، فأعرض عنهما وأقام على ولده.

وكان يومئذ واحده، وسنه سبع سنين، إلى أن تهيأ فكاكه سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، ووصل إلى جزيرة ميورقة، وهو فتى كامل يتكلم بلسان الروم الذين كان فيهم ويتزيا بزيهم.

فعرض عليه والده الإسلام، فقبله وحسن إسلامه وختنه، فأصابه من ذلك مرض شديد.

وبدت لمجاهد فيه مخائل الشجاعة، فتوكل بإرهاقه وتأديبه، وألحقه بمرتبة أخيه الأصغر المرشح لأمره، وعوّل عليه دونه في قود جيشه.

ثم قلده الأمر بعده صارفاً إياه عن ولده حسن من الموحدة على أخيه ما ظهر أثره قبل انصرام حول.

وقد داخل حسن بن عباد في أمر الوثوب عليه، ووجه غلاماً من غلمانه شجاعاً على سبيل الزيارة.

ووقع اتفاقهم على الفتك بعلي عند خروجه من صلاة الجمعة.

فلما أمضى عزمه دهش فلم يجهز عليه وأصابت المُدْيَةُ[1]، فقبض على يده، وأراد الغلام العبَّادي أن يطعنه فنشب الرمح في الحائط لضيق المكان، وثاب لعلي بن مجاهد رجاله، فقتل الغلام، وفرّ حسن بن مجاهد راكضاً، واستقل الجرح بعد أيام.

(١) في المخطوط: «المدينة» وهو تحريف، والمدية هي السكين أو ما يقطع به نحوها.

وطالت أيامه، وصاهر أمراء وقته على بناتٍ له كن آية في الجمال.

[١٩٨/أ] وكان ناجح الشعب في أبواب الجباية / والاكتساب.

ولقد ذكروا أنه وجه إلى مصر مركباً ضخماً مملوءاً طعاماً عام المجاعة المضروب بها المثل في البلاد، عام ستة وأربعين وأربعمائة، فعاد إليه مملوءاً مالاً وذخيرة.

وجرى بينه وبين جاره وصهره ابن هود من الحروب ما يطول شرحه حتى استولى على بلاد دانية، ثم حاصر بها إلى أن سأله أن يسلمه في نفسه وولده وينزل له عن القصور تاركاً إياه بفرسه وزينته.

فكان ذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة، ونقله إلى سرقسطة وأقطعه أقطاعاً تمونه وتقيم أوده، فكان آخر العهد به.

أيام الأميرين مبارك وظفر العامريين
وخبر خيرة الصيقل العامري

كان هذان الفتيان قد ترقيا ببلنسية إلى ملك الحضرة، وأقاما رسوم السلطان بها لأنفسهما على أفخم الوجوه، وظهر من سياستهما وتقارضهما صحة الألفة طول حياتهما ما فاتا به في معناهما ما أشغل الأخوة، وعشاق الأحبة له.

نزلا معاً بقصر الإمارة مختلطين تجمعهما مائدة واحدة من غير تمييز في شيء إلاّ الحُرَم خاصة.

وكان التقدم لمبارك في الخطبة برسوم الإمارة لفضل صرامة وفكر ومكراً قصر عنهما. فطفر بذمامته في خَلْقِهِ وانحطاطه لصاحبه في سائر أمره على تحليه بكتابة ساذجة، وفروسية، فبلغا الغاية من امتلاك الأسلحة والآلات الملوكية والخيل المضربات ونفيس الحلي والحلل وإشادة البناء للقصور، وأشمل هذا الرأي على جميع أصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما.

ولم يعرض لهما عارض إنفاق بتلك الآفاق، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما حتى انقضى أمرهما.

ومن الذي يزل على ما ذكر من اشتراكهما في السلطان والاشتراك الذي لا مزية فيه لأحدهما ولا انفراد دون صاحبه.

ومن غرائب ما اتفق لهما قول أبي عمر بن دراج يمدحهما:

أنورك أم أوقدت بالليل نارك   لباغٍ قِراك أم باغٍ جُوارك[١]

---

(١) في قصيدة مدح بلغت ما يزيد على الأربعين بيت بعد اختصارها، وقد اشتملت هذه القصيدة على =

. . . .

واختص بهذين الرئيسين من كتاب الحضرة الذين ضاقت عنهم بسبب الفتنة طائفة من / الفضلاء البلغاء الوكيدي الذمام، المستحكم في دولتهم كالتاكرني وابن [١٩٨/ب] مهلب وابن طالوت وزادهم في دولتهم مرتبة مشيخة الوزراء بقرطبة.

فكانا يرجعان إليهم في الرأي والمشورة والتدبير.

ومضت أمورهما خارجة عن طاعة صاحب قرطبة وغيره، رادة لرغوبة وآزوا ما آثره الناس من التفرد بقطعتهم وجريا مجرى من حولهما من ملوك الأطراف في استكفاء أمراء الفتنة إلى آخر أيامهما.

قال المؤرخ:

وكان موت مبارك منهما بأن ركب يوماً من قصر بلنسية وقد تعرض له أهلها مستغيثين من مال اقترضه، فقال: اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي يومي هذا.

وركب إثر ذلك، فلما أتى القنطرة وكاتب من خشب خرجت رجل فرسه من حافرها فرمى به أسفلها واعترضته خشبة ثانية شدخت وجهه وسقط الفرس عليه، ففاضت نفسه، وكفاهم الله أمره.

وثارت العامة بهم فانتهبوا القصر، وقتل مظفر وانقضت أيامهما.

وأما خيرة الصيقل

فتآمر بشاطبة، وهي المعقل المنيع، فدبر مبارك الحيلة عليه كيما ينفرد بإمارة الجماعة دونه.

وكان خيرة السخاء أغلب الخلال عليه فأحبته الرجال وأمّلوه.

واستقر عند انقراض الدولة العامرية بشاطبة فامتنع بها، ودبر أمره، واتفق أن اجتاز ببلنسية يمارك أحد المذكورين، فتلقاه مبارك وبالغ في إكرامه ودعاه إلى طعامه، فأجابه مطمئناً وأكل عنده، فذكروا أنه دس له سماً في بعض ما أكله.

فانصرف إلى شاطبة وقد أنكر نفسه واستعر به وجهه وهلك إلى أيام قليلة.

وتفرد نائبه عبد العزيز أفلح السلطاني بضبط القلعة، وتدبير أمر من فيها من الجند.

= باقي صفحة [١٩٨/أ]، الصفحة [١٩٨/ب]، والصفحة [١٩٩/أ] عدا السطر الأخير منها، ثم استأنف المؤلف الكلام عن سيرتهما.

وكان له انحطاط إلى مبارك فلم يهجه وقنع منه بذلك، وخلاه على حاله إلى أن تصير أمرها بعد ذلك إلى يد مجاهد العامري، واشتد سلطان مبارك بتلك الجهة واستضم الرجال.

ولاذ به لبيب الصقلبي العامري، صاحب طرطوشة، وقد طمع فيه منذر بن يحيى، وواصل استخراجه، فخرج إليه بنفسه في نحو خمسمائة فارس من نقاوة الجندين، فظهروا على منذر، وهزموه هزيمة شنيعة، وقتل ابن عمه وصيفه محارب بن عيسى التجيبي. وانصرف مبارك على إثر ذلك إلى بلنسية وقد استعجل أمره وملك جماعة الموالي ودانوا له إلى أن كان من هلاكه ما ذكر.

وهؤلاء نبهاء مقتسمي الملك من بعد الجماعة بالأندلس، وكبار المماليك العامرية.

[٢٠٠/أ] ونحن نذكر بعدهم / من أمكن ذكره من مشاهير الرؤساء من الطائفة المغربية المسماة عند مؤرخي الأندلس بالطائفة البربرية.

ذكر المشاهير من رؤساء الطائفة البربرية

تقدم ما كان من اختصاص كل واحد من رؤساء القبائل الغربيين بالأندلس بوطن من أوطانها عند مظاهرة سليمان بن الحكم وتغلبهم به على الجماعة.

ونحن الآن نذكر منهم كُلاً على انفراده، ونبدأ بكبيرهم زيري بن مناد الصنهاجي.

دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي

قد تقدمت الإشارة إلى ما كان من قدوم زاوي بن زيري بن مناد على باب بني أمية.

وما كان من حرص الحكم بن عبد الرحمٰن على لحاق أصناف المغاربة، وفتح باب القبول عليهم في ذلك، وما كان من اعتدال ابن أبي عامر في هذا الغرض وعمله بالاحتياط فيه.

وتغالى ابنه المظفر عبد الملك بعده فيه لأمر فرغ عنه مسبب الأسباب سبحانه، فكان ممن ورد على الأندلس على عبد الملك بن المنصور من رؤساء القبيلة الصناهجة، وأبناء ملوكها بالشحوم الإفريقية، والحدود القبلية، زاوي بن زيري وقومه جالياً أمام صولة باديس بن المنصور بن بلقيس بن زيري لأسباب تذكر عند ذكر ملوك صنهاجة إن شاء الله.

وخبر تلقيه وقدومه وإيجاب حقه شهير، فلما انشقت العصا بانقراض الدولة العامرية ونالت البرابرة والقبائل المغربية بدولة ابن عبد الجبار الإخافة والحمل للنفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة، اضطروا إلى الانجماع والانحياز والذياد عن أنفسهم، والتفوا على سليمان بن الحكم، وزحفوا به إلى قرطبة، وكشفوا الوجوه في مناهبة جميع أهل الأندلس وهم منهم بمنزلة نصف المعشار أو أقل شأن المعول على الموت الباني على تفويت الحياة، ولم تزل الوحشة تعظم، والعداوة تتأكد حتى لم تبق بقية ترجى ولا مهادنة تبتغى.

وخربوا الأندلس تخريباً لم يقتصر على المال دون البلاد ودون الأنفس، فتركوها كأنما أطلقت بمغانيها النار.

ولما استقر صاحبهم بمقر الخلافة وفي أيديهم زمامه ولحكمهم يرجع نقضه وإبرامه، طلبوه بالبلاد التي يحرزون بها أولادهم وحرماتهم، ويرجعون إلى موائدها في حاجات أقواتهم إذ لا يأمنون على أنفسهم تمالؤوا البلدين في زمن من الأزمان.

فكان زاوي بن زيري من استأثر بكورة البُورة، وجيان.

/ أيام زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي [٢٠٠/ب]

يكنى: أبا ليلى.

وكان ليث الحروب، وفل الوقائع، ورحل القبيل قاطبة دهاءً وحرباً، وحصافة، وفكراً، وصبراً، وإقداماً، ورأياً.

وكان له في حروب أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارج على أبي القاسم بن عبد الله، الشيعي بإفريقية، غناء كبير، إذ كانت قبائل صنهاجة يومئذ متقلدة بآراء الشيعة مخالفة لقبائل زناتة في انحيازهم إلى طائفة الأموية لتحقق جل ملوكهم يومئذ من آل حرز بولاء عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وكانت الحرب بين الصناهجة وقبائل زناتة متصلة بين غلاب وسجال إلى أن انتقل ملك الشيعة إلى المشرق، وأمر المعز منهم أمر المغرب إلى بلقين بن يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي إذ لم يرجحه في غيره عنده ووصاه بما يفعله في أموره، فمن ذلك:

أن لا يرفع السيف عن قبائل البربر.

ولا المغرم عن الرعية.

وأن لا يُولي الأمر أحداً من بني عمه، إذ يرون أنهم أحق به منه.

فامتثل بلقين أمره، ووصى به ولده.

فلما تصير الأمر إلى باديس بن المنصور بن بلقين المذكور، ضايقه أعمامه وأعمام أبيه فلم يعطهم الدنية.

ووقعت بينهم حروب قتل فيها عم أبيه ماكس بن زيري بن مناد، فضاقت عليهم الأرض لانتصابهم بين عدو زناتة وسلطان قومهم.

فجاز إلى الأندلس زاوي بن زيري، وجاز صحبته إليها أبناء أخيه: ماكس وحباسة وحبوس.

وتلقاهم المنصور بكل بِرْ وترحاب وفر جزيل وكان درعه يتسع لهم في جميع ما يتبسطون عليه فيه من قول أو فعل إلا ما كان من الحقوق الشرعية التي لم يكونوا ببلادهم يعرفونها، فكانوا بذلك تحت موجدة وأحقاد كامنة على الدولة وأهلها. فلما انشقت العصا ذهبوا من الغداد في الأرض إلى غير نهاية.

وكان ما تقدم به الإلماع من إيقاع زاوي بن زيري بجيش الخليفة المرتضى بظاهر بلده غرناطة واستيلائه على محلاته وعزمه على الانصراف إلى بلده.

وكان وقوع ذلك على عهد المعز بن باديس بعد إذن منه لزاوي.

وقدم على رعي وبر في قومه إلى أن هلك هنالك، فكان خروج زاوي من الأندلس سنة عشرين وأربعمائة، وتمسك بمحل سلطانه من كورة البيرة ابن أخيه حبوس بن ماكس بسعي من كبير قصر البيرة وفقيهه ابن أبي زمنين، إذ قصد بعد توديع زاوي بن زيري بمرسى المقلب إلى حِصن أشر، وقد كان حباسة أخوه قتل في الفتنة بقرطبة.

دولة حبوس بن ماكس بن زيري بن مناد

ولما ثبت قوم حبوس بن ماكس بغرناطة، وذلك في سنة أربع عشرة وأربعمائة، استظهر عليها بجماعة عظيمة من قومه وفية وافرة من قبيله، فبنى مُلكاً شامخاً وغلب نظراؤه.

واستولى على كورتي جيان وخبرة، وما إلى ذلك منها.

وحمى رعيته من سائر المتنقرين بحوزه.

واتصلت أيامه إلى أن هلك في رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده الأمر ابنه باديس.

[٢٠١/أ] / دولة باديس بن حبوس بغرناطة وما إليها

وكان تصير الملك إلى باديس بن حبوس بتسليم له من أخيه بُلقين بن حبوس شقيقه.

ولقب باديس: أبو سناد.

وتسمى: المظفر بالله الناصر لدين الله.

ونافس أخوه في الجلالة.

وأذعنت له الأعداء، وانضاف إلى إيالته البلاد إلى أن ملك كورة ريّة، وقنسرين.

وعظمت جبايته، وضخم أمره، وتعددت جيوشه.

وأتيح له الظهور على زهير الفتى أمير المرية، حسبما مرّ في ذكر زهير.

فحصل من ذلك الإكفاء له.

ومن كلام أبي حيان، قوله:

وأما أربع أملاك البرابرة في هذا الوقت شأناً وأشدهم سلطاناً، وأكثرهم رجالاً، وأوسعهم أعمالاً، فباديس بن حبوس من سلطان صنهاجة.

ومستخدم الكثير من قبائل زناتة، الممتد سلطانه اليوم على ما بين أطراف كورتي بسطة، وجيان إلى بابي مالقة، وإستجة، وما تحت ذلك من أقسام قرطبة، أملى النصر العزيز على الأعداء إملاءً واختباراً، فلبسه بغياً واستكباراً، وأساء الانتقام، ولم يقل العثرة، وأخذ بالظنة، وأسرف في العقوبة، وشدّد بالعصبية، وتقلّد الحمية الجاهلية، واستأثر بالقسوة الجبرية، فجاء في ذلك كله أخباراً مأثورة.

واستولى على دولة باديس كاتبه الإسرائيلي ابن نغزالة، ثم ولده يوسف بعده، فكانت بيده أمواله، وبعين لحظه أحواله، وبمرأى ومسمع منه أفعاله الخفية وأقواله.

وكان قد نشأ لباديس ولده المسمى بلقين، فرشحه لولاية عهده، ولقبه: سيف الدولة.

وكان منحرفاً عن اليهودي المذكور، منكراً استيلاءه على الملك وتنويهه باليهودي من قومه، وانطلاق يده على المسلمين.

ولا يزال ينفث فيه إلى أبيه ويبادر به إليه عيونه في القصر وجواسيسه.

فأعمل الحيلة على بلقين باستدعائه إلى مجلس شراب احتفله له وسقاه كأس سُم قضى منه نحبه.

ولما بحث باديس عن أمره، صرف الإسرائيلي التهمة / إلى طائفة من فتيان [٢٠١/ب] ولده، وجواريه، وقرابته.

عاث فيهم باديس قتلاً وإبادة، ففروا عنه وفسدت له قلوبهم، وخبثت ضمائرهم.

وعظم استيلاء اليهودي وزير باديس إلى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع إلى حاله الاختلال، وكثرت فيه الأقوال. ورمى بمداخلة ابن صمادح، صاحب المرية، في تصيير باديس إليه، وضبطت القصيدة المنسوبة إلى الولي العائذ أبي إسحاق الإلبيري، رضي الله عنه، التي يقول فيها مخاطباً باديس، ومحرضاً على اليهودي:

ألا هل لصنهاجة أجمعين بدر الزمان وأسد العرين

[٢٠٢/ب] / ....[1]

فثار بهم، وقد تيقنوا إعراضه عنه على نكبته.

ورجعوا إلى داره وقد تبعتهم العامة فاقتحموها وانتهبوها، وأخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحماً سوَّد به وجهه وتنكر.

فأخرجوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة.

وقتل في هذا آلاف من اليهود، وذلك في سنة تسع وستين.

وقيل: سنة خمس وستين.

وولي بعده حافده عبد الله ابن ابنه بلقين الذي اتهم اليهودي بقتله.

دولة عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس

ولما توفي باديس بن حبوس، اتفق خدام دولته وأشياخ قبيلته على تقديم عبد الله بن بلقين.

فأخذوا له البيعة على الناس.

ولقبوه: المظفر بالله الناصر لدين الله.

وعدلوا إليه عن عمه ولد باديس الكائن بولاية دية بمدينة جيان، وذلك لِمَا رأوا به من سوء سجيته، وانهماكه واجترائه على سفك الدماء.

وكان عبد الله هذا عند ولايته الأمر صبياً صغيراً لم يبلغ الحلم، فهو لذلك ممن يشتمل عليه شرط كتابنا ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وغرناطة إذ ذاك حافلة بالأعلام وصدور الإسلام وحملة السيوف والأقلام.

وانفرد بتربية عبد الله، وتدبير ملكه، الوزير سماجة الصنهاجي، فاستقل بسياسته.

---

(١) في قصيدة بلغ عدد أبياتها أربع وأربعين بيتاً. وقد استغرقت من أوائل صفحة [٢٠١/ب]، [٢٠٢/أ]، ثم بيتين بأوائل الصفحة، ثم استتم المؤلف سرد الخبر.

وكان باديس قد جعل أخاه عبد الله تميم بن بلقين بمالقة، فجرت أمورهم على سبيل من السداد وحسن السيرة.

وطمع ابن عباد فيما في أيديهم حين بلغه مهلك باديس، فحشد واستكثر، ووصل إلى غرناطة وابتنى على ستة فراسخ منها حصناً لتستقر رابطته فيه، مضيقاً على من بالحضرة، فلم يقوم بطائل الاضطلاع سماجة بالأمور وضمه لأطراف الملك.

وكان سماجة حازماً، شديد السطوة، مرهوب العقاب، جواداً، شجاعاً، فاضلاً، ذكر عنه الغرناطيون أنه اشتد في منع اتخاذ الخمر، وجعل بإزاء ذلك القتل غرمة، فلم يحل عقدها ولم ينسخ حكمها.

فبينا كان طائفة من أبناء الأعيان وصدور الطلبة أولي الوجوه الحسان على راحة لهم بجهة المصلى القديم خارج القصبة، إذ أظلهم سماجة فجأة، فسقط في أيديهم / [١/٢٠٣] وأيقنوا بالهلكة، فابتدره قبل الوصول إليهم فتى منهم، فأنشده:

بينما نحن بالمصلى نسقي — وجناح العشي فيه جنوح

إذ أتانا سماجة يتسلا — وجهة الشرق من تجليه تفوح

فطفقنا يقول بعض لبعض — أغبوق شرابنا أم صبوح

قال: فخجل سماجة، وأنس الصبي ووعده بالإحسان، وانصرف من طريقه إغضاءً وتغافلاً، ولم يزل سماجة يدبر أمر عبد الله والسعود تساعده والأمر ينوه به ساعده إلى أن بلغ عبد الله وأراد الاستبداد بحاله، وضاق بسماجة فرحل عنه إلى كنف جارهم صاحب المرية، وقد مهد لنفسه عنده، فاستقر لديه بحال ثروة وغناء، وأقام عنده إلى آخر عمره.

وكان عبد الله بن بلقين جباناً مُغْتَمِد السيف، متكاسلاً عن الخيل، زاهداً في النساء، موصوفاً بالضعف.

لكنه يكتب، ويشعر، ويتحدث فيما يتحدث فيه الطلبة.

وقفت على ديوان بخطه ألفه بعد خلعه بمدينة أغمات، قرر فيه أحواله، والحادثة عليه بما يستطرف من مثله، أتحفني به خطيب المسجد بأغمات رحمه الله.

ولما اجتاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من بعد الوقيعة بملك النصارى يوم الزلاقة، شار عليه خلع رؤساء الأندلس وبادئاً منهم بعبد الله حفيد باديس.

وقد حركه إليه تحريك طائفة من خدامه لحقت به، واتصلت به، عند الاستعداد، واتخاذ البلاد، وتجديد الأسوار، ومراسلة صاحب قشتالة.

وتجنى عليه تجني الذئب على المعزى، حسبما يتمثل به الناس، إذ قال لها مسبباً لأكلها:

شمري ذنبك فإنك تحركي عليّ به الغبار.

فقالت: وأي ذنب لي بفعل ذلك؟

فقال لها: أو تكذبيني يا فعالة؟!

ووثب عليها فأكلها.

فوجه الجيش إلى منازلته وقصده بنفسه، وتبادر إليه الرعايا معلنين بطاعته.

ولما رأى اختلال حاله ونكول أهل بلده عن الدفاع عنه، استشار صنائعه، فأشاروا عليه بالخروج إلى الأمير يوسف والإلقاء باليد إليه، فكان ذلك.

فتلقاه هو وأمّه على فرسخين من المدينة، فترجل عبد الله وسأله العفو، فعفا عنه وأمره بالركوب.

فركب والتفت به الخيل فأنزل في مضرب عين له، وأمر بثقاف القصر، وخاطب أهل البلد بما أرضاهم من ضمان العدل والرفق وإفاضة الخير، والذب عن الحوزة.

[٢٠٢/ب] وكان خلع عبد الله بن بلقين، حفيد باديس، يوم الأحد لإحدى عشرة / ليلة خلت من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

أيام تميم بن بلقين بن باديس بن حبوس

وكان باديس قد جعل تميماً هذا بمالقة من عمله لنظر رجل من شيوخ صنهاجة لصغره إلى أن بلغ واشتد، وتسمى بـ: المنتصر بالله.

وكان شهماً، شديد الجرأة، بعيد الاعتدال، سيىء الملكة في الرعية. وهو الذي صنع ثريا الفضة بمسجدها وهي باقية إلى اليوم.

إلى أن تملك يوسف بن تاشفين غرناطة واتصلت به الشكوى بتميم من أهل مالقة، وورد عليه الأمير في شأنه أبو المطرف الشعبي وغيره.

فرفع حكمه وأكبله بسبب الشكايات.

ونمى عنه أنه أطلق لسانه عند القبض عليه في جهة السلطان يخصه بالجلاء إلى السوس. وأسكن أخاه عبد الله بمدينة أغمات إلى أن عفا عن تميم فسكن بمراكش، حتى مات بها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

فانقضى أمر باديس وعقبه على هذا السبيل، والبقاء لله وحده.

أيام شيخ زناتة محمد بن عبد الله الوردسي البرزالي

وكان هذا الرئيس يلي باديس من ملوك البرابرة في جلالة الشأن، وقوة

السلطان، بقية أمراء البرابرة المسلطين في هذه الفتنة وأعظمهم شأناً في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشاً على الخطوب المقلقة.

وكان مشهوراً بذخيرة عتيدة من صامت المال، لم يزل يجمعها، حافظاً لها بالبخل الشديد، واستظهاراً بها على الخطب العنيد.

وكان قدوم هذا البيت من زناتة القاطنين بأرض المزيلة والزاب الأسفل العهد لحاق جعفر بن علي أمير الزاب بباب بني أمية، إذ كان هذا البيت صديقاً له وظهيراً، فبنى بهم المكان من بعده.

ولما هلك جعفر أقاموا جنداً على عادتهم إلى حين وقوع الفتنة المعروفة، فكشفوا في الحرب عن أعضادهم، واستقر قرارهم بمدينة قرمونة وإستجة والمدور، وغلبوا على هذه البلاد.

وكانت بينهم وبين جيرانهم من هذه الجهات حروب وخطوب يطول الكلام إن استقصيناها.

وتوفي رئيسهم هذا، محمد بن عبد الله، عن جمع ضخم من قبيل نجيب وخزين من الطعام لم يجمعه أمير قبله في الفتنة، وصار أمره إلى ولده إسحاق.

أيام إسحاق بن محمد بن عبد الله بقرمونة

/ ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه وهو في حد الكهولة. [٢٠٤/أ]

وكان مشهوراً بالحزم والكفاية والنباهة والفروسية، يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئاً من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة.

وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهب منه في فرط العصبية، وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة والبعد عن آفات الملوك الشائنة مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب الناكرين من جوف الأباضية الخوارج لا يستتران بذلك هما وقومهما من بني برزال أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة.

هذا كلام ابن حيان.

ولم تزل الحروب بينهما وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور والمعتضد بن عباد إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة واضطربوا.

فكاتب رئيسهم العزيز بن إسحاق بعد هلاك إسحاق في خبر طويل إلى ابن ذنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها، على أن يعطيه المأمون بن ذنون عوضاً عنها في بلاده الجوفية، فاتفقا على ذلك.

وخرج العزيز بن إسحاق عن قرمونة إلى حصن المدور، وقبض رجال ابن ذنون في السر يقول له: إن قرمونة قريب من بلدي وبعيدة من نظرك وبلادك، فاصرفها إليّ واجعل يدي مع يدك على تملك قرطبة حتى أصيرها لك.

وكانت قرطبة أمنية ابن ذنون عمره، فأجابه إلى ذلك، وتوثق منه، وأخلى له قرمونة. فشحنها ابن عباد بالأطعمة والرجال، ولم يفِ لابن ذنون بشيء مما ارتبط إليه.

وجرت بينهما من الأحداث في أمر قرطبة ما تقدم ذكره في اسم ابن جهور.

ولم يستقل العزيز بن إسحاق بالمدور لضعفه وضيقه، فتلاشى وانقرض أمره.

وهذان البيتان من هذه الطوائف المغربية كانا أشبه بالملوك والأمراء، ويستوي من بعدهما من أمراء البرابرة في الحال.

منهم: بيت أبي ثور بن أبي قرة بن دوناس اليفرني أمير اليفرنيين من بني يفرن.

المتغلبين على كورة تاكرتا لأول الفتنة.

وكان جسوراً بطلاً مقدماً، عِطلاً من كل خلة تدل على فضيلة.

عزيز الجانب ببأس رجاله ووعورة مجاله وحصانة قلاعه، شارعاً في لذاته لا يلين درهماً لحمل على ذاته في الباطل فوق طوقه.

ومنهم: عبدون بن خرزون الزنداجي.

أمير بني أرنيان وبطونهم من القبائل الزنانية المتغلبين على كورة شدونة لأول النازلين بقصبة قلسانة.

قام بسلطانه وراثة من والده أحد أكابر البرابرة المتآمرين لما خرجوا عن الجماعة، وهو فتى دمث أنيق / بكر، عطل من الفضائل لإنصاف...[1] منها خلة [٢٠٤/ب] صالحة، إلا أنه رفق بقومه وأخذ بمعونتهم فاستقاموا له.

ومنهم: محمد بن نوح بن أبي زيري الدمري.

صاحب كورة مورور وراثة عن أبيه وحده.

فتى غِر حديث عهد بالإمارة، جاهل خلو من الفضائل، موصوف بكيس وليانة.

قلت: وجميع من ذكرنا أجمعهم عبد ممسك بمنكب العز والصبر والسلاطة، فأرداهم تارة بالقهر والغلبة، وتارة بالحيلة.

وكان في آخر أيامه قد صرف وجهة السياسة إلى استمالتهم بالصلات والمودة

---

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

إلى أن وجه إليهم بالزيارة ليتجمل بهم، فأتوه في أحسن زي وأفخم أُبهة، وقد كانت تكررت زيارتهم له أفذاذاً قبل ذلك، فجاؤوا إليه مباهين في نحو مائتي فارس من رؤساء قبائلهم.

فأكرمهم وأمر بتطييب الحَمّام لهم وحملهم إليه عبيده، وهم الثلاثة الأمراء المذكورون:

ابن ثور.

وابن نوح.

وابن خرزون.

فلما دخلوا الحمام وقعدوا بإزاء حوضه، أمر، فبنى عليهم خلف دفة الحمام.

ولما فرغ من البناء أمر موقد النار بالزيادة والإلحاح في الإحراق، فالتهب الحمام، ولم يجدوا مخرجاً منه، فكان آخر العهد بهم. وأقام ذلك الحمام عطلاً إلى آخر أيام العباديين.

ووجه العساكر إلى بلادهم فاحتوى عليها، ونزل باقيهم إلى إشبيلية، فصاروا من رجاله.

ولم يبق له معاند إلا ما كان ممن بشدونة وأركس، فإن أميرهم محمد بن خرزون كان قد تخلف عن دعوة ابن عباس، فزاد همه في استئصالهم، وبنى عليهم حصناً شده الخيل والرجال.

وضاق عليهم أمرهم فتطارحوا على باديس بن حبوس، واتفقوا على أن يعطوه قلعة أركش وجميع ما بأيديهم من بلاد شدونة ويبيع منهم طعامهم المختزن بسوم معروف، على أن يعطيهم باديس بلداً يسكنونه تحت كنفه.

فتم ذلك وبعث معهم عسكر، وخرج بنو أرنيال بأموالهم وحرمهم، فكانت جملة دوابهم نحو خمسمائة بغل.

وكان بنو أرنيال قطعة كبيرة، فلما أبعدوا عن القلعة التي خرجوا عنها بنحو عشرين ميلاً، عارضهم ابن عباد بحصن شاب فوقعت الحرب، فلجأوا إلى ربوة كانت قريباً منهم وحطوا أثقالهم إلى الصباح.

وكان ابن عباد قد أمكن لهم كميناً، فلما حميت الحرب خرج عليهم الكمين وطبوله هادرة، وأعلامهم خافقة، وخيله متناسقة.

فلما رأوا ذلك سُقط في أيديهم، وضعفت قلوبهم، وثاب الظفر لابن عباد فهزمهم، ولم يمعن في إفنائهم.

[١/٢٠٥] وهلك في هذه الحرب أكثرهم، إذ قاتلوا على أموالهم وحريمهم حتى أُبيدوا، وقتل أميرهم محمد بن خرزون بعد أن أمر غلامه / بقتل امرأته لأنها كانت لطيفة المحل من قلبه، فطعنها بالرمح وهي راكبة فسقطت، وفعل ذلك بأخته.

وقتل قائد باديس الذي كان معهم وركب السيف أعناق من معه.

ودخل ابن عباد قصر أركش وسائر بلاد شدونة، واتصل نظره إلى آخر بلاد غرب الأندلس، وقتل واستأصل شأفة القوم، فلم يبق منهم بالأندلس باقية. فسبحان الحي الذي لا ينقضي شأنه، ولا يبيد سلطانه.

قلت: وهذه جمهرة من رؤساء الطوائف وثوار البلاد بالأندلس من بعد انقراض الدولة الأموية، وعلى حين استقرار الدولة المرابطية، وتغلب سلطانها الأمير يوسف بن تاشفين، خلا الجو من جميعهم، وكان فيهم الفاضل، والمعلوم، والمجهول، كما يكون فيمن كثر عدده.

واختلف في السيرة مقصده، ولا شيء أشبه بالدول كلما ضعفت وتفرقت كلمتها واختلفت، وفي أول أمرها قبل أن تكون وقفت بالأرض المتخذة بالمقلى والخضر والثوار فيها بمنزلة العشب الناجم والبقل الناجم الذي يعدم عند قوة الفلاح واضطلاعه وقيامه على الأرض، واتصال مباشرته وإزالة ما يشوش المزدرع من العشب الغاصب من الحشيش الناصب، فإذا اشتغل عنه لضعف أو مرض أو قلّة ذات يد، ألفى غالباً على الأرض مهلكاً للفلح مبيداً للمال.

فلم تدع الدولة ذات القبيل والدين الأصيل منهما شيئاً مذكوراً بعد أن شقيت الدنيا بهم دهوراً، ولقي الإسلام بهم وبالاً وثبوراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذكر تصيير الأندلس إلى ملوك لمتونة المُدَّعين بالمرابطين على سبيل الإشارة والإلماع لورود الكلام فيهم بمحله من دار ملكهم بالمغرب إن شاء الله تعالى وذكر ما آلت إليه الحال بالفتنة واقتسام أمراء الطوائف أقطار الأندلس

من لدن تفرق شمل الإسلام، وانشقت عصاه، وتبددت كلماته، لم يكن هم عدو الإسلام إلا استرجاع البلاد والأقطار، واستضافات العمالات، وافتتاح القلاع، والاستيلاء على الثغور، تارة في سبيل المشارطة والاستجارة، وتارة في سبيل المسالمة والمشاركة، وتارة بالغلاب والمنازلة.

وقد وقع من ملوكهم التكالب والتنافس، فصاحب قشتالة وليون يضم ما جاوره ويطويه طي السجل.

وصاحب برجلونة يسري فيما يليه سُرى النار في الهشيم، وحسبك أن هشام بن الحكم، وهو سلالة / الإدة، وبقية الدين والحشمة، والبعيد المرمى من الدنيا، [٢٠٥/ب] خرج في أيام فتنته ومحنته بابن عبد الجبار سليمان على مائتي موضع وحازها العدو، وحينئذ موه بالحركة إلى نصره ولم يفعل، ثم سلك من بعده سبيله إلى أن استولى على طليطلة وما إليها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وحسبك بها فجيعة وأعظم بها مصيبة.

وملوك الأندلس في غمرتهم ساهون، وعن عواقب الإسلام لاهون، حسبما قال أبو الحسن بن الجد يمدح الأمير يوسف:

وكل يوم غريب فيه معتبر	تلقاه أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس	دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
قد كنت انظرها والشمس طالعة	لو صح للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفه قدحٌ	يحدوا به ملهاة الناي والوتر
صمت مسامعه عن غير نعمته	مما تمر به الآيات والسور

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار لكن حشوه خَوَر
من حوله كل مغتر وما علموا ... أن الذي زخرفت دنياهم غرر
فقل لمن نام: أصبحت، انتبه، فلقد ... قضى بك الليل نحباً وانقضى السمر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك ... في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهرٍ يقظٍ ... كما رعاها بطرفٍ ساهر عُمر
ردوا موارد قد أوردتم حنقا ... بها الأنام ولكن ما لكم صَدَر
كأنني بكم قد صرتم سَمراً ... وما لكم في الورى عين ولا أثر
أماتكم قبل موت سوء فعلكم ... وكيف بالذكر أن لم تحسن السير

وإلى هذا العهد لم تبق الأنفس خافت، وعدم النصير بالمغرب لتبدد الكلمة، واقتسام أيدي الثوار إياه من ملوك الجزيرتين، والزناتيين، والبرغواطيين، والازداجيين، والمدرارين، إلى أن شاع في المدينة خروج اللمتونيين من الصحراء، واستيلاؤهم على المغرب، وإنها دعوة مبنية على دين متين وتأسيس يفقه، وأنه إسلام جديد.

[٢٠٦/أ] فحدّقت إلى سمته العيون، وصرفت إليه الوجوه /ثم ارتفع إليه الصراخ، ثم أعملت الإشارات، ثم مُدت الأيدي إلى أن كان من تنفس المختنق بمجاورة ملك لمتونة ما كان.

فسبحان من يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: الآية ٤٠].

قلت: ولما استولى ملك قشتالة فونش بن شانجة بن فردلندو على مدينة طليطلة، دار ملك الروم، وعلى الثغر الجوفي، وانضمت له البلاد.

وقد كان والده شانجة، وجده فردلندو قبله راضى له ذلك بما ألقى، فلكلكه على صاحب يحيى بن ذنون الملقب بالمأمون سنة خمس وأربعين وأربعمائة، ونازله وألح عليه.

وضعف أمر المسلمين حتى لم يقدروا إلا على التحصن والاحتجار، وكان من شأن الطاغية أن يترك المسلمين بأحواز الموضع الذي يريد قصده وتجليهم، وما يريدونه من معايشهم، فإذا كثرت الغلات استكثر من الاحتشاد.

وفرض على رعيته أمماً من الفلاحين لضم الأقوات، فحاول منها ما كان المسلمون يستفيدونه لأنفسهم وينقل ذلك على ظهور محلاته ورعيته إلى ثغوره المجاورة لبلاد المسلمين ليميز بها محلاته عند الحاجة لذلك، وضرب الجزية عليهم بما شاءه.

فلما هلك فردلندو، وولي ابنه شانجة، ذهب الناس إجراء عادته من المال.

فقال: إنما كان ذلك الملك لفردلندو وهو ثابت أبداً، حسناته لا يزول، إنما نصالحكم على ما يختص بي، فأضعف له العدد.

ثم هلك شانجة وولي بعده إذفونش ولده هذا.

فسار بسيرة أبيه وأضعف العددين، فكانت الرعايا تتحمل هذه الأموال زيادة إلى أموال الجباية المستقضاة بالعنف التي يقيم منها ملوكهم ما يختص بهم، فضعف الاعتمار، وخلت الديار، وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم، ولا توجه إلى الاستكثار قصد، إنما كان وكدهم في التماس المحل من وده، وإبراز الفضل من حظوته والتنفق عنده، والترافع إليه، والاستظهار به، وقد قعد للتضريب بينهم والمفاسدة، وأطل بذروة التغلب والتحكم مفتوح اليد مقبول المزايدة، واجتلاب الفائدة، إلى أن استولى على طليطلة كما قلنا، فأفرط في التعاظم، وحق له ذلك بما استروحه من استرجاع ما حازه الفتح الأول، وعرض عليه شيعته يومئذ أن يلبس التاج، ويعيد عادة من سلف من ملوكهم في القديم.

فأرجاهم بذلك إلى أن يستولي على دار ملك المسلمين بقرطبة، وقد حسب ذلك حاصلاً في يده، وواقعاً في مدته.

/ثم مال على جهة ابن عباد كَبيرهم، يخضل شوكته، ويخطب مملكته، ويطرق [٢٠٦/ب] حِماه، متناهياً في الوعيد، مراسياً إلى المرسى البعيد.

ووصله رسوله اليهودي المعين لقبض الضرائب، وتجريع المسلمين كؤوس المصائب.

فنزل بظاهر إشبيلية في موكب من فرسان سلطانه، وكتاب ديوانه.

وأبرز له المال، فلم يرض عياره، وأقسم أن مولاه لا يقنع في السنة المقبلة إلا بالبلاد، وجمع بلسان الصولة بما ساء ابن عباد.

ولما نُقل إليه كلامه لم يملك زمام نفسه وأمر بالقبض عليه وعلى من معه، وأنفذ الأمر بقتل اليهودي وأسر من معه، وبذل في نفسه أموالاً خطيرة، فلم يصغ إليه وشفى منه نفسه.

ثم خاطب ملك النصارى يشرح له عُذره، وقد أسفه بما لا يقبل العلاج، ولا يعرف الصلاح.

وقام له الأذفونش في ركائبه وصرف عزمه إليه.

وقد كانت الأخبار اتصلت بخروج الأمير يوسف بن تاشفين من الصحراء في أمة جديدة الإسلام، شديدة الاعتزام، مظهرة للقيام بالحق، مجاهدة من زاغ عن الشريعة.

وأنه قد طوع المغرب ورد الكلمة في أكثره واحدة كما قلنا.

فترجح لديه استدعاؤه والاستصراخ به، وعرض ضرورة الإسلام على دينه واستعاضه واستشار أولياؤه في ذلك.

فقال له ولده الرشيد ما معناه:

حاول الأمر مجهدك مع النصراني ولا تستعجل بإدخال من يسلمنا الملك، ويشتت الشمل، فالناس من علمت.

فقال المعتمد: يا ولدي لأن أموت راعياً بالمغرب خير عندي من أن أرد الأندلس دار كفر فتكون اللعنة عليّ من المسلمين أبد الدهر.

فقال: يا أبت، افعل ما أراك الله.

فخاطب المعتمد يوسف بن تاشفين غُرة جمادى الأولى من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، يستأذنه في القدوم عليه لتعزيز أحوال الأندلس.

ولما ورد عليه الخطاب جمع قومه وإخوته، فقال لهم: ما ترون في هذا الأمر؟

فقالوا: هذا الرجل قد استنصر بنا على عدو الدين، ووجب علينا وعلى كل مسلم نصره.

وقد كان اتصل به من فضلاء أهل الأندلس عبد الرحمٰن بن أسباط، وخدمه ونصحه في أحوال أهل الأندلس، فاستشاره.

فقال له أسباط: الأمر لله، ولكم، غير أن عندي ما تلقيه إليكم وهو أن الأندلس بلد منقطع يعمر منه المسلمون، ويعمر باقيه الروم، فإن جزت إليها وحصلت حكم لم يكن لك شيء في نفسك، وهذا الرجل الذي انتصر بك لم يتقدم بينك وبينه ما يوجب الخجل منه، فاكتب إليه بأن الجوار لا يمكنك إلا أن يتخلى لك عن الجزيرة الخضراء تجعل بها رجالك وأجنادك وعدتك، ويكون الرجوع إلى وطنك بيدك متى شئت.

[٢٠٧/أ] فشكره على / ذلك، وأجاب المعتمد، فأذن له في الوصول إليه ويعلن إجابته بما ذكر.

فجاز إليه المعتمد سنة سبع وثمانين[1] بأسطول الأندلس جوازاً فخماً، اختار لمصاحبته في سفره الخواص والأعيان.

---

(١) في هامش المخطوط: تسع وتسعين.

واستخلف ولده الرشيد بإشبيلية وشيعه الناس إلى محل ركوبه البحر، وفي ذلك يقول شاعره، بل بعض شعرائه عبد الجليل بن وهبون في قصيدته التي أولها:

عزم تجدد فيه النصر والظفر وفكرة خمدت من دونها الفكر
عساك خلت عباب الماء من زرد تعود الحوض فيه طرفك الأثِر
أو قلت في الموج خرصان معوقة تحارب الجيش أو مصقولة بتر
هي البسالة إلا أنها شرف تنفي الحذار ومما يؤثر الحذر
لا تحمل الدِّين والدنيا على غرر فليس يحمد في آثارها الغرر
إن كان ثوبك مختصاً بلابسه فقد تعلى من أذيالك البشر

فلما قضى غرضه مشدود اليد بعهده، معلق الآمال بإنجاز وعده، وقفل إلى بلده، تخلى عن الجزيرة الخضراء، بما فيها من بهيمة أنعام، وعلوفة طعام.

وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة.

دولة الأمير يوسف بن تاشفين بالأندلس

ولما اجتاز الأمير يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، لقي طاغية الروم، وأوقع به وقيعة الزلاقة ـ منسوبة إلى موضع اللقاء من أحواز بطليوس ـ ثم عاد بعدها إلى المغرب.

ثم جاز ثانية، ونازل حصن الإبط من كورة تدمير، وتعذر عليه فتحه، فقفل إلى بلاد المراكشية، وقد وجد على ملوك الأندلس واتهمهم بالإغماض في أمره، وداخله الناس في شأنهم، ودست إليه السعايات بهم.

فأعاد الجواز ثالثة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وشرع في خلعهم، فتم له ذلك.

وتوفي سنة خمسمائة.

وولي بعده الأمر ولده علي.

دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين بالأندلس

فتجددت له بيعة أهل الأندلس وشرع في الجواز إليها أخريات تلك السنة، فباشر أمورها، ورتب أحوالها.

وهلك الطاغية في السنة الثانية لولايته، فتمهدت البلاد.

ثم أجاز البحر / ثانية ففتح مدينة طابيرة. [٢٠٧/ب]

ثم أجاز ثالثة ونازل قسرية، ثم قفل عنها.

وأجاز رابعة لإصلاح الأمور بقرطبة وولي بعده تاشفين غرناطة.

وصنع الله له في الجهاد الصنائع الجميلة، والآثار الكريمة.

ثم استدعاه في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فولاه عنده.

وتوفي الأمير علي لسبع خلون من رجب سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

دولة الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بالأندلس

واشتغل الأمير تاشفين عن الأندلس بعد موت أبيه بما دهمه من حروب المهدي واستيلاؤه على المغرب.

فلم يلو إلى الأندلس رأساً، وجاء الضرر من إتيان الهزائم عليه، وتنكيب المراد إياه، فكان ما جرى به الأمر أيام إمارته وجهاده بالأندلس ليقضي الله أمره، إلى أن هلك في السابع والعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.

وعادت هيف إلى جباتها، وتفرق الكلمة إلى شأنها، وكبحت جُذى الثوار، وأصبحت الأندلس دار البوار، ولله درُّ القائل:

إذا غاب الهزيز الورد يوماً أخو الفتكات والنفس البئيسه
ولم يحم الفريسة مستطيلاً تزاحمت الذئاب على الفريسه

ذكر من كان في أخريات دولة المرابطين اللمتونيين من الملوك والرؤساء والثوار

وتعددت الثوار، والمنتزون في أعقاب هذه الدولة مثل ابن وزير شيخ غرب الأندلس.

وأبي محمد سدران.

ويوسف البطروجي الثائر بلبلة.

وأسيد بن عبد الله صاحب شنترين.

وأبي الغمر بن غرور صاحب شريش.

وابن عياض الأمير بشرقي الأندلس.

وعلي بن عيسى بن ميمون صاحب قادس، الثائر بلبلة.

ومحمد بن علي بن الحجاج صاحب بطليوس.

وأحمد بن حجر.

والشيكياني.

ومدين الدابر.

ومحمد بن المنذر.

وكل واحد من هؤلاء له خبر، ودولة على قدره، وقدر عمله، وما مد الله له فيه من عمل غيه أو رشده.

وإن جئنا نتبع هذه الأشياء خرجنا عما أردنا، فلنقتصر على طائفة فوق هؤلاء في الشهرة، مثل حديث ابن قسي باختصار.

أيام أبي القاسم بن قسي مُدّعي الهداية

كانت ثورة هذا الرجل أول ثورة بالأندلس في أعقاب الدولة المتونية، وتسمى بثورة: / المريدين. [٢٠٨/أ]

إذ كان هذا الرجل شيخاً من شيوخ الصوفية المسمى أتباعهم بغرب الأندلس بالمريدين، وقدره في هذه الطريقة معروف، وله كتاب خلع النعلين وغيره.

وكانت هذه الطائفة قد كثرت يومئذ بغرب الأندلس، سيما بمدينة مثاب، وكثر خوضهم في الكتب التصوفية، وموضوعات الغلاة من الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفا، وأمثال ذلك، وانتشر هذا الرأي بمثلب ولبلة وحتى بلد أبي القاسم أحمد بن الحسن وكثر جمعهم...[1] وحذروا صاحب الدولة، فتفرقوا، واستقر جُل نحلتهم بالمرية، وكان بها رئيس هذا الشأن ورجالته والمشهور فيه الشيخ أبو العباس بن العريف، فأعلم علي بن يوسف بذلك.

فوجه معن بن العريف، وأبي الحكم بن برجان نظيره في الخلة وغيرهما من أمثالهما، فقربهم.

وكانت وفاة الشيخين بمراكش سنة سبع وثلاثين وخمسمائة.

وكان أبو القاسم بن قيس هذا في زمان فتائه وشبيبته مشرفاً بمثلب من عمل إشبيلية إلى أن ظهر وتصدق بجميع ماله وتطوق على الأندلس، فابتنى رابطة بقرية جلة من قرى مثلب، كان يجمع بها دائرته التي دارت بها على الأندلس، دائرة السوء، وادعى الولاية، وتسمى بالمهدي.

وكثرت مخاريفه، واشتهر عنه أنه حج من ليلته، ويناجي بما يشاء، وينفق من الكون، وتتابع الناس إليه بالرحيل.

(١) كلمة غير مقروءة بالمخطوط.

واتصل به أقوام من أهل البيوتات والأجناد، منهم:

ابن وزير الذي ذكرنا.

وابن عنان فارس جهة قابرة.

ومحمد بن المنذر، من أهل مثلب.

ومحمد بن عمر.

وعبد الله بن أبي حبيب.

وأمثالهم من أعيان ذلك الصقع الغربي واللمتونيون.

وأثناء هذه الحال قد انقطعت عنهم مواد الغرب بما دعته من فتنة المهدي، وأجحفوا بالناس بسبب احتياج بالأندلس.

وتحاملت عليهم الناس، وتوفرت دواعي الشتات بفترة الخوف، واستهدفوا الخلع.

وكثر التعدي في الطرق، والدوائر في السُّبل، والفتك بالرفاق.

وأوعد أبو القاسم بن قيسي إلى أحد طائفته أن ينتهز الفرصة في حصن منتقوط، فاهتبل الغرة فتنه.

وتغلب عليه في شوال من عام ثمانية وثلاثين وخمسمائة، وبادره المرابطون بجهته قبل أن يستعد، فأنزلوه منه فقتلوه.

وكان ابن قيسي يغالط أصحابه، ويقول: إنما مثله كالفجر الكاذب، وبعده يطلع الفجر الصادق، ويضح النهار.

ثم خاف ابن قيسي عند القبض على المذكور، فخرج إلى جهة مرتلة من حصون الغرب بكورة شذونة، فاستقر عند قوم يعرفون ببني / الشمة. [٢٠٨/ب]

وكان من أصحابه رجل يسمى محمد بن يحيى، ويعرف بابن القابلة، وكان فريد دهره صرامة، ودهاءً، وشجاعة، وبلاغة، وفضائله مشهورة، وفصاحته مذكورة، رمى به غرضه، وجعله يوسف ثورته، وعضد دولته، وتقلبه وعينه لغدر مربلة يخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابن قيسي بقرية الجوزة من قطر مربلة في سبعين رجلاً من المريدين.

وكان قائد حصن مربلة قد واعد رجلاً من أهلها على الإتيان إليه في الليل، فرشوه على حال إسهار من أهل الحصن وقدم الوصاية بذلك إلى بوابه.

ونمى إليهم الخبر، فأوطؤوا باتخاذ رفقة صعد بها بعضهم إلى الحصن.

ولم يشك صاحبه أنها رجفة ميعاده الخبيث، ففتح الباب، واقتحم القوم

الحصن، فملكوه، وبادر محمد بن القابلة إلى تسكين الناس وضبط الحصن.

وزحف إليه المرابطون بتلك الجهة، فلم يغنوا شيئاً، وارتحلوا بعد تخريب قطر مربلة، وتداعت عامة ما بجوارها إلى الثورة.

فقام أهل يابرة ملتفين على ابن وزير عميدهم.

وتوجه ابن قيسي إلى مربلة، فاحتل بقصبتها المنيعة، غرة ربيع الأول عام تسعة وثلاثين وخمسمائة.

وبث للحين عقيدته، وتسمى: إمام.

وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين.

واتصل به الأشرار، وأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج.

وكان إذا أعطى يحثوا بيده من غير عدد.

وكان أصحابه يقولون للناس: إن المال يتكون عنده إذا فرغ.

ومن النوادر في ذلك:

أن رجلاً من البادية قال لبعض أصحابه وقد أعطاه: عجباً لهذا المال الذي يصل الإمام من السماء كيف عليه طابع المرابطين ولم يكن عليه طابع غير ذلك؟

ونُقل إليه هذا الحديث، فكان آخر العهد بذلك الرجل.

ثم إن بعض أصحاب ابن قسي إذا اختلفوا عليه وفسد ما بينهم وبينه، فنازعه ابن وزير بثلب وأخوه بباجة وصرفوا الدعوة إلى ابن حمدين بقرطبة وقد دعا إلى نفسه وتسمى بـ: القاضي الخليفة، حسبما يذكر.

فعزم ابن قيسي على اللحاق بأمير المؤمنين، فخاطب الأمير عبد الرحمٰن بن علي، فلم يجد عنده قبولاً لتعاليه في الخطاب عليه، وجعل الحظ لنفسه بوصف الهداية بصناعة القوم، فأعادوا واعتذر وتحرك في عقبها، فكان لقاؤه إياه في ربيع الأخرى من عام أربعين وخمسمائة.

وتحفى عبد المؤمن به وأكرم وفادته، ثم انصرف إلى الأندلس بعسكر الموحدين. وهو أول عساكرهم في أكورة تغلبهم حسبما يأتي ذكره.

ثم إنه لما اضطربت الأحوال بالدولة المؤمنية بالماسي مُدّعي الهداية / في [٢٠٩/أ] دولتهم. وانتقض عليهم كثير من البلاد، فرجع عن دعوتهم، ولم يكن إلا أن ثاب أمرهم، وقتل الداعي القائم عليهم بمامية.

فتورط بما جناه من القطيعة، واضطر إلى مداخلة صاحب كيرة من النصارى المعروف بابن الرتق، وألطف مُهاداته، ووصل التعلق بحبله على ديدن أمثاله من الثوار.

فقبل الطاغية وبعث إليه بفرس من مراكبه، وترس، ورمح.

وتوقع أهل مثلب محايدة هذه المداخلة فنظروا لأنفسهم في الإراحة منهم.

فشغلوا ولده الحسين بن أحمد بن قيسي بنزهة أهدوها إليه، فأتى بعضهم برجل مكتوف كأنه قبض عليه من الدابرة والأشرار، واستأذنوا على مقدم الحرس، فعندما دخل إلى البلد يستأذن في أمره، فتحت الطائفة الحصن فقتلوا أحمد بن قيسي، ورفعوا رأسه على الرمح المهدى من قِبل الروم.

واستقل ابن المنذر بثلب إلى أن صيرها إلى ملك الموحدين في خبر يطول شرحه.

وكان قتل المذكور في جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وخمسمائة، وخبره يقتضي طولاً، وما صدر عنه من الرسائل في مخاطبة أهل الأندلس، وما تضمنت من المخاوف والدعوة مذكور.

ومن شعره في عرض ما كان بسبيله:

إذا صفر الإصفار جاء فإنما ... يجيء بهول ما يمر وما يُجلى

وشهرا ربيع فيهما كل آفة ... وعند جمادى ينقضي أمد الخَيْلِ

ومن شعره، وكان يقول: أنشدني ربي في المنام:

أرد وعلى قوس العلى أوتاره ... وارم العِدَا سهامها العقاره

وانفض يديك بشلب مفتاح ... البلاد المنجبات وأمها المختاره

ويكون ذاك إذا تكاثرت العِدا ... وتملأ فتن الجبال نصاره

ولما نقد عليه قوله «في نصارى نصاره»، غضب وقال: كذا قال لي، قل: نصاره. فمضى على هذا السبيل.

أيام أحمد بن حمدين الأمير القاضي بقرطبة

وهو أحمد بن محمد بن أحمد التغلبي.

دخل الأندلس جدهم في مطالعة بلج فنزل بساغة وبها تناسلهم.

ولي القضاء بعد أخيه بقرطبة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وعزله الأمير علي بن يوسف.

فلما ثارت العامة بقرطبة، واستطالت الأيدي لضعف قاضيها أن ذاك أحمد بن رشد، اضطر أبو جعفر بن حمدين إلى الخروج لردع العامة وتسكين الثائرة / . . .[1] [٢٠٩/ب]

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة في المخطوط.

في صدره الأمر الذي برز فيه، فظهر يومئذ، وفرّ ابن رشد مستعفياً عن القضاء.

وتعطلت الأحكام بقرطبة أزيد من سنة سخطاً من الأمير على أهلها، ثم أذن لهم في اختيار قاض، فاتفقوا على ابن حمدين هذا سنة ست وثلاثين وخمسمائة، واستمر على القضاء إلى سنة تسع وثلاثين.

وثارت العامة بوالي البلد الرئيس أبو عمر اللمتونين، وخلعوا دعوة الملثمين، واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن محمدين، فبايعه الخاصة والعامة بالمسجد الجامع بقرطبة خامس رمضان من سنة تسع المذكورة. وسكن قصر الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وناصر الدين.

وزحف إليه أحمد بن عبد الملك بن هود المستقر عند صاحب قشتالة، حسبما وقع ذكره في دولة بني هود، وكان قد بلغ زمن الشيخوخة عند العدو، فأقبل إلى قرطبة.

فداخل العامة وفر عنها اثني عشر يوماً، وعاد إليها ابن حمدين من مستقره ببعض الحصون، فاستقام له الأمر، ودوّن الدواوين، وجند الأجناد، ورسم الخطط، وخاطب العُصاة بالأندلس، فاستقلوا ببلادهم، واعترفوا ببيعته، واستمرت أيامه أحد عشر شهراً. ثم دبر في حساءه المكيدة عليه.

فكتبوا إلى يحيى ابن غانية عميد العصابة اللمتونية، وهو مدار ملكهم بإشبيلية. فتحرك إليهم في جمادى الآخرة من عام أربعة وخمسين، وبرز ابن حمدين إلى لقائه، فالتقيا بأحواز إستجة فكانت على ابن حمدين الهزيمة، واتبعه ابن غانية فدخل قرطبة في الثاني عشر لشعبان من السنة.

وفرّ ابن حمدين إلى بطليموس، فأجازه صاحبها، ثم تدرج إلى أن لحق بحصن الدوجر المجاور لقرطبة.

وتحرك ابن غانية إليه فنازله، ووصل حصاره نحواً من شهر إلى أن استصرخ ابن حمدين طاغية الروم، ووعده بما أطمعه، فحث إليه السير، وتخلصه، وقفل ابن غانية إلى قرطبة، وأخذ ابن حمدين أثره بالنصارى، فدخلها عاشر ذي الحجة سنة أربعين.

واعتصم ابن غانية بالمدينة بعد أن عاث الروم في شرقيها بما هو معلوم.

فذكروا أنه في مدة محاصرة الطاغية لابن غانية بقرطبة، اتصلت الأخبار بصاحب قشتالة بما كان من جواز جيش الموحدين إلى الأندلس، وظهور دعوتهم بإشبيلية، فاقتضى رأيه ورأي أرباب الشورى من قومه أن يستعفي ابن غانية ويهادنه، وينصبه سداً في وجه القوم.

فترددت بينه وبين ابن غانية المحاورة، وتم له الغرض على شروط من مال، وبلاد، التزمها ابن / غانية وأقلع عنه. [٢١٠/أ]

وانصرف ابن حمدين خائفاً في ظل صاحب قشتالة، فأقام بحصن...[١] وقصر عبد المؤمن بن علي، فأقبل عليه، وأحسن وعده، واستعجل الرجوع من عنده، فاستقر بمالقة، وقد ثار بها حليفه، وصنيعه، أبو الحكم بن حسون قاضيها.

واستجمع بها، والتف بصباحته، ونهض إلى قرطبة، فبان وهنه وأخفق مسعاه، فعاد إلى مالقة أدراجه.

وساعد ابن حسون بها على مخالفة الموحدين فدعا إلى نفسه.

وتوفي أحمد بن حمدين بمالقة في التاسع عشر لرجب سنة ست وأربعين وخمسمائة، ودفن بقبلي مسجدها.

ولما استولى الموحدون على مالقة نبشوا لحده، وصلبوه، وهو بحاله لم يتغير بعد عشرين شهراً.

وزعم بعض المؤرخين أن المنجمين في زمانه حكموا على مولده بأنه يصلب، وكان الحديث بذلك فاشياً بين أعدائه بقرطبة، فصدقت الأيام لكن بعد وفاته، تجازى الله تعالى عنه.

أيام أبي الحكم بن حسون الأمير القاضي بقرطبة

هو: الحسين بن الحسين بن عبد الله ابن الحسين الكلبي بن حسون، اشتهر بكنيته.

قال ابن خميس في تاريخه:

كان أبو الحكم قد نشأ على صنيع سلفه في الوجاهة، والنباهة، وعلو المكانة، وشرف الذات، وبعد الصيت، وطلب العلم.

وولي القضاء بمالقة عند إعفاء قاضيها أبي محمد الوحيدي سنة ثمان وثلاثين.

ثم دعا إلى نفسه لما تكاتبت القضاة، واستبد، وحصر اللمتونيين بالقصبة إلى أن أنزلهم منها بعد ستة أشهر، وتملك القصبة، وانتقل إليها.

وتسمى بالأمير، وأقام سالكاً طريقة القضاء مع الإمارة.

وقلد أخاه أبا الحسن جيشه، وولاه بلد قرطبة وما إليها.

وله بخارج مالقة من الآثار ما يشهد بجلالة قدره.

---

(١) موضع النقط كلمة غير ظاهرة لاختلاط المداد.

وألح عليه من يجاوره من المرابطين بالتغيرة وغيرها، فواصلوا الغارات عليه حتى ألجأه ذلك لاستدعاء جيوش الروم، ولزمه المال، فأضاق الرعية بما كرهوه لأجله، وشرعوا في التدبير عليه، فداخلوا رجلاً شهماً من خدَّامه كان قائد الرجال ببابه يعرف باللوشي وتواعدوا معه على يوم معلوم ثاروا فيه.

وتغلب المذكور على الأبواب، وملك القصبة، وسد ابن حسون على نفسه القصر، وقاتل عنه، فلما أيقن الهلكة، وقد قتل أهل البلد أخاه عند الهيج والثورة، ذهب إلى قتل من بداره من بناته غيرة عليهن، فامتنعن في الغُرف والبيوت.

/ واشتد الأمر، فأطلق النار في كتبه وذخيرته، فأحرقها. [٢١٠/ب]

ثم شرب سماً، فلم يفعل فيه، فدق رمحاً، وتحامل على سنانه إلى أن خرج من ظهره، ولم يجهز عليه، ودخل القصر، فوجد مشحطاً في دمه يجود بنفسه، ثم مات ليومين.

وكان ذلك يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وخمسمائة.

وصلبت جثته، وحُمل رأسه إلى مراكش. واستولى الموحدون على مالقة بعده، وبيع بناته وأهله، وتسرى بعضهن جلة من أهل الدولة.

كتب الله لنا حُسن العاقبة.

أيام القاضي أبي مروان بن عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية

ولما استقل ابن حمدين بقرطبة، ثار الناس ببلنسية، وخلعوا الموحدين، واجتمعوا إلى القاضي ابن عبد العزيز بها، فالتزم بيعتهم بعد نقار وتوقف، ولم يسعه إلا القيام بالأمر.

وقد كان الموحدون لجأوا إلى معقل شاطبة، فاحتشد ابن عبد العزيز، وتأهب لنزولها، فكان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من شوال سنة تسع وثلاثين.

ولما ضاق بأهل شاطبة الحصار، وأعوزهم الغوث، اهتبل الغرة عبد الله بن حمدين ابن غانية، فخرج في طائفة قليلة من أنجاد قومه، وتعرف بذلك، واتبع أثره، فنجا وحده، وقصد الساحل.

فذكروا أنه صانع صياداً للحوت ببعض آلته وركب حفته، فأوصله إلى أحواز المرية، فقصد بها القائد محمد بن ميمون صاحب الأسطول، وصنيعه الملثمين، وقد كان ربأ لهم، وأمسك بدعوتهم يجهره إلى مدينة ميورقة، فألحقه بأبيه حمدين ابن غانية.

ومن هنالك تأثلت بميورقة العصابة الميورقية التي شعب فيها عبد المؤمن. وتملك ابن عبد العزيز شاطبة وانضاف إليه لقنة وما إليها، فضخمت جملته، واتسعت طاعته إلى أن ضاقت جبايته وكرهته رعيته.

وثار به الجند في الخامس والعشرين لجمادى الأولى من سنة أربعين وخمسمائة.

فصابرهم إلى الليل وترامى من السور، فذهب لوجهه، وتلاعبت به الأيام إلى أن توفي مسرفاً بمراكش سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

أيام عبد الرحمٰن بن رشيق بمرسية وما إليها

قد تقدم درة من حديث ابن رشيق، وابن عمار. وهو أن المعتمد بن عباد لما وجه إلى مرسية وزيره محمد بن عمار عندما دخلت في طاعته، فتملكها.

وتقبض على عبد الرحمٰن بن طاهر، أميرها خالف المعتمد، واستقل بنفسه.

[١/٢١١] وفر ابن عمار إلى ابن ذنون. فلما شرع ابن عباد في مطالبته وشكا أمره / إلى الأمير يوسف بن تاشفين، وقد جاز إلى الأندلس المرة الأولى بإذن ابن رشيق بتصيير المدينة إلى طاعة الأمير يوسف، وخطب له بمنابرها.

فلم يسع ابن عباد المراجعة، ولا فصل يوسف بن تاشفين الخطة.

فلما قفل إلى مراكش انتهز ابن عباد استكانة الطاغية، وتحرك طمعه فيما بيد ابن رشيق، فحشد من بعمالته، واستكثر واحتفل، واستضاف من بقرطبة من جيش ولده، وأعمل السفن مورياً بغزو حصن البط من حصون النصارى المجاورة لمرسية ونزل بساحة ابن رشيق.

فاحتفل ابن رشيق في بره وضيافته وجاهره بالاستبداد، ولم يلقه، فتلوم المعتمد أياماً، ولما يئس منه رحل عنه بعد أن قنع منه بضريبة يؤديها إليه مساهمة، وخيل يجهزها إليه عند الحاجة. وأقام ابن رشيق بمرسية.

فلما جاز يوسف بن تاشفين في المرة، ونزل حصن البط من حصون الروم بجهة مرسية، وحضر عنده أمراء الأندلس، شكا ابن عباد بابن رشيق، وحضر فاحتج عن نفسه ووجب الحكم الشرعي عليه، فأمر بإسلامه إلى ابن عباد، فأنفذه في حكم الشقاق إلى الورقة، وانتزاء قرابته وأهله بحصون مرسية، فانقطعت الميرة، وساءت حال المحلة فأقلت.

ونقل ابن رشيق إلى الاعتقال، فبقي بها إلى أن دخلها الملثمون على ابن عباد، فخرج من ثقافة.

أيام الأمير القاضي أبي عبد الله بن أبي جعفر بمرسية

هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن موسى الخشني.

وكان من أهل البيوتات الكبيرة بمرسية، استقضي بها، ثم تقلد رئاستها عندما أقام ابن أحمدين بقرطبة أواخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فضبط الأمور بها مشاركاً فيها لقائدها المعروف بالثغري.

وتغلب على الربولة وجهاتها، فلما تمكن من أمره قبض على الثغري، وقد ضاق وسعه عن مداراته، فكمل استبداده، وظهر للمتونيين على أموال استعان بها.

ولما ثار ابن أضحى بغرناطة، واستعصى عليه أمر الملثمين بقصبتها، استصرخ بابن أبي جعفر هذا، ووعده بما أطمعه، فتحرك نحوه في عسكر وافر ينيف على ألفي فارس منهم أعلام فقهاء الشرق وكُتابهم وشعراؤهم.

وكانت بينه وبين جيوش الملتونيين المصحرين إليه وقيعة عظيمة بظاهر المدينة، صدقت فيها عليه الهزيمة يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر ربيع الأول عام أربعين وخمسمائة.

وذكر بعضهم: أنه كان لا يثبت على الظهر، يسقط عند الركض، وسمعه بعض الجند يخاطب طبالاً يقول له: / اضرب الطبل فإن فيه مهابة. [٢١١/ب]

فكان الجنود بعد ذلك يعبثون بقوله.

وجز رأسه وأدخل المدينة وانقضت حاله هذه.

أيام أبي أمية أحمد بن عاصم الأمير القاضي بأريولة

وهو: أحمد بن عبد الرحمٰن بن علي بن عبد العزيز بن سعيد بن عاصم.

أحد الرؤساء الحسباء أولي السلف والنباهة المتداول للقضاء، ثم الإمارة، قام برئاسة بلده للعهد المذكور.

وقصده الناس، وامتدحوه، وأشادوا بذكره حسبما يظهر من شعر أبي بكر بن جبير في مدحه في القصيدة الشهيرة التي يصف فيها الصيد والجوارح، التي أولها:

يعز بك الإسلام والدين والفخر ... وتخدمك الأقلام والبيض والسمر

وهي شهيرة.

واتصلت الرئاسة في عقبه إلى أن تغلب الروم على البلد في الدولة النصرية.

ودخل غرناطة من ولده الرئيس أبو الحسن حجل وكانت مجالس السلطان بغرناطة غرب الزي والوقار.

حسن الخط، جميل الرواء.

وكانت وفاته بغرناطة سنة ست وسبعمائة.

أيام القاضي المتأمر يوسف بن عبد الرحمٰن بن جُزي

وهو رأس الفتنة بجيان.

وهو المدعو بالرئيس أبي الحكم.

وكان عنده حظ من الطلب وخَط حسَن.

توفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وعندي أن القاضي المتأمر بها غيره.

أيام الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش أمير شرق الأندلس

كان أبوه سعد أمير أفراغة وما والاها من ثغور شرق الأندلس، وكان ما تقدم به التعريف من منازلة ابن رذمير إياه بإفراغة، وأخاف الله الطاغية في مناخه بظاهرها على يد يحيى ابن غانية بعد أن أشقى عليها.

فظهر من سعد، رحمه الله، في ذلك اليوم وقبله من الصبر وحسن البلاء ما اشتهر به ذكره وعلا صيته.

ثم أن محمداً ولده هذا خب في الفتنة، وأوضع بما كان من مصاهرته ابن عياض، فأعد السير إلى محل كورته مرسية وما إليها فملكها في العشر الوسط من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة.

فثبتت قدمه في الرئاسة وخلصت ضمائر الجند.

وصاهر إبراهيم بن همشك أول ثورته على بنت إبراهيم، فاستقام الأمر وتمت [١/٢١٢] / المعاضدة، وبادر بتوجيهه إلى الطاغية، فصعد سلماً على ما بيده من البلاد حين مناب صهره ابن همشك فيه.

ونجحت وساطة، فأمن الشرف، ورغب أهل الحصون والقلاع في طاعة ابن سعد فعظم أمره، واشتهر ذكره وخطب مسالمة عدو الله برجلونة، فتمت كذلك الأربعة أعوام على ضريبة مائة ألف مثقال.

فلما صفا له الشرق، وثار عليه أصهاره بنو هلال، يوسف بن هلال بحصن مطرنيش فأقام الفتنة على بلنسية، وأخذ حصن الصحيرة، وتملك مربلة، وأوقع بابن

مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش بها، ثم استرجع، وساعده الجد في جزيرة جهزها ببعض الأطراف للضرب على مربلة، موضع يوسف المذكور، وافقت البابس متوجهاً في خويصته إلى بعض الحصون بمملكته فأخذه أسيراً وأسرع به إلى مربلة، وأمر بمخاطبة زوجه في التخلي عن الحصن وإلا نزعت عينه.

فلم تصدق الوعيد ففقئت عينه بعود من الأرض بعد أن تلكأ.

فكان محمد بن سعد غريب السيرة في الثوار، كان عظيم القوة في نفسه، شديد الأسر في تركيب بنيته، أصيل الشهامة والفروسية، ينام كبار الأبطال ومشاهير الفرسان، ومساعير الحروب، فيعاقرهم الخمر ويعاطيهم الكأس، وربما هزه الارتياح فأفضل حتى يأتيه شرابه.

وفرش مجلسه وانهمك، فكان يراقد أزيد من مائتي جارية تحت لحاف واحد. ومال إلى اتخاذ زي الروم من لباس الضيق، وركوب البراذين المماليح، واتخاذ السروج الضخمة القرابيس، واستعان بهم على تدبيره، ورتب منهم أعواناً وجنداً أفرد لهم بمرسية منازل فيها الحانات والبيع.

واضطر إلى المال فتحيف على الرعية بكل وجه من وجوه الجور، واستكثر من القيالات. ورسم بدائع المكوس، وقرر في المواشي عدداً يلزم المسن، وفرض على الأم الأدم والبقول والحبوب معاون كثيرة ثقيلة تقارب أصول الأثمان.

وتحرك محمد بن مردنيش إلى بلاد الموحدين فتغلب على جيان وأيده، وطاعت له بيامه، ونازل قرطبة، ثم إشبيلية عام أربعة وخمسين وخمسمائة.

وألح بالضرب على قرطبة حتى لجأ محاول الفلاحة إلى حرث منزله بداخل الحضرة.

وتملك بمدينة استجة، وحاول له دابر يعرف بابن شراحيل غزو قرمونة، فملكها. وجهز إليه الموحدون الجيش، ففرّ من بالحصن لقصبتها، فخيم بإزائها، واستنزل الموحدين من قصبتها على حكمه.

وفي حملته الأولى من عام سبعة وخمسين، وجه صهره القائد أبي الحسن بن همشك إلى محاصرة / غرناطة، فدخلها ليلاً. [٢١٢/ب]

وامتنع الموحدون بقصبتها، فعرض عليه ضروب الحرب، وتحرك إليها أبو سعيد بن الخليفة بجيش من الموحدين، ومعه والي إشبيلية أبو محمد بن أبي حفص.

فكان اللقاء بظاهر غرناطة بالموضع المعروف برج الرقاد، فانهزم الموحدون أقبح هزيمة، وتمادى الحصار بمن في قصبة غرناطة.

وتجدد العزم على تجهيز جيش الموحدين لإطراح من بها، فكان كذلك،

فتوفرت العساكر بمالقة وتسامع بذلك ابن مردنيش، فأمد صهره بنفسه، ووصلت الجيوش الموحدية، فاضطربت فرار من بظاهر غرناطة، وبيت جيش ابن مردنيش، فانهزم مع الفجر من تلك الليلة فلم يثن عناقاً، وكان الموحدون أملك بالحضرة.

ثم أخذ أمر ابن مردنيش في الإدبار، فكانت عليه للموحدين هزيمة بحصن اليدون يوم الجمعة السابع من ذي الحجة عام ستين، ونازلوا مرسية، ثم أقلعوا عنه.

وفسد ما بينه وبين ابن همشك بسبب بنته الكائنة تحته، فاختل أمره.

ومال ابن همشك إلى الموحدين، وتوالى عليه الحصار، وأدركه الجهد، ولزمته الشكاية، فقضت عليه عقب انصرافه من منازلة جزيرة شقر بادر عنه بإقلاع السير عنه، وعجز عن قتالهما.

فكر إلى مرسية، فتوفي عاشر رجب من عام سبعة وستين وخمسمائة.

واستوثقت طاعة الموحدين بالشرق، وشملته دعوتهم.

أيام يوسف بن هلال صهرا ابن مردنيش

كان يوسف بن هلال، صهر الأمير، شجاعاً حازماً أحظاه الأمير محمد، وظاهره، وجعل لنظره حصن مطريشة، ومواضع كثيرة، وفسدت بقبض عليه ونكبه وعنف به واستخلص فكان نظره وتركه، فأعمل الحيلة ولحق بمريولة وثار بها، وعاقد صاحب برجلونة على تصيير ما يملكه إليه، فأعانه عيل من النصارى لم يزل يضرب بها على بلنسية ويشجي أهلها، وتملك الصحرة والصحيرة وأوقع بابن مردنيش وقيعة انهزم ابن مردنيش فيها، ثم استرجع ابن مردنيش، وساعده الجد في جزيرة فيل وجهها ببعض الأطراف للضرب على سربلة موضع المذكور، فلقيت البائس بن هلال متوجهاً في خويصته إلى شنظبيطور فقبض عليه وسيق إلى ابن مردنيش، فانتزع عينه من ذلك، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه بعود، وطلب بإخلاء الحصن فدعا بزوجته أو تُخرج عينه الأخرى، فحمل على التكذيب / ولم يجبه أحد، فأُخرجت للحين عينه [٢١٣/أ] الأخرى، وسيق إلى شاطبة فبقي بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وقد تكرر بعض حديثه.

أيام المتأمِّر إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك

وكان جد إبراهيم مفرج أو همشك نصرانياً مقطوع أحد الأذنين، أسلم، وكان معروف الشجاعة، إذا رآه النصارى في الحرب قالوا: ها معك، ومعناه: مقطوع الأذن.

وكان إبراهيم دليلاً بالأرض وفارساً نجداً، خدم مع النصارى، وتقرب إلى ابن غانية بقرطبة، وسافر رسولاً بين ابن حمدين وملك قشتالة، إلى أن تمكن الانتزاء بحصن شقوبس.

ثم تغلب على شقورة وتملكها فغلظ أمره وساوى محمد بن مردنيش وداخله حتى عقد معه صهراً على بنته، فاتصلت به الرياسة والإمارة، وكان سيفاً لصهره سلطاً على من عصاه إلى أن فسد ما بينهما، وخدم الموحدين آخر أيامه فكان أدعى الأسباب إلى خروج الأمر عن ابن مردنيش.

وكان إبراهيم همشك جباراً قاسياً فظاً غليظاً عظيم الجرأة والعبث بالخلق، يحرقهم بالنار، ويطرحهم من الشواهق، ويفصِّل أعضاءهم بحال الحياة.

رآه بعض الصالحين في النوم وسأله عما فعل الله تعالى به، فقال:

من سره العبث في الدنيا بخلقه … من يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء

فليصبر اليوم صبري تحت بطشه … معللاً يمتطي جمراً لقضا فرشا

وكان قدومه على مراكش أوائل عام أحد وسبعين وخمسمائة، وأسكن مكناسة، ثم هلك بها عن قريب من هذا التاريخ.

أيام أحمد بن ملحان بوادي آش

كان أحمد بن محمد بن ملحان الطائي الواداشي معروف الكفاية مضطلعاً بالعمل. فلما دعا ابن حمدين إلى نفسه واقتدى به غيره، ثار بوادي آش، وغلب بالمتأيد بالله وحصن القصبة، وأخذ بالعزم، ولم يكل أمره إلى غيره، وخاض به الفتنة خوض الجرأة، فأتى على كثير من الأنفس والأموال، واقتنى كثير من الأموال والذخيرة، واستعان على فتاه بالفلاحة وإثارة الحرث فكان أغنى أهل زمانه.

وظهر على كثير مما يجاور بلده كمدينة فسطة وبها اليوم له عقب.

واستخدم جملة من مشاهير أهل العلم والأدب، كأبي بكر بن طفيل، وأبي الحكم / هردوس. [٢١٤/أ]

ودخل في طاعة الموحدين لما ضيق به ابن سعد وطمع فيما بيده. وكان خروجه إليهم عنها سنة ست وأربعين وخمسمائة. واستعمل بمراكش في اشتغال البحيرة وبنائها وإجراء مائها. ونكب، وجرت عليه محنة استهلكت ما بيده. وتوفي بمراكش على هذا السبيل.

فهذا ما حضر من مشاهير الثوار بأعقاب دولة اللمتونيين على الاختصار.

ذكر تصيير الأندلس إلى ملوك عبد المؤمن المدعويين بالموحدين على سبيل الإلماع والإحالة

إذ الكلام يستوفى عند ذكر دولتهم بالمغرب، إن شاء الله تعالى.

قلت: ولما اضطرب أمر المرابطين من لمتونة بالأندلس، وضعفوا وكثرت الفتن والثوار، واغتنم العدو ذلك، فاستولى على البلاد.

واستمر ظهور الدولة المؤمنية والطائفة المهدية بالمغرب، وافتتحوا دار الملك مراكش، واستأصلوا أرباب الأمر، وتعلقت آمال المسلمين بهم، واستصرخهم الناس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين سوء جوار، وحباً في الإدالة، وتبدل الملوك، وقل أن رأوا أيالة أنفع أو أجرى في قتال العدو من لمتونة.

فأجابهم صاحب الدعوة الأمير عبد المؤمن بن علي، فبعث إليهم جيشه لنظر إبراهيم بن بدار المتوفى في شعبان من سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

دولة الأمير أبي محمد عبد المؤمن بن علي بالأندلس

ولما أطاع عبد المؤمنين بن على الكثير من البلاد الأندلسية بجهة الغرب إشبيلية وتريش ولبلة تحرك إلى الأندلس في ذي قعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة واحتل بجبل الفتح في الشهر المذكور ووفد عليه أهل الأندلس، وأنشدته الشعراء، وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن صاحب الصلات:

تلألأ من نور الخلافة بارق ... أضاءت به الآفاق والليل غاسق

وأشرقت الدنيا به فكأنما ... من البشر في كل الجهات مشارق

وفي ذلك يقول أبو عبد الله الرصافي شاعر الأندلس في وقته قصيدته الشهيرة التي وصف فيها جمل الفتح وهي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور[1]

---

(١) ساق بعده قصيدة طويلة قاربت على الستين بيتاً، وقد اختصرها وهي في الثناء والإطراء، وقد ساقها لكونه مشتغل بالأدب، بالإضافة لما معه من علوم التواريخ، وقد استغرقت القصيدة الورقة [٢١٣/ أ، ب]، ونصف الصفحة [٢١٤/أ] فتركت القصيدة لسوء خط المخطوط، وعدم الفائدة التاريخية من ذكرها ومجالها كتب الأدب ودواوين الشعر.

....../..... ولما قضى وطره من إصلاح أحوال الأندلس والنظر في [٢١٤/ب] مهامها وحسم مخلاتها.

وقدم أولاده بقواعد الأندلس قفل عنها إلى مراكش لتوطيد ملكه وقد اتصل به ما أوجب ذلك.

فتوفي رحمه الله ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسمائة.

وعهد إلى ولده يوسف.

دولة الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي بالأندلس

وكان ملكاً كبيراً، جاز إلى الأندلس، واستخلص بلاد سعد بن مردنيش، وفتح حصن بلج من حصون الروم، وانصرف إلى المغرب بعد أن قرر أموراً بالأندلس.

ثم جاز في سنة ثمانين وخمسمائة ونازل مدينة شنترين، فأصيب بجراحة من قِبل حامية النصارى فلم تخطه فكانت منها وفاته بمحلة غزاته ليلة الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة. وقام بأمره ولده يعقوب.

دولة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان ملكاً جليلاً فاضلاً ورعاً، فتح البلاد الإفريقية، واستخلص ميورقة، وأوقع بطاغية الروم الوقيعة العظمى المنسوبة إلى الأرك. بلغ عدد القتلى بها ثلاثين ألفاً.

/ وواصل الغزو، وعقد الصلح، واستأثر الله به في ربيع الأول سنة خمس [٢١٥/أ] وتسعين وخمسمائة. وولّي بعده ولده الناصر.

دولة محمد الناصر بن يعقوب بن عبد المؤمن بالأندلس

وكان ملكاً كبيراً فتح ميورقة ثانية من يد الميورقي.

وتحرك إلى إفريقية، فدوخها ومهدها. ثم قَفل إلى الأندلس، وعظمت نكاية العدو، والتقى بملك النصارى معلوب ابنه يوم الأرك، فكانت على المسلمين الهزيمة الكبرى المنسوبة إلى العُقاب. ولم تستقل الأندلس بعد هذه العثرة. وكانت يوم الاثنين الثامن لصفر سنة تسع وستمائة.

وجاز إلى المغرب واحتشد واستكثر ولم يبقَ غاية، وعزم عزماً لم يتقدم لملك قبله إلا أن الدهر قطع عليه أمله فتوفي في شعبان من سنة عشر وستمائة، ولم يعد بعدهم إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين إلى أن انقرضت أيامهم.

فينبغي أن نقف عنده، ونستوفي من بقي من أملاكهم بموضع ذلك من الكلام في ملوك الغرب فلينظره هنالك من أراد.

ذكر الثوار والطوائف والمتمكنين من بعد دولة الملوك آل عبد الرحمن بالأندلس

قلت: وقد كانت أيدي هذه الدولة المؤمنية أنقت الأرض من عشب الثوار، فلم تترك منها عيناً إلاّ صيرته أثراً، ولا خبراً إلاّ وردته خبراً.

واتفقت الأمة على دعوة واحدة، ثم أنهم ضعفوا، واختلفوا.

ولو شاء الله ما اختلفوا فثارت الثوار، وكثرت الغوار، واستعلت، واشتعلت للفتن النار، وطوت البلاد طيّ اليد ودّ الكفار.

فكان على آخر هذه الدولة منهم من يذكر.

بقية أخبار بني مردنيش بشرق الأندلس

ولما فرط الأمر بظهور محمد بن سعد بن مردنيش ووقعت بينه وبين الموحدين الحروب المشهورة. جاز البحر الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إليه سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد فسد ما بين ابن سعد وبين خُدامه وكثير من قرابته، فاضطرب أمره.

وكان قد أركب النصارى واجتاح لهم مالاً ضاقت عنه جباية.

وفرعنه أخوه الرئيس أبو الحجاج بن سعد ففسد فكره وساء ظنه، وأوقع بوزرائه فهلك بمرض الذبول في رجب هذا العام.

[٢١٥/ب] وتولى الأمر بعده ولده أبو القرا/ هلال بن محمد بن سعد.

وبادر بالتخلي عن مرسية والإذعان للأمير أبي يعقوب بالطاعة فوجه الأمير يعقوب إلى مرسية السيد أبا حفص أخاه، وقدم هلال بن محمد إشبيلية مستهل رمضان من السنة.

فذكروا: أن الأمير محمد بن سعد لما يئس من نفسه، وعلم بتصير ملكه إلى الموحدين، أشهد على نفسه بإيصاء يوسف بن عبد المؤمن عدوه على ولده وأهله ورغب منه في قبول ذلك، وجلب إليه ولده بعد موته.

فرق لهذا القصد الأمير أبو يعقوب واهتز لرعي هذه الوسيلة، فتزوج ابنة أبي

عبد الله بن سعد وخلط أهله بنفسه وأورثهم ذلك ملك البلاد الشرقية زمناً غير يسير.

وكان أعرس ببنت ابن سعد ليلة السبت الخامس لربيع الأول من سنة سبعين وخمسمائة.

وولع بها وتغلبت عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة بالزرقاء المردنيشية.

واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك من إعادته إلى ملكه فأنفذ تقديم الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية وجهاتها.

وقدم غانم بن محمد ابن أخيه على أساطيل العدوة بسبتة، وأمسك هلالاً بحضرته أثير الرتبة لديه.

أيام الأمير أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش

واستقرت ولاية الرئيس أبي الحجاج بالبلاد الشرقية مدة حياته إلى أن هلك في سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة وتخلف جملة من الولد الرؤساء فمنهم:

أبو الحملات مدافع.

وأبو الظفر غالب.

وأبو الحارث سبع.

وأبو سلطان عزيز.

وأبو ساكن عامر.

وأبو محمد طلحة.

هؤلاء رأسوا وشهروا بالبلاد الشرقية في أخريات دولة الموحدين.

فلما انشقت العصا من لدن وفاة المستنصر خاضوا في الفتنة مع الخائفين.

واستقرت الرئاسة في أبي جميل زيان بن أبي الحملات مدافع ابن الرئيس سعد. وكان مدافع قد استشهد شباباً وفي حياة أخيه أبي عبد الله بن أبي السلطان عزيز بن سعد صاحب جزيرة شقر.

فلما أزمع السيد أبو زيد عبد الرحمن بن يعقوب الخروج عن بلنسية، والاعتصام ببعض معاقلها ليكون أقدر على ضبط أمره.

وامتنعت عليه وألجأه الاضطرار إلى اللحاق بصاحب رغون، بادر الرئيس أبو جميل بلنسية من مستقره يومئذٍ بمدينة أبدة فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين

لصفر سنة ست وعشرين وستمائة.

وسكن القصر، وأخذ البيعة لنفسه أول ربيع الأول من السنة داعياً للعباس ببغداد/ ثم دخلت دانية في بيعة فاتسع عمله ورحبت ساحته وتملك في رجب من هذه السنة حصن قربنيرة. [٢١٦/أ]

ودخلت جنجالة في بيعته، فضخم ملكه واشتهر جهاده إلى أن كانت عليه الوقيعة بانشية من ظاهر بلنسية هلك فيها من المسلمين ما لا يحصيه إلاّ بالله.

وكلب عليهم عدو الشرق ويئسوا من نصره أهل الأندلس وأهل المغرب فتعلقوا ببيعة الأمير أبي زكريا بتونس، واستصرخوه، وأطمعوه بفتح الشرق وصدر من الاستنصار المنظوم في ذلك القصيدة الشهيرة من نظم الكاتب أبي عبد الله بن الأبار التي أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى سجاتها درسا

حسبما يأتي في اسم الأمير أبي زكريا بمحله إن شاء الله.

ولم يصل جوابه وأمداده إلاّ والطاغية قد نازل بلنسية.

وذلك يوم الخميس خامس رمضان سنة خمس وثلاثين.

وواصل عدو الله حاقمه ملك رغون منازلة بلنسية ورميها بالمنجانيق وشدة القتال وما زال المسلمون تنقص أعدادهم، والنصارى تتوارد أمدادهم إلى أن نفذت الأقوات، واستولى الجوع وضعفت القوى، وأكلت الجلود والزقوق، وبلغ الكتاب أجله فكانت المراوضة على إسلام البلد والخروج عنه في الرابع عشر....[1] من السنة بعد سنة المنازلة.

وخرج الأمير أبو جميل والشهود، وعقد الصلح بعدها على دانية وقابيرة وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيماً، والخطب فيها أليماً، وفي ذلك يقول القاضي أبو المطرف بن عميرة:

ما بال دمعك لا يني مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره

ألِلوعةٍ بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطت داره

أم للشباب تقاذفت أوطانه بعد الدنو وأخلفت أوطاره

أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثةٍ خلت أعصاره

بحر من الأشجان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره

(١) بياض في أصل المخطوط.

في كل قلب منه وجد عنده ... أسف طويل ليس يخبوا ناره
أما بلنسية فمثوى كافر ... حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حل حصاده ... بيد العدو غداة لج حصاره
/ وعزيمة للشرك تفجع بالهدى ... أنصارها إذ خانه أنصاره [٢١٦/ب]
قل كيف شئت بعد تمزيق العرى ... آثاره أو كيف يدرك شاره
ما كان ذاك المصر إلآ جنة ... للحسن تجري تحته أنهاره
طابت بطيب نهاره أصاله ... وتعطرت بنسيمه أشجاره
وتألقت أوقاته وتفسحت ... أرجاءه وتفتحت أنواره
أما السرار فقد عراه وهل سوى ... قمر السماء يزول عنه سراره
قد كان يشرق بالهداية ليله ... والآن أظلم بالظلام نهاره
ودجا به ليل الخطوب بصبحه ... أعيا على أبصارنا أسفاره
إيهٍ أبا عبد الإله وأنه ... نبأ يرجع لوعتي تذكاره
عاطيتني ذكر الجلاء وإنه ... لجلاء أنسي إذ أتت أخباره
وقدمت زند أسى له بين الحشا ... عمل تلاقي مرجُهُ وعفاره
ولقد نطقت بمقتضى الرد الذي ... راقت نضارته وطاب نضاره

ولم يطل الزمان بالشرق أن انهار وأجاب الكفار، فكان آخر العهد ببني مردنيش فهم بين قتيل وشهيد ومنتقل من تونس إلى إيالة التوحيد.

أيام أبي بكر عزيز بن أبي مروان بن خطاب بمرسية

وكان هذا الرجل صدر البلدة والرجوع إليه بها في أمور العقد والحل.

وكان من أهل الدين والنسك، وأولى التقوى والبر، كثير الخشوع، معروف الخير، كثير الصدقات، مشتغلاً بالعبادة، ملازماً بيت ألفه.

ثم أن الشيطان المسلط على من لم يضفه الله إلى عبوديتهن من بني آدم استنزله لقبول الأمرة بمرسية وما إليها مع قطع صبي المهد ورضيع الثدي بسوء عقبى يتحمل ذلك يومئذٍ فقام بالأمر وهجر المسجد وتشبه بالملوك وسبح في بحر الخوض على كثرة المنازع، وعدم المال، وكلب الجند، وقلق الرعية.

فكانت ولايته في المحرم في سنة ست وثلاثين وستمائة وبيعته من إنشاء أبي المطرف بن عُميدة شهيرة ولم يقم بالأمر حتى قعد.

وكانت عليه للنصارى وقيعة لم يحكم فيها المصاف، ولا عرف القتال، فهلك فيها/ جملة من المسلمين أوهنت البلد وكرهته إلى أهله. [٢١٧/أ]

وفي السادس عشر من رمضان سنة ست، وثلاثين وستمائة استدعى أهل مرسية الأمير أبا جميل بن مردنيش، فدخل المدينة طوعاً، وهاجت العامة، فدخلت قصر ابن خطاب، وانتهبت ما فيه على اختلافه من فرش وقباب وآنية، ومال وقبض عليه وبقي معتقلاً إلى أن قتل ببعض زوايا القصر ليلة الثلاثاء الموافق من رمضان سنة ست وثلاثين.

وأخذت بها البيعة للأمير أبو زكريا صاحب تونس وانتظمت له البلاد الشرقية فمضى على هذا السبيل.

أيام الرئيس أبي عثمان سعيد بن الحكم الأموي بمنورقة(١)

كان هذا الرجل من أهل طليبرة غرب الأندلس وإفريقية، وتلون به الدهر. وجال بالأندلس، وإفريقية برهة، ثم دخل جزيرة منورقة مشرفاً بها.

ثم ذلّل بها الرئاسة لما افترقت الكلمة واختل أمر الموحدين وحسن بها تدبيره، وعلا قدره، وأعظمته الملوك.

وكان بعيد الهمة يسعى لاجتلاب أهل العلم، واصطناعاً لهم، وافتكاكاً لمن تحصل منهم بيد العدو ولديه خط جزيل من رواية الحديث، وقرض الشعر، وحسن الخط.

إلاّ أنه كان شديد القسوة والعقاب مستهيناً بالدماء.

حدثني الشيخ السري أبو الحسن التلمساني وكان عمه أبو عبد الله البري كاتباً لابن الحكم بمنورقة قال:

كان من سيرته أن يقتل الناس عقاباً على شرب الخمر، وكان قد اجتلب المحدث ابن مفوز للرواية عنه وسماع كتاب البخاري عليه، اغتنم ذلك لبنيه. قال:

فبينا الكتاب يقرأ إذ أُتي إليه برجل قد شرب الخمر، فأمر به فضربت عنقه.

قال: فطوى ابن مفوز الكتاب، وحلف أن لا يسمع عليه سنة حديثاً.

وقال: حفظك الله تطلب رواية السنة وتصحيحها وتتعدى حدود الله، هكذا والله لا سمعت مني حرفاً أبداً.

---

(١) في المخطوط: بمنرقة، والتصويب من معجم البلدان.

فقال: يا فقيه هذه الجزيرة كثيرة العنب والناس يشربون الخمر بها ويسكرون فيضيعون الاحتراس فيظهر علينا العدو.

فقال له: هذا شيء لا يخلص عند الله لم تترك الشريعة شيئاً من موازين صلاح الدنيا والآخرة إلاّ أعطته حقه، وانصرف عنه.

ودامت ولايته بمنورقة مقصوداً من الفضلاء والأدباء حسبما يظهر من ترسيل أبي المطرف، وابن الحنان وغيرهما نحواً من خمسين سنة إلى أن توفي في حدود عام ثمانية وستمائة.

وورث رئاسته بعده ولده أبو عمر.

/ أيام أبي عمر حكم بن سعد بن حكم الأموي بمنورقة[1] [٢١٧/ب]

كان أبو عمر أفضل من أبيه في دماثة الخلق والعفة عن الدماء والإيثار والاجتناب للعظائم مع حسن الحظ، ورواية الحديث وقرض الشعر.

إلاّ أنه يستقل استقلال، ولا نهض نهضته، فانصرفت أطماع العدو البرجلوني المجاور لثغره إلى تملكه فتم له ذلك.

ونفذ قدر الله فيه سنة ست وثمانين فاستولى على الجزيرة، وأجلى عنها المسلمين، ولحق أبو عمر بسبتة وقد رفع إليها رمة أبيه بعد أن كان نزل بالمرية.

ووصل إلى غرناطة وأقام بها أياماً تحت جراية أميرها.

وحدثني من رآه وروى عنه من شيوخنا: إنه كان رجلاً قرع السمت والهوى جميل الرواء عظيم الوقار والتؤدة.

وله أولاد كالنجوم جمالاً ووسامة.

وكان نساؤه وخدمه يلبس غفائر حمراً منسدلة عليهن في زِيّ غريب. وركب البحر هو وبنوه ذكورهم وإناثهم وحاشيتهم، قاصداً تونس.

وقد بذر بها والده دماماً، واثل له حُظوة، فعدا عليهم البحر بأحواز الجزائر بني مزغنة.

فزعموا أن صاحب المركب عزم عليه في ركوب الثاني الذي يتبع المركب، وقد انتقى فيه الأعزة عليه.

فقال له أبو عمر: ومن معي؟.

(١) في المخطوط: منرقة، والتصويب من معجم البلدان، وقال مؤلفه: جزيرة عامرة في شرقي الأندلس قرب ميورقة.

فقال: لا سبيل لك إلى ذلك، فلتعن بنفسك، فهو الذي تقدر عليه لك.

فرجع إلى الطارمة حيث بناته وكرائمه، فسد غلقها عليهن وعلى نفسه.

فلم ينج منهم أحد نفعهم الله بالشهادة وكان ذلك في أخريات العام المذكور، أو في العام بعده.

وليس الكلام في منورقة من شرط الأخبار الأندلسية ولكنها أنسب إليها منها إلى غيرها إذ لم تزل راجعة إليها، وتابعة لأحكامها فهذا وجه المسامحة كما أضيف صقلية إلى إفريقية.

دولة السلطان محمد بن يوسف بن هود الجذامي

وهذا الرجل هو الذي تعين أنه صاحب الأندلس من بعد انقراض دولة الموحدين. وملك مرسية، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، والمرية، وما إلى ذلك بحال اجتماع وافتراق وانتزاء من أهلها عليه وشقاق.

وكان يدعى بأمير المسلمين.

ويلقب من الألقاب السلطانية بالمتوكل على الله.

وكان ينسب إلى المستعين بن هود الذي تقدم الحديث في دولته، ولأجل ذلك [1/218] يقول أبو عبد الله بن خرج الكحل / من قصيدة يمدحه فيها:

فتحت بلاد الله دون مشقة ... وما عرفت أربابها حادثاً نكرا

ولا بد من فتح البقية عاجلاً ... ويجعل للأشياء خالقها قدرا

وكم زهرة فتحت وهي كمامة ... ولم....[1] خير البيض من فتحها زهرا

مثل ابن هود آخذاً بتراته ... ومن كان موتوراً فلا يدع الوترا

وإن كان مغصوباً فإن محمداً ... بصارمة الهندي قد رده قهرا

ونادى على ملك بعد صقر مدة ... وعاد إلى ما كان في مدة أخرا

فيوشع رد الشمس في جريانها ... وما بعدت نوراً ولا نقصت قدرا

قضى ربه أن يملك الأرض آخراً ... فقدمه فضلاً وأخره عصرا

وكم أخر قد جاء بالفضل أولاً ... وهل تجعل الدنيا سواء مع الأخرا

ففي رمضان ليلة القدر كونها ... وما صحبت إلا أواخره العشرا

وكان شجاعاً، كريماً، حيياً، وفياً، متوكلاً كلقبه، سليم الصدر، قليل المبالاة

---

(١) موضع النقط كلمة غير مقروءة لعيب في تصوير المخطوط.

بالأمور، محدوداً لم يُنصر به جيش، ولا وُفِّق له رأي لغلبة الجفة عليه، واستعجاله الحركات ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير استعداد.

وكان خروجه من مرسية تاسع رجب سنة خمس وعشرين وستمائة، وظهوره بالصخور من جهاته في نفر يسير من الأجناد.

وكان الناس يستشعرون ذلك ومرتقبون ظهور طالب للأمر اسمه محمد واسم أبيه يوسف.

وهي العِلة المحركة لمحمد بن يوسف بن نصر الأحمر.

وجرى على الناس بسبب ذلك في زمن الموحدين امتحن شقي به قوم ممن وافق هذا الاسم أسماءهم أو أسماء آبائهم.

وقتل بسبب ذلك شخصان من جيان. ويقال إن شخصاً ممن ينتحل علوم الحدثان لقي ابن هود، فأمعن النظر إليه وسأله، وقال له: أنت سلطان الأندلس فانظر لنفسك واطلب كأس سعدك، وأنا أدلّك على من يقوم بأمرك، فانهض إلى المقدم الغُشتي.

وكان الغشتي رجلاً صعلوكاً داعراً يقطع الطريق، وتحت يده جماعة من أنجاد الرجال وسباع الشرار، قد اشتهر أمرهم إلى المقدم / الغشتي. [٢١٨/ب]

وعرض عليه الأمر فارتبط معه على أن يوليه قيادة الأسطول بالأندلس إذا تمّ له الأمر.

وقال: نستفتح الأمر بمغاورة إلى أرض العدو باسمك، وعلى سعدك.

ففعلوا، وجلبوا كثيراً من الغنم والأسرى وانضاف إلى ابن هود طوائف من مثل هؤلاء، وبايعوه بالصخيرات ـ كما ذكر ـ من ظاهر مرسية.

وأوقع به جيش الموحدين وسرده. ثم ثاب إليه ناسه، وعدل إلى الدعاء للعباسيين فتبعه اللفيف.

ووصله تقليد المنتصر ببغداد، فاستنصر الناس في دعوته، وشاع ذكره، وملك القواعد، ووفى للغشتي بعهده، فولآه أسطول إشبيلية، ثم أسطول سبتة مضافاً إلى أمرها وما يرجع إليها.

وثار به أهلها بعد وخلعوه، وفرّ أمامهم وخُفي أثره إلى أن تحقق استقراره أسيراً في الشجر بغرب الأندلس، ودام أسره زماناً ثم تخلص إلى الشيخوخة، ومات برباط أسفى، وجرت على ابن هود هزائم شهيرة ووقائع مذكورة، أوقع به السلطان أبو عبد الله بن نصر ثلاث مرات آخرهن من سنة ثلاث أو أربع وثلاثين وستمائة.

وكان اللقاء بينه وبين المأمون إدريس أمير الموحدين بشرق الأندلس سنة خمس وثلاثين فهزمهم المأمون هزيمة كبيرة، ولاذ منه بمرسية وامتنع بها.

إلاّ أن المأمون شغله أمر الفتنة الواقعة بمراكش، فصرف وجهه إليها.

وثاب الأمر لابن هود فدخلت في طاعته المرية، ثم غرناطة، ثم مالقة.

وفي سنة سبع وعشرين وستمائة تحرك لفضل شهامته في جيوش عظيمة من المسلمين لإصلاح ماردة، وقد نازلها العدو، وحاصرها ولقي جيش العدو بظاهرها، وطاغيتهم فيهم فلم يتأن حتى دفع بنفسه العدو، ودخل في مصافه، وفقده الناس لما غاب عنهم، فلم يرجع إلاّ وقد انهزموا مدبرين، وكانت هزيمة شنيعة، واستولى العدو على مدينة ماردة يومئذٍ.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة تملك إشبيلية وولّى عليها أخاه الأمير أبا النجاة سالماً الملقب بعماد الدولة.

وتملك مالقة وغرناطة عام خمس وعشرين وستمائة.

وفي شوال من هذه السنة جنح إلى طاعته الروم الرئيسان: أبو زكريا، وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز أبي الحجاج بن سعد.

وخرجا عن طاعة ابن عمهما الأمير أبي جميل، وأخذا له البيعة على ما بأيديهما.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة، فتح الجزيرة الخضراء عنوة، وقد كان انضم إليها بقايا المغربيين / فأجازهم إلى المغرب. [٢١٩/أ]

وصرح له تملك الأندلس وإطاعته سبتة، وملك رباط الفتح بها أياماً.

وفي أوائل العشر الوسط من شوال ورد عليه الخبر ليلاً بقصد العدو جهة وادي آش.

فأسرى ليلاً، ولحق العدو على ثمانين ميلاً فاستأصله السيف، ولم يفلت منه أحد.

وفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة وردت عليه الهدية والتقليد من المنتصر العباس ببغداد وقُرىء على الناس كتابه.

فصلّى العيد من غرناطة بموافقة اجتماع من الناس لطلب الغيث واستصفائه، وكان الأمير ابن هود يومئذٍ لابساً السواد، والراية السوداء بين يديه.

فنزل المطر يومئذٍ، واستبشر الناس، وكان يوماً مشهوداً، وصُنعاً غريباً.

وأمر بعد انصرافه بأن يكتب عنه بتلك الألقاب المذكورة إلى البلاد.

نص الكتاب

وكانت العلامة فيه بعد ثلاث أسطار أو نحوها:

توكلت على الله الواحد القهار

الحمد لله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤] ومالك أزمة الأقضية والأقدار، و (مكور النهار على الليل ومكور الليل على النهار)، المتعالي بوحدانيته عن الأشياء والأنظار، المتنزه بكبريائه عن تمثيل الأوهام وتكييف الأفكار. و ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]، سبحانه هو الواحد القهار.

والحمد لله الذي اختار محمداً ﷺ من أطيب قريش عُنْصراً أو أرومة، وأزكاها أصلاً وجرثومة، وأكرمها خؤولة وعمومه، ابتعثه والكفر قد ظهر فتيقه، والشرك قد قامت سوقه، والضلال قد استطارت بروقه، والشيطان قد استظهر حزبه وفريقه، فصدع بالحق، وأظهره، ودحض الضلال ودمره، ورفع لواء الإيمان ونشره، وأمات الباطل وأفتره، وأحيا الدين الحنفي وأنشره، فصلّى الله عليه وعلى آله الذين رفعوا منار أوامره المتبعة، وعلى صحبه الذين آمنوا به ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧] صلاة دائمة متصلة غير منقطعة ما وخَدَت قَلُوص براكب، وضحك الروض ببكاء السحائب، وعلى عمه ابن عبد المطلب[١] خير الأعمام، وكافل الأيتام وصاحب زمزم والمقام، والمخصوص بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، المستنزل ببركته أنواء الغمام عن جدب العام، ومن قال في حقه سيد الأنام محمد خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة والسلام.

[٢١٩/ب] / «يا عم فيكم النبوة، والخلافة لا ينازعكم فيها منازع إلاّ كبه الله لوجهه ولا يزال الأمر في ولدك حتى يسلموه إلى عيسى ابن مريم»[٢].

وقال صلّى الله عليه وسلم:

«إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فمنزلي ومنزله في الجنة تجاهين وعمي العباس بيننا مومي بين خليلين اللهم اغفر للعباس وولد العباس، ومحبي ولد العباس مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر لهم ذنباً، اللهم احفظه في ولده واخلفه فيهم، واحفظ ذريته من كل سوء، وأعزهم بعونك ما بقي منهم باق»[٢].

وقال ﷺ:

---

(١) يريد العباس.

(٢) كلا الخبرين لا يصح.

«يا عم لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»[١].

وجاء في الحديث: أن العباس دخل على النبي ﷺ، فخفض النبي ﷺ صوته، فقيل له: يا رسول الله، رأيناك خفضت صوتك لما دخل العباس؟ فقال:

«إن جبريل أمرني أن أخفض صوتي عنده، كما أمركم أن تخفضوا أصواتكم عندي»[٢].

وفي الحديث: أن جبريل عليه السلام هبط على النبي ﷺ وعليه قباء وعمامة أسودان، فقال له:

«يا أخي ما هذه الصورة التي ما أراك هبطت عليّ في مثلها؟».

فقال له: شعار ولد عمك العباس، وليأتين على أمتك زمان يعز الله فيه الإسلام بهذا السواد، وسيملكون الأبيض والأحمر والأصفر والأخضر والحجر والمدر والصفا والمنحر والسرير والمنبر والدنيا إلى المحشر والخلافة إلى المنشر وعليهم تقوم الساعة[٣].

والحمد لله الذي اجتنى من هذه الدوحة العباسية الشماء، والشجرة الطيبة الهاشمية التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] إماماً ألقى ولاءه في القلوب والأرواع، واسترعاه فوجده لأمته خير راع، وأوضح للناس من اعتقاده ووجوب طاعته سنناً قويماً، وجعله كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٤٣].

سيدنا ومولانا، إمام المسلمين، وخليفة الله في الأرضين، ووارث الأنبياء والمرسلين، المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، الممنون بإيالته المقدسة على العالمين، مولانا أبو جعفر المنصور، المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين، إمام تحلت أجياد المنابر بجواهر شريف دعوته، وترصعت تيجان المآثر بلالىء معدلته وحسن سيرته، ونزلت السكينة على العباد والبلاد بالسكون تحت وارف ظلّ رأفته المقدسة ورحمته، فالناس وادعون / في كنف عميم مكارمه وعواطفه، والخلائق راتعون في رياض جسيم مواهبه وعوارفه. [١/٢٢٠]

فأدام الله أيامه الزاهرة، دواماً يُخْلِق أثواب الأعوام وهو جديد، وجعل دعوته

(١) لا يصح هذا الخبر كذلك.

(٢) لا يصح هذا الخبر أيضاً.

(٣) وهذا أيضاً خبر لا يصح هي أخبار من وضع الفرق التي تشددت كل طائفة لمذهبها، والإسلام لا يعرف العصبيات العرقية كما هو مصرح به في القرآن الكريم.

القاهرة مقرونة بالدوام والتخليد إلى يوم الوعيد.

ولما انتهى إلى علومه الشريفة زادها الله شرفاً وقدساً، ما عليه مجاهد الدين محمد بن يوسف بن هود من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، والتزام شروط الولاء الذي هو علامة متانة الدين، وكمال الإيمان، والتصدي لقارعة الناكبين عن محجة الحق والهدى، والتجرد لمرابطة من حاد عن السنّة والإجماع اللذين بهما يسترشد ويهتدي اقتضت أزاؤه الشريعة المقدسة النبوية الإمامية الطاهرة الزاكية الممجدة المعظمة المكرمة المستنصرية، زادها الله جلالاً متألق الأنوار، وشرفاً رفيع المنار، واقتداراً تجوب جياده جنوب الآفاق والأقطار، أن يقلده أمر جزيرة الأندلس، ويجري معها من الولايات والبلاد، ويسوغه ما يفتتحه من مماليك أهل الكفر والعناد تقليداً صحيحاً شرعياً وتسويقاً صريحاً أمامياً وإنغاماً يضفو عليه لباس بخارة الفضفاض، وتصفو لديه موارد مواهبه النميرة العياض، وقد أمره صلوات الله عليه بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد، وتحظيه برضى الله الذي هو أنفع الذخائر في الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: الآية ٥١] وما توفيق أمير المؤمنين إلاّ بـالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

أمره بأن يتدرع شعار تقوى الله الذي هو خير لباس، ويستشعر جعلته التي تجعل له كما قال عزّ وجل: ﴿نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢]، فإن تقوى الله تعالى هي المنجية من تورد مهاوي الأنام والعصيان، والسبب الذي يعتصم به من كان من العناية الأزلية بمكان، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٧]، وأمره أن يجعل كتاب الله تعالى مناراً يرجع إليه في حل المشكلات، ومصباحاً يستضيء بمراشده في الأحكام المشتبهات بأنه الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والنور الساطع الذي ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المَائدة: الآية ١٦] قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النّحل: الآية ٨٩].

وأمره أن يعمل بسنّة النبي ﷺ في مصادرة أموره وموارده، وبإجماع المسلمين في جميع مناحيه ومقاصده، فإن اتباع السنّة يرشده إلى منهج الحق وسبيله، والإجماع يوضح له معاني كتاب الله وأحكام رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ / ٱلرَّسُولُ [٢٢٠/ب] فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، أمره أن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء، وأرباب الديانة الصلحاء، ومشاورة العقلاء الألباء، فإن مجالسة العلماء لقاح الخواطر، ومعاشرة الصالحين فيها رادع عن إتباع الأهواء وزاجر، ومشاورة الألباء تقدح بها زناد التوفيق في النواهي والأوامر، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٥٩] وأمره بأن يحسن السيرة في رعيته ويسكنهم أرحب كنف من حنوه وشفقته ويساوي بينهم في مجالس نظره وحكومته، ولا يفرق في التفاتة بين القوي والضعيف، ولا يميز بما يقتضيه العدل والإنصاف بين المشروف والشريف، ويقوي الحاكم على ما يوجبه الشرع ويقتضيه، ويأمرهم بإقامة القسطاس الذي يحبه الله ويرتضيه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النّساء: الآية ٥٨]. وأمره أن يقتدي في جميع أموره وتصرفاته وحركاته وسكناته بما أمر الله تعالى به في كتابه المكتوب الذي ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقِعَة: الآية ٧٩] من قوله عزّ وجل: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النّحل: الآية ٩٠].

وأمره أن يعتمد في مجاهدة الكفار الملاعين وأحزاب الشيطان المشركين ما أمر الله تعالى به في قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التّوبَة: الآية ٧٣] وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التّوبَة: الآية ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فليكن مجاهد الدين بهذه المراشد مقتدياً، ولمناهج أوامرها المطاوعة مقتفياً، فإنه إذا اتبع هُداها، وامتثل مراسمها واحتذاها وتمسك بعصم طاعة من أوجب الله عليه وعلى الخلائق اعتقاد مفروض طاعته وطوق أعناقهم بالتزام شروط موالاته وعبوديته، سيدنا ومولانا خليفة الله في أرضه، والقائم بسنة دينه وفرضه، أبي جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، فازت قداحه وتضاعفت من أقسام السعادة الراهنة متاجره وأرباحه، فإن ذلك عند ذوي الديانات المتينة أحكم الأوامر وأوثق العرى، والذخر الذي يجده كل موفق مسعود ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عِمرَان: الآية ٣٠] إن شاء الله.

[١/٢٢٣] **وكتب في العشر الوسط من ذي القعدة سنة/ تسع وعشرين وستمائة.**

ووصله عن الديوان العزيز وهو المعزية عن رتبة النائب عن العباس من الأعاجم في ذلك التاريخ عن الديوان العزيز النبوي أرفع منازل الشعراء الفائزين منزلاً وأحمد مقامات الأبرار، وأسمى هضبات السعادة الراهنة بقاعاً وأصفى جلابيب المواهب الأزلية مدارع وحللاً، وأرحب مواطن العنايات الإلّهية التي لا يبغي ذوي الديانات المتينة عنها حِولا، وأعطاهم حيازة فضله، قوله عز وجل: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: الآية ٧٥].

وما أضفى الأمير إلا . . .[١] الكبير الأجل المرابط المشاغر الغباري، مجاهد الدين مجد الإسلام، جمال الأنام، نجم الدولة، عز الملة، معين الأمة، فخر الملوك، قامع المشركين، قاهر الخوارج والماردين، زعيم الجيوش شرف الأمراء، تاج الخواص.

أطال الله بقاءه، وأدام علوه ونعمته باعتقاد وجوبه موارد خلوص معتقده وأوضح بسلوك منهجه آثار صدق يقينه، ومحض تعبده، واحتوى على قصبات رهان التوفيق بلزوم لا حسب محجته، وقديم جده، ونور الله تعالى أرجاء عقيدته الصالحة بأنواره التي هي علامة كمال توفيقه ووفور رشده من طاعة من لا يقبل الله تعالى إلاّ بطاعته الأعمال وموالاة من والاته عنوان استمرار السعادة والإقبال، وتباعة من تباعته ذخر نافع يستظهر به كل ذي حظ عظيم في الحال والمآل، ومخالصة من . . . .[٢]

. . . .[٣]

. . . ./ الدخول بها. [٢٢٣/ب]

فلما قارب الحضرة أغرى به أعداء خؤولته من بني دحو بن عبد الله، فتلقوه، وقتلوه وأراحه الله منه.

وكان عمر بن محلي أحد أفراد الرجال وحزمتهم أخباره مشهورة، ونوادره مأثورة. شرع السلطان أبو عبد الله في استدعاء النصارى لسد بحر الزقاق، ونزول الخضراء.

فنزلها العدو ثامن شوال من السنة، وكانت بهم الوقيعة البحرية على أيدي الأسطول المغربي والسبتي، وأقلع العدو عنها بعد الشهر خائب السعي.

وجاز أمير المسلمين البحر إلى الأندلس ونشأت الوحشة العظمى فجهز أمير المسلمين ولده إلى الضرب على بلاد ابن نصر ونازل مربلة وحاصرها ورماها بالمجانيق وجاز بنفسه فنازل مالقة وقد صار أمرها إلى الرئيس أبي سعيد وهو غلام، وكانت عليها حرب عظيمة بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأسوار وراء رؤوس الخيل وأعذروا باعتراضها دونهم.

---

(١) كلمة في المخطوط هذا رسمها: «الاضجهصلا».

(٢) جاء بعد هذا بياض في أصل المخطوط قدره نصف صفحة، وجاء بهامش المخطوط بخط الناسخ كلمة تفيد أن ذلك كان بياض أيضاً في النص المنقول عنه هذا المخطوط حيث قال: «بياض». سقط بعد هذا البياض أيضاً الورقة [٢٢١/أ، ب]، والورقة [٢٢٢/أ، ب].

(٣) موضع عنوان سقط مع ما سقط من الأوراق.

ثم رحل عنها بعد الإقامة بها زهاء خمسين يوماً إلى الخضراء، وتمادت الأيام بين حرب وسلم وحيلة وإذهان.

وصرف السلطان أبو عبد الله بن نصر وجهه إلى اجتثاث الرؤساء الأشقيلوبين، والاراحة ممن بقي ببلاده منهم.

وقد كان الرئيس أبو إسحاق شيخ بيتهم لحق بمن بمالقة منهم فخرجوا له عن حصن قمارش وأفردوه فيه، وهو معقل الأندلس الذي لا يرام فكان الملوك من بني جهور وغيرهم قد قدروا قدره واتخذوا به مساكن تناسب الملك.

ولم يزل الرئيس أبو إسحاق إلى أن هلك، وانقلت طاعة قمارش إلى ولديه بوادي آش يضبطه لهم ثقة من خواصهم يعرف بابن الرامي.

احتال السلطان عليه بمداخلة رجال من حراسته بذل لكل واحد منهم خمسين ديناراً من الذهب، فثاروا به، وبادرهم الحسن فكان أملك به.

وبعد ذلك حصنه بما هو عليه إلى اليوم، وصرف السياسة إلى من بقي منهم بوادي آش، فالآن لهم جانبه، وسوغ لهم سلمة ووالى عليهم إحسانه وبره حتى غرّهم بذلك، وظنوا سلامة صدره وركنوا إلى جميل اعتقاده، وعند ذلك جدّد السلم مع صاحب قشتالة وهم مع السلطان خالهم بأحسن أحوالهم الرضى والألفة.

فعقد على بلدهم الصلح، وأدخلهم في جملته وهم يغتبطون بذلك ولا يستريبون حتى إذا كمل بعث إليهم وأخبرهم بعقد البيعة لولده وطلبهم بالانتقال عن مدينتهم إلى حضرته، وفسح له الوعد في مجال كرامته ورعايته.

[١/٢٢٤] / فبادر المركوع إلى ملك قشتالة وطلبوا الرجوع لجهته فأجابهم بتعذر ذلك وعدم إمكانه إذ بلادهم قد انتظمتها معاهدة السلطان، وأن إيواءهم نكث للسلم والعهد.

فسقط في أيديهم، وعجزوا عن المال والطعام يصادرون به عدوهم، ووجهوا رسولهم إلى ملك رضون فصرفهم، واعتذر بيعه الشقة وتوسط بلاد قشتالة.

وحشد السلطان أهل البلاد لمنازلتهم فلجأوا إلى القيام بدعوة ملك المغرب وكتبوا له البيعة، ووجهوا إليه رسولهم، وهو إذ ذاك بمراكش.

وجرت في ذلك بين السلطان أمير المسلمين وبين صاحب الأندلس محاورة أجلت عن تعويضهم من وادي آش بقصر كتانة، وانتقلوا إليه بأموالهم ورجالهم وأهليهم في أوائل عام سبعة وثمانين وستمائة.

ولما استقرت وادي آش بيد أمير المسلمين بالمغرب جعل فيها ثقته ولم زمن غير كبير حتى خُدع ذلك الثقة وانصرف إلى سلطانه فتطرقته الظنة، فضرب عنقه.

ولما استقر هؤلاء الرؤساء بالمغرب حذرهم السلطان ابن نصر على ملكه وتوقع إغراءهم به من صاحب المغرب وعودتهم إليه، فاستدعى حينئذٍ الطاغية إلى سد برضة المجاز بطريف.

فكان نزول الطاغية بها في أوائل شهر جمادى الأولى من عام أحد وتسعين وستمائة وتملكها العدو حسبما هو معروف.

وشق الخطب على المسلمين، وساءت النفوس، وندبتها الشعراء لولا خوف الإطالة، لأطنبنا في هذه الأمور، وهذا المقدار من التعريف بخلاف هؤلاء القوم كاف إن شاء الله.

حديث امتساك بني الحكم برندة

ولما حدث ما وقعت إليه الإشارة في أمر طريف وعبر السلطان صاحب الأندلس البحر مستقيلاً من ذنبه، وعاد إلى الأندلس لتجديد الجهاد ومنازلة طريف، واجتماع الأيدي على استرجاعها. وجاز السلطان أمير المسلمين أبو يعقوب البحر عام ثلاثة وتسعين وستمائة.

ثم تخلف السلطان عن مباشرة طريف معترضاً بمرض أصابه، ووجه بالجيش ولده فتلوم بمالقة، وطال على الجيش المريني الأمد في محاصرة طريف، وظهر عدم المساعدة والكسل عن الإعانة، وأظلم الأفق، وأقبلت أجفان العدو لسد بحر الزقاق وأجلت الحال على انصراف أمير المسلمين الملك المريني عن الأندلس ورفضها.

فجعل أمر رُندة إذ ذاك إلى الوزيرين الأخوين: أبي زكريا، وأبي إسحاق ابني أبي القاسم بن الحكم وسُوِغَتْ لهما.

ولما طلبهما السلطان ابن نصر بصرفهما، أبوا من ذلك/ واستمسكوا بها. [٢٢٤/ب]

فأمر جيش مالقة بالضرب عليها، ووقعت الفتنة في البلاد الغربية، وتمادت الحال أوائل عام خمسة وتسعين وستمائة. فلما عوزت السلطان الحيلة داخل أخاهما الوزير القائم بأمر الله ولده بعده، وكان يومئذٍ متولي كتابته فأخذوا لأنفسهم شروطاً هامة لمصلحة القطر وشاملة للكافة من أهله منها:

أن لا يلي بلدهم أحد من قرابة السلطان. وأن لا يترك غازٍ من المغاربة بدار من دور المدينة.

وإسقاط التبعات وتمكن منها السلطان منتصف جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين وستمائة.

خبر انتزاء الرئيس أبي الحجاج بن نصر بوادي آش

وفي عام اثنتين وسبعمائة اقتضى النظر تأخير الرئيس أبي الحجاج صهر

السلطان أبي عبد الله ثالث الأمراء النصريين، وزوج أخته عن مدينة وادي آش لا من نقمة عليه إذ ذاك بحضرته فركب لحيته، وأسرع اللحاق بها وبقصبتها ثقته، فكان أملك بأمرها. ولما شاع قصده، وتوجهه إليها استركب الجيش لمبادرته، وكتب له عهداً يتضمن تقريره بها، وتفشي أغراضه خوف اشتعال الفتنة.

ولما شرع في الامتناع عن وصوله فظن أهل البلد لما يريده، وقد أرهقوا من حجر النفاق الذي استأصل أخوالهم وأنفسهم زمنه القريب العهد، فبادروا إليه، وأحاطوا به قبل استعداده فتملكوه عنوة، وقبضوا عليه، ولم يصل الجيش إلاّ وقد قضى فيه الأمر، وأوصل بالقيود إلى باب السلطان، فأمر ابن عمه محمد بن علي بن أحمد المعروف بالرئيس العروس صهر السلطان أيضاً بضرب عنقه بيده ابتلاءً لطاعته، ومكروهاً جيء إليه، إذ كان السلطان منحرفاً عن قرابته، فمضى على هذا السبيل.

وفي أثناء هذا الهرج وهيجان هذه الفتنة وانفراد كل يد بما ملكت، استولى العدو على مدائن جليلة وقلاع حصينة منيعة وثغور متربعة، وأعمال خصيبة، وربوع آهلة، وأطراق يعز الإسلام الذي وطئها مشاهدة مثلها مثل مدينة شاهرة، وانتسه، ومدينة سالم والمدينة البيضاء مدينة سرقسطة، ثم في مدة بعدها على مدينة طليطلة الحالة من الأندلس محل المركز من الدائرة، ثم بطليوس، وبلنسية وميورقة، وشنترين، وأشبونة، وكلبيرة ولبلة وجبل العيون وكورة باجة.

ثم في مدة بعدها على أبدة وبياسة ويابرة. ثم في مدة بعدها على عهد ابن هود الأخير على نحو خمسمائة بلد منها شاطبة وطلقية / وماردة والكرسي. [I/٢٢٥]

ثم في مدة بعدها بين تنازع ابن هود، وابن نصر على قرطبة، وإشبيلية وما إليها.

ثم في مدة بعدها من مدة ابن نصر الأولى على مرسية، وجيان، ولورقة، وشريش، وكم تبع هذه الأمهات من بنات، وهتكت حرمات، وترك الإسلام من عيون وجنات، وفيما أدركناه على قلعة يحصب من بعده طيبة ووبرة، ثم الجزيرة، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّٰه.

ومن اعتقد أن هذه البقعة الأندلسية التي لاذ بها العدو فنسفها نسفاً، ولفها لفاً كسواها من بقاع الأرض جمالاً ونضرة، وانفساحاً ونعمة، وتشييداً ومنعة، وناساً وحيواناً، وخلقاً وخلقة، وعادة وزيّاً، ونبلاً وإدراكاً، وصنائع وإتقاناً، وبأساً وشهامة، وظرفاً ولطافة، فقد ظلمها حقها، وبخسها وزنها.

والشاهد الصلات والموضوعات، وما صنف العلماء من الطبقات، وما نقل عن مواقف الحروب، وما دون من المنظوم والمنثور.

فوا أسفي عليها من معالم أعلام، ومغاني إيمان وإسلام تخبر شواهدها عن الغائب وراءها عن الغابر كما قال:

كبرد اليماني قد تقادم عهده ورفعته ما شئت في العين واليد

لطف الله بها من بغية.

رجع التاريخ إلى نسقه.

من ذكر أمراء بني نصر.

دولة الأمير أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر

وقد تقدم تصيير الملك إليه من أبي الجيوش نصر بن محمود وانصرافه إلى وادي آش مخلوعاً واستقر الأمر في يده.

وفي خامس عشر شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمائة أظهر السلطان نصر المخالفة لطائفة لحقت به من قرابته وخدام أبيه، فكشف عن وجه المنابذة، وأبدى ناجز الشر، وتحرك السلطان أبو الوليد فنازله في أوائل صفر من العام وأقام محاصراً إياه خمسة وأربعين يوماً.

ثم قفل إلى حضرته واستدعى نصر جيش النصارى، وأمره يومئذٍ راجع إلى ابن السلطان بشانجة بن أدفونش كافلاً لابن أخيه.

وخرج جيش السلطان من غرناطة إلى التضييق على وادي آش.

واتفق وصول الطاغية إلى أحوازها بجيشه واستصحاب ميرة طعام لتقويتها من بلاده، وخفي على المسلمين أمره إلى أن كان اللقاء فكافحه بوادي برنزنة من أحواز وادي آش.

وقد عبر المسلمون إلى العدو نهراً صعباً، وكانت على المسلمين الهزيمة المشهورة واعترضهم الوادي فكانت بهم الدائرة، فاستلحم منهم سبعمائة فارس، وامتلأت الأندلس حزناً وصراخاً، وتغلب العدو للحين على حصن قنبيل، / [٢٢٥/ب] ومتحانس، ومجاج.

وتحرك العام بعده إلى أحواز الخضراء، فأفسد الزرع، واكتسح المواشي، وشمر لاستئصال المسلمين، إلى أن أجمل الله صنعه بالإسلام، فتحرك الطاغية وعمه دور جوان كبير النصرانية وولد السلطان الجد، فنزلوا المرج من غرناطة.

واجتمع المسلمون لمدافعتهم، فمنحهم الله النصر عليهم ظهر يوم الاثنين السادس من جمادى الأولى.

وقتل في الهزيمة أميرهم جوان وبطره، واستولى المسلمون على دوابهم

وأمتعتهم وأسبابهم على ما يعي الحصر.

وغزا رحمه الله إلى مرتش من بلاد الروم القريبة من حضرته، فدخلها عنوة، وعمل فيها السيف، وقفل، فاحتل الحضرة يوم السبت الرابع والعشرين من شهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة.

ولثالث يوم دخوله، فتك به ابن عمه محمد بن إسماعيل أخي الرئيس أبي سعيد بن إسماعيل بن نصر فتكته الشعناء التي قدم بمثلها العهد جرأة وإقداماً، فطرح نفسه عليه وهو مارٌّ بين السماطين إلى محل السلام عليه، والوزير بين يديه وضربه بخنجر كان ملصقاً بذراعه معداً لذلك، قد تولى له شحذه يومئذٍ الشيخ أبو الحسن بن كماشة المتأخر الحياة إلى اليوم حسبما يعرف الناس.

وعندما سقط السلطان اخترط أصحاب الرئيس الغادر لسيوفهم وتعاوروا بها الوزير، وقد كثر لصيحة السلطان فاشتغلوا به بخلال ما رفع السلطان من بين أيديهم واحتمل إلى منزله، فظنوا به السلامة، وخذلوا، فقتل منهم جملة علقت رؤوسهم بسور القلعة، وفجعوا الإسلام من السلطان برجل موثر للجيد صحيح القصد من أهل الخير والبر رحمه الله.

وولّي الأمر بعده ولده محمد.

دولة محمد بن إسماعيل بن فرج بن نصر

بويع له يوم توفي أبوه، وهو صبي صغير سِنُّهُ نحو تسع سنين فلم يختلف عليه يومئذٍ أحد وبادر إلى بيعته الفقهاء، والعلماء، والصلحاء، والفضلاء، وأهل الجهاد، وكواف البلاد وجمعهم يومئذٍ موفور، وشأنهم في الخير مشهور.

وهو أول من بويع من هذا البيت النصري بحال الصغر وحداثة السن وهو ممن أملينا الكتاب بسببه ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وكان على عهد بيعته عمه حاضراً بحال الاكتهال[١]، وبقية بينهم وافرة الرجال. وكان هذا الأمير وافراً مدركاً تولى خُدام أبيه كفالته وتدبير أمره والذب عنه.

وثار عليه عمه، ونازعه الملك بمظاهرة شيخ الغُزاة إياه حسبما يُذكر.

وهو أن الشيخ أبا سعيد عثمان بن أبي العلاء لما تصير الأمر إلى الولد، وناب

(١) يريد أن عمه كان في العقد الرابع من عمره أي في حدود الثلاثينات، يريد كيف يكون لذلك بيعة مع وجود عمه في سنّ تؤهله لتولي الحكم؟!. وإن كنت أنا لا أقر هذا ولا ذاك، لأن الإسلام يعرف لمن تكون البيعة، ومتى تكون البيعة، وكيف تكون البيعة، ولا يعرف نظام الإرث في تولي الملك أو الرئاسة أو الحكم.

عنه وكيل السلطان/ الفقيه العدل محمد بن أحمد المحروق مصطنع الشيخ احتقر [١/٢٣٦] الدولة، وسامها أعمال غرضه، وإنفاذ أمره، وقبول شفاعته، ووقع التوق في بعض، فعلّق الموجدة به والعتب عليه، وقطع أن صاحب الدولة لا بد أن يقصد منزله لاسترضائه، فتصرف فيه على حكمه.

ولما حذر ذلك الوكيل أوعز الرجال بالحمراء أن تضرب على يده وتمنعه في سبيل نصح السلطان عن الخروج من معقله.

فزادة الموجدة، وأظهر الشيخ الانصراف عن الأندلس وهو لا يظن إلاّ مكان لتسريع ذلك.

فلما عسكر بظاهر البلد اغتنمت غضبته، وأمر أن يمنع من دخول المدينة رجاله. وقدم على الغارات يحيى بن عمر بن رحوا بن عبد الله بن عبد الحي نظيره.

فلم يسع الشيخ إلاّ التصميم إلى مرسي المرية، وشرع منها في مخاطبة ملوك الجهات التي يقصدها بحملته، فتثاقل الكل عن قبوله.

وكان وصوله إلى مرسى المرية في الثامن عشر لصفر من عام سبعة وعشرين وسبعمائة. وفي الحادي عشر من جمادى الأولى داخل حصن أندرش من عمل المرية، وهو قطر الجباية، واستدعى عم السلطان الذي صرف بعد بيعة ابن أخيه إلى تلمسان موصل إليه، وبايعه.

وتوجه ولد الشيخ إلى صاحب قشتالة فحركه إلى جهة رُندة، فاستولى على حصن وبرة وما إليه من الحُصون، وعام جر الفتنة، وما أعده ملوك بني نصر للشدائد من عدة.

وكانت بين جيش الحضرة وبين المذكور مواقعات هلك فيها ولد الشيخ، وعطل الخطة ما كان من قتل الوكيل صاحب الأمر بتدبير أمر سلطانه عليه وقد قهره وأجلى عنه طائفة مختصة من مماليك أبيه، فاغتاله، وقد دخل دار الجدة يعاوضها في المهمات على عادته مملوكان حدثان ممن أعفى منهم هجماً عليه، وقتلاه بين يدي الجدة العجوز، وذلك عشر اليوم الثاني من محرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة.

وقد كان السلم تم بين الفريقين في رمضان من السنة قبله.

وصرف العم إلى تلمسان يوسع من استدعائه ذماً، واستدعى الشيخ إلى رسمه من الخطة، ومكانه من الخطوة ثاني يوم الكائنة، فأقام الرسم إلى حين وفاته في ذي قعدة من سنة ثلاثين وسبعمائة.

فثبت الأمر في يديه. . .[١] من بغى عليه إلى أن ترعرع وظهر، فكان مثلاً في

---

(١) موضع النقط كلمة مختلطة المداد.

الفروسية وعبر البحر قاصداً باب السلطان الجليل والد الملوك وكبير السلاطين المولى المقدس أبي الحسن مستصرخاً على عدو الإسلام ومستدعياً إلى جهاد عبدة الأصنام فتلقاه بما هو معروف من الفضل والبر، وخُلي المجد والنائل العم والصلات الشاذة عن الحصر بين/ المال الكثير، والجياد الغر، والسلاح المكلل بالدر. ووصل [٢٢٦/ب] بريه وأصحبه ولده وأول جبل الفتح ففتحه الله له.

وبادره العدو، وقبل أن يَغْلق أصل الإسلام في ترابه، ويستقر نصله في قرابة، فتوجه بجيش المسلمين إلى إصراخة، وبذل الأعمال الصالحات في خلاصة، وحاول العدو حتى أقلع عنه ففازت يد الإسلام به.

فلما تمّ ذلك بنى أبي العلاء إدريس بن عبد الله، وقد ساءهم، ما كان من غدره خُدامة وعينوا أخاه يوسف لمكانه واختاروا بعض أعلاجه للإجهاز عليه ليبرأوا من أمره، وحين تمّ ذلك تعرضوا له أثناء طريقه قافلاً إلى مالقة في بعض أساطيله قد وصل إلى الوادي المنسوب إلى السقائين يرسم ركوبه فأوقعوا به بضفة وادي السقايين يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ذي الحجة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

وبقي رحمة الله عليه ورضوانه خلال ما فرغ من بيعة أخيه مطرحاً مُعرّى من ثيابه مسلوباً إلاّ من فضل الله وثوابه، ثم عطفوا عليه فاحتملوه، ودفنوه بمالقة، وما صلوا عليه ولا غسلوه.

وفي ذلك يقول شيخنا القاضي أبو بكر بن سيرين رحمه الله:

عينيّ أبكي ميتاً غادروه ... في ثراه ملقى وقد غدروه

دفنوه ولم يُصَلِّ عليه ... أحد منهم ولا غَسَلوه

إنما مات يوم مات شهيداً ... فأقاموا رسماً ولم يقصدوه

ولما فرغوا من قتله وأحكام غدره وختله، بدت لهم سيئات ما عملوا، وعلموا من قبيح صنيعهم ما جهلوا وعن العواقب ذهلوا لما أمهلوا، واجتمعوا بعد أيام من دفن أشلائه وحطّ علامه وكفران نعمه وآلائه فحسدوا صفات دينه بالظفر، وكتبوا فيه عقداً بالكُفر، شهد فيه جملة من أعلامهم وتحت ميم المداد في رقة أساود أقلامهم، ولم يقنعوا بعد الكلام الرعنة إلاّ بكلوم كلامهم، أعظم الله أجره كما أعظم نجره، وضاعف ثوابه كما طهر من زورهم أثوابه.

فلقد عبر البحر لغير غرضٍ إلاّ ما كان من إقامة جهاد مفترض، ولقد ارتكب في خلاص الخيل بنفسه النفيسة الخطر حتى قضى منه الوطر، ولقد أظله شهر الصوم حياه الله بنعيمه ونضيره، وهو إذ ذاك يسكن بالقصر خارج حضرته، وكان محروراً مزاجه يرديه احتدام الفصل واهتياجه، فكانت الصبة تتصل مرافقهم من لدن العصر

بين البلد وبين القصر، فكلما سمعوا النداء، أشاروا بالأثواب لمن يرميهم من تلك الأبواب فتبادر إليه بالماء، وقد قارب الفوت وشافهت/ حياته الموت من غير أن [٢٢٧/أ] يستهل عليه قضاء اليوم ولا الرخصة في الصوم، وإن بلغ عذر المجهود وخان العهود، فقد أظهر الحكم العدل الخصم والشهود، وهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين.

وكان على عهد بيعته وعقد صفقته، أعلام مشاهير، فخر القضاة قاضي الجماعة أبي بكر بن مسعود المحاربي الوصي بقشتالة وابنه قاضي الجماعة بعده أبي يحيى، والقاضي أبي جعفر الشاطبي، والقاضي الأصيل أبي عثمان بن سعد، والقاضي البقية أبي الفرج الوادي آشي، والقاضي أبي الحجاج بن أبي الأحوص، والقاضي أبي الحسن بن أبي العيش، والقاضي أبي عمر بن منظور، والقاضي الشهيد أبي عبد الله بن بكر، والقاضي الحسيب أبي عبد الله بن عياش، والقاضي الفقيه أبي بكر بن منظور، والقاضي المؤرخ أبي بكر بن عُبيدة، والقاضي الحاج أبي محمد السعدي، والقاضي المرابط أبي عبد الله بن عبد الوهاب، والقاضي للجماعة أبي جعفر بن بُرطال، والقاضي صدر القضاة أبي البركات بن الحاج، والقاضي أبي إسحاق بن شعيب، والقاضي أبي عبد الله الرعيني، والقاضي أبي عبد الله بن حذلم، والقاضي أبي عبد الله بن جابر.

ومن الخطباء، والصلحاء، والصوفية، والفقراء، والمقرئين، والعلماء مثل:

الشيخ الإمام القيجاطي.

والولي أبي إسحاق بن أبي العاص.

والشيخ العابد أبي عبد الله الساحلي.

والخطيب الصالح أبي جعفر بن الزيات البلنسي.

والخطيب أبي بكر الطنجالي.

وأبي محمد بن أبي المجد الأرجوني.

والخطيب أبي عبد الله بن العربي.

والخطيب أبي علي القرشي.

والخطيب ابن شعيب المريني.

والخطيب القريشي الزبيدي.

وأبي الأصبغ البسطي.

وأبي عبد الله البستاني المفتي.

والفقيه الباروني العزمي.

وأبي عبد الله الطرسوني.

والشيخ زين بن غالب حفيد أبي أحمد الولي.

وإمام الشاذلية أبي عبد الله العنجسي.

وعيسى بن عُذرة الأقروشي.

وأبي علي بن المحزومي الصوفي.

وأبي الحسن ابن المؤذن الراضي.

وأبي عبد الله ابن الفقيه الغرناطي.

وأبي عبد الله بن الفخار النحوي.

والمجد أبي الحجاج الساحلي.

وأبي محمد بن سلمون شيخ التصوف الحلقي.

وأبي عبد الله بن الصناع متبوع بواد القطر الأندلسي.

ومن بينهم من المشاهير، وأعلام الجماهير تضيق عن أعدادهم السطور المكتوبة، والأوراق المجلوبة ومن شيوخ الكتاب المبرزين/ [٢٢٧/ب] في علوم الأدب المخصوصن بالحكمة وفصل الخطاب مثل:

شيخنا أبي الحسن بن الحباب.

وشيخنا الشريف القاضي أبي القاسم الحسني.

وشيخنا القاضي أبي بكر بن شرين.

والشيخ أبي بكر بن المرابط.

والوزير أبي بكر بن ذي الوزارتين ابن الحكم.

والقاضي الخضر بن أبي العافية.

وأبي إسحاق بن جابر.

والشيخ أبي الحسن التلمساني.

وصاحب الأشغال المحدث أبي القاسم بن الهنا المالقي.

والوزير أبي عبد الله بن المحروق الأشج.

ما منهم مقهور على البيعة بغلبة قبيل، ولا مجبر على اقتحام سبيل، ولا مدعي ضرورة، ولا مستحفظ تقية مشهورة، ولا مهاجر بدينه عن بقعة مهجورة.

وعمّ الولد المبايع حافر، وإلى سخنة عينه ناظر، والقرابة صامتون، وفي قسمة

الله باهتون، وكافل الولد جريح مخبول، وعلج مجهول، وموثق مهبول، والربع مأهول، والقول مقبول، وسن الولد غير مجهول، وما ثم إلاّ تزاحم على الشهادة، وتهالك في ابتغاء الحسبة أو في الهوادة وتمسك بالعادة، وتسليم فيما ظهر لولي الأمر من الإرادة.

فمتى نبش أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير، ونيابة حاجب أو وزير، فقد عموا وصموا، وخطروا بربع الأنصاف، فأعرضوا ومالوا، وبما سنوه لغيرهم ذموا.

ولم يكف مبايعة الصبي غير البالغ، ولا القرشي المرفوع في الدراع المستعد به للنزال في سبيل الله والقراع، وتقديمه لم يستوفِ للحلم زماناً، ولم يعرف بعد حناناً، حتى قتل ظلماً وعدواناً، وأشهد فيه بالكفر زوراً وبهتاناً، وجلى العوار على الأنظار، وخلد العار في الأسطار، ولم يستر القبيح بعد الفصل وتحكيم النصل، واحتذى بالصم البكم، وأخر ثبوت الموجب إلى أن فرغ من الحكم.

اللهم لا تفضحنا بالألسنة الشاردة، والألسنة المنكرة للحق الجاحدة، واجعلنا ممن استعان بك على هواه، واشتغل بشأنه عن شأن سواه، ولله در القائل:

ارجع لنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهيت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ومن قول شيخنا أبي بكر في رثاء السلطان الشهيد:

استقلا ودعاني طائفاً بين المغان ... وأنعما بالصبر إني لا أرى ما تريان
/ قضى الأمر الذي في شأنه تستفتيان ... ومضى حكم الإله ما له في الحكم ثان [٢٢٨/أ]
مات يوم السلم قعصاً قدره الحرب الهوان ... يا خليلي أعتاب حل شجو عنان
واذكرا سابغ النعمة فيما تذكران ... وإذا صليتما يوماً عليه إذنان
ما علمنا غير خير فاقضيا ما تقضيان ... لا نبالي ما سمعنا من فلان أو فلان
غير ما قالوا اعتقدنا وعلينا شاهدان ... وغداً يجمعنا الموقف من قاصٍ ودان
ورضى الله هو المطلوب في كل أوان ... وأخو الصدق لعمري ذو مقامات حسان
وهوى النفس عناء حائل دون المعان ... وعلى البغضاء يطوي ودّ إخوان الخوان
ما بي والله أشلاء على الرمل حوان ... لفتى ما كان بالواني ولا بالمتوان
يمزج الماء نجيعاً وينادي علان ... ليس بالنيابة النكس ولا الغمر المِدان
أبيض الوجه تراه والرُّبا أحمر قان ... أي سيف لضراب أي رمح لطعان
ذو فخار خزرجي المنتمي سامي المكان ... ذكره قد شاع في الأرض إلى أقط عمان
لا يراه الحرب إلاّ حلف سرج أو عنان ... عن صهيل الخيل لا يلهيه تغراب القيان

إن ألمت هيعة طار إليها غير وان ... يصرع الليل بقلب ليس بالقلب جبان
يا لها من نصبة لولا نحوس في القران ... وشباب محا جلوه بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سنه العشر إلاّ بثمان ... دوخ الأقطار غزواً من هضاب ومجان
حكموا فيه الظباء لترع من لمح العيان ... أن يكونوا غادروه في الثرى ملقى الجران
تشرب الأرض دماً منه تهاداه الغوان ... وتحبيه بتسليم ثغور الأقحوان
فالمعاني أودعته بين سحر ولبان ... وغوادي المزن يرضعن صداه بلبان
ضاع سرح الثغر لما أغمد السيف اليمان ... وأعير الأسد الورا القميص الأرجوان
عاطيان أكؤوس الحُزن عليه عاطيان ... جملة دون صلاة للثرى مما شجان
أو ما كانوا له يدعون أعقاب الأذان؟ ... لا تهينوه فما كان بأهل لهوان
عجباً والله من أبطان هذا الشنآن ... بت أهديها إليه بعد ترتيل المثان
ذاك جهدي أن إحسان أبيه قد غدان ... ويقال الرشح موجود قديماً في الأوان
[٢٢٨/ب] / وعدوك الناس شتاً من عجاف وسمان ... وهي النعمة حقاً كرّها في كل زمان
أتبديا فارس الخيل بغير الله فان ... والمعالي تطلب الثأر وتأبى بالأمان
وهي الأرحام لا تنسى ولو بعد زمان ... أنت من رحمة غفّار الخطايا في ضمان
وهو في الخصم إن شاؤوا وإنّا بوزان ... والذي أفشى قبيحاً حظه عض البنان
سلم الله على من فيه ذو جهل لحان ... وجزاء بجهاد جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير بخفيات الجنان ... ويداك الدهر فينا بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحب والرضا غض المجان ... فتغمدنا برُحمى وقبول وأمان

وأجمع الشمل على أفضل حال في الجنان.

دولة يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

ولّي ساعة قتل أخوه بوادي السقايين من ظاهر الجزيرة الخضراء عقب إقلاع ملك قشتالة عن الجبل بمحاولة أخيه واتفق الناس على بيعته.

وكان سِنّه يومئذٍ قد توسط المراهقة إلاّ أنه لم يظهر ذلك بعد عليه لحياء به وسكناه بيت الحرة الصالحة أمه، وغلبة النعمة والترف على بدنه.

فلما تصير له الملك تبين فيه ظهور ذلك المعنى باتخاذ أم الولد، وكان لأول أمره كثير الصمت والسكون لا يتناول شيئاً من ملكه ولا يفيض في غير أمور قصده ولا يمضي اختياره إلاّ في مائدة طعامه، وداخل باب قصره بين من يلازمه من صبية

إلى أن استقل ونهضت بالمكان سنّه، وعظمت حنكته، وتوفرت تجربته.

ثم اشتمل عليّ وسنى يومئذٍ قريب من سِنّه فأسند إليّ جميع أمره وفرغ لي من تدبيره، واستراح إلى سره وجهره، وسفرني إلى ملك المغرب في هم أمره وبلغ من لطف منزلتي لديه ما يبلغ مثلي من مثله.

وبهذا الباب الكريم المريني اليوم من الإعلام الذين باشروا تلك الحال من يقررها متعجباً مما يتهيأ بباب ملك مخدوم أو يسرعه سلطان لذي مقام معلوم.

حدثني صدر الشرفاء، وعلم الجلساء أبو القاسم قاضي الجماعة أبو علي الحسن بن يوسف الحسن قال:

سأل مني الحاجب أبو عبد الله بن أبي عمر، وهو من خدومة السلطان المرحوم أبي عنان جلدة بين العين والأنف، أن تجري بين يدي سلطانه حديثاً غريباً باشرته من غرائب حظوتك عند سلطانك مما شاهدته عند السعادة/ إليك، فاستطردت إلى أن [٢٢٩/أ] ألمحت بكم.

قال: ففطن السلطان أبو عنان لغرضنا فأخذني إلى الجمع من خديم ومخدوم وينكر الأخلال بالرتب وإهمال الأدب جارياً من عكس الغرض بما اختاره من الذنب.

وكان السلطان أبو الحجاج رحمة الله عليه من جُلة الملوك فضلاً وعقلاً واعتدالاً وباشر بنفسه الوقيعة العظمى بطريف مواسياً لأمير المسلمين ملاقي التمحيص في سبيل الله تعالى، وقصد نصره فحسن القول عنه لذلك.

ولقيت أيامه شدة لتملك العدو قلعة يحصب، والجزيرة الخضراء.

ثم توفاه الله تعالى على يدي محرور هجم عليه بالمسجد الأعظم من حرابه، وقد خفي مكانه يوم عيد الفطر عام خمسة وخمسين وسبعمائة في الركعة الأخيرة من الصلاة فطعنه بسكين كان قد أغرى بشحذها وعلاجها.

وقبض عليه واستفهم، فتكلم بكلام مُختلط، وقتل، ثم أُحرق بالنار.

واحتمل السلطان إلى منزله فلم يشعر إلاّ وقد قضى رحمة الله عليه.

وولّي بعده ولده محمد.

دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

بويع صبياً لا أثر فيه، لا نبات ولا معرفة تدل على بلوغ، إلاّ أن سِنّه سارعت في زمن المراهقة على العتاد لبعض الإربة، وقاصرة عنها في بعض.

وتمّت له البيعة في حفل مشهود ومجمع لغيره غير معهود، فلم يختلف عليه

اثنان. وبيعته مشهورة، بل ملأى اتصل خبرها بالسلطان أمير المسلمين أبي عنان، فأحاطها وغبط فيها حسبما كُتِبَت به في كتابه.

وتمت أيامه على أتمّ ما يكون من الأمان، وخصب الزمان إلى الثامن والعشرين من شهر الصوم سنة ستين وسبعمائة.

ثم كان التغلب على دولته الأولى واستولى على الأمر أخوه إسماعيل حسبما ثبت وكتبنا في كتاب «الإحاطة» و«اللمحة البدرية» فلينظر هناك من أراده.

دولة إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

وكان فتًى وسيماً حسن الخلق مُحطا في لذاته لاستيثار غير النجباء بصحبته، استجلب له الحظ قريبه وحفيد عمّ أبيه، وزوج أخته ليجعله سبباً لحظة، فتمشت الأمور باحتذاء السيرة المتقدمة إلاّ أن هيبته الأمر السلطاني ارتفع حجابها.

ووقع التحاسد والشنئان بين السباع القائمين بالدولة، وأحكم صهره. . .[1] باسمه التدبير عليه، وتدرجه فأكده الخبير شأن أهل الغدر الذين تلمع للإدالة منهم الكتاب وصمت آذانهم أن تعلمه العتاب، وشدت الأم يدها من زوج ابنتها على السراج الغرار والرشيق الفرار حذار الناقة، ومهدت الجنون والحماقة، فهجم عليه بمحل سكناه، وأحاط به وقد امتثل/ غرته وهو مبتذل في بعض قصوره مع شرذمة لا تدافع عنه. [٢٢٩/ب]

واعتصم بفرج في القصر، ثم ألقى بيده طامعاً في العود إلى الشقاق الذي ألفه. فلما ذهب به إليه، أشار الزابل بقتله فقتل، وقتل معه أخ له صغير اسمه قيس.

وذلك في عشي ليلة اليوم السابع والعشرين من شعبان عام أحد وستين وسبعمائة. وولّي بعده التوثب على مُلكهم.

دولة محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر

واستقر الملك بيد ابن عمهم هذا بعمل التوثب، والمقدم على العظيمة أشبه الناس في خلقه وسيرته محمد بن عبد الجبار المتوثب على دولة هشام بن الحكم وهادم الدولة العامرية حسبما شهد به التاريخ.

وكان هذا الفتى مقدماً شاطراً بريئاً من التشمت خالصاً نفسه آخذاً إياها بطريقة الفتيان والحرافشة، سخي اليد، مهذب الخلق، أنكحه السلطان أبو الحجاج بنته لرغبة المحل من القرابة خاصة مع الغض عن العيوب وتلك الغلطات، فناله خمول،

---

(١) موضع النقط كلمة مختلطة المداد.

وأقصاه حمله على التدبير على ولده بإعانته حظية السلطان أم ولده المعدول عنه يوم الولاية المسماة بريم.

وكنا قد غفلنا عن الاحتياط على المال وخزانته يومئذٍ بمحل سُكنى السلطان لنظر هذه المرأة فرزأت منه ما صيرته في سبيل التدبير.

وأحكم هذا الصبي الصهر أمره بمداخلة كل منحرف عن الدولة وحسود من حساد الله بالنعمة أو مستطيل للمدة أو ممطول بالولاية أو متوجع من العزلة.

وداخل مشايخ المدينة، وأعيان الحضرة، فلم يبقَ إلاّ حاطباً في حبله ومحرضاً له على فعله مللاً للعافية وجهلاً بمغيبات الفتنة، كأنه عرض عليهم تصير الأمر إلى عبد الملك بن مروان أو أبي جعفر المنصور أو هشام الرضي.

ولم يبق منهم رجلاً ممكناً من زمام عقله معلقاً على الأمور قسطاً من دينه يقول له بلسان حاله أو مقاله: ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة، لا هاء الله، بل بينهما ما بين الحلال والحرام والرشد والضلال.

فتسور القلعة بالرجال، محكماً لذلك ليلة الثامن والعشرين من رمضان من سنة ستين وسبعمائة.

وفرّ الموثوب به محمد إذ كان خارج القلعة فلحق بوادي آش، ثم اتصل بالمغرب.

وتمّ له الأمر إلى أن استخلصه لنفسه، ولم يقصر فيه في اجتهاده.

وأتاح الله له وقيعة على النصارى بظاهر وادي آش يوم السبت التاسع عشر لشهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين، لم يتقدم/ العهد بمثلها لمثله، نيف الأسرى فيها [١/٢٣٠] على ألف فيهم الكبار والفرسان الدارعة، ادخلوا الحضرة في الجبال يضيق عنهم الطريق والفضاء العريض، استولت الأيدي على أسلابهم، وكان صنعاً لا كفاءة له، تسببت عنه من جده صاحب قشتالة وحرصه على استدعاء عدوه من المغرب لما فرع الله عنه من أمره.

ولما أجاز إليه البحر واستقل عدوه برندة اضطرب أمره، وافتض رأيه القابل اللحاق بصاحب قشتالة طائفة عديدة فمن خاف على نفسه وتوقع من طالب الأمر المطالبة بذنبه، فكان ذلك من غير عهد اتخذه لنفسه ولا ذمام لسلفه ليقضي الله فيه قضاءه، فلم يرع قصده.

وتقبض عليه وعلى من معه مخالفاً في ذلك الرأي قومه، وقتله بيده بعد أن مثل به بطليطلة من ظاهر إشبيلية ثاني رجب من السنة.

وألحق به طائفة بمحلها من صحابته، وأسر سائرهم، واستخلص ما كان عند الجميع من ذخيرة.

وانتهى أمره على هذا السبيل وعاد بعده الأمير أبو عبد الله مخلوعاً إلى دار مُلكه.

دولة محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

وكان قد أعمل الحركة من مدينة رندة إلى أحواز مالقة فيسر الله له أمرها، إذ كان قد استظهر بالطاغية، وحصل بسببه على جملة من حصون المسلمين حامن الطاغية فيها بعهده وأمسكها لنفسه، فسهل ذلك مع قضاء الله دخول مالقة.

وعند ذلك أزمع عدوه الفرار من دار ملكه، واتصل به الخبر، فأعمل السير إلى الحضرة، وعاد إليها زوال يوم السبت الموافق عشرين لجمادى الثانية من سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فاستقرت بها قدمه إلى الآن، واشتعلت الفتن بين صاحب قشتالة وبين أخيه بما أوجب الهدنة، وأن ظهر المسلمون على طائفة من بلاد العدو في سبيل إعانة بعضه على بعض بما هو معروف.

واختصصت بمؤازرته ومظاهرته على أمره وبذل الجهد في نصحه والغيرة على دينه وجمل ذكره تارة بالعتاب ولُخرى بالكتاب إلى أن ترجح عزمي على الهجرة وأعمال الرحلة.

وأنا أفرد فصلاً أقرر فيه حالي ليكون من اتصل به الخبر بعدي أو شك في قصدي على عهدي حاصلاً على اليقين من أمري والبيّنة من عذري حتى لا يبوء بإثمي ولا يغمس اليد في ظلمي، وأن يقل كنت قد خرجت عن العهدة بالبيان وعولت في المثوبة على الرحمن.

وأنا أقسم بالله أنني لا أتعمد في الخبر طريق البهتان، على أن المتجاوز في مثلها يفضحه قريباً الزمان ومباشرة المعاصر لهذا الشأن فنقول:

[٢٢٠/ب] أما حديث: ما لي بباب هؤلاء الأمراء من سلف/ في دولتهم من حظ وإلى ملكهم من وسيلة، وفي أبوابهم من نجله، فقد تضمن ذلك مع شهرته كتاب: «الإحاطة» وكتاب: «المفاخر الطيبية».

ولما صار الأمر إلى هذا الرجل(١) باستدعاء إشارتي، وأمسكت يده للناس يومئذٍ باذلاً في تثبيت إربة جهدي بلغت الخطوة منتهاها، والدرجة التي تؤمل بأبواب الملوك إلى الآماد أقصاها.

إلى أن وقع الكياد على الدولة، وكان ما هو معلوم من تسور القلعة وتحويل الحالة، وكنت ليلتئذٍ ساكناً بقصر ابنتيه بالشريعة القديمة من شرقي المدينة، كنت

---

(١) جاء بالهامش تعريف به نصه: هو: محمد بن يوسف، وهو بخط دقيق كبير أشبه بخط الناسخ. والله أعلم.

أسكنه أكثر فصول السنة.

وكان الشيخ مولاهم رضوان العبد الصالح بالقلعة مقيماً لرسم حفظ الأمانة.

والسلطان منتقل إلى جنته خارج البلد في سبيل الراحة.

فلما استولى المتوثب[1] على دار الملك بمن معه من رجال الكريهة، قصد دار الشيخ فقتله، وأخرج الأمير فأجلسه.

واتصل الخبر بأخيه[2] السلطان، فلحق بوادي آش.

وتعجل إلى المحل الذي بثّ فيه ثقات الولد القائم بدار الملك.

فاستصحبني إليه بأمانة، فابتدأ الأمر من حيث وقف أبوه، إذ كان يشاهد لطف محلي منه وترفعي عن حظ الخدمة في مدة أخيه بعده.

والصبي مغلوب على أمره وللعصابة الدائمة التصرف في ملكه، فرابهم محلي منه.

وقالوا: إنما كان هذا الكدح المعتمد والخطر المرتكب لأن يجعل الملك ثانية في يد هذا الرجل يأخذ منا ثار دولته ويقتضي حيفة سلطانه، فقروا له ـ وقد امتنع أخوي بوادي آش، وأجاره أهلها ـ أنني أحطب في حبله، وأعمل الحيلة في خبره.

وتقبض عليّ وانتهب قليل ما يعلم لي وكثيرة، وتافهه وخطيره، وأعمل التدبير في الإراحة مني، والاحتيال في تسبيب هلاكي، مع أن ألطاف الله تعالى لم تخل عني حال الشدة من ترفيل اعتقال، وتخلص جفوة مقال.

وجرت بين صاحب الدولة وبين المتصير إليه ملك المغرب يومئذٍ السلطان المولى المقدس أبي سالم رحمة الله عليه ورضوانه، المفاوضة في استجلاب المستقر بوادي آشي إلى المغرب، بقصد ابتغاء الهدنة، ورفع الفتنة.

فلما تمّ ذلك جعل الحديث في أمري عهده، والإشارة بخلاص.

وبعث الله لي من حيث لا أحسبه في الكون جد أو حمية.

فتم بعد لجاج وإثارة عجاج، واستخلصني الله ففكت عني بنان النكبة، وفتحت

---

(١) جاء بالهامش تعريف بقلم دقيق أشبه بخط الناسخ نصه: هو محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر وهذا المتوثب هو الذي قتل صهر إسماعيل بعد أن سعى له ثاب له الأمر واستقرت له الدولة. قال ابن الخطيب: محمد بن إسماعيل هذا مشؤوم أخبث نسمة ذرأها الله من التراب، لا غاية وراءه في المكر، والخديعة، والجور، وسوء العقد وخفر العهد.

(٢) في الهامش تعليق بنفس القلم المشار إليه من قبل ونصه: هو إسماعيل بن يوسف أخو السلطان محمد لأبيه.

بالفرج أقفال الشدة، وكان قدري على السلطان أولى الناس بزجي وصحبة رسوله الخليق باعترافي وشكري.

[٢٣١/أ] وخرجت لا أملك/ إلاّ نفسي، وفضل ربي ملطوفاً بي باستصحاب أهلي وولدي وقدمت عليه تلو المخلوع، وكلانا مطوق المنى، وأنشدته يومئذٍ القصيدة المشهورة محرضاً له على نصر من قصد بابه واعتمد جنابه، والمثور يومئذٍ قد جمع الدنيا في جملتها وأشياخ المغرب وأعلامه، قد احتفلت واجتمعت وهي:

لما حل لديها من نحره ذكر وهَلْ أعشب الوادي وتمّ به الزهر

....(١)

[٢٣١/ب] / .... وهي طويلة اختصرتها لطولها، وشهرتها.

ثم ترجح لديّ السكون إلى العافية، والتمتع بالبقية فجنحت إلى السكنى بمدينة سلا حيث طنبت الحرمة رواقها وأقامت الحسنة بسبب الضريح المقدس أسواقها تجري علي بها النعم، ويظلّلني المجد والكرم، فلا أعدّ من عري إلاّ أيام مقامي بها وسكناي فيها تفرغاً إلى ما أريده من دنيا وآخرة وعافية شاملة، وجنة عاجلة وصاحبي يقوم العزم في شأنه ويقعد، ويقرب ثم يبعد ويستحثني إلى صحبته ويجعلني عمدة في وجهته، فلا يجد في بقية، ولا لمطاردة الأمل قِبَلَهُ مسكة إلاّ ما كان من رأي وإشارة، وإهداء نصيحة، وراضاني أخيراً على التماس عهدي، واقتضاء حظي بالقدوم عليه إن جبر الله كسره ورد أمره مع ولده.

وانصرف إلى طيته التي سفرة ليلة وحشتها على صاحب اللطف الخفي بعد أهوال تشيب لها الذوائب، وتذلل لعدو الدين تهون عنده المصائب، وقاني الله مواقفها، وكفاني مخازيها، لم يزل هو يغبطني بها ويقرر عناية الله في الصون عنها.

وما راعني إلاّ كتاب المستولي على دولة المغرب عمر بن عبد الله بن علي رحمهُ الله، وكانت تأكدت بيني وبينه الصحبة، وتوثقت من رعيه وبره العقدة بها، يخبرني بما انتهى إليه أمره بغرناطة، ويرى ما عندي في زيارته والوصول إليه مع ولده.

[٢٣٢/أ] فعزمت/ على الوفاء بعهده وأسرعت إلى قصده بعد أن قررت عند المذكور وبين سلطانه عزمي على تعجيل الأوبة، وعمل على إسراع العودة، وتركي الأهل والولد تحت جناح الحرمة والجوار المريني الواقي بالذمة.

---

(١) فذكر قصيدة طويلة في المدح والثناء والإطراء على الملوك، والتي هي من عادة الشعراء عند الملوك لاستخراج ما لديهم من الماء أو دفع الضرر أو نيل الحظوة، ولم أحب أن أذكرها نظراً لسوء الخط أو سوء التصوير، ثم لأنها لا تحمل الصدق ككل القصائد في هذا الباب وليس المقام مقام شعر أو أدب إنما هو مقام تاريخ، وقد اشتملت على باقي الصفحة [٢٣٠/ب] ونصف الصفحة [٢٣١/أ].

وقدمت عليه بغرناطة مع الولد قدوم الطبيب على المريض المشفى على الموت القاطع بالصوت، وقد زالت الدولة في أمة ليس فيها إلاّ مذنب بقول أو عمل، والمال معدوم، وبناء الملك مهدوم، والألقاب قد ذهبت رسومها، والأحوال قد تغيرت صفاتها، والدنيا قد اختلفت مألوفاتها، والخدام المتغلبون على الدولة قد سفكوا الدماء، واتبعوا الحائف، وأطاعوا المطامع بحيث عادة الثورة، فلولا دفاع الله كانت القاضية.

فشمرت لإصلاح القلوب، وسد الحسائف وتأنيس الشارد، وتأمين الخائف، وإرضاء الجند وتدفير المال ومحاولة عدو الدين.

وقد اقتضيت خطة بالسراح إلى أمر معلوم حل.

فنقلني إلى غيره وأسد رجسي سواه، وقد عادت مع ذلك عوائد العافية، وفتحت على الأندلس أبواب الخير والخيرة، فصودقت الملوك، واطردت الفتوح، ودرت المنوح، واستقامت الأمور بما يعرفه الحاضر لهذا العهد، فلا يسعه جحده، ويعرفه من الكتب الزمن الآتي من أوقعته عليه مطالعته، وفي كل آونة وساعة، وأثناء كل تفرد وخلوه بعد أن كبر الولد، واستراح مرهم الحرص الجلد، أخاطب نفسي فأقول لها:

يا مشؤومة أما تشعرين لما نزل بك حملت هذا الكَلّ على ضعفك، وأوسعت هذا الشعب في فكرك، وعمرت بهذه الحُظوظ حظ ربك، وتعرضت لأن تسخطي الطالب الممنوع بخيبته وتسخطي المعطى بما يرى أنك قد منعته من الزيادة.

عطيت وتسخطي الأجنبي بالقبول على عدوه، والميل إلى ضده، وبالإعراض عن صديقه وتسخطي الجاني بإنقاذ العقوبة في جنايته، والمجني عليه بالتقصير عن غرضه الذي يقتضيه شفاء نفسه، وتسخطي الجيش باختياره وعرضه ومنع المدفوع إليه في غير حقه، وتسخطي الرعية باستقصاء الجباية وأخذها بالأعداد لعدوها في الشدة من تحصين ثلمة، وإعداد عُدة، واختزان ماء أو قوت لشدة، وتفادي طلاب الولايات إذ. . . . .[1] ربع عددهم وأنت مضطرة إلى مطل وعدة. . .[2] بعد أوله، وتعادين الأهل والقرابة، والولد يمنع الأيدي والعدل في الشهوات، وسد أبواب الشفاعات، وتعادين خاصة السلطان بالانفراد به دونهم.

وتعادين الملوك المجاورة/ بالوقف في أعراضهم التي يصعب قضاؤها، ويضرّ [٢٣٢/ب] بالدولة مضاؤها.

(١) موضع النقط كلمة غير مقروء بالمخطوط.

وتعادين ولد السلطان وحظيته، فلكل منهم مطلب يختص به، وطور مثلك بعيد على التهجم فيه، والافتيات على صاحب الدار.

وتعادين السلطان بعدله في الشهوات، والقيام دونه دون كثير من الأغراض، ومخالفة أمر بحسب الهوى من الخدام، وتقريعه في باب إفساد الأموال إذ لا تعطيه بسبب الدولة عليه والتربية له والأمن من بادرت الحق الذي يجب له بعد أن علت عليه السنّ وكبر الولد ونائل العز.

وهذا كله بعض من كل وقليل من كثير فلا تجدر عنه حجة ولا لشيء منه مدافعه.

وصرت أنظر إلى الوجوه، فألمح الشر في نظراتها، وأعتبر الكلمات، فأتبين الحسائف في لغاتها والصبغة في كل يوم تستحكم والشر يتضاعف ونعمة الولد تطلق لسان الحسود وشبع الكلاب المطيعة في تهييج حسائف النمور الجائعة والأسود، والأصحاب الذين تجمعهم المائدة كل يوم وليلة يعتنون في الإطراء والمديح وتحسين القسم والمحالات في الغي والتقرب بالسعي، أنظر إليهم يتناقلون الإشارات بالعيون والمغافرة بالجفون والمخاطبة باللغوز فإذا انصرفوا صرف الله قلوبهم قلبوا الأمور ونقلوا العيوب وأفسدوا القلوب، وتعللوا بالأحلام، وقواطع الأحكام.

وكنت وصلت من المغرب ولي وردٌ من الليل ووظيفة من الذكر، وحظ من الخير، ضايقني في ذلك كله فضول القول والعمل، فهجرت السبحة، وطلقت الورد، وماطلت الفض بوقته، وعمرت الزمان بما لا يغني عني من الله شيء، فلا متعة بالمطعوم لاختلال الصحة ولا بالنساء لذهاب الشبيبة، وضيق زمان الراحة ولا باللباس لتبدل الكبرة، ولا في اكتساب المال لضعف الأمل، ولم أك قطّ اتخذت الكسب بضاعة، ولا صرفت إليه الهمة، ولا عملت عليه ولا في الوطن فضل يوصل إليه، وصرت أسهر الليل، وأتوقع الشر وأقف للدنيا موقف المتوقف في تلقي السلاح يُمْنَة ويسرة، ولا حصول مع هذا كله إلاّ على قوت مكرود، ولا يعوز في قرية ولا يفقد بين أَمَةٍ وأنزل الله عزّ وجلّ على جبال العجز والكسل، وسقوط الأمل وتوقع الشر، وفساد الفكر، وجمع المطالب كلها والآمال بأسرها، والغايات بأجمعها في حصول راحة وتهنيء خلوة وقطع ما بقي للعمر من برهة في دار أمن وخلوّ من شغب، وصرت أتخيّل ذلك وأمثل الفوز والحصول عليه كما يتخيل مجنون بني عامر الظفر بليل، والانفراد/ بها من غير نظر لمهوي يردي، ولا سبع يعتدي، ولا وادٍ يغرق، [٢٣٣/أ] ولا نار تحرق، وعمى الهوى، واحتجاب النما وتأميل السما، كأن سعر الراحة رخيص، ومطلب الخلاص لا يعثر عليه تخصيص، ولا يتعين بين يديه تمحيص.

وسبحان الذي يقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٢٨].

فألححت على السلطان تارة أطلبه بإنجاز وعده والوفاء بعهده، واقتضاء مضمن خطه، وتارة بالعمل على اكتساب بُغضه، والجفاء الذي يحل عُقدة اغتباطه، ويذهب الحظ من باطنه، بلغت في ذلك بالقول والعمل إلى ما لا يبلغه محكم من عقله، ولا محافظ على نفسه، وهو يحمل ذلك كله في جنب المظاهرة بي على أمره وعلمه بمحلي من الصيانة لملكه، والنظر بعين الأبوة لأهله وولده، إلى أن لم يبق بيني وبينه إلاّ أن يذهب القتر، وينكأ القرح، وثاب لي النظر بإزماع الفرار عنه، ومصانعته بين يدي ذلك بالتأني له، والانحطاط في هواه.

وشرعت في عقد السلم مع العدو لسنين ورتبت الأمر ترتيب الآباء للبنين، ورجوت إحسان الله لي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. وقلت أحج بنفسي، وأقضي فرضي، وأشغل الناس بغيري، وأكون بعد ذلك محكماً من أمري، فما اقتضيت من المولى المقدس أبي فارس عبد العزيز[١] رحمة الله عليه، وقد اتصل بي فضل دولته، وطهارة نشأته واعتدال طريقته، عهداً بخطه ضمن لي فيه المشاركة في أغراض من إقامة تحت حرمة وإعانة على حج وزيارة، ومبالغة في شفاعة أو تسويغ قفول إلى الأندلس إن شئت عودة، وتيسر اللحاق ببلاده، والحصول بجبل الفتح من إيالته. والجواز إلى سبتة غرة جمادى من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة في أسطوله وتحت أقصى ما نؤمل من بره.

وفارقت الأهل، والبلد، والمال، والولد، والجاه الذي بلغ الأمد، لا لدنيا ثانية نعتاضها من المطلقة، ولا لخدمة نستأنفها عوض تلك المطروحة، ولا لفرار أمام جناية، ولا لفتكة في مال جباية، ولا لتفويت معقل لعدو الملة، ولا لسفك دم يطلبني بتبعه، ولا لخيانة في أهل ولا لسعي على ملك، نبرأ إلى الله من ذلك كله.

إنما تخلص قصدي بعد تنخيله في الفرار إلى الراحة، والتفادي من حمل الكلفة، والاشتغال بما يعني، لكن في ظل العافية، وتحت سحاب النعمة وذمة الحرمة نسأل الرقيب على ما في القلوب إن كنت قد شاتت في ذلك. . . .[٢] / ولا [٢٢٣/ب] يمن عَلَيّ بحسن لكن لم يخل هذا كله من افتات على القدرة وغرور بالحول والقوة، وتحكم على الله في تحسين العاقبة، فوقع فيه من التنغيص ما لم يُفقد فيه اللطف من ربّ العزة، ولا عدمت إقالة العثرة، وحسن الكفاية. وكانت النية صرف الوجه إلى

(١) في هامش المخطوط تعريف به بقلم دقيق أشبه بخط الناسخ نصه: هو: عبد العزيز بن [الحسن، يكنى أبا فارس، بويع يوم الأحد الثاني والعشرين لذي الحجة لسنة (٧٦٧). وتوفي يوم الخميس الثاني والعشرين لشهر ربيع الآخر عام (٧٧٤). (. . . .) من تلمسان وله أربعة وعشرون سنة، وكانت دولته ستة أعوام وأربعة أشهر. قلت: موضع النقط ثلاث كلمات غير ظاهرة بالمخطوط.

(٢) موضع النقط ثلاث أو أربع كلمات غير مقروءة لعيب في التصوير.

مدينة سلا حتى أُبْلِغَ النفس ريقها، وأخطب لأفكاري هدوءها، ثم أمد اليد إلى ثمرة الهجرة، وأشرع في الرحلة.

فاتصل بي وأنا بطنجة كتاب ولدي، وقد استوحشوا ورابهم استيحاش السلطان، وتوقعوا الإغراء بهم، وتطرق الشر إليهم.

فصرفت وجهي إلى الباب العزيزي في سبيل استخلاصهم وقدمت عليه بتلمسان في التاسع عشر لرجب من السنة.

فتلقاني بما يليق بحسبه وشرف مذهبه من أركاب الخاصة، ورفع الحجبة، ورعي الوسيلة ودنو الجلسة، وإجراء النعمة.

وبادر إلى طلب الأهل بأعمال بنانه بحسب ما رسمته من العبادة، وتلقى رسوله ممن فررت عنه ما يرق له ذو النفس الحرة ويؤثره مبتغى الوسيلة من إرسال العَبرة، واستفظاع الفرقة، وتقرير ما كان لي في قلبه من المحافظة والمودة، واعترف ببراءتي في وطنه من التبعة، وصرف الأهل والولد، قاضياً للحاجة، مقرراً في الطريق بنية الجراية.

وشرعت عند ذلك في الحركة إلى وجهتي الحجازية، فعلق لي الوعد بتوجيه الربعة، والشروع فيما يخص ذلك من العزمة، فأخذت في تقرير الإقامة وانتظار ركب الرحلة.

وبلغ الخبر هذا الاختصاص والاصطفاء والمزية على الجلساء، وأعمال النّواء بهذا الباب السامي العلاء، فعجز منه الصبر عن تحمل الغيرة، وارتفع وحكم المسألة، وقطع بأني بنيت في الباب المريني على الخدمة، وكثرت عليه في جهتي كتب السعاية ممن جلا عن وطنه من القرابة، وقرر عنده مبالغة ولدي فيه بالإداية وأعمل من لديه من الخدام الذين خلا لهم الجو مني وسرحت حجلهم بعد رحيل صقري أقصى القدرة في إفساد حالي لديه بأنواع السعاية وفنون النكاية ليؤمنهم من الرجعة من القفول واللقية.

فتأتى لهم من ذلك ما خلص أجره، وعظم لديه وزره لا بشهادة عدل مقبول، ولا بثبوت خطة معروف، إنما هي إلاّ فتن راشها الهوى وبراها مع براءتي من لفظها ومعناها وموحدها زور وحساد، وبضائع أسواق فساد، واستبلغ المجهود في استبعاد/ [٢٣٤/أ] هذه الجنة التي انتقلت إليها بكل حيلة.

فما وجد السعي مكان، ولا ألفت المكائد رجاءً ولا أهلاً.

فعاد التشفي على النعم، وإهانة الرقم، وإحراق المصنفات، ومحو الحسنات، وتغيير الصدقات. وكنت لغروري بالزمان، وثقتي منه بالأمان، أظن أن لا سبيل

للدهر عَلَيّ ولا نظرة له إليّ، وأن مفارقتي لمن بالأندلس إنما هي مفارقة أب لولد، وقلب لخلد، وأن عقاري الموروث والمكتسب جاري مجرى الوقف الذي لا يبدل وصريح الشريعة الذي لا يتأول، وأن فوائده تلحق بي حيث ما كنت من المعمورة، فلا أكلف رزقاً، ولا أعمل جهداً غروراً، واستحكمت صبغته لما لمساعدة الأيام والثقة برعي الذمام ثم دكّ الجبل العاصم من الطوفان، والممسك للأرض عن الرجفان.

فكان موت المولى المرحوم أبي فارس الذي أوينا إليه وعولنا عليه، ووثقنا بوعده وتمسكنا بعهده، فانحرق الحجاب، واستأسدت الذئاب، واستنهرت البغايا والذباب، وظن أنها الداهية التي لا ترفع، وأن الوطن بعده إنما هو السراب البلقع، وأن ولد السلطان لا تنعقد له بيعة، ولا تقوم له دولة، ولا تستقيم لولده دعوة.

ولم يعلموا ما خبأ الله لبيئة الإسلام من عماد خلف الذاهب، ومناراً بأن بعد أفول البدر المذاهب، وأن الله سبحانه مدّ مدة الوزير الذي خلف العماد، وصان الحريم والأولاد، وحفظ البلاد والعباد، وأقام الحج والجهاد المعروف الحق المشهور الجد المتميز في حلبة الأمر العلوي بالسبق والحسام الذي فتح جبال الغرب وصحارى الشرق.

ووقعت بينه وبين صاحبي المراسلة والمكاتبة والمحاورة، والمخاطبة، ودسّ الإغراء، وتحامل السفراء، ووصلت الوزير البراءة بخطة سالكة سبيل التلطف بكل اعتبار، معلقة رسوم الودّ بأمر غير كبار مقرراً أن خاطره مع مداخلتهم إياي لا يتصف بقرار، ولا يتجاوز الذي أن تحكم استقرار، ولا جهل بما لحرمة الباب المريني من علو المقدار.

وعرض الوزير ذلك عليّ فبتهلته ومحضت فيه نصحه واخترته رأياً، وبذلت في تحينه سعياً، وقلت: هذا الرجل لم يطلب في أمري شططاً، ولا أقتحم عليّ مستكرهاً، إنما غرضه انصرافي واشتغالي بشأني، فإما أن نسافر فيستريح من قربي، وما تتوقع ظنونه من أجلي، أو أعمل على اللحاق به بعد قضاء وطري من حجي، وإما أن تضطرني الحاجة إلى استرجاءه واستصلاحه، ويضيق صدري فأرضى بتحكيمه.

وسألته أن يجمع بين الغرضين بانصرافي إلى سُكنى مدينة سلا، واقتسمت له/ [٢٢٤/ب] على إيثاري إياه، وعدم رضائي بعداه، معجباً بمواصف الأنفاس العالية، ووسمت جبال الهمم السامية، ووقع لما جئت به الإنكار، وفي شأن فساده الإيراد والإصدار، وعظمت من تحمل ذلك الأنفة ولم ترضه الملكة المؤتنفة.

وأقسم أن لا يستقر في دولة مرين على الهضيمة، لها بيد الحطيطة حتى تكون لغيرها ثابغة لسواها مصانعة.

وانصرف الرسول عن ظاهر محامله، وعدة بأرفاد ومواصلة، وإجراء وإبداءه في الجميل، وإعادة إلى أن سماسرة الفتنة، وأعداء الدولة دسوا له أموراً من العمل على اجتياز من يطلب ملك الأندلس والعزم إجازته، وأن الأمر فيه قد أبرم، والتدبير قد أحكم من غير أن ينزل الله بذلك سلطاناً أو يشغل به سراً أو إعلاناً.

فأقدم إقدام المستميت، وعاجل الألفة بالتشتيت، وانقاد في هوى غضبه، وجنى على نفسه وعلى وطنه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

هذا تقرير حالي في انتقالي وارتحالي الذي علقت اليمين والدعاء والتأمين، فمن عذر الله مثيبه، ومن حمل بعدها فالله حسيبه.

فقد علم الصدق من يعلم السر وأخفى، ويقرب زلفى، ويجزي الجزاء الأوفى، فالدنيا أحلام، والعمر منام، وإن جرت الأقدار وراب الإيراد والاصدار، وتعاور الخسف والإبدار، فالدار الآخرة هي الدار.

وكأني بسرح الحياة قد اجتوى، وبساط الجوى قد طوى، وعند الله الفسطاس الذي لا يجور، والحكم العدل الذي يرضى به البر والفجور.

ذكر التعريف بما أمكن من ملوك النصارى بالأندلس على الاختصار

ولما كان هذا الجزء مخصوصاً بأخبار الأندلس، وكان كثيراً مما يمر فيه ذكر ملوك قشتالة، كان من كماله أن نلمع بنبذة من ملوكهم، إذ لا يخلو الزمان ممن يتشوف، لذلك لا سيما الملوك، فهم أبداً لأخبار الملوك نفوسهم متطلعة ولسماع أنباءهم متشوقة.

وقد كنت طلبت شيئاً من ذلك من مظنته وهو الحكيم الشهير طبيب دار قشتالة، وأستاذ علمائه يوسف بن ومار الإسرائيلي الطليطلي، لما وصل إلينا في غرض الرئاسة عن سلطته، فقيّد لي في ذلك تقييداً أنقل منه بلفظه أو بمعناه ما أمكن، واستدرك ما أغفل، إذ ليس بقادح في الغرض.

قال الحكيم:

سألت أعزك الله وأدام/ كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي [٢٢٥/أ] وقع فيها نسب ملك قشتالة، وتفرع ملوكهم، فأثبت لك ذلك مما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون القشر، قصدت أن يكون ذلك عندك بأصل فنقول:

ذكر في التاريخ المذكور:

إن الأرض المسماة الآن قريون، وفي الزمان القديم قنطابرية، كانت بأيدي ناس عظماء يسمون دوقيش، وفشا بينهم نزاع وخلاف أوجب فراق أحد أولئك الرؤساء عنها واسمه بلاية بن الدوق فافيلة، وسكن بأرض أسطربوش، وهي بين أرض ليون وغلنسية.

فلما جازت العرب إلى الأندلس على عهد الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، وفتح الأرض طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم موسى بعده، واستولى المسلمون على أكثر بلاد الأندلس، واتصل الفتح بأرض أشطوريش حيث كان بلاية المتقدم الذكر، قام بلاية لحماية الأرض، واجتمع إليه طائفة غير كثيرة العدد من الشجعان وأبطال الرجال، فحمى جهة أشطوريش، ودافع عنها

المسلمين، وعمت مدافعته وحمايته قطرليون، وقطر برتقال، واطلع بذلك ورد عنه العرب، وقد أنس بقتالهم وكثرت مواقفاته إياهم.

فاتفق أهل تلك الجهات على تقديمه ملكاً بها لاستحقاقه ذلك بنفسه، وبيته وإن كان غريباً عن أرضه، فكان ذلك سنة سبع وخمسين وسبعمائة لتاريخ الصُفر، وبموافقة تسع وتسعين للهجرة.

وهو أول من تسمى بهذه الأرض ملكاً بعد دخول العرب.

ودام ملكه ثلاث عشرة سنة ثم مات.

وملك بعده ابن له يسمى: أقيلة، وتمادى ملكه عامين، ثم قتله دب تعرض له بالصيد ولم يحذره فأتى عليه.

وولّي الملك بعده صهر له من بيته وأرضه اسمه: دون الفنش بن الروز دون بطره من أهل قنطابرية، كان قد وصل من تلك الأرض لزيارة أم بلاية، واعتانته وخدمته فأكرمه بلاية وزوّجه ابنته، فلما هلك لم يوجد أولى به منه.

فملك سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بموافقة أربع عشرة ومائة للهجرة.

واتصلت مدته تسع عشرة سنة، وكان يسمى الناطوليقة لمعرفته بأصول شريعة الروم المسمى علمها عندهم طوليقي.

ولما هلك ولّي بعده ابنه المسمى: فريولة في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة للصفر بموافقة ثلاث وثلاثين ومائة للهجرة.

وفي عهده دخل الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وعقدت له البيعة بالأندلس، تاسع ذي حجة من سنة ثمان وثلاثين ومائة.

[٢٢٥/ب] ولما هلك فريولة ملك بعده أخوه ابن بلية واستولى على أرض أشطور/ يش التي منها أصله، وأرض غليسية، وأرض برتقال، وبعض ليون، وكان ملكاً كبيراً.

وكانت ولايته سنة ثمانمائة للصفر، وبموافقة ثمان وأربعين ومائة للهجرة، ومدته ست سنين.

وتسمى: قاسطة، ومعناه الملك الصالح، لعفاف وصلاح كان عليه عندهم.

واتصل ملكهم إحدى وأربعين سنة، وكان ابتداء أمره سنة ثمان عشرة وثمانمائة للصفر.

وثار عليها عم له ابن جارية غير ممهورة اسمه موربغاطة فخلعه وملك بعده

خمس سنين. ثم ولّي بعد هذا الخالع قريب له تغلب عليه اسمه مودة، كان أول أمره قساً أي عالماً فقيهاً في دينهم، وملك ست سنين.

ثم عاد الأمر إلى المخلوع الفونش بن فرويلة مدته التي تمام الإحدى وأربعين سنة المذكورة.

ثم ملك بعده لما هلك زميرة بن دون الفنش القطويلة ـ المتقدم الذكر قبل هذا ـ اختياراً من الناس، وذلك سنة خمس وستين وثمانمائة للصفر.

ثم ملك بعده ابنه دون الفنش أوردوينة وتسمى: ماغنة، أي الملك الكبير، وكانت مدته ستاً وأربعين سنة، وولّي صغير السن وعظم ملكه واتسعت مملكته.

وهو الذي نقل دار ملك أبيه إلى ليون.

وكان ابتداء ملكه سنة خمس وسبعين وثمانمائة، بموافقة ثمان وأربعين للهجرة.

ثم ولّي بعده ابنه دون غرسية.

وكان ابتداء ملكه سنة أربع وعشرين وتسعمائة للصفر بموافقة سنة سبع وتسعين ومائتين للهجرة، ومدته ثمان سنين.

ثم ملك بعده أخوه فرويلة سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بموافقة خمس وثلاثمائة للهجرة، وكانت مدته سنة واحدة وشهران، وأصابه مرض الجذام فلم يتأت معه قيامه بالملك، ولهذا أنشأ بجهة ليون التي كان حكم قشتالة من قبل ملكها شتات واختلاط أوجب اقتطاع البلد القشتالية عن ملك ليون.

فقدم أهلها على أنفسهم رجلين من القضاة حسبما جرى عليه العمل ببلاد المسلمين بالأندلس على عهد ملوك الطوائف.

وتغلب القضاة، وسالموا ملك ليون على أن يخدموه ثلاثمائة فارس متى احتاج لذلك، فقبل ذلك منهم، وقنع بطاعتهم.

وكان أحدهما يسمى: نوقية رجورة.

والآخر يسمى: ولاين قبالة.

ومن نونية رجوه تناسل ملوك قشتالة، وليون الذين استقر الملك في عقبهم على عهده.

رجع الحديث لملوك ليون

ثم ملك بعد فرويلة دون الفنش بن دون أوردوينة خمس سنين وثمانية/ أشهر. [٢٣٦/أ] ثم زهد وترهب، وأصابه وسواس، فتخلى بعد ذلك عن الملك لأخيه رميوه في ثلاث

وثلاثين وتسعمائة، وكانت مدة تملكه عشر سنين.

وفي السنة الأولى من مدته قام بقشتالة داعياً إلى نفسه القمردون.

فران عنطالس حفيد نونية، وجورة أحد القاضيين المذكورين من قبل.

رجع لحديث ليون

ثم ملك بعده زميرة أوردوينة سنة ثمان وخمسين وتسعمائة بموافقة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، فكانت مدته خمس سنين وستة أشهر.

ثم ثار عليه وخلعه أخوه: دون شانجة سنة ثلاث وستين وتسعمائة للصفر بموافقة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وكانت مدته: اثنتي عشرة سنة.

وفي مدة شانجة هذا الثائر بأخيه خرجت قشتالة عن حكم صاحب ليون جملة، واستقل القمر المذكور فران عنطالس حدثت بينه وبين شانجة سلطان مفاتنة فغلبه القمر وقتله.

وملك بعده نبارة ابنه دون غرسية، وكانت بنت ملك نبارة زوجاً لدون شانجة صاحب ليون ـ وكانت تطالب العهد بعداوة قتله لأبيها، وهي مع تخادعه وتريه الصداقة.

وكانت بعد تزوج بنت أخيه غرسية صاحب نبارة ولد قتيلة لتزول بينهم العداوة راساً، وداخلها زوجها ملك ليون في استدعائه لحصول رأي كبير يسمونه: «القرت»، تحصر فيه الملوك والأمراء لتقرير المصالحة الوقتية والبلادية، ففعل ذلك، ووعده القمر بالوصول.

فكتبت المرأة لأخيها صاح نبارة، أن يحاول أمره في طريقه ويونسة، ويطلب لقاءه، لعله يتأتى فيه ثأره.

فلما قضى القمر حاجته من حضور «القرت»، ورجع قافلاً إلى إبرغش بلده من عمالة قشتالة، طلب منه صاحب نبارة الاجتماع، فوقع الاتفاق على أن يستصحب كل واحد منهما سبعة من الفرسان دون سلاح.

وجاء القمر بحال طمأنينة على بغلة، وفرسانه السبعة بين يديه، حتى إذا قرب من مكان الوعد، رأى صاحب نبارة في خمسة وثلاثين فارساً يحملون السلاح، فأيقن بالشر، وأعجلوه عن التحول إلى الفرس، فدخل في جنة كانت بالموضع واعتصم ببرج كان بها ودافع هو وناسه عن أنفسهم.

فقاتله صاحب نبارة قتالاً شديداً بقية اليوم إلى نصف الليل.

ثم اقتضى أمانه على أن ينزل آمناً في نفسه من القتل، ونزل، فأحمله صاحب

نبارة إلى ناجرة فأكبله، وبقي عنده سنة ونصف سنة.

ثم رغب منه في سراح فرسانه/ إلى قشتالة فسرحهم. [٢٣٦/ب]

واتفق أن حلّ بالموضع قمر معروف من أرض أخرى، فطلب أن يزور القمر الأسير وأشفق لحاله، ووعده بالمشاركة الجميلة في أمره، وطلب زيارة بنت صاحب نبارة، وهي التي كان القمر الأسير وعد بتزوجها وعقد من ذلك حديث جنة له بسببه، فأخذ معها في شأنه، وضمن لها أنها إن خلصته من أسره أن يحملها معه إلى قشتالة ويتزوجها ويعرف لها قدر إحسانها إليه.

وللنصارى في أثناء هذا أحاديث وأشعار ومعاني ترجع إلى شطارة العشاق وارتكابهم الأخطار، فتم ما ذهبت إليه من ذلك وذهب بها إلى قشتالة، وتزوجها وعاد إلى ملكه.

ووالى الحروب على صاحب نبارة إلى أن أسره وانتصف منه، وأقام في أسره ثلاثة أشهر ثم شفعت فيه بنته، فأطلقه طوعاً.

ثم طال الأمر واستدعي صاحب لهذا القمر مرة أخرى لحضور «قرت» آخر، فوصل إليه وهذا على عهد المنصور محمد بن أبي عامر وهم كلهم بين موافقة عن بلادهم لابن أبي عامر وبين تقية وسلم.

وقد كان القمر فنصاليس صاحب قشتالة فسد ما بينه وبين صاحب ليون، فقبض عليه وأسره سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ودبرت أيضاً زوجه بنت ملك نبارة التي خلصه من الأسر الأول بالحيلة في خلاصه من هذه فسرت من برغش في خمسمائة فارس مختارة تطوف المراحل ليلاً إلى أن كانت على ثلاثة فراسخ من ليون، وتركت الفرسان في غياض وجبال، وأقبلت في زيّ راهبة تقصد الحج بشنت ياقب.

وأكرم السلطان صاحب ليون قدومها وتبرك بها.

فسألت منه أن تزور القمر أسيره، وتسافر من الغد إلى حجها فأذن لها في ذلك، فأطالت معه الحديث، ثم أمرته فخرج في زيها مع أحد خدمتها تخاطب الحرسة عنها، وبقيت هي راقدة في سرير القمر كأنه لم يبرح، فلما حصل في ظاهر البلد، وجد الخيل تنتظره بكل فرسخ إلى أن وصل بجملة خيله.

ولما تعرف صاحب ليون ذلك شق عليه ثم لم يسعه إلاّ أن وجه إليه زوجه هذه مفرجة الشدائد.

وكان هذا القمر فارساً كبيراً لا نظير له، فشمر بعد ذلك في حرب صاحب ليون، وأضافه، وغنم أرضه إلى أن اصطلحا على أداء حقوق كانت للقمر قِبله، والتسليم فيما بيده.

فاستقل القمر بأرض قشتالة من حينئذٍ.

رجع الحديث إلى ملوك ليون

ووَلّي بعده ولده زميرة وهو صبي صغير ابن خمس سنين، وذلك في سنة خمس وتسعين وتسعمائة.

[1/٢٣٧] وكانت مدته خمساً وعشرين سنة، وتولى تدبير ملة والدته دونه طريحة، وعمته/ دونه ألبيرة.

وهلك القند دون فران عنصاليس أيضاً في زمانه سنة ثمان وسبعين وتسعمائة، فكانت مدة القند فران عنصاليس نحواً من تسع وثلاثين سنة.

ثم ثار عليه في غليسية دون برمود بن دون أوردوينة وتملكها.

ولما مات دون ميره الذي تقدم صبياً ودبرته أمه وعمته خلص الملك لدون برموده بن دون أوردوينة.

وكان مبتدأ ملكه سنة ألف للصفر، ومدة ملكه سبع عشرة سنة. وعلى برمودة هذا ألح ابن أبي عامر بالغزوات.

وفي مدته ومدة من قبله ومن بعده قريباً منه كان سوق ذلك الجهاد المحظوظ.

ثم ملك بعد دون برمودة ابنه دون الفنش سنة سبع عشرة وألف للصفر، وكانت مدته سبعاً وعشرين سنة.

ملك بعده دون برمودة ولده سنة أربع وأربعين وألف لتاريخ الصفر، وكانت مدته عشرين سنة.

وكان دون برمودة هذا قد تزوج بنت صاحب قشتالة واسمها طريحة، وسيأتي خبره بعد.

وعند هلاك دون برمودة انتقل الملك لسبيل القمر دون فران عنصاليس حفيد القاضي الأول نونية رجورة المتقدم الذكر. ولما انتقل ملك ليون إلى حفيد نونية رجورة القاضي بقشتالة بسبب البنت التي كانت زوجاً لبرمودة ملك ليون، وكونه لم يعقب، فنذكر عقبه من هذا الجد، وهو الذي صار أصلاً وانقطع ما قبله، فنقول:

تولى القاضي الأول نونية رجورة سنة واحدة وهي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

ثم هلك فولي بعده ابنه عنصاليس.

ثم تولى بعده القمر دون فران عنصاليس المتقدم الذكر تسعاً وثلاثين سنة.

ثم تولى بعده القمر دون غرسية فرادنس.

ثم تولى بعده ابنه دون شانجة وكان لدون شانجة ابنتان: إحداهما تسمى: دونة طريحة، تزوجت دون برمودة صاحب ليون.

والثانية تسمى: دونة ألبيرة تزوجت شانجة ملك نبارة، وولدت منه ابنين:

كبيرهما: دون غرسية ملك نبارة بعد أبيه.

والثاني: دون أفراندة الذي هو أول من تسمى ملك قشتالة.

وكان لدون أفراندة هذا ولد من عشيقة غير ممهورة اسمه دون ميرة ملك أرض أرغون.

فمن نسل دون أفراندة هم ملوك قشتالة إلى الآن.

ومن نسل دون ميرة هم ملوك أرغون.

فلما توفي دون شانجة قند قشتالة ولّي بعده دون غرسية ابنه وكان ضعيف العقل اقتضى نظره التوجه إلى ليون ليتزوج بها أخت ملكها برمودة، وحمل معه صهره دون شانجة ملك نبارة.

فنزل صاحب نبارة بحصن ليون، ونزل دون غرسية بداخل البلد.

وحدث بالبلد فتنة وهرج قتل فيه.

وقيل إن قتله بإشارة سلطان ليون. [٢٣٧/ب]

وقامت/ الحرب لأجل ذلك بين ليون وبين صاحب نبارة، وقد انضافت إلى ملكه بعد قتل صهر قشتالة ستة ألف وست وستين للصفر، وكانت نحواً من ست عشرة سنة.

وقتل طائفة من الزعماء اتهمهم بالتدبير على صهره، واستضاف أرضهم إلى أرض قشتالة وهي المسماة ببلد وليدوشطانفش وما إليها، فضخم ملكه.

ثم تصالح مع صاحب ليون على أن يتزوج ابنه دون أفراندة مع أخته، وأن يسمى ملك قشتالة.

وأعطاه أبو جز ألبيرة من أرض نبارة وهي ناجرة وما إليها.

فلما توفي أبوه وتحرك ملك ليون لقتاله واحرح[١] الذكور أخاه القائم بعد أبيه بملك نبارة، فغلبا على صاحب ليون وهزماه. وقتل في الحرب، فانصرف ملك ليون لدون أفراندة بردور وبرمودة المتقدم الذكر

(١) جاء فوق هذه الكلمة لفظ: «كذا» بخط دقيق بقلم الناسخ.

ثم قال الشيخ الحكيم:

وإذ بلغنا هذا الحد فلنذكر الآن:

ملوك قشتالة وليون ونجعل إلى ذات اليمين عدد الأولاد من عقب بلاية وإلى ذات اليسار عقبهم من عقب أفراندة هذا المذكور

فنقول:

ملك دون أفراندة ولد صاحب نبارة قشتالة وليون أربعين سنة وستة أشهر، وكان ابتداء ملكه سنة ثلاث وخمسين وألف للصفر، وقسم ملكه على أولاده الثلاثة.

فأعطى ملك قشتالة لدون شانجة.

وأعطى ملك ليون الفنش.

وأعطىء ملك غليسية وبرتقال لدون أنزيق.

فلما توفي دون أفراندة، ثار دون شانجة على أخويه، وأخذ منهما الملك وأسرهما.

فأما دون الفنش: فقيده بالحديد وسجنه في حصن تاجرة، فبقي بها نحواً من ثماني عشرة سنة.

وأما أخوه دون أنزيق فجعله مونجا في موضع عباده على رسم الزهاد، مرقباً عليه بموضع يقال له سفغند، واحتال فهرب منه ولحق بطليطلة وبها يومئذٍ المأمون بن ذنون فآواه وأجاره وسكن عنده وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى لها.

وأقام عند ابن ذنون إلى أن قتل أخوه شانجة بتدبير أخته أراكة، إذ دخلت في قتله بعض فرسانه، وقد خرج يتصيد بطارد صيداً وذلك الفارس يقفوه، فلما انفرد به طعنه برمح كان أعده له، وركض فلحق بالأخت المذكورة بمدينة سمورة فاستجار بها.

ووجه عنه النصارى إلى طليطلة بولده عوضاً منه، وذلك سنة ألف ومائة وسنة واحدة.

ولما ملك أبعد الأمر بقتل قاتل أخيه، وقال ما معناه: عمل جيد وعادة سوء.

ثم توفي في شهر يونية سنة سبع وأربعين ومائة وألف، ولم يترك ولداً فولّى [٢٣٨/أ] الملك حفيده ولد ولد فرند/ لند.

وقال الحكيم فيه:

دون يموندو هذا الحفيد المسمى بالفنش هو الذي تملك طليطلة وما إليها.

وكان ابتداء ملكه سنة سبع وأربعين وألف للصفر، وكانت مدته ستاً وخمسين.

قال: وهو أول من تسمى: البردون، ومعناه سلطان السلاطين.

إذ مهد جيرانه وافتتح دار ملك النصارى العوض طليطلة، واستخدم ملوك المسلمين بالأندلس.

قال ابن وقار:

كان له سبعة من الملوك يخدمونه، ولا يعصون أمره بين مسلمين ونصارى، وفي مدته خرجت جهة برتقال عن حُكم قشتالة في أول أمره إذ كان صغيراً عند الولاية، وكان جده دوق الفنش قد زوج بنتاً له من أحد قرابته اسمه رموزرة، وأعطاه برتقال، وسماه دوقاً.

ثم إنه لما هلك وولّي بعده برتقال ابنه توجه إلى الباب فولاه برتقال وثبتها له، فلم يقلد الفنش صاحب قشتالة وليون على إزالتها له.

فمن نسله ملوك برتقال إلى الآن حسبما يأتي إن شاء الله.

قلت: وهذا الفنش المعمر هو الذي طغى واستحوذ على ملوك المسلمين، وضرب بين أمراء ملوك الطوائف، إلى أن قمعه الله تعالى بلمتونة، وهزمه هزيمة الزلاقة على يد يوسف بن تاشفين حسبما يأتي إن شاء الله تعالى.

قال ابن وقار فيه:

ثم قسم ملكه قسمين، فأعطى ملك قشتالة ولده دون شانجة، وتسمى باسم الملك في حياة أبيه خمس سنين.

وأعطى ملك ليون وغليسية ولده دون أفراندة.

ثم استمرت أيام دون شانجة بعد موت أبيه عاماً واحداً، ثم توفي سنة ثمان وتسعين ومائة وألف، وترك ابناً صغيراً من أربع سنين اسمه دون الفنش.

فملك بعده ثلاثاً وخمسين سنة، وهذا الصبي المعمر هو الذي جرت عليه الهزيمة المعروفة بالأركة على يد يعقوب المنصور بن يوسف العشري بن عبد المؤمن بن علي رحمه الله سنة ثلاث وثلاثين وألف ومائتين للصفر، وفي شهر أغشت.

ثم والت له الأيام، فكانت له على الناصر بن المنصور هزيمة العُقاب التي لم تستقل العشرة بعدها بالأندلس.

وذلك ثامن عشر من يوليه من سنة خمسين وألف ومائتين للصفر.

وكان هذا الملك الرومي بعيد الهمة لبس بعد الهزيمة عليه ثياب الحرب، وأقسم أن لا يزيلها حتى يأخذ ثأره.

فلما أُتيح له الظفر بالناصر بن المنصور، ورغب منه النصارى أن يرفع الحزن فقال: وكيف وأنا لم أنتصف وإنما غلبت ابن من غلبني، هضيمتي في عنق الابن، وهضيمة الأب في عنقي لم تزلها عني غلبتي لغيره.

وكانت له بنت اسمها برتقالة زوّجها ابن عمه دون الفنش ملك ليون، فولدت له ولدين:

[٢٢٨/ب] أكبرهما: / أفراندة.

وأصغرهما: دون الفنش.

فملك أفراندة قشتالة وليون.

وكان الفنش أفانت ملينة، ومعنى الأفانة ولد السلطان، فلما توفي الفنش ولّى ابنه دون أتريق ثلاث سنين أولها سنة خمسين ومائتين وألف.

ثم هلك بحجر أصاب دماغه في لعب من الصبيان عام ثلاثة وخمسين وألف ومائتين. فرجع الملك لأخته ملكة ليون، فأعطته ولدها أفراندة.

فهذا أفراندة ملك قشتالة من أمه، وملك ليون من أبيه، وهو الذي تملك قرطبة، وإشبيلية، وجيان، ومرسية.

وحسبك بهذا الظهور الذي أقام البرهان على أن الدنيا لا تزن عند الله شيئاً فكم اشتملت عليه تلك المدائن العظيمة من بلاد وعمالات، ومنابر، ومساجد، وأعيان، وفرسان، وعلماء، وأعلام، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٨٢].

وهو المسمى بالأحول.

وعلى عهده كان قيام ابن هود، وابن نصر، وغيرهم ممن تقدم ذكره.

وهلك بعد استخلاص إشبيلية، ولذلك كانت كهنة الروم ترمز فتقول: الأسود الأحول إذا أدخل يده في الزيت هلك. يعنون إذا ملك إشبيلية معدن الزيت وكانت مدته خمساً وثلاثين سنة.

وابتداء ملكه من لدن سنة خمس وستين وألف ومائتين للصفر.

وولّي بعده ولده الفنش سنة تسعين ومائتين وألف للصفر، وكانت مدته ثلاثاً وثلاثين سنة، وستة أشهر.

وعدم الولد من أول عمره، فخاف من أن يطرقه الموت فيخرج الملك عن عقبه فجعل الملك بعده لحفيده من بنته ذو العُرف، ثم ولد له بعد هذا ولده السلطان دون شانجة.

فلما كبر دون شانجة عظم عليه انفراد ذو العُرف بالملك دونه.

ولم يسع الأب حله فشمر عن مخالفته لأبيه واستخلاص الملك بالسيف.

فخلع الأب وضيق عليه إلى أن لم يبق بيده إلاّ قرطبة وأحوازها، واستنصر عليه بالمولى السلطان المرابط أبي يوسف بن عبد الحق ولاذ به، ورمى عنده تاجه ذخيرة النصارى المستقرة بدار مرين، ولقيه بصحره عناد من أحواز رندة، فسلم عليه.

ويقال: إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان الزناتية الماء ليغسل به يده من قبلة الفنش أو مصافحته.

والشيء يذكر بالشيء، فأثبت حكايةً اتفقت لي بسبب ذلك استدعى بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها وهي:

أن اليهودي الحكيم بن ررزار على عهد ملك/ النصارى حفيد هذا الفنش [١/٢٢٩] المذكور.

ووصل إلينا في حوائجه، ودخل إلى بدار سكناي مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة، وعندي القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن، وكان محمد هذا قد فَرّ إلى صاحب قشتالة، واستدعى من قبله إلى الملك فسهل له ذلك، وشرط عليه ما شاء، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطرائه.

فقال لي: مولاي السلطان دون بطرة يسلم عليك، ويقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص.

وكان.....[1] من كلاب بابه حتى ترى خسارة الكراهة فيه.

فأخذت الكتاب من يده وقرأته، وقلت له: أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلاّ خلو بابك من الشيوخ الذين يُعرفُونك بالكلاب والأسود، وممن تغسل الأيدي منهم إذا قبّلوها، فتعلم الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا، وإن جَدّ هذا الولد هو الذي قَبّل جدك يده، واستدعى الماء لغسل يده بمحضر النصراني والمسلمين، ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد.

---

(١) موضع النقط بياض بالأصل قدر كلمة أو اثنان، وبالهامش تعليق يظهر منه كلمة: «كذا» وربما كان المقصود كذا بالأصل الذي نقل عنه.

وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجاء إليه فيكافيك بأضعاف ما عملته فيه.

فقام ابن الحسن يبكي ويقبل يدي، ويصفني بوليّ الله وكذلك من حضرتي.

وتوجه إلى المغرب رسولاً فقص على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه، وبالحضرة اليوم ممن تلقى ذلك كثير جعل الله ذلك خالصاً لوجهه.

رجع الحديث:

ثم هلك الفنش وولّي الأمر بعده دون شانجة ابنه سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وعشرين للصفر، وكانت مدته اثنتي عشرة سنة.

وهو الذي فتح طريف ونازل الجزيرة، وكانت الوقيعة بأسطوله.

ثم هلك وولّي بعده أفراندة، وهو صبي صغير دون عشر سنين، في الثامن وعشرين لابريل العجمي من سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف للصفر.

وهو الذي نازل الجزيرة، وأخذ جبل الفتح.

وكانت مدته سبع عشرة سنة.

ولما وقعت الفتنة بين السلطان نصر وبين ابن عمه بمالقة نازل القندان وملك عليها.

وولّي بعده ابنه دون الفنش في سابع شتنبر[1] عام خمسين وثلاثمائة وألف للصفر.

وسنة ثلاثة عشر شهراً، وتقدم لتربيته والنيابة عنه عمه دون بطرة.

وهو الذي وقعت عليه وقيعة المرج بظاهر غرناطة، وسيقت جثته إلى البلد، وجعلت في صندوق خشب ببعض الأبراج عن يمين الصاعد إلى الحمراء لصق باب يعقوب.

وصارت الصبيان يرمون ذلك التابوت بالحجارة إلى أن غطته واحتيج إلى بناء [٢٢٩/ب] البرج وأنا نائب عن السلطان. إذ ذاك، واضطر إلى الكشف/ عن التابوت، فألفى قد عفن، واستؤذنت فيما يفعل بتلك الرمة؟ فأمرت بأن يتخذ لها تابوت جديد وينقلها نصارى السلطان المستخدمون في المباني حسبما يريده أساقفتهم.

فلما أخرجت الرمة لتنقل إلى التابوت ألفي بين الفقرات فيها سنان صغار الجرم قد أثبتتها فيها يد مجاهد يوم الوقيعة كانت سبباً للفتح.

---

(١) يريد سبتمبر.

فاستعبرت رقة وقبلت في ذلك السلاح الكريم وسألت الله بركة معلم بها، وأمرت برده لمكانه برّاً له وأعدت الصندوق لحاله لما رأيت في ذلك من التذكير بأيام الله، ونكاية الكفار إذا مَرّوا به، وتخليد الفجر للدين ما شاء الله، والله ينفع بالمقاصد الخالصة لوجهه الكريم.

ثم كبر الفنش هذا، فاستولى على أثغر وبره عند فتنة الغُزاة باندرس، ثم على بلد أطسة والحفرة المنسوبة إليها، وأوقع بالمسلمين الوقيعة العظمى بطريف.

ثم نال قلعة يحصب على ستة فراسخ من الحفرة وتملكها.

ثم أملى الله له بشق عصا الأمة، وما نال أمير المسلمين المرجوّ لنصرها من التمحيص بالقيروان، واستبداد ولده عليه بملك المغرب، فانتهز الفرصة في الأندلس ليأس أهلها من نصرة الإسلام، فتحرك إلى إشبيلية، ونازل جبل الفتح وشدّ حصاره إلى أن نزل اللطف الخفي بهلاكه عليه بعدما بنى وعزم على السكنى في شهر مارس سنة خمسين وثلاثمائة وألف للصفر، وبموافقة محرم من عام واحد وخمسين وسبعمائة.

فكانت مدة ملكه نحواً من تسع وثلاثين سنة. وتولى الأمر بعده ولده دون بطرة، وشغله الله عن المسلمين بحروب أهل ملتة، فانحنى على سلطان برجلونة إلى أن انتزع كثراً من بلاده كدانية، وقلعة أيوب، وأريولة وغيرها.

ونازعه أخوه المُلك، وهو أنزيق ابن أبيه من عشيقة أولدها ولداً جعله لما شاء الله من شتات كلمتهم.

وكرهت بطرة النصرانية لكثرة الكلف، وإيصال الحركات والاستعانة بالمسلمين، فخُلع، وفَرّ إلى بلد أريونة من عمل صاحب الأعليطرة بعد أن انتهب دار ملكه بإشبيلية، وعاثت أيدي الرعية في خزائنه بمرأى من عينه.

واستولى على البلاد أخوه أنزيق، فلحق بإشبيلية مُستدعي من أهلها، وأهطعت الأرض إلى طاعته.

وأعان دون بطرة ملك الجهة التي قصده، وشمر لنصره، وتحرك في جمع كثيف من أهل تلك الأرض، وشأنهم عجيب في السلاح والقوة ووفور العدة والقتال/ من [٢٤٠/أ] بعد الاسترطال ولزوم الأرض على الكريهة.

وكان اللقاء بين الطائفتين بناجرة من أحواز نبارة، وقعت على أنزيق الهزيمة المستأصلة وخلص إلى بعض الملوك المجاورة في شرذمة قليلة، وتلف كباره وخلصائه، وعدده وأمواله.

وعاد أخوه إلى ملكه وفرض على البلاد مغرماً يقضي به ديون الطائفة التي

أصرخته، إذ كان ذلك عن التزام أموال.

فخالفت عليه جملة من البلاد كقرطبة وما يجاورها، واستعان عليهم بحلفائه من المسلمين فكيف الله لذلك النصارى صنعاً جميلاً قدمت العهود بمثله... [١] قرطبة، وفتحت مدينة طاعة أخيه.

ولما أخذ مخنقها ونهكها الجوع استغاث أهلها بدون بطرة، فتحرك بمن تخلص له من النصرانية، وبمدد من فرسانه المسلمين قاصداً إقلاعه عن طليطلة.

فاقتحم عليه أخوه قبل وصوله إليه وهو على غير أُهبة، فهزمه بظاهر حصن شنتل، وألجأه إلى الانحصار، ونازله وأحاط به وضاق بالصبر ذرع المحصور، فصانع قوماً من خدام أخيه وتوثق منهم في تسبيب خلاصه كأنما أمره عن ناسه.

فلما تحصل بأيديهم، وجهوا لأخيه من أعلمه فبادر إليه، وقتله في أخريات رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة، واستولى أنزيق على تملك قشتالة، وليون، وهو بها إلى الآن، مغمور بفتنة عظيمة، وحروب دائمة.

هيأ المسلمين لها برد الحياة، وجلت نعم الله لديهم، والله المسؤول في صلة ألطافه للمسلمين وإجمال صنائعه للدين.

ونشير بعد هذا إلى:

نسل ملوك برتقال على سبيل الإلماع والإشارة

فنقول:

أول من انفرد بملك برتقال واقتطعه من ليون وقشتالة القمر أنزيق الذي تزوّج بنت الفنش ملك قشتالة وليون، وقد نبه عليه.

ثم ملك بعده ابنه الفنش، وتسمى دوقاً.

ثم من بعد ذلك ملك بإذن الباب القسيس الأعظم برومة.

ثم ملك بعده ابنه دون شانجة.

ثم ملك بعده دون الفنش بن دون شانجة.

ثم ولّي بعده ابنه دون شانجة بن دون الفنش، وخلع عن المُلك.

ثم ملك عوضاً منه أخوه دون الفنش.

ثم ملك بعده دونيش بن دون الفنش.

(١) موضع النقط كلمة مطموسة.

ثم ملك بعده دون الفنش.

قال الحكيم:

وهو الآن ملك بأرض برتقال.

قلت:

وهذا هو الذي أمدّ صاحب قشتالة يوم طريف بنفسه وكان مصافه بإزائها أهل الأندلس، وحملنا عليه وكدنا نفضه لولا أنهم جعلوا جيشاً وراءهم فاضلاً عن الملكين يمد من ظهر به اختلال وتضعضع فبادر إلى عدونا فقواه، وسبب له/ الظهور. [١/٢٤١]

ولما مات تولى الملك بعد، ولده ولم تطل مدته فهلك قتله فيما سمعنا دب أو خنزير برّي حاول صيده.

ثم ملك بعده ابن له فوق المحتلم، وهو ملك برتقال الآن، واسمه دون بطرة.

وإذ أفرغنا منهم فنشير كذلك إلى:

ملك أرغُون وبرجلونة

.... [١] أقفوه بها واقتطعها دون نميرة بن ملك نبارة حسبما نبّه عليه قبل.

وهلك قتيلاً في حرب للمسلمين.

وتولّى بعده أخوه شانجة، ونازل مدينة وشقة من مدن الإسلام بشرق الأندلس فأصيب بسهم قضى عليه.

وملك بعده ابنه دون بطرة.

ثم ملك بعده أخوه دون الفنش.

ثم تولّى بعده أخوهما دون نميرة، وكان مونجا أي صالحاً عابداً.

ولما هلك ملكت بعده بنته وصيرت الملك إلى زوجها دون موندة فملك أرغون لذلك.

ثم هلك فولّي بعده دون الفنش فند برجلونة.

وملك بعده ابنه دون بطرة ابن دون الفنش.

ثم ولّي بعده ابنه دون جايمش، وهو الذي ملك مدينة بلنسية من يد أبي جميل زياد بن مردنيش وغيرها من الجهات.

---

(١) موضع النقط جاء موضعه بالمخطوط كلمة «صح» يريد أنه كان موضعها بالأصل بياض ترك لاسم الملك، وربما كان موضعه في الأصل طمس، والله أعلم.

ثم ملك بعده ابنه دون بطرة.

ثم ملك بعده دون جايمش ابن دون بطرة أخوه، وهو الذي نازل المرية على عهد نصر من بني نصر كان شهير القوة والرّأي والعزيمة. ثم ولّي بعده ابنه الفنش ابن دون دون جايمش.

وولّي بعده دون بطرة ابن دون الفنش.

وهو ملك أرغون إلى اليوم.

انتهى تاريخهم.

وقد وفينا بعض ما أردناه من هذا القسم، وسامحنا القلم فيه لكون الوطن الواقع فيه التاريخ وطننا الذي لا نعذر به في جهد المشهور من أحداثه والمتعارف من كوائنه مع الاختصار على كل حال، وقصد الإلماع.

ويتلوه القسم الثالث ما يختص بالمغرب من لدن أحواز برقة إلى السوس الأقصى، وساحل البحر المحيط الغربي

والله ولّي الإعانة سبحانه لا ربّ غيره ولا معبود سواه. وهو حسبي ونعم الوكيل.

[٢٤١/ب]

بسم الله الرحمن الرحيم /

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه

القسم الثالث من الكتاب المسمى بـ:
أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام
وما يجرّ ذلك من شجون الكلام

فيما يختص بالمغرب من لدن أحواز برقة إلى السوس الأقصى وساحل البحر المحيط الغربي وبالله الاستعانة فنقول:

أول ما يلقى هذه الحدود من الممالك المغربية التي اتخذها الملوك أوطاناً لسكناها وأساساً لمبناها البلاد الإفريقية، وأول ملوكها الأغالبة، فإنهم أقاموا بها ملكاً كبيراً بين الطاعة والاستبداد، والمشاركة، والانفراد.

وكانت لهم آثار وأخبار وتداولوا الملك ولداً عن والد وتوارثوه خلفاً عن سلف بعد أن تقدم القوم أمراء من قبل السلف الصالح الذين فتحوا الوطن وقادوا إليه الدين فألقى بالعطن مثل عقبة بن نافع الفهري[(١)]، وأبي المهاجر دينار مولى مسلم بن مخلد.

وزهير بن قيس البلوي.

وحسان بن النعمان.

وموسى بن نصير.

ومحمد بن يزيد مولى قريش.

---

(١) هو الصحابي المعروف المشهور صاحب فتوح بلاد الغرب، وهو مؤسس مدينة القيروان الشهيرة، وجعلها قاعدة عسكرية لانطلاق جيوشه حتى اتصلت فتوحه إلى المحيط الأطلنطي وهو صاحب العبارة الهيرة حين وقف عليه فقال: والله لو نعلم أن وراءك أرضاً لغزونها في سبيل الله.

ويزيد بن أبي مسلم.

وبشر بن صفوان الكلبي.

وعبيدة بن عبد الرحمن.

وعبيد الله بن الحبحاب.

وكلثوم بن عياض.

وحنظلة بن صفوان.

وعبد الرحمن بن حبيب.

ومحمد بن الأشعث.

والأغلب بن سالم.

وعمر بن حفص.

ولكل منهم أخبار جليلة وأمور شهيرة.

ثم وليها بعد هؤلاء الأولياء من آل المهلب:

فأولهم: يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنى أبا خالد[١].

ومعرفة الخاصة والعامة بكرمه وشجاعته، وبُعد صيته يغني عن شرح أمره، إذ كان كثير الشبه بجده المهلب في الدهاء والشجاعة. وانتهى أبو جعفر المنصور في تشييعه إلى فلسطين، وفيه يقول:

حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... يمين امرىء آلي ولي وليس بآثم

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ... يزيد سليم والأغر ابن حاتم

يزيد سليم سالم المال، والفتى ... أخو الأزد للأموال غير مسالم

[1/٢٤٢] / فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم، فصار قوله:

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٣٣) في ترجمته: الأزدي، البصري، الأمير. ولّي إمْرَةَ مصر سنة أربع وأربعين ومائة، فدام سبع سنين. ثم ولي المغرب مدة للمهدي، والهادي، والرشيد، ومهد إفريقية، وذلك البربر. وكان بطلاً شجاعاً، مهاباً، شديد البأس كما قيل فيه:

وإذا الفوارس عددت أبطالها ... عدُّوك في أبطالهم بالخنصر

ثم ذكر عدت أبيات لعدد من الشعراء كلهم قال فيه شعراً يمدحه الكرم والشجاعة. ثم قال الذهبي: مات يزيد بن حاتم بالمغرب في رمضان سنة سبعين ومائة. واستخلف ولده داود على المغرب.

ومن مصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٥)، المعرفة والتاريخ (١/ ١٤٠)، وفيات الأعيان (٦/ ٣٢١)، البيان المغرب (١/ ٧٨)، الاستقصا (١/ ٥٨)، النجوم الزاهرة (٢/ ١)، عيون الأخبار (١/ ٩)، مطالع البدور (١/ ١٥)، مرآة الجنان (١/ ٣٦)، تاريخ خليفة (٤٣٤).

«لشتان ما بين اليزيدين». مثلاً.

وأخباره مشهورة في الفضل، والجود، والدهاء، وبُعد الهمة، وجلالة المقدار.

وتوفي حتف أنفه بدار الإمارة من القيروان في رمضان سنة سبعين ومائة في سلطان هارون الرشيد.

وخلفه داود ابنه إلى أن وصل والياً على إفريقيا روح بن حاتم[1] أخوه. وكان قد حجب المنصور أول أيامه وهو أسن من أخيه يزيد.

حدث الأمير روح بن حاتم قال:

كنت عاملاً لهارون الرشيد على فلسطين، ثم صرفني عنها، فخرجت منها أريد بغداد، فوافى وصولي نعي أخي يزيد، فأرسل إليّ هارون، فلما دخلت عليه قال: يا روح أحسن الله عزاءك في أخيك يزيد، فقد توفي ولا شك أنه له صنائع بإفريقية، فإن وليّ مكانه غيرك لم آمن عليهم، فاخرج إلى إفريقية واحفظ صنائعكم.

وكان روح ذا رأي، وحلم، وعلم، وشجاعة، وحزم.

ولما وجه المنصور يزيد بن حاتم إلى إفريقية وجه روح.

وتوفي بها فدفن إلى جانبه، وعليهما سارية مكتوبة.

ومن أخباره:

أنه بعث إلى كاتب له ثلاثين ألفاً، وكتب إليه:

لا أستقلها لك تكبراً، ولا أستكثرها تمنناً، ولا استثيبك عليها ثناءً، ولا أقطع عنك بها رجاء.

ولم تزل البلاد آمنة، والقبائل هاونة، وملىء منه البربر رعباً.

ورغب الأباضيون منهم في موادعته إلى أن توفي في إحدى عشر ليلة خلت من رمضان عام أربعة وسبعين ومائة.

فكانت ولايته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر.

وكان روح بن حاتم قد أسنّ، وتوقع هارون أن تفاجأه المنية فيضطرب أمر

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٣٥) في ترجمته: ولي المغرب أيضاً، ثم قدم فوليّ الكوفة والبصرة، وكان أحد الأبطال كأخيه ووليّ السّند أيضاً. توفي سنة أربع وسبعين ومائة. وله أخبار ومآثر في الكرم. قلت: سبحان موزع الأرزاق، فهذا يرزق الملك في أقصى المغرب وفي وسط البلاد، ثم في أقصى المرق، وكأنه ملك الدنيا بأسرها. ومصادر ترجمته: تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٣)، المعرفة والتاريخ (١/١٢٥)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٠٥)، البيان المغرب (١/ ٢٨٤)، العبر (١/ ٢٦٦)، شذرات الذهب (١/ ٢٧٥)، الاستقصا (١/ ٥٩)، الحلة السيراء (٢/ ٣٥٨).

إفريقية، فكتب عهداً في السر بولاية نصر بن حبيب المهلبي، وكان حسن السيرة وليّ سنتين وثلاثة أشهر.

ثم أن فضل بن روح بن حاتم خرج إلى الرشيد، واتصل به، فولاّه إفريقية.

فكان قدومه في محرم سنة سبع وسبعين ومائة.

ويقال: إنه لم يلِ إفريقية أجمل منه.

وحكي أنه لم يصنع الناس في أمير ما صنعوا في تلقيه، نصبت له القباب من مساجد الأمير إلى دار الإمارة.

ثم وثب به ابن الجارود، وتغلب على القيروان بعد كسر جيش الفضل، ثم أخرجه إلى دمشق، وبدا له فاسترده، وقتله.

واتصل بالرشيد وثوب ابن الجارود على الفضل، وإفساده إفريقية، فوجه أميراً على المغرب هرثمة بن أعين.

[٢٤٢/ب] وقدم هرثمة بن/ أعين القيروان مستهل ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة، فأمن الناس وسكنهم، وأحسن إليهم.

وبنى سور طرابلس وقصر المنستير[١].

ثم ألحّ على هارون في طلب الإعفاء فأعفاه هارون فرجع إلى المشرق سنة إحدى وثمانين ومائة، ووجه محمد بن مقاتل بن حكيم العكي.

وكان محمد بن مقاتل رضيع هارون، وكان أبوه من جلة أهل الدعوة، ولم يكن بالمحمود السيرة، فاضطرب أمره، وهو الذي ضرب البهلول بن راشد عابد زمانه، وحبسه واقتطع بعض أرزاق الجنود وأساء السيرة فيهم فعزله هارون وذلك في جمادى الآخرة من عام أربعة وثمانين.

وولي عليها جد هؤلاء الأغالبة إبراهيم بن الأغلب.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان: مُنَسْتِير: موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية، وبينه وبين كل واحدة منهما مرحلة وهي خمسة قصور تحيط بها سور واحد يسكنها قوم من أهل العبادة والعلم. قال البكري: ومن محارس سوسة المذكورة المنستير الذي جاء فيه الأثر. ويقال إن الذي بنى القصر الكبير بالمنستير هرثمة بن أعين سنة (١٨٠هـ) وله في يوم عاشوراء موسم عظيم وجمع كبير. وبالمنستير البيوت الحجر، والطواحين الفارسية، ومواجل الماء، وهو حصن كبير عال متقن العمل.

[دولة الأغالبة][1]

دولة إبراهيم بن الأغلب بن سالم

وكان إبراهيم هذا فقيهاً، عالماً، شاعراً، خطيباً، ذا رأي وبأس وحزم، وعلم بمكايد الحروب، جريء الجنان، طويل اللسان.

قمع الشر بإفريقية، وضمّ الكلمة، وضبط الأمور، وأحسن التدبير، وأوسع العطاء.

وهو أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه، واستكثر من طبقاتهم، واستغنى عن استعمال الرعية في شيء من أموره.

وكان يتولى الصلاة بنفسه بالمسجد الجامع من القيروان.

ولقد عثر يوماً ببعض الحصر فجمع عند الفراغ من الصلاة وجوه الناس، فأمرهم باستنكاهه نفياً للظنة[2]، وكان حافظاً للقرآن.

وكتب إليه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي القائم بالمغرب[3] يستكفيه عن

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة تصنيفية يقتضيها السياق نظراً لما سار عليه المؤلف في آخر القسم الثاني من تقسيم الكتاب، فرأيت زيادتها هنا إتماماً للفائدة.

(٢) يريد أنه طلب من هؤلاء القوم أن يشموا رائحة فمه حتى لا يظن ظان منهم أنه إنما كان مخموراً نكاد أن يقع. وليبين لهم أن ما حدث له إنما هو نتيجة عثرته بالحصير.

(٣) قال ابن العماد في شذرات الذهب (١/ ٢٦٩) في أحداث سنة (١٦٩هـ). وهرب إدريس بن عبد الله بن حسن إلى المغرب فقام معه أهل طنجة، وهو جد الشفاء الإدريسيين. وقال في أحداث سنة (١٩٣هـ) في (١/ ٣٣٩): وأما إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى فإنه لما انفلت من وقعة فخ لحق بالمغرب، ومعه ابن أخيه محمد بن سليمان الذي قتل بفخ فتمكن بها ودعي ونشر دعوته وأجابوه واستعمل ابن أخيه لعى أدنى المغرب من تاهرت إلى فارس، وبقي بها وولده يتوارثونها، وانتشر ملكهم واستقر. ويقال: أن إدريس أدرك بالسم إلى هناك. وأوصى إلى ابنه إدريس بن إدريس فقام بالأمر إحدى وعشرين سنة. وأوصى إلى ابنه إدريس المثلث، وكان أحد العلماء. قال صاحب كتاب روضة الأخبار: وهم على ذلك إلى هذه الغاية يتوارثون المغرب والبربر. ويقال: إن عبد المؤمن القائم اليوم بأرض المغرب ينسب إلى بني الحسن بن علي ظهر على الأندلس سنة أربعين وخمسمائة، وفيه يقول الشاعر من قصيدة طويلة: =

ناحيته ويذكره بقرابته من رسول الله ﷺ.

فأجابه عن كتابه وأودعه، ولم تجر بينهم حرب إلاّ ما ذكر عنه من سعي يأتي التعريف به عند ذكر الأدارسة، إن شاء الله تعالى.

وكانت ولايته اثنتي عشرة سنة، وأربعة أشهر، وعشرة أيام.

وتوفي لثمان بقين من سنة ست وتسعين ومائة.

وأخبار إبراهيم بن الأغلب ومواقفه وسياسته شهيرة. وولي بعده ولده أبو العباس.

دولة أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم

وكان أبو العباس هذا، واسمه عبد الله غائباً بطرابلس، فقام أخوه زيادة الله بالأمر[1].

= ما هز عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد القائم بت علي

وقد ملكوا المغرب كلهم والأندلس إلى يومنا هذا، وهي سنة سبع وعشرين وستمائة.

(١) قال ابن الأثير في أحداث سنة (١٩٦هـ) في ذكر الفتنة بإفريقية مع أهل طرابلس: في هذه السنة ثار أبو عصام، ومن وافقه على إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، فحاربهم إبراهيم فظفر بهم، وفيها استعمال ابن الأغلب ابنه عبد الله على طرابلس الغرب، فلما قدم إليها، وثار عليه الجند، فحصروه في داره. ثم اصطلحوا على أن يخرج عنهم، فخرج عنهم، فلم يبعد عن البلد، حتى اجتمع إليه كثير من الناس ووضع العطاء، فأتاه البربر من كل ناحية، وكان يعطي الفارس كل يوم أربعة دراهم، وعطي الراجل في اليوم درهمين، فاجتمع إليه عدد كثير، فزحف بهم إلى طرابلس. فخرج إليه الجند، فاقتتلوا، فانهزم جند طرابلس، ودخل عبد الله المدينة، وأمن الناس، وقام بها. ثم عزله أبوه، واستعمل بعده سفيان بن المضاء، فثارت هوارة بطرابلس، فخرج الجند إليهم، والتقوا واقتتلوا، فهزم الجند إلى المدينة، فتبعهم هوارة، فخرج الجند هاربين إلى الأمير إبراهيم بن الأغلب، ودخلوا المدينة فهدموا سورها. وبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب فسير إليه ابنه أبا العباس عبد الله في ثلاثة عشر ألف فارس، فاقتتل هو والبربر، فانهزم البربر، وقتل كثيراً منهم، ودخل طرابلس وبنى سورها.

وبلغ الخبر بهزيمة البربر إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وجمع البربر، وحرضهم، وأقبل بهم إلى طرابلس، وهم جمع عظيم عصباً للبربر ونصرةً لهم، فنزلوا على طرابلس، وحصروها. فسدَّ أبو العباس عبد الله بن إبراهيم باب زناتة، وكان يقاتل من باب هوارة، ولم يزل كذلك إلى أن توفي أبوه إبراهيم بن الأغلب. وعهد بالإمارة لولده عبد الله، فأخذ أخوه زيادة الله بن إبراهيم له العهود على الجند، وسير الكتاب إلى أخيه ليخبره بموت أبيه، وبالإمارة له. فأخذ البربر الرسول والكتاب، ودفعوه إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، فأمر بأن ينادي عبد الله بن إبراهيم بموت [. . فصالحهم على أن يكون البلد والبحر لعبد الله، وما كان خارجاً من ذلك يكون لعبد الوهاب. وسار عبد الله إلى القيروان، فلقيه الناس، وتسلم الأمر. وكانت أيامه أيام سكون ودعة.

وقدم في صفر سنة سبع وتسعين ومائة، واستقل بالأمر، وكان سديداً قائماً على أمره جماعاً للأموال.

وذكروا أنه أراد أن يحدث على الرعية جوراً عظيماً.

فقدم حفص بن حميد الجزري ومعه قوم/ صالحون من أصحابه، فاستأذنوا [١/٢٤٢] عليه ـ وكان شاباً جميلاً ـ فكلمه حفص فقال له:

اتقِ الله أيها الأمير في شبابك، وارحم جمالك، واشفق على بدنك من النار، بإزالة الجور عن رعيتك، وخذ فيهم بسنّة الله ونبيه، فإن الدنيا زائلة عنك كما زالت عمن كان قبلك.

فأظهر الاستخفاف بهم، ولم يجبهم.

فقالوا: قد يئسنا من المخلوق فلا نيأس من الله الخالق، فإن فتح في الدعاء فقد أذن في الإجابة.

ونزلوا بوادي القصارين فتوضؤوا، ثم تقدموا إلى مسجد روح فأمّهم حفص، وصلّى بهم ركعتين، ودعوا الله عليه أن يمنعه مما أراد من أذى المسلمين ويكشف جوره.

فبعد خمسة أيام خرجت قرحة تحت أذنه قتلته في السابع من يوم دعائهم.

فذكر عن رجل كان يتولى غسل أموات أمرائهم قال:

كشفت عنه الثوب، فوالله ما ظننته إلاّ عبداً أسود لتغيره بعد جماله.

وكانت وفاته ليلة الجمعة لست خلون من ذي الحجة سنة إحدى ومائتين.

وولي بعده أخوه زيادة الله.

دولة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم(١)

وكان إبراهيم أبو زيادة الله يختار له العلماء بالعربية ورواة الشعر، فجاء أفصح

---

(١) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٠١هـ) في ذكر ولاية زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إفريقية. في هذه السنة سادس ذي الحجة توفي أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وكانت إمارته خمس سنين ونحو شهرين، وكان سبب موته أنه حدّد على كل فدان في عمله ثمانية عشر ديناراً كل سنة، فضاق الناس لذلك، وشكى بعضهم إلى بعض فتقدم إليه رجل من الصالحين اسمه حفص بن عمر الجزري مع رجال من الصالحين، فنهوه عن ذلك ووعظوه، وخوفوه العذاب في الآخرة، وسوء الذكر في الدنيا، وزوال النعمة، فإن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. . . (فذكر نحو القصة المذكورة هنا، ثم قال):

=

أهل بيته لساناً، وأكثرهم أدباً، وكان يعرب كلامه من غير تقعير.

ولم ينحرف عن الدعاء للمأمون بن الرشيد أيام توثب على خلافته إبراهيم بن المهدي، فلما خلصت الخلافة إلى المأمون شكر له ذلك.

وكان زيادة الله مع محله من الفهم والمعرفة أبياً حازماً.

وذكر أن المأمون وجّه إليه كتاباً يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر بن الحسن، فلم يرضَ بذلك زيادة الله، وأمر بإدخال رسول المأمون عليه ليلة وقد حلّ شعرة عظيمة وهو ثمل، ونار عظيمة بين يديه في كوانين وقد احمرت عيناه فهال الرسول منظره وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه:

يأمرني بالدعاء لعبد خزاعة؟! هذا ما لا يكون أبداً.

ثم مَدّ يده إلى كيس بجنبه فيه ألف دينار فدفعه للرسول وصرفه.

وكان في الكيس دنانير من المضروبة بأسماء بني إدريس الظاهر ملكهم يومئذٍ بالمغرب ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد(١).

وانتفضت عليه إفريقية حتى لم يبقَ في يده إلاّ الساحل وقابس وصابر الأهوال، وباشر الحروب حتى استقامت له الأمور.

ومن شعر زيادة الله قوله:

بالله لا تقطعن بالهجر أنفاسي فأنت تملك إنطاقي وإخراسي
صدود طرفك عن طرفي إذا التقيا مجرعي كأس إرغامي وإتعاسي
[٢٤٣/ب] / لو لم أبحك حمى قلبي ترود به لم تستبح مهجتي يا أملح الناس

وتوفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

وهو ابن إحدى وخمسين سنة.

وولي بعده أخوه أبو عقال.

= ولما مات ولّي بعده أخوه زيادة الله بن إبراهيم، وبقي أمرأ رَخِي البال وادعاً، والدنيا عنده آمنة، ثم جهز جيشاً في أسطول البحر، وكان مراكب كثيرة إلى مدينة سردانية وهي للروم، فعطب بعضها بعد أن غنموا من الروم، وقتلوا كثيراً. فلما عاد من سلم منهم أحسن إليهم زيادة الله ووصلهم، فلما كان سنة سبع ومائتين خرج عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وجمع جمعاً كثيراً وحصر مدينة باجة، فسير إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة.

(١) والمراد بهذه الإشارة أو المغزى من هذه الدراهم وإن كان لم يفهما الرسول إلاّ أن المأمون فهما، فهو يريد أن يقول له: إن لم تتركني وشأني فإني سأحالف الأدارسة دونك، فكفّ عن ذلك.

دولة أبي عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

وكانت أيام الأغلب هادئة بخلاف أيام أخيه لاستمالة نفوس الجند إليه بكثرة الإحسان والتودّد إلى الناس بإسقاط كثير من المحدثات التي يتزيد فيها العمال.

وأجرى على عماله الأرزاق الواسعة فقبض أيديهم بها عن الناس، وكانت أيامه قصيرة توفي لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ست وعشرين ومائتين.

وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.

وولي بعده ولده العباس.

دولة [أبي](١) العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب(٢)

ولما توفي أبي عقال الأغلب رحمة الله عليه، ولي الأمر بعده ولده محمد، وكان مصنوعاً له، ظاهراً على أعدائه، مظفراً في حروبه على بلوغ الغاية في الجهل والأفن.

وكان كوسجاً لا لحية له كأنه خصيّ، لكن الأمور لا ترجع إلى شكل حسن، ولا تتوقف على فصاحة، ولا لسن، إنما هو رزق مكتوب وقدر معتوب، وظفر ورسوب، وعمل محسوب ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

وكان قد غلبه ابنا حميد: علي، وأبو حميد أخوه متولياً وزارته، فساء ذلك أبا جعفر أحمد أخاه، وأعمل عليه التدبير، ومحمد في غفلة عنه بلهوه ولذته.

وطرق باب الإمارة، وقد خلا من الرجال ركوناً إلى الأمن والهدنة، فهجم أصحابه على الوزير ابن حميد فقتلوه يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ست وثلاثين ومائتين.

وبلغ الخبر محمداً الأمير فامتنع في علية في القصر مرتفعة.

---

(١) سقط من المخطوط.

(٢) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٢٦هـ) في ذكر وفاة الأغلب وولاية أبي العباس محمد بن الأغلب إفريقية وما كان منه: فقال بعد أن ذكر أن وفاته كانت يوم الخميس للتاريخ المذكور هنا: وكانت ولايته سنتين وسبعة أشهر وسبعة أيام، ولما توفي ولي أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية بعد وفاة والده، ودانت له إفريقية، وابتنى مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية في سنة تسع وثلاثين ومائتين، فأحرقها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك، فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم جزاء له على فعله. وتوفي يوم الاثنين غرّة المحرم سنة اثنتين وأربعين ومائتين، وكانت ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعشرة أيام.

ووقع القتال بين من حضر من رجال محمد وبين رجال أحمد أخيه.

ولما صعب الأمر على رجال أحمد صاروا ينادون: نحن في الطاعة لم نخلع عنها يداً وإنما قمنا على بني حميد الذين قهروا السلطان، واستأثروا بالمال.

فلما سمعوا ذلك فشلوا عن القتال، ورأى محمد ما دهمه على غير أُهبة فلم يسعه إلاّ أن قعد مجلسه للعامة، وأدخل أخاه أحمد ورجاله على نفسه فعاتبه وضعف الأخ عن تمام الأمر فاعتذر وزعم أنه إنما انتصر له ممن كاد دولته، فتحالفا على أن لا يغدر أحد منهما بصاحبه واصطلحا.

وتغلب أحمد على أمر أخيه، وتصرف في الملك بما شاء، ولم يبق لأخيه رسم.

[١/٢٤٤] ولما رأى ذلك/ أقصر عن اللذات وأخذ في الاحتيال على أخيه، والكَتْب إلى قواده، وخواصه في السر، وينتهي ذلك إلى أخيه فيكذبه إلى أن تمّ له الأمر، وحضر الوعد، وتيسر من إعداد الرجال الغرض، وضرب محمد الطبل ـ وهو العلامة ـ فأقبل القوم.

وكانت بين الفريقين حرب عظيمة إلى أن كوثر أصحاب أحمد فانهزموا، ولجأ أحمد إلى داره فاعتصم بها، واستأمن بها إلى أخيه فأمنه.

وجيء به إليه فعاتبه على ما فعل من قتل وزيره وإذلالاً له إياه، وأقصاه مشيعاً إلى مصر بأهله وولده فمات بها.

وتهنأ محمد أمره[١] إلى تمام مدته.

وهو الذي استقضى سحنون[٢] فهو من مفاخره.

وتوفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم سنة اثنتين وأربعين.

وكانت ولايته خمس عشرة سنة.

وعمره ستاً وثلاثين سنة.

وولي بعده ابن أخيه أحمد بن محمد بن الأغلب.

دولة أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم

وولي الأمر يوم وفاة عمه العباس، وهو ابن عشرين سنة.

---

(١) أي استقر أمره ولم يداخله منغص إلى آخر أيامه.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣): سحنون الإمام العلاّمة فقيه المغرب أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة بن عبد الله التنوخي الحمصي الأصل، المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة، ويلقب بسحنون، ارتحل وحجّ.

وكان حسن السيرة، شهير الفضل، رفيقاً بالرعية، كثير الصدقات على حداثة سنه، وكفاه أثراً باقياً، وحسنة خالده بنيان المأجل[١] الكبير بباب تونس.

وهو الذي زاد الزيادات بجامع القيروان، والمسجد الجامع بتونس.

وبنى سور سوسة[٢] سنة خمس وأربعين ومائتين.

واعتل في أثناء اتخاذ المأجل بالقصر القديم فكان يسأل: هل دخله الماء؟

إلى أن دخله الوادي فعرفوه بذلك فسرّ به وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها، وقال:

الحمد لله الذي لم أمت حتى تمّ أمر.

ثم مات على إثر ذلك، وهذا عنوان السعادة والقبول من الله تعالى.

فإن الإنسان عرضة لذهاب اسمه ومسماه، فلو لم يكن في هذه الآثار إلاّ أنها بقاء في الوجود الأول باعتبار ما فكيف وبإزاء ذلك من النعيم الباقي والوجود الدائم ما عرف.

وفقنا الله للخير، وتقديم هذا المتاع الفاني إلى حيث ننتفع باستغلاله ونلجأ إلى ظلاله.

وتوفي يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة تسع وأربعين ومائتين.

وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

وكانت ولايته سبع سنين، وعشرة أشهر، وخمسة عشر يوماً.

وولي بعده زيادة الله.

دولة زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

وفي يوم وفاة أبي إبراهيم أخيه بويع لزيادة الله، وكان عاقلاً، حسن السيرة، جميل الأفعال/ ذا رأي وجود وشجاعة. [٢٤٤/ب]

كان سليمان بن عمران القاضي يقول:

مات ولي بني الأغلب أعقل من زيادة الله الأصغر.

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان. المأجل: هو في الأصل البركة العظيمة التي تستنقع فيها المياه، وكان بباب القيروان مأجل عظيم جداً، وللشعراء فيه أشعار مشهورة، وكانوا يتنزهون فيه.

(٢) هي مدينة مشهورة بتونس وبها مرفأ كبير للسفن على البحر الأبيض.

وقوله الأصغر لأنه تقدمه بهذا الاسم عم أبيه.

ولم تطل مدته في الملك فيكون له خبر يعتد به.

وتوفي ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة خمسين ومائتين في خلافة المستعين من بني العباس.

فكانت ولايته سنة وسبعة أشهر[١].

وولي بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الملقب بأبي الغرانيق.

دولة محمد بن أحمد بن الأغلب المدعو بأبي الغرانيق

ودعي بذلك لكلفه بصيد الغرانيق[٢].

والناس يقولون اليوم عندنا إذا ضربوا المثل بأيام هادنة، ووصفوا دولة بالعدل والعافية: أيام أبي الغرانيق.

وكان غاية في الجود والسخاء وحسن السيرة.

وكان مشتغلاً بالراحة، قليل الاهتمام بجمع المال.

وكانت في أيامه حروب عظيمة، وفتحت جزيرة مالطة[٣]، وأسر ملكها في جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين.

وتردد في أيامه العرب بصقلية.

وتوفي أبو الغرانيق ليلة الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وستين ومائتين.

فكانت ولايته عشر سنين وخمسة أشهر ونصف شهر، في دول المستعين والمعتز والمهتدي، والمعتمد.

وولي بعده أخوة إبراهيم بن أحمد.

---

(١) وقال ابن الأثير في سنة (٢٥٠) في الكامل في ذكره مدة ملكه: وكانت ولايته سنة واحدة وستة أيام.

(٢) الغرانيق، جمع غرنوق، وهو طائر مائي أشبه بالإوز، غير أن هذا طول العنق طويل الأرجل، وهو منتشر بحديقة الحيوان بالجيزة بمصر، وقد أعدوا له بحيرة يسبح فيها، ولا أذكر موطنه الأصلي الآن.

(٣) المعروف أن جزيرة مالطة جزيرة بالبحر الأبيض المتوسط بين صقلية وإفريقية، وقد أشار إليها هنا المؤلف بقوله جزيرة، مما يفيد أنها هي المرادة على الأرجح، أما ياقوت الحموي فقال في معجمه: مَالِطَةُ: بلدة بالأندلس. قال السلفي: سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسي بالشقر يقول: سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي بها يقول: كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار بالصُّنج.

دولة إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب[(١)]

كان محمد بن أحمد أبو الغرانيق قد عهد لابنه أبي عقال بعده.

واستخلف أخاه إبراهيم بن أحمد هذا خمسين يميناً أن لا ينازعه.

فلما مات أبو الغرانيق جاء أهل القيروان إلى إبراهيم بن أحمد ـ وهو يومئذٍ والٍ لأخيه على القيروان ـ فعزموا عليه في دخول القصر، ورجوه إذ كان فيهم حسن السيرة أول أمره، فاعتذر بما سبق من العهد.

فقالوا: نحن كارهون لولايته ومبايعون لك، وليس في أعناقنا له بيعة.

ولزموه حتى ركب وحارب القصر حتى دخله، وبايعه مشايخ أهل إفريقية، ووجوهها وجميع بني تغلب، واستقر أمره.

وهو الذي بنى مدينة رقادة، والقصر المعروف بالفتح.

وفي أيامه فتحت سرقوسة.

وفي أيامه كانت فتنة ابن طولون، وقصده إلى برقة مخالفاً لأبيه أحمد بن طولون، يريد تملك إفريقية.

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين، كان دخول الشيعي[(٢)] إلى حدود كتامة.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٨٧) في ترجمته: صاحب المغرب أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب بن تميم، التميمي، الأغلبي، القيرواني، ابن أمراء القيروان. ولي سنة إحدى وستين ومائتين، وكان ملكاً حازماً صارماً مهيباً، كانت التجار تسير في الأمن من مصر إلى سبتة لا تعارض ولا تروع. ابتنى الحصون والمحارس بحيث كانت توقد النار وتتصل في ليلة إذا حدث أمر من سبتة إلى الإسكندرية، بحيث إنه يقال قد أنشأ في البلاد من بنائه وبناء آبائه ثلاثون ألف معقل، وهو الذي مَصَّرَ مدينة سوسة. وقد دونت أيامه وعدله وجوده، وكان سديد السيرة شهماً، ظفر بامرأة متعبدة قادت قودة فدفنها حيَّة، وشنق سبعة أجناد أخذوا لتاجر ثلاثة آلاف دينار بعد أن قررهم، وأخذ الذهب لم ينقص سوى سبعة دنانير، فوزنها من عنده. وقيل: جاءه رجل فقال: قد عشقت جارية، وثمنها خمسون ديناراً، وما معي إلا ثلاثو، فوهبه مائة دينار، فسمع به آخر، فجاء وقال: إني عاشق. فقال: فما تجد؟ قال: لهيباً، قال: اغمسوه في الماء، فغمسوه مراتٍ، وهو يصيح: ذهب العشق، فضحك وأمر له بثلاثين دينار. ثم إنه تَسَوْدن فقتل إخوته، ثم عُوفي وتاب وتصدق. ثم ظهر عليه الشيعي (هو الحسن بن أحمد بن زكريا أبو عبد الله) داعي عبيد الله المهدي، وحاربه وجرت أمور طويلة بعضها في (تاريخ الإسلام). توفي غازياً بصقلية في ذي القعدة سنة تسعة وثمانين ومائتين، وتملك ابنه عبد الله فكان ديِّناً عالماً بطلاً شجاعاً شاعراً، فقتله غلمانه غيلة بعد عام، وتملك بعده ابنه زيادة الله.

(٢) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا أبو عبد الله الشيعي الصنعاني، وقد سبق أن ذكرت التعريف باسمه من قبل، وقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٨): الداعي الخبيث... =

[1/245] وكان إبراهيم بن أحمد قد بدأ أمره بحسن السيرة، وسلوك/ المذاهب، والتماس الخلل الكريمة، ثم عاد في الحافرة وانقلب إلى ضد ما كان عليه، فسدّ فكره لغلبة مزاج سوداوي ساءت له أخلاقه وتغيرت ظنونه، فأسرف في القتل، وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه، حتى قتل ابنه المكنى بأبي الأغلب.

وقيل: إنه افتقد منديلاً صغيراً كان يمسح به فمه من الشراب، وقد سقط من يد بعض جواريه وألقاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم.

ولما قتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به فضربت عنقه بين يديه....(1).

وقتل ثمانية إخوة له رجالاً ضربت أعناقهم صبراً بين يديه، وكان أحدهم ثقيل البدن زمناً فاسترحمه.

فقال: لا يجوز أن تخرج عن حكم الجماعة، ثم أمر به فضربت عنقه بين يديه.

ثم قتل بناته.

وأتى بما لم يأت به أحد قبله.

وكانت أمه إذا ولدت له ابنة من إحدى جواريه أخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ستة عشر جويرية، وقالت ـ وقد رأت منه رقة ـ:

يا سيدي قد ربيت لك وصائف ملاحاً، أفتنشط الآن تراهن؟

قال: نعم.

فزينتهن وأدخلتهن عليه، فاستحسنهن، فقالت له: هذه بنتك من فلانة، وبنتك من فلانة، حتى عدتهن.

فلما خرج قال لخادم له أسود كان سيافاً يقال له ميمون: امضِ فجيء برؤوسهن، فتوقف استعظاماً لذلك.

فقال: امضِ ويلك وإلاّ قدمتك قبلهن.

فلما دخل على أمه، كبر ذلك عليها، وقالت: راجعه، وقُلْ له لا سبيل إلى ذلك.

= من دهاة الرجال الخبيرين بالجدل، والحيل، وإغواء بني آدم. قام بالدعوة العبيدية، وحج، وصحب، قوماً من كُتامة، وربطهم، وتأله وتزهد، وشوّق إلى إمام الوقت، فاستجاب له خلق من البربر، وعسكر، وحارب أمير المغرب ابن الأغلب، وهزمه غير مرة، وإلى أن جاء عبيد الله المهدي فتسلم الملك. ولم يجعل لهذا الداعي، ولا لأخيه أبي العباس كبير ولاية. فغضبا وأفسدا عليه القلوب وحارباه، وجرت أمور إلى أن ظفر المهدي بهما، فقتلهما في ساعة، سنة ثمان وتسعين ومائتين.

(1) سقط باقي الخبر من المخطوط.

ووقف السياف على ما يراد بهن، فصحن، واستغثن، وقلن: يا سيدي، وما الذي أذنبنا أما ترحمنا؟

فلم يغن ذلك شيئاً وأخذ رؤوسهن فجاء بها معلقة بشعورهن فوضعها بين يديه.

قلت: اللهم لا ترحمه، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذي لا يعقبه رضاك، ولا تمنحه رحمتك[1].

وكان من كُتّابه أحمد القديدي، وكان أديباً طريفاً، شاعراً بليغاً، بارعاً في كتابته، مليح الشعر حلوه، يذهب فيه مذاهب الكتاب، وكان إبراهيم قد قدمه وجعل إليه أموره كلها، ثم سخط عليه بعد ذلك فحبسه إفساداً لصنائعه، وقلّة عفو، وسرعة بطش.

فكتب إليه من السجن رسالة يقول فيها:

أعز الله الأمير لكرم العفو وعلو قدره، وجليل خطره، تسمى الله عزّ وجلّ به فسمى نفسه العفو الغفور، والطبع البشري مركب على النقص، مقرون بالزلل، إلاّ ما خص الله تعالى به الأنبياء، وأودعه السادات الأمراء من طهارة الأخلاق، ونزاهة الأنفس، ولست أيد الله الأمير ممن/ يدعي العصمة، والبراءة من الهفوة، ولست [٢٤٥/ب] أَمُتُّ إليك إلاّ بفضلك عليَّ، وإحسانك إليّ، ولا أُعرفك، بل أذكرك، أن من غرس غرساً، فواجب أن لا يجتثه، وإن أبطأ بسوقه، بل يمده بمداد موارده العذبة حتى تمتد خيطانه، وتورق أغصانه، أعاذك الله تعالى بما أودعك من معالي الأخلاق من ترك العفو عن مُقِرٍ معترفٍ، لا يعرف إلاّ فضلك، ولا يرجو إلاّ عدلك.

ولو كنت أعز الله الأمير عواناً في الخدمة، لكان عفوك أكبر من ذنبي، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي، فكيف وأنا بكر في خدمتك، لم أقف على حدودها، ولا معرفة اقتسام مراتبها، فإن يكن ذنب فعلي غير قصد أو زلّة فليست عن عمد.

ومما ذهبت به الأفواه، ونطقت به الألسن وعرفه الخاص والعام بياناً واضحاً، إنك ممن عنى الله جل ذكره بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: الآية ٢٢].

وقال الله عز وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ

---

(١) ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ فالله أعلم ما إن كان هذا الخبر صحيح أم هو على ما يرد في كتب التواريخ التي تصف كل ملك بما تشاء من الخير أو الضلال حسب هوى المؤرخين، فما علينا إلاّ أن تسمع الأخبار ولا نتأثر بما يرد فيها كثيراً، فمنها ما هو حق، ومنها ما هو لا أساس له من الصحة.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٣٤].

فلا أحد بمعالي الأخلاق والامتثال لأدب الله أحقب منك لما وهب سألت إلاّ سؤال من دحضت حجته، وأحاطت به زلته، وأوبقه جرمه.

فالحظني بعين عفوك واضفِ عليّ ستر نعمتك، وأقول أعز الله الأمير:

هبني أسأت فأين العفو والكرم؟ قد قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مُدَّتِ الأيدي إليه أما ترثي لمن قد بكاه عندك القلم؟

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فقال إبراهيم بجهله: إن الملوك إذا ما استرحموا قتلوا[١].

وقتل ولده أبا عقال صبراً بين يديه.

وأرسل بعد ذلك في طلب حمديس المنجم ـ وكان رفع إليه أيضاً أنه قال لأبي عقال: إنك تلي الملك في وقت كذا وحدده ـ فلما دخل عليه.

قال له: أنت القائل لابني: إنك تلي الملك؟ فهلا أعْلَمَتْكَ نجومك بما أنا صانع بك؟

ثم قال: قدموه إليّ ـ وهو قاعد على كرسي ـ فضربه بطبرزين[٢] كان في يده، وأمر به فقتل بين يديه.

وقيل: قتل إبراهيم جواريه، وبناته، بأنواع القتل منهن من بنى عليها حتى ماتت، ومنهن من بنى عليها حتى ماتت، ومنهن من ذبح، حتى لم يبقَ في قصره أحد[٣].

ودخل يوماً إلى أمه أتراب، فقامت إليه ورحبت به ودعت بطعام وشراب. فتناول منها وتحدث، فلما رأته قد انبسط قالت له:

إن عندي وصيفتين أدبتهما لك، وأدخرتهما لمسرتك، وقد طال عهدك بالأنس

---

(١) إن صح هذا الخبر فيذكرني بقول القائل: الصدر الضيق يهدم ما يبنيه العقل الواسع.

(٢) ربما كان في يده شيء يشبه الفأس، فقد جاء في لسان العرب في مادة «طبرزد» قوله: الطَّبَرْزَذُ: السكر، فارسي معرب، يريد تبرزد بالفارسية كأنه نُحِتَ من نواحيه بالفأس، والتَّبَرُ: الفأس بالفارسية.

(٣) هل يصدق هذا عقل، وكيف يمكن لحاكم بهذه الصورة البشعة الخالية من آثار الرحمة أو الشفقة أن يحكم شعب وأن يفتح بلاد، وأن يسوس دولة، ويقود أمه بهذه الأخلاق وتلك الطباع، وكأن الأمة ليس فيها من يثور لكرامته أو لدينه، أو أنها عدمت من يأمر بالمعروف أو ينهي عن المنكر أو من يطلب الشهادة في سبيل الله. فما أظن هذا إلاّ من مبالغات المؤرخين، وربما كان فيه شيء من تلك الصفات، ولكن ليس بهذه الصورة.

بعد قتلك الجواري، وهما تحسنان القراءة والألحان، فهل لك أن أحضرهما لك/ [١/٢٤٦] للقراءة بين يديك؟

فقال: افعلي.

فأمرت بإحضارهما، فأحضرا، فأمرتهما بالقراءة، فقرأتا أحسن قراءة.

فقالت له: فهل ترى أن تنشداك الشعر؟

قال: نعم.

فأمرتهما، ففعلتا.

فقالت له: هل لك في الغناء؟

قال: نعم.

فأمرتهما فغنتا ارتجالاً.

ثم قالت: فهل لك في أن تغنيا بالعود؟

قال: نعم.

فغنتا بالعود، والطنبور أبدع غناء حتى أخذ فيه الشراب وأحب الانصراف.

فقالت له: هل لك أن يمشيا خلفك حتى تصل إلى مكانك فتقفا على رأسك يؤنسانك، فقد طال عهدك بالأنس؟

فقال: نعم.

ومضى وهما خلفه، فلم يكن إلاّ أقل من ساعة حتى أقبل خادم، وعلى رأسه منديل فظننت أنه وجه إليها بتحفة.

فوضع الغلام الطبق بين يديها ونحى المنديل فإذا برأسي الجاريتين.

فلما رأتهما صرخت صرخة شديدة وخرت مغشياً عليها فما أفاقت إلاّ بعد ساعة طويلة وهي تلعنه وتدعو الله عليه[1].

وأخباره كثيرة لو استقصيناها لطال بها الكتاب، وإنما استكثرنا من ذكر هذه الشناعات، والفتكات الفاجعات ليحمد الله من جعل نفسه وماله وولده وأهله في يد من يتقي الله أو يحسن فيه ملكته أو يقيل عثرته أو يهدر ذلته، ويتذكر ما ابتلي به

---

(١) هل يقبل أيضاً مثل هذه الحكاية، والتي قد عرفنا نهايتها منذ بدايتها، وهل كانت أمه بهذه السذاجة حتى تفعل معه فعل الوصيفات، ولم تتعلم من الدرس السابق، ثم إنه لم يصفها بالفزع على أبناء ابنها، ثم هو هنا صفها بذلك وكأن القارىء لا عقل له ولا ذاكرة، وكأنها من حكايات ألف ليلة وليلة.

الناس من النقمات، وانتزاع الرحمات مع كونهم أغض إيماناً، وأفضل زماناً، وأوزعنا الله شكر نعمه، ولا سلبنا أثواب فضله وكرمه[١].

وفي سنة أربع وثمانين أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة، وأزمع الخروج إلى الجهاد بصقلية ورفض الملك، وقطع القبالات، وأخرج من في السجون، وبعث في ابنه أبي العباس وهو بصقلية مستدعي إلى الملك فقدم عليه في ربيع الأول منها، فلم يسلم إليه الأمر.

واستنفر الناس ودعاهم إلى الجهاد، ووسع على المقاتلة، وفرق الأموال، وخرج من سوسة في أخريات ربيع الآخر، ثم رحل فدخل بلرم يوم الاثنين لليلتين بقيتا من رجب السنة.

ونازل قبرص، فدخلها دون عهد.

وأغرق بنيه: زيادة الله، وأبا الأغلب، وأبا بحر، رَمْطة[٢].

ثم عبر المجاز، ودخل أرض قِلَّوْرِيَة[٣] فسبى وغنم ومضى يريد كسنته، والتقته رومها بالجزية، فلم يقبل منهم، فنازلها، وقد اشتدت به العلة، فتوفي ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة، سنة تسع وثمانين ومائتين.

وقفل المسلمون إلى صقلية فدفنوه بها بمدينة بلرم لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وبني على قبره قصر.

ورحل العسكر الذين كان معه إلى إفريقية.

وكانت مدة ولايته ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر.

وولي بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم.

[٢٤٦/ب] / دولة أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[٤]

وكان أبو العباس شجاعاً ثبتاً، ذا بصر بالحروب وتجربة فيها، وكان أديباً عاقلاً

---

(١) آمين آمين، ولكن ربما ذكرت هذه الحكايات عن ملك أيام ملك آخر يكون شديد البطش حتى يقول الناس مثل هذا الكلام الذي ذكره المؤلف، ويقولون نحن خير من غيرنا.

(٢) هي قلعة حصينة بجزيرة صقلية، تقع على رأس جبل مرتفع وبها آبار الماء.

(٣) هي مدينة في إيطاليا الجنوبية يفصلها عن مضيق عن مسينة.

(٤) قال ابن الأثير في الكامل في التاريخ في أحداث سنة (٢٨٧هـ) في ذكر ولاية أبي العباس صقلية: كان إبراهيم بن الأمير أحمد أمير إفريقية، قد استعمل على صقلية أبا مالك أحمد بن عمر بن عبد الله، فاستضعفه، فولي بعده ابنه أبا العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فوصل إليها غرّة شعبان من هذه السنة، في مائة وعشرين مركباً، وأربعين حربي، وحصر طرابلس، واتصل خبره =

شديد الحذر من أبيه أيام حياته، لما يشاهده من نكيره بما أوجب رضاه عنه، والاعتراف بفضله على سائر ولده.

ثم ولاّه عهده، وصير إليه خاتمه ووزارته، وكتب له بذلك كتاباً مشهوراً.

فلم يزل كذلك إلى أن أخذه بالخروج إلى صقلية لمحاربة أهلها، وقد خالفوا أمره.

فخرج في جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين، فقاتلهم وظهر عليهم، ثم أمّنَهُم، وفتح بلاداً كثيرة للروم إلى أن استدعاه وولاّه الأمر كما ذكر.

فكانت ولايته رحمة نسخت العذاب، فقعد بتونس لمظالم الرعية، ولبس الصوف وأظهر العدل.

ولم يسكن في قصر أبيه ولكنه اشترى داراً مبنية بالطول، فكان ساكناً بها إلى أن هلك.

= بمعسكر المسلمين بمدينة بلرم، وهم يقاتلون أهل جرجنت فعادوا إلى بلرم، وأرسلوا جماعة من شيوخهم إليه بطاعته، واعتذروا من قصدهم جرجنت.
ووصل إليه جماعة من أهل جرجنت، وشكوا منهم، وأخبروه أنهم مخالفون عليه، وأنهم إنما سير مشايخهم خديعة ومكراً، وأنهم لا إيمان لهم ولا عهد، وإن شئت أن تعلم مصداق هذا فاطلب إليك منهم فلاناً وفلاناً. فأرسل إليهم يطلبهم فامتنعوا من الحضور عنده وخالفوا عليه، وأظهروا ذلك. فاعتقل الشيوخ الواصلين إليه منهم. واجتمع أهل بلرم، وساروا إليه منتصف شعبان ومقدمهم مسعود الباجي، وأمير السفهاء منهم ركمويه، وصحبهم، ثم أسطول في البحر نحو ثلاثين قطعة، فهاج البحر على الأسطول فعطب أكثره، وعاد الباقي إلى بلرم. وأما العسكر الذين في البر، فإنهم وصلوا إليه وهو على طرابلس، فاقتتلوا أشد القتال، فقتل من الفريقين جماعة، وافترقوا، ثم أعادوا القتال في الثاني والعشرين، فانهزم أهل بلرم، وقت العصر، وتبعهم أبو العباس إلى بلرم براً وبحراً، فعادوا قتاله عاشر رمضان من بكرة إلى العصر، فانهزم أهل البلد، فوقع القتل فيهم إلى المغرب. واستعمل أبو العباس على أرباضها، ونهبت الأموال، وهرب كثير من الرجال والنساء إلى طبرمين، وهرب ركمويه وأمثاله من رجال الحرب إلى بلاد النصرانية كالقسطنطينية وغيرها.
وملك أبو العباس المدينة، ودخلها وأمن أهلها، وأخذ جماعة من وجوه أهلها، فوجههم إلى أبيه بإفريقية. ثم رحل إلى طبرمين، فقطع كرومها وقاتلهم، ثم رحل إلى قطانية فحصرها، فلم ينل منها غرضه، فرجع إلى المدينة، وأقام إلى أن دخلت سنة ثمان وثمانين، فتجهز للغزو. وطاب الزمان وعمر الأسطول، وسيره أول ربيع الآخر، ونزل على دمشق ونصب عليها المجانيق، وأقام أياماً ثم انصرف إلى مسيني، وجاز في الحربية إلى رَيُو، وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة، وهزمهم، وملك المدينة بالسيف في رجب، وغنم من الذهب والفضة ما لا يُحَدّ، وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة. ورجع إلى مسيني وهدم سورها، ووجد بها مراكب قد وصلت من القسطنطينية، فأخذ منها ثلاثين مركباً، ورجع إلى المدينة، وأقام إلى سنة تسع وثمانين. فأتاه كتاب أبيه إبراهيم يأمره بالعودة إلى إفريقية، فرجع إليها جريدة في خمس قطع شوابي، وترك العسكر مع ولديه: أبا مضر، وأبا معد، فلما وصل إلى إفريقية استخلفه أبوه بها. وسار هو إلى صقلية مجاهداً عازماً على الحج بعد الجهاد، فوصلها في رجب سنة سبع وثمانين ومائتين.

وحبس ابنه زيادة الله، وخلقاً كثيراً، من رجال أبيه، لأنه خاف من قيام ابنه المذكور عليه، وقيده.

ثم أنه خرج يوماً من الحمام إلى دار خالية، فاستلقى على سرير خيزران، ووضع تحت رأسه سيفاً ونام بعد أن خرج كل من في الدار، إلاّ ما كان من فتيين يثق بهما، فلما نام اتفقا على قتله، وتقديم ابنه زيادة الله المعتقل، واتخاذ اليد بذلك.

فتقدم أحدهما، فاستل السيف المذكور وضربه ضربة قطع بها عنقه حتى خلص إلى السرير، وأسرع الثاني، فارتقى الحائط من الدار حيث زيادة الله، ونزل إليه، فأعلمه أن أباه قد قتل.

فظن زيادة الله أنها مكيدة، فقال: إن كنت صادقاً، فأرني الرأس.

فانصرف مسرعاً، وجاء، فرمى به إليه، فعند ذلك صدقه.

وولي بعد أبيه.

وكان قتل أبي العباس بن إبراهيم يوم الأربعاء ليوم بقي من شعبان سنة تسعين ومائتين.

دولة زيادة الله بن أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب

ولما صحّ عند زيادة الله قتل أبيه فكّ قيوده، وبادره خوفاً أن يسبقه إلى الأمر أحد أعمامه.

ووجّه في ابن الصائغ الوزير، وفي أبي مسلم إسماعيل، وفي عبد الله بن أبي طالب، وكانوا مسجونين فقال: انظروا لي ولأنفسكم؟

فأشاروا عليه بالتوجيه عن أعمامه على لسان أبيه، فاستحضرهم ووجوه القواد، ودفع لهم الصلات، وأخذ عليهم البيعة لنفسه.

ونادى في الجند بالعطاء، وخاطب العمال، وقبض على أعمامه أجمعين، وصيرهم إلى جزيرة الكراث[1] من بحر تونس، فقتلوا بها. ثم لما فرغ/ من أمره في تقرير الملك دعا بالفتيين اللذين قتلا أباه، فأمر بهما فقطعت أيديهما وأرجلهما، وصلبا على باب القيروان، وباب الجزيرة من أبواب تونس، ثم قتل عمه الزاهد بسوسة. [٢٤٧/أ]

وولى وزارته عبد الله بن الصائغ المشهور بالفضل والأدب.

وقد ظهر أمر داعي لاشيعة في أيام أبيه إبراهيم بن أحمد، فبعث إليه من يتلطف

(١) جزيرة صغيرة في شمال تونس، وتسمى في هذه الأيام بالجزيرة الوطنية.

في تعرف خبره، ويتطلع على طريقته.

فلما دخل عليه قال له: إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجهني إليك يقول لك: ما حملك على التعرض لسخطي، والوثوب على ملكي، وإفساد رعيتي، والخروج عليَّ؟

فإن كنت تبتغي غرضاً من أغراض الدنيا فإنك تجده عندي، وإن كان قصدك غير ذلك، فقد عرفت عواقب من سوّلت له نفسه ما سوّلت لك نفسك، وإنما أردت الإعذار إليك، وهذا أول كلامي لك وآخره، فانظر في يومك لغدك.

فقال أبو عبد الله الشيعي: قد قلت فاسمع، وبلّغت فأبلغ: أما ما ذكرت من التهديد فما أنا ممن يُرَوَّع بالإيعاد، وأما تخويفك إياي برجال دولتك أبناء حطام الدنيا، فإني في أنصار الدين، وحماة المؤمنين الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين مع قول الله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٤٩].

وأما ما أطمع به من دنياه فلست من أهل الطمع فيما عنده، أنا بعثت رسولاً لأمر حُمَّ، وقرب وانجاز وعد من الله سبق، والله لا يخلف الميعاد، هذا جواب ما جئت به.

ثم صرف الرسول على أحسن حال.

فلما بلغ إبراهيم قوله، ووصفت له صفته، عرف أنه صاحب قطع دعوته، وكان له علم من الحدثان.

ثم تفاقم الأمر في أمر زيادة الله هذا، فافتتح مدينة سطيف، ثم مدينة طبنة، ثم مدينة بلزمة.

وجهز إليه زيادة الله الجيوش، واحتشد عسكراً بلغ لدى العطاء اثني عشر ألفاً، أمَّرَ عليه هارون بن الطين، فمنح الله الشيعي النصر عليهم دفعة، وهزمهم من غير كلفة.

وافتتح الشيعي بعد ذلك مدينة تيجس.

ثم فتح قفصة.

ثم فتح قصطيلية.

ثم ملك مدينة الأربس.

ثم تحرك إلى ملاقاة زيادة الله في أول جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين ومائتين.

وقد بلغت جيوش الشيعي مائة ألف بين فارس وراجل.

واجتمع إلى زيادة الله هيئة البحر كثرة.

وكانت بين الفريقين حرب صعبة بأحواز الأربس عنوة، فقتل أهلها.

فلما اتصل الخبر برقادة إلى زيادة الله على أن الأمر فسد فساداً لا يقبل الاصلاح، وأن الدولة قد انقرضت ـ وكان قد تقدم بشراء أمتعة واستعد للهرب، وأرسل خاصة رجاله.

[٢٤٧/ب] / فأشار عليه وزيره بالمقام وقال له: العساكر تجتمع إليك، ولا يتجاسر الشيعي على الإقدام عليك، وأنت في قوة من أهل بيتك وخاصتك.

فلم يقبل منه ذلك، وأخذ في رفع الأموال، ونفيس الخلع، واصطفاء الجواهر، واختيار السلاح، وحمل من يعز عليه من جواريه وأمهات أولاده، ثم انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم، وجعل على وسط كل واحد منهم ألف دينار خوفاً من أن تلحق أحمال أمواله.

ووقفت إليه جارية من قيانه، وقد أخذت العود على صدرها واندفعت تغنيه لتحركه على رفعها، وتقول:

لم أنس يوم الرحيل موقفها وجفنها في دُمُوعها غرق

وقولها والرّكاب سائرة تتركني سيدي وتنطلق؟!

فدمعت عيناه، وحطّ حمل مال عن بغل وأمر بحملها عليه.

فلما أذّن المؤذن بالعشاء الآخرة، خرج من رقاده، واتبعه الناس قوماً بعد قوم يهتدون بالمشاعل.

وأصبح الناس غداة تلك الليلة إلى قصور زيادة الله برقادة فانتهبوها، وأخذوا من أموال بني تغلب وآنية الذهب والفضة ما لا يحاط به وصفاً.

وانتهى أمر زيادة الله إلى مصر، فكانت مدة ولايته بإفريقية خمس سنين وأحد عشر شهراً.

وعليه انقرضت دولة الأغالبة بإفريقية، وكانت مدتها مائة سنة وإحدى عشر سنة، وثلاثة أشهر، وعشرة أيام.

ولما سمع الشيعي بهروب زيادة الله أسرع إلى رقادة، واستولى على ملك إفريقية، وكان من أمره ما تقدم ذكره.

والبقاء لله وحده.

ذكر ما أمكن الإلماع به من ملوك الشيعة المتقدم ذكرهم حفظاً لترتيب الكتاب وإقامة لرسمه بحول الله تعالى

ومن لدن انصراف زيادة الله عن رقادة راحلاً نحو المشرق، دالت الدولة بعد الأغالبة لملوك الشيعة المدعويين بالعبيديين، منسوبين إلى عبيد الله أول ملوكهم، وقد مَرّ ذكره.

وأضفناهم في هذا الكتاب إلى محل غايتهم بالمشرق، وإلى محل أوليهم إذ أصلهم شرقي لا مغربي.

ولما زاع أيام من ملك منهم واستوطن المغرب، وإنما حسبناهم شرقيين تغليباً للكثير، وطلبا للمناسبة إلاّ أننا في هذا الموضع نعمر المحل بسردهم حفظاً للترتيب فنقول:

أولهم:

عبيد الله الملقب بالمهدي الذي تنسب إليه المهدية[1]

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٤١): عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية، وبثوا الدعاة يستغوون الجبلية والجهلة. وادعى هذا المدبر أنه فاطم من ذرية جعفر الصادق فقال: أنا عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد. وقيل: بل قال: أنا عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وقيل: لم يكن اسمه عبيد الله، بل إنما هو سعيد بن أحمد. وقيل: سعيد بن الحسين. وقيل: كان يهودياً. وقيل: من أولاد ديصان الذي ألف في الزندقة. وقيل: لما رأى اليسع صاحب سلجماسة الغلبة، دخل فذبح المهدي، فدخل أبو عبد الله الشيعي، فرآه قتيلاً، وعنده خادم، فأبرز الخادم، وقال للناس: هذا إمامكم. والمحققون على أنه دعي بحيث إن المعز منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك. ثم أصبح وقد ألقى عَرَمَة من الذهب ثم جذب نصف سيفه من غمده، فقال: . هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حَسَبِي. وقد صنف ابن الباقلاني وغيره من الأئمة في هتك مقالات العبيدية وبطلان نسبهم. فهذا نسبهم، وهذه نحلتهم. وقد سقت في حوادث تاريخنا (أي الذهبي) من أحوال هؤلاء، وأخبارهم في تفاريق السنين عجائب.

[1/248] سلّم عليه بالإمامة سنة سبع وتسعين ومائتين، واستوطن رقادة إلى أن/ بنى المهدية بعد أن اختارها في البلاد، واختطها حسب اختياره بطالع الأسد، لكونه برجاً ثابتاً، ولكونه بيت الشمس التي هي دليل الملك.

ورمى بسهم من الباب إلى المصلى، وقال: إلى هنا يبلغ صاحب الحمار، وإنما بنيتها لصيانة الفاطميات ساعة من نهار، فكان ذلك.

وتوفي ليلة الثلاثاء منتصف ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ثم ولي بعد ابنه.

أبو القاسم الملقب بالقائم بأمر الله(١)

وخرج في أيامه أبو يزيد مخلد بن كيداد النكار وتبعه الناس منكرين على آل عبيد الله.

واستولى على إفريقية كلها إلاّ المهدية.

وتوفي القائم في ريعان الفتنة لثلاث عشرة خلت من شوال سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

وولي بعده:

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٥٢) صاحب المغرب، أبو القاسم محمد بن المهدي عبيد الله. مولده بسلمية في سنة ثمان وسبعين ومائتين، ودخل المغرب مع أبيه، فبويع هذا عند موت أبيه في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة. وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كيدان البربري، وجرت بينهما ملاحم، وحصره مخلد بالمهدية، وضيق عليه، واستولى على بلاده. ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله، وكان شيطاناً مريداً يتزندق. وذكر القاضي عبد الجبار المتكلم: أن القائم أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه يصيح: العنوا الغار وما حوى. وأباد عِدّة من العلماء. وكان يراسل قرامطة البحرين، ويأمرهم بإحراق المساجد والمصاحف.

فتجمعت الإباضية، والبربر على مخلد، وأقبل، وكان ناسكاً قصير الدلق (ثوب متسع الأكمام طويلها) يركب حماراً لكنهم خوارج، وقام معه خلق من السنة والصلحاء، وكاد كان يتملك العالم، وركزت بنودهم (أعلامهم) عند جامع القيروان فيها: «لا إله إلاّ الله، لا حُكم إلاّ لله»، وبندان أصفران فيها: «نصر من الله وفتح قريب». وبند مخلد فيه: «اللهم انصر وليك على من سبّ نبيك». وخطبهم أحمد بن أبي الوليد، فحض على الجهاد، ثم ساروا، ونازلوا المهدية، ولما التقوا وأيقن مخلد بالنصر، تحركت نفسه الخارجية، وقال لأصحابه: انكشفوا عن القيروان حتى ينال منهم عدوهم، ففعلوا ذلك، فاستشهد خمسة وثمانون من العلماء والزهاد.

أبو طاهر إسماعيل(١)

ولي عهده، فشمر إلى النكار حتى قتله في خبر طويل.

وفتح البلاد، وجدّد الدعوة، وقتل الثوار، والخوارج.

ثم توفي سنة إحدى وأربعين، وثلاثمائة.

وولي بعده ولده:

أبو تميم معد(٢)

ذو الآثار والأخبار والجبروت.

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/١٥٦): المنصور أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي، العبيدي الباطني، صاحب المغرب، ولي بعد أبيه، وحارب رأس الإباضية أبا يزيد مخلد بن كيداد الزهد، والتقى الجمعان مراتٍ، وظهر مخلد على أكثر المغرب، ولم يبقَ لبني عبيد سوى المهدية. فنهض المنصور، وأخفى موت أبيه، وصابر الإباضية حتى ترحلوا عنه، ونازلوا مدينة سوسة، فبرز المنصور من المهدية والتقوا، فانكسر جيش مخلد على كثرتهم وأُسِرَ هو في سنة (٣٣٦هـ) فمات بعد الأسر بأربعة أيام من الجراح، فسلخ وحشي قُطْناً، وصُلِبَ. وبنو مدينة المنصورية مكان الوقعة، فنزلها المنصور. وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش، فصيحاً، مفوهاً يرتجل الخطب، وفيه إسلام في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق.

... ومن محاسنه أنه ولىّ محمد بن المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، قد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشر كان أن لا آخذ رزقاً ولا أركب دابة، فولاه ليتألف الرعية... وخرج في رمضان سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة إلى مكان يتنزه، فأصابه برد وريح عظيمة، فأثر ذلك فيه، ومرض، ومات عدد كثير ممن معه، ثم مات هو في سلخ شوال من السنة، وله تسع وثلاثون سنة.

(٢) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/١٥٩): هو المُعِزّ لدين الله أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم، العبيدي، المهدوي، المغري الذي بُنِيَت القاهرة المُعِزِّية له. كان صاحب المغرب، وكان وليّ عهد أبيه. ولىَ سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وسار في نواحي إفريقية يمهد ملكه فذلك الخارجين عليه، واستعمل مماليكه على المدن، واستخدم الجند، وأنفق الأموال، وجهز مملوكه جوهر القائد في الجيوش.... وكانت مصر في القحط، فأخذها جوهر، وأخذ الشام والحجاز، ونفذ يُعَرِّف مولاه بانتظام الأمر، وضربت السكة على الدينار بمصر، وهي: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عَلِيّ خير الوصيين، والوجه الآخر اسم المعزّ والتاريخ، وأعلن الأذان بحيّ على خير العمل.... فتهيأ المعزّ، واستتاب على المغرب بُلكين الصنهاجي، وسار بخزائنه، وتوابيت آبائه، وكان دخوله إلى الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة. وتلقاه قاضي مصر الذهلي وأعيانها، فأكرمهم وطال حديثه معهم، وعرفهم أن قصده الحق والجهاد، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة، وأن يقيم أوامر جده رسول الله ﷺ، ووعظ وذكّر حتى أعجبهم، وبكى بعضهم. ثم خلع عليهم، وقال للقاضي أبي طاهر الذهلي: منرأيت من الخلفاء؟ فقال: واحد. قال: من هو؟ قال: مولانا، فأعجبه ذلك. ثم أنه سار حتى خيّم بالجيزة، فأخذ عسكره في التعدية =

وتوفي بالقاهرة المنسوبة إليه في ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وأما من بعد هؤلاء العبيديين فليسوا ممن سكن المغرب وهم:

العزيز بالله.

ثم الحاكم.

ثم الظاهر.

ثم المستنصر.

ثم المستعلي.

ثم الآمر.

ثم الحافظ.

ثم الظافر.

ثم الفائز.

ثم العاضد.

هؤلاء قد تقدم ذكرهم.

فمن أراد استيفاء أكثر من هذا فلينظره حيث ذُكر.

= إلى الفسطاط، ثم دخل القاهرة، وقد بنى له بها قصر الإمارة، وزينت مصر، فاستوى على سرير ملكه وصلّى ركعتين. وكان عاقلاً لبيباً حازماً ذا أدب وعلم ومعرفة وجلالة وكرم، يرجع في الجملة إلى عدل وإنصاف، ولولا بدعته ورفضه لكان من خيار الملوك.

ذكر ملوك صنهاجة بإفريقية المغرب

وإن كان هؤلاء المذكورين مندرجين في دولة الشيعة والملتزمين طاعتهم، ولكنهم استبدوا، وقد خفتت الدولة العبيدية، فكانوا ملوكاً جحاجح.

وكان ابتداء أمرهم أن معداً الملقب بالمعز لدين الله أبا تميم جبار بيت الشيعة، وفحل من دون أوليهم لما أزمع الرحيل إلى المشرق، وحرص على استبقاء ما حازه من ملك المغرب بإفريقية وما إليها إلى أحواز تلمسان إلى صقلية ليكون له رداءاً ولملكه بالمشرق عدلاً، اعمل نظره فيمن يستكفيه به، فيأمن معه بأس من بالمغرب الأقصى من ملوك زناتة، المعقودة أيديهم بملوك بني أمية بالأندلس أعداء الشيعة، وأولى منافستهم.

وكانت بين ملوك زناتة في قديم الزمان وحديثه، وبين أمراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلة من مليانة، والجزائر، والحدود التاهرتية[1]، فما وراءها حروب عظيمة، وأضرار متصلة، وحسائف ظاهرة وكامنة.

وكانت الرئاسة في صنهاجة إلى:

الأمير زيري بن مناد

وكان زيري أول من ظهر منهم بالمغرب الأوسط، فقاد الجيوش، وعقد الألوية،/ وخطب له على المنابر. [٢٤٨/ب]

وهو الذي بنى مدينة أشير، وإليه تنسب وبنى ابنه بلقين بأمره مدينة مليانة ومدينة الجزائر، والمدية.

وكان زيري موالياً لملوك الشيعة استظهاراً بهم على عدوه من زناتة.

وبتحريضه وإجلابه، دخوت جيوش الشيعة المغرب الأقصى إلى بحر السوس.

---

(١) هذه النسبة إلى مدينة تاهرت قاعدة ملك دولة الرستميين الخوارج الأباضيين بالمغرب، وهي غير تاهرت القديمة، وكانت تسمى تاهرت الجديدة، أو السفلى، وكان بناها مؤسس هذه الدولة، وهو الإمام عبد الرحمن بن رستم في منتصف القرن الثاني الهجري.

وحضر قتال أبي يزيد النكار مع إسماعيل المنصور ثالث ملوكهم، فأبلى هو وقومه أحسن البلاء.

فلما استوثق الأمر لإسماعيل صرف زيري إلى بلاده، وأمسك لديه بنيه.

وكان كبيرهم بلقين، وأظهرهم، فلم يزالوا معه ومع ولده إلى أن توجه إلى مصر.

ووقع اختياره على استخلاف بلقين بن زيري بجميع إفريقية والمغرب، ففوض إليه وسماه يوسف، وكَنّاه أبا الفتوح، وَلَقّبه: سيف العزيز بالله، يعني نزار بن معد.

ولما رحل واحتل قابس لوجهته يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول سنة اثنين وستين وثلاثمائة، بلغ يوسف بن زيري مشيعاً إياه آبار الخشب، ثم أمره بالرجوع إلى إفريقية، وقال له عند وداعه: إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء:

لا ترفع الجباية عن أهل البادية.

ولا ترفع السيف عن البربر.

ولا تولِّ أحداً من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيراً.

وكان آخر العهد بالمغرب بمعد، واستوثق ليوسف بن زيري ملك كبير.

دولة أبي الفتوح يوسف بن زيري

وكان جعفر بن علي ممدوح ابن هانيء الأندلسي[١] الشهير الذكر أميراً على الزاب، وأبوه هو الذي بنى مدينة المسيلة، فظن أن المعز يستخلفه على إفريقية والمغرب، فلما خاب أمله من ذلك خالف يوسف وحاربه.

وتحرك يوسف إلى المغرب أول حركاته فهزم زناتة واستأصل شأفتهم: فتح معاقلهم وسبى أموالهم وذراريهم.

---

(١) هو محمود بن هانيء الأزدي الأندلسي المهلبي الأندلسي أبو الحسن شاعر عصره. قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٣١): يقال: إنه من ذوي المهلب، وكان أبوه شاعراً أيضاً، ويكنى محمد أبا القاسم أيضاً. مولده بإشبيلية، وكان ذا حُظوة عند صاحب إشبيلية، ونظمه بديع في الذروة، وكان حافظاً لأشعار العرب، وأيامها. كنه فاسق خمير يتهم بدين الفلاسفة، فهرب لما هموا به إلى العُدْوة، فاتصل بالمُعز العبيدي، فأنعم عليه، وشرب عند قوم، فختنق في رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهو عشر الخمسين. وديوانه كبير، وفيه مدائح تفضي به إلى الكفر، وهو من نظراء المتنبي. وقيل: بل عاش ستاً وثلاثين سنة.

ففر جعفر بن علي أمامه إلى الأندلس مستجيراً بملكها.

وانتهى يوسف إلى سجلماسة لا يدافعه أحداً إلاّ حطمه، متبعاً أمير زناتة المنتسب إلى خزر، فأسره، وتملك سجلماسة.

ثم عاد إلى أشير فبنى مدينة آشير، وكانت مدينة شريفة.

وعانى حروباً عظيمة، ذكرها الناس.

ثم توفي في بعض حركاته بين تلمسان وسجلماسة سنة اثنين وسبعين وثلاثمائة.

وولي بعده ابنه المنصور.

دولة المنصور بن بلقين بن زيري بن مناد

ولي الملك بعد أبيه سلم له فيه إخوته حماد وسواه.

وبويع بالإمارة في مسجد القيروان.

وكانت / بينه وبين أعمامه حروب عظيمة. [1/٢٤٩]

ثم انهزموا عنه، فلحق منهم بالأندلس زاوي، وجلال، وماكس، فاتفق لهم بالأندلس ملك أيام فتنة البربر بها.

فكان منهم بغرناطة باديس بن حبوش بن ماكسن بن زيري، وذريته حسبما هو مشهور.

وبعد أن عاد أبوهم زاوي إلى قومه بعد وفاة باديس بن المنصور، وقد أسن، وبلغ الغاية من العمر.

قال أبو محمد بن حزم وقد ذكره: ومن غرائب الدهر أن زاوي كان له في الدنيا أزيد من ألف امرأة لا تحل له منهن واحدة، كلهن من نسل إخوته وكذلك مثل هذا العدد من الرجال من نسل إخوته.

وأغزى المنصور حماداً أخاه ما يجاوره من بلاد أعدائه فرزق نصراً لا كفاء له.

ثم مات المنصور بن بلقين سنة خمس وتسعين وثلاثمائة.

وبويع بعده ولده باديس بن المنصور.

دولة باديس بن المنصور بن بلقين بن زيري بن مناد(١)

يكنى: أبا مناد.

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٦) وقد ذكر نسب على غير ما ذكر هنا فقال: باديس بن =

ويلقب: نصر الدولة.

وكان صغير السن عند موت أبيه.

ودليله ما ذكره ابن الرقيق:

من أنه في السنة التي توفي فيها ـ وقد قدم دار ملكه أول سفرة سافرها ـ أنه نزل للقاء المنصور أبيه هو ومن معه من أهل بيته، وأن بعض عمومة أبيه أخذه على يده وحمله من الأرض حتى عانق أباه المنصور وهو راكب.

وهذا يشهد بصغر سنه إذ لا يتأتى مثل هذا إلاّ في الصبي الصغير السن.

وتسامعت أمراء زناتة من أعدائهم بموت المنصور، وغيبة أخيه حماد بالقيروان. فعاود إلى حالهم من الحرب والمخالفة، وأخذ الرفاق.

فأنهض باديس عمه حماداً إليهم، وجعل له تملك كل ما يفتحه، وأعفاه من الوصول إلى إفريقية بعد.

وكمل له شروطاً كثيرة تشطط فيها حماد لكبره، وحرص مدبري دولة باديس على الاستراحة منه.

فخرج حماد من القيروان في جيش لا يحصيه إلاّ الله يجر الدنيا وراءه، حتى أتى مدينة تيجس من أحواز قسنطينة، وتحرك فنزل بأبي طويل من أحواز القلعة المنسوبة إليه.

وبنى، وقرر العمران، وشيد القصور، وخلّد الآثار حسبما ذكره أبو الحسن بن حماد وغيره.

وكان حماد شجاعاً جواداً، قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في الجدل، وكان من أكمل الملوك.

فغزا وظهر على أعدائه، واستمرت حاله إلى أن نهض باديس بأمره.

وفي سنة خمس وأربعمائة كتب إليه باديس يأمره برفع يده عما حازه من الأعمال.

= منصور بن يوسف بن بلّكين بن زيري، صاحب المغرب، وابن ملوكها من جهة العبيدية، أبو مناد الصنهاجي. ولي ممالك إفريقية للحاكم، فلقبه: نصير الدولة. وكان سائساً حازماً شديد البأس، إذا هز رمحاً كسره. مولده سنة أربع وسبعين وثلاثمائة. وفي سنة ست وأربعمائة أمر جيشه بالعرض فسره حُسن شارتهم وهيئتهم، ثم مدّ السماط، وأكل فمات فجأة لليلته. فأخفوا موته ورتبوا في الملك أخاه كرامت، ثم عطفوا فبايعوا ابنه المعز بن باديس. ويقال: مات بالخوانيق، دعا عليه الصالح محرز الطرابلسي المؤدب، لكونه هم بخراب طرابلس المغرب. وصنهاجة من حمير بالكسر. وقال ابن دريد، لا يجوز إلاّ بضم الصاد.

فامتنع حماد وساء ما بينهما، وكان بين باديس والعم حماد أهوال عمة وحروب مبيدة.

وهزم حماد هزيمة مستأصلة/ ألجأته إلى الاعتصام بالجبال والقلاع. [٢٤٩/ب]

وفي أثناء ذلك طرق باديس الموت فجأة لعشر بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة.

دولة المعز بن باديس[١]

لما مات فجأة باديس بالمحلة - وقد لاح له الظهور، وكاد يستأصل حماداً من الغد ففرج الله عليه بوفاته بعقرب قتاله تعلقت بثيابه - تفاوض مدبروا الدولة، ثم اتفقوا على القيام لولده المعز بن باديس واستتابه ابن عمه كرامة بن المنصور، حتى يلحق الولد بدار الملك، ورفعوا تابوت باديس، تقدمه البنود[٢]، وتحف به الجنود، وتهتز خلفه الطبول، وتتزاحم بسيقته الخيول على أكمل هيئة وأجمل تعبئة.

ولقد أذكرنا حديثه هذا أشبه الأشياء به وهو: الانصراف من تلمسان بجنازة السلطان المولى عبد العزيز، منعقد أمره على ولده السعيد لنظر وزيره صدر الأوفياء، وعظيم الظهراء فترحمنا على من قضى وسلف ودعونا لمن حضر وخلف.

فيقال: إن حماداً أشرف عليهم من القلعة التي كان قد لجأ إليها.

فلما رأى ثبات رجال صنهاجة وحسن تعبئة جيشهم وثباتهم على ابن مَلِكِهِم، ووفاءهم بزمام أبيه، وقيامهم بحق نعمته، ورعيهم إياه في ولده، وملكه وحرمه.

قال لمن حضره: مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك، وتبذل فيهم النعم، وصلت إلى إفريقية في ثلاثين ألف فارس، ليس منهم إلاّ من بالغت لهم في الإحسان

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٠) صاحب إفريقية المعز بن باديس بن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد الحميري الصنهاجي، المغربي شرف الدولة ابن أمير المغرب. نفذ إليه الحكم من مصر التقليد والخلع في سنة سبع وأربعمائة، وعلا شأنه. وكان ملكاً مهيباً، سرياً شجاعاً، عالي الهمّة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحته الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذه مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى إسلام، فخلع طاعة العبيدية، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه لمحاربته من مصر العرب، فخربوا حصون برقة وإفريقية وأخذوا أماكن، واستوطنوا تلك الديار من الزمان، ولم يخطب لني عبيد بعدها بالقيروان. قيل: كان مولد المعز في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. ومات في شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة. ومرض بالبرص. ورثاه شاعره الحسن بن رشيق القيرواني. وكان موته بالمهدية. وقام بعده ولده تميم بن المعز.

(٢) أي الأعلام والرايات.

والأنعام وعدت إلى القلعة وليس معي منهم إلاّ أقل من ستمائة، وأنا بينهم حيّ أُرَجّى وأُخْشَى، وهؤلاء قد أطاعوا باديس ميتاً كطاعتهم له حيّاً.

ورجع حماد إلى أشير، ولحق جيش باديس بجنازته القيروان.

وبويع ولده المعز يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة من السنة المذكورة.

وعمره يومئذٍ ثمانية أعوام.

ووصله كتاب صاحب مصر، فلقبه شرف الدولة.

والمعز أبو تميم هذا هو أول من صرف دعوة العبيديين إلى غيرهم من بني العباس، وأزال أسماءهم من السكة في سنة إحدى وأربعين، ونقش فيها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨٥].

فلما بلغ ذلك صاحب مصر وهو المستنصر ووزيره الجرجاني، دبر في دخول العرب إلى إفريقية ولم يكن منهم قِبلَ بها أحد.

وقال: والله لأرمينه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة.

فدعا العرب، وأباح لها مجاز النيل إلى الغرب ـ وكان ممنوعاً عنها قبل ذلك ـ وجعل لمن جاز فروة/ وديناراً. [٢٥٠/أ]

فعبر منهم خلق عظيم، شقي بهم المعز ومن بعده إلى اليوم.

فسبوا البلاد، وأيتموا الأولاد، وانتهبوا الطارف والتلاد، وحسبك بدخول مدينة القيروان شهرة، ووقيعة شنيعة: وإلى اليوم فالخطب بهم لا يرفع، والوطن الخصيب الرحيب قفر بلقع.

ومات حماد بتازمرت في شهر رجب سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وانقسم الملك الصنهاجي بهذا الوطن على قسمين، وتفرق فرقتين:

فقسم من ولد القائد بن حماد بالقلعة المنسوبة إليهم.

ثم بَجَايَة[١] بعد ذلك.

فلنذكر قسم المعز بن باديس إلى آخرهم، ثم نكر على القسم الآخر إن شاء الله.

وتوفي المعز بن باديس سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

ذكر قسم الملوك الصناهجة
من ولد باديس بالمهدية وما إليها من البلاد الإفريقية

أولهم:

(١) هي مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة، وتقع على ساحل البحر الأبيض.

تميم بن المعز بن باديس بن المنصور[١]

ولما توفي المعز بن باديس بالمهدية بعد أن كانت عليه هزيمة العرب من زغبة اللحقين من المشرق، واستباحة مدينة القيروان عنوة، بما هو مشهور الشناعة على الأيام معدود في مصائب الإسلام، وذلك في يوم السبت لخمس بقين من شعبان سنة أربع وخمسين، ودفن في رباط المنستير بعد سبع وأربعين سنة بلغت مدته، وولي أمره ولده تميم.

وكان تميم قد ولاّه أبوه المهدية، فأقام بها إلى أن ألجىء إليها أبو المعز تاركاً ما وراءه بسبب ما نزل به من العرب.

فخرج إليه تميم، وقبّل الأرض بين يديه، وأقام بها، وتميم يُنْفِذ الأمور في حياته إلى أن توفي، واستبد تميم بالأمر.

وتميم أحد شعراء أبناء الملوك، وممن يناظر ابن المعتز في المشارقة.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة نازل تميم أهل جنوة وبيشة في ثلاثمائة مركب، تحمل ثلاثين ألف مقاتل، فحاصروا المهدية ودخلوها ودخلوا زويلة، فأحرقوا الديار، وهتكوا الأستار، وعملوا القتل والأسار، ولجأ تميم إلى القصر المنسوب إلى المهدي، فاعتصم به إلى أن وقع الصلح بينه وبين الروم على أن يدفع لهم مائة ألف من الذهب.

فدفع ذلك بين ناض وأواني ذهب وفضة، وأقلعوا بذلك، وبأموال الناس ونسائهم، وبقي تميم بالمهدية وأحوازها من قابس، وجربة، وصفاقص، وأموره معتلة فيها، تارة له، وتارة عليه، إلى أن توفي ليلة السبت لخمس عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى وخمسمائة، ونقل إلى رباط المنستير، وسِنّه إذ ذاك تسع وسبعون سنة.

ومدته ست وأربعون وأشهر.

ومن/ شعره: [٢٥٠/ب]

بكر الخيل دامية النحور   وقرع الهام بالقُضُب الذكور

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٢٦٣): صاحب إفريقية، السلطان أبو يحيى تميم بن المعز بن باديس بن المنصور الحميري، الصنهاجي. من أولاد الملوك، وكان بطلاً شجاعاً، مهاباً، سائساً، عالماً، شاعراً، جواداً ممدحاً. ولد سنة (٤٢٢). ووَلّي المهدية لأبيه سنة خمس وأربعين، ثم بعد أشهر مات المعز، وتملك هذا، فامتدت أيامه إلى أن مات في رجب سنة إحدى وخمسمائة. وخلّف من البنين فوق المائة، ومن البنات ستين بنتاً على ما قاله حفيده العزيز بن شداد. ثم تملك بعده ابنه يحيى بن تميم، فأحسن السيرة، وافتتح حصوناً كثيرة.

لأقتحمنها حرباً عواناً يشيب لهولها رأس الصغير
فإما الملك في شرفٍ وعزٍ عَلَيَّ التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبَى العوالي فلست بخالد أبَدَ الدهور

وولي بعد تميم ابنه: يحيى.

دولة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس(1)

يكنى: أبا علي.

وولي يوم وفاة أبيه تميم، وعمره إذ ذاك ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر.

قال أبو الصلت في كتابه:

كان يحيى قدس الله روحه موقوف الفكر على سياسة رعيته، وتدبير دولته، وصرف الهمة إلى ذلك عن قرض الشعر والاشتغال به، مع طبع جيد وذهن متوقد، وإنما كان يقوله في أوقات فراغه، وعند نشاطه فمما أنشدت له:

ألا يا منتهى طربي ومن لم يَسعُدُها أربي
إذا ما كنت حاضرة شربت الراح بالنُّخَب
ومهما غبت عن بصري فوا حزني وواحَرَبي

---

(1) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤١٢): صاحب إفريقية الملك أبو طاهر يحيى بن الملك تميم بن المعز بن باديس الحميري، قام في الملك بعد أبيه، وخلع على قواده، وعدل، وافتتح حصوناً ما قدر أبوه على فتحها، وكان عالماً كثير المطالعة، جواداً ممدحاً، مقرباً للعلماء، وفيه يقول أبو الصلت أمية الشاعر:

فارغب بنفسك إلاّ عن ندى ووغى فالمجد أجمع بين اليأس والجود
كدأب يحيى الذي أحيت مواهبه ميت الرجاء بإنجاز المواعيد
معطى الصوارم والهيف النواعم وال جرد الصلادم والبذل الجلاميد
إذا بدا بسرير الملك محتسباً رأيت يوسف في محراب داود

مات يحيى يوم النحر فجأة، فكان موته وسط النهار سنة تسع وخمسمائة. وكانت دولته ثماني سنين. وخلف لصلبه ثلاثين ابناً، فتملك منهم ابنه عَلِي، وقام ستة أعوام، ومات فملّكوا ولده حسن بن علي صبياً مراهقاً، فامتدت أيامه إلى أن أخذ الفرنج طرابلس والمغرب، بالسيف سنة إحدى وأربعين، فهرب الحسن من المهدية هو وأكثر أهلها، ثم انضم إلى السلطان عبد المؤمن.

وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعملون الكيمياء، فأحضرهم ليتفرج، وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن. فسل أحدهما سكيناً، وضرب الملك، فما صنع شيئاً ورفسه الملك دحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشدّ إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك فقتلوا الثلاثة. وكانوا باطنية، أظن الآمر العبيدي ندبهم لذلك.

وكانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم، إلى أن طلبوا سِلْمَهُ.

وكان قد تَحَيَّل عليه ثلاثة نفر من المغاربة تقربوا إليه بصناعة الكيمياء، ورغبوا له في الحضور بين يديه.

فاستحضرهم ومعه من خواص رجاله أربعة نفر: أحدهم قائد جيشه.

فلما أنسوا بالجلوس، وثبوا بالخناجر المعدة في أوساطهم، فقتلوا قائد الجيش، وأفلت يحيى بجرامات ثقيلة، إلى أن استقل وتخلص منها، وقتل أولئك المغاربة، وصلبوا.

واستمرت أيام يحيى إلى ثاني يوم النحر من سنة تسع وخمسمائة.

وتوفي في قصره فجأة، وكانت مدة عُمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً.

وملكه ثماني سنين وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً.

دولة علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

قال أبو الصلت: لما توفي يحيى وقع الاتفاق على إنفاذ كتاب إلى ابنه علي يستقدم فيه من مدينة صفاقس مزوراً على لسان أبيه، وأنفذ في الوقت والساعة، وضبطت الأمور، وحصنت الأبواب بالرجال، وبادر لوقته صحبة أكابر العرب المجاورة لصفاقس، فوصل ثاني يوم وفاة أبيه، وقعد للناس، وخلع على/ وجوه [٢٥١/أ] الدعوة، وأنشدته الشعراء.

وفي ذلك يقول أبو محمد بن حمديس، وهو مما يتمثل به في محل التعزية المقترنة بالتهنئة:

ما أُغمد السيف حتى جُرد الذكر ... ولا اختفى قمر حتى بد قمر

بموت يحيى أُميت الناس كلهم ... حتى إذا ما عَلِيٌّ جاءهم نُشروا

نعي وبشرى يناجي طائش بهما ... أمسى يموج حيارى منهما البشر

كل يُسَرُّ ويُؤْسَى من سماعهما ... فالقلب ملتئم منه ومُنْفَطر

لولا اعتلاءُ عَلِيّ قُلْتُ من أسَف ... بفيك يا من نعى يحيى لنا العَفر[١]

وولي بعده ولده الحسن.

وكانت وفاته ظهر يوم الأحد لسبع بقين من ربيع الآخر سنة خمسة عشر، وخمسمائة، ونقل إلى المنستير.

---

(١) أي التراب.

دولة الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

ولم تطل مدته حتى تغلب الروم على المهدية، وخرج منها متوجهاً إلى ابن عمه يحيى بجباية. فأنف يحيى أن يقوم له إذا دخل عليه أو يترك القيام، ولا يجمل ذلك، فأمر بإجازته إلى الجزائر وإقامته بها والتوسعة عليه فيها.

فلم يزل بها إلى أن خرج عنها القائد ابن العزيز إلى بجاية وأسلمها.

فقدم أهلها على أنفسهم الحسن بن علي هذا، إلى أن تغلب الموحدون على بلاد القبلة وإفريقية، حسبما يأتي من موضعه إن شاء الله.

وكان حسن السيرة، ذا قريحة وقادة، وفطرة سليمة، وأدرك لطيف.

ومما ينسب إليه قوله:

السيف لا أحد عليه حاكم   لكنه حكم على الحكام
السيف حدٌّ لا يُردُّ قضاؤه   وأحَدُّ منه نوافذ الأحكام

ومن ذلك:

قام يسعى بكأسه وتعاطى   يا له من رشاً مليح مُفَدَّى
فحكاه القضيب حين تثنى   وحكاه الهلال حين تَبَدَّى
لو تَجَلَّى لظلمة لأنارت   أو تمشى على صفى لشَدَّا

ذكر قسم الملوك الصناهجة من ذرية حماد بن بلقين بقلعة حماد وبجاية وما إليها

[٢٥١/ب] / وقد تقدم ما كان من تسليم حماد بن بلقين الأمر لأخيه المنصور، وأن ولده باديس لما تصير إليه أبيه، صرف حماداً إلى المغرب.

فخرج من القيروان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بعد أن اشترط عليه ما شاءه، وجعل له كل ما يفتحه، وأعفاه من الوصول إلى إفريقية بعد، فتعين لحماد بالجهة العربية بإفريقيا ملك كبير.

دولة حماد بن بلقين بن زيري بن مناد

وكان حماد نسيج وحده، وفريد دهره، وفحل قومه، ملكاً كبيراً وشجاعاً ثبتاً، وداهية حصيفاً.

قد قرأ الفقه بالقيروان، ونظر في كتب الجدل.

وأخباره مشهورة، وهو الذي بنى القلعة المنسوبة إلى حماد بالحضرة الباقية الأثير على توالي الغير، وتسمى غياناً، فاتخذ بها القصور العالية، والقصاب المنيعة، والمساجد الجامعة، والبساتين الأنيقة، ونقل إليها الناس من سائر البلاد.

وفسد ما بينه وبين باديس ابن أخيه، وتحرك كل منهما إلى لقاء صاحبه، فكان جيش حماد الذي خرج به من القلعة آخر سنة خمس وأربعمائة، ثلاثين ألف فارس، وأتيح عليه الظهور لابن أخيه باديس، كما تقدم ذكره.

ونزل الفرج على حماد بوفاته، واتصلت بعده أيام حماد إلى أن توفي في شهر رجب سنة تسع عشرة وأربعمائة.

وولي بعده ولده القائد بن حماد.

دولة القائد بن حماد بن بلقين بن زيري

واستقام الأمر للقائد بن حماد لاشتغال المعز بن باديس عنه بما دهمه من العرب.

وكان سديد الرأي، عظيم القدر، وتحرك إلى حربه حمامة بن زيري المغراوي، أمير مدينة فاس، وكانت بينهما حروب أجلت عن موادعة.

وخلع القائد بني عبيد، كما فعل ابن عمه.

ودعا إلى بني العباس، إلى أن هلك في ذي القعدة، سنة ست وأربعين وأربعمائة، فكان ملكه سبعاً وعشرين سنة.

وولي بعده ولده محسن.

دولة محسن بن القائد بن حماد بن بلقين

وكان القائد قد أوصى ابنه محسناً أن لا يخرج من القلعة إلى تمام ثلاث سنين. فخالف وصيته لما نازعه يوسف بن حماد عمّه بالمغرب.

وخرج إليه، فاغتاله ابن عمه بلقين بن محمد بن حماد، وكان والياً على بلد أكربون، فقتله وعاد إلى القلعة فدخلها ليلاً وملكها.

وكانت ولاية محسن ثمانية أشهر، وثلاثة وعشرين يوماً.

ووفاته في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

[١/٢٥٢] / دولة بلقين بن محمد بن حماد بن بلقين

وكان شجاعاً جريئاً على العظائم، سفاكاً للدماء.

وتحرك من القلعة لحرب زناتة في صفر سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وكان قد بلغه ظهور يوسف بن تاشفين ببلاد المصامدة، فتحرك حتى نزل بفاس، ففتحها.

وجاس بلاد المغرب، ودوخها، وبلغ يوسف بن تاشفين خبره.

فكر راجعاً إلى الصحراء خوفاً منه إلى أن قُيِّض له الناصر أحد بني عمه، وأقدم عليه إقدام الأسد، ففرق بين روحه والجسد، وله حكاية مشهورة.

قال ابن بسام في كتاب «الذخيرة»، وقد ذكر قصته ما نصه:

وأذكر هذه الغارة الصلعا، والفتكة الشهيرة الشوها، إذ الشيء يذكر مع ما جانسه، ويضم إلى ما التف به ولابسه، ما اتفق في مثلها في ملك المناديين، الغالبين إلى وقتنا هذا على طرف إفريقية الأدنى المستقرة رئاستهم بقلعتهم المنسوبة إلى جدهم حماد.

وذلك أنه لما أفضى ملكهم إلى بلقين بن محمد منهم أحد جبابرة الإسلام، المفتاتين على الأيام من رجل كان لا يملأ يده إلاّ من لبدة أسد، ولا يسرح لحظة إلاّ في نهاب بلد مضطهد، ولا يراجع إلاّ وبحر الموت يلتطم، ولا يكلم إلاّ حين يبتسم، قد تجاوز في شذوذ أمنيته، وقهره لرعيته والإخافة لأقرانه، والاستبداد على زمانه، غاية من سلف من جبابرة الأرض، وسمع به من فراعنة الأجرام والنقض، إلى شهرة آثاره، وتطارح أسفاره، وما لا يحصى من عجائب أخباره.

حدث أنه آب مرة من بعض غزواته الأفراد المقلقة لأحشاء الأنام والبلاد، فكأنه ارتاح إلى ما يرتاح إليه الناس من إراحة نفسه، والخلو ولو ساعة بوجه أنسه، فجلس لذلك مجلساً حشد فيه شهواته، وتقدم في إحضار ما يصلح من آلاته وأدواته، وأمر قيمة جواريه باستحضار عقلية أترابها يومئذٍ جلالة سلطان، وحسن سماع وعيان، إحدى بنات عمه دنيا، لم يُر بعدها زعموا، ولا قبلها، أبدع ظرفاً، ولا أقتل طرفاً، فجاءت تودّ الثريا لو تكون نعلها، والشمس لو تصور مثلها، وقد خطرت بنفسه إحدى هناته، وتمثلت له بعض غزواته، فأخذ يدير ويدبر وطفق يورد ويصدر.

قالت قيمته: وكأني أنظر إلى الكأس في يده وإلى ابنة عمه قائمة على رأسه فاعتذر إليها واستدناها، وسناها، وقام من حينه، فوضع الكأس ملآن في طاق، وطبع عليها، وأمر بالركوب من حينه، فغزا غزوته المشهورة إلى غرب العدوة، وبلغ [٢٥٢/ب] فيها مدينة فاس، فوطىء الدول، ودوخ السهل والجبل. ثم رجع/ فجلس ذلك المجلس بعينيه، واستدعى كاسه تلك وابنة عمه، فخلا بنفسه، وقضى وطره من لذّة نفسه بعد أيام كثيرة، وحروب مبيرة.

ولما تناهى أمره، وتجاوز السهي ذكره، وظن أن الناس في حكمه، وأن البلاد

تحت حتمه، فانتحى له في بعض أسفاره ابن عمه الناصر أصغر خلق الله شأناً، وأهونهم عليه سراً وإعلاناً من فتى علّمه الخوف كيف يجسر، وهجم به ضيق المسالك علي وهو ينظر، لم يشاور إلاّ الحسام، ولا استصحب إلاّ الإقدام، وقد كان بعض نصحاء بلقين خوفه منه لكلمة أخذت يومئذٍ عنه، فجعلها بلقين نُقلة ركابه، وسَمر أصحابه.

وكان قلما يركب إلاّ دارعاً آخذاً بما يأخذ به من ذرع القلوب، ووتر القريب والبعيد.

وكان مولعاً بالادلاج إذا ارتحل، مؤثراً للانفراد كلما ركب ونزل.

فأقسم تلك الليلة لا يدلج إلاّ حاسراً، وليلقين الناصر إذا نزل، ولو كان أسداً خادراً.

فأعجله عن الأمر، ولم يبد وضح الفجر حتى لقيه كأنه يسلم عليه يسير بين يديه، فما راجعه الكلام إلاّ وقد جلله الحسام وأراح منه البلاد والأنام، ثم قام مقامه، واستظل أعلامه، وأمر برأسه فرفع على عصا وسير به أمامه، والناس يظنون بلقين قد قتل بعض أتباعه الممحنين، فهم يتساءلون: من قتل؟ ويرجمون الظن فيما فعل حتى طلعت الشمس، وارتفع اللباس، فأمر برفع مضاربه، وحشر زعماء دولته وأقاربه، فقال: أنتم تدرون أن بلقين قتل أخي، وفجعني في أكثر حرمي، وإنما شفيت صدري، وأخذت بوتري، لا أنني حدَّثت نفسي بسلطانكم، ولا رأيتني أهلاً للدخول في شيء من شأنكم.

فردوا عليه جميلاً، ورأوا إمهاله قليلاً، فظنوا أنه لم يجسر على ما فعله إلاّ وله أشياع، وحوله خول وأتباع، وكل واحد منهم قد ارتاب بمن يليه، وأهمه ما هو فيه.

وأمر لحيته بخزائن بلقين فأنهبها ذؤبان العرب وصقورة زناتة، واستخلص بذلك عيونهم، وأمال قلوبهم.

ورحل تحت ليلته فطوى المراحل واعتسف المجاهل، فسبق الأخبار إلى القلعة، فوطىء الحريم، وتملك الظاعن والمقيم.

انتهى كلام ابن بسام.

وكان دخوله القلعة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

دولة الناصر بن علناس بن حماد[1]

ولما استقام الأمر للناصر بن علناس كره مجاورة بني حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم/ إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنا عشر ألف فارس. [٢٥٣/أ]

فبنى قريباً منها بالجبل مدينة وقصوراً شامخة مسماة بأسماء عدة.

واحتفل بالجامع الأعظم إلى ما هو مذكور في تاريخ صنهاجة.

وقد محى اليوم محاسنها الزمان، وغيّر حالها الحدثان حسبما يقول ابن حماد.

إن العروسين[2] لا رسم ولا طلل ... فانظر تَرَى ليس إلاّ السهل والجبل

وقصرُ بَلاَّرَةٍ[3] أودى الزمان به ... فأين ما شاد منها السادة الأُوَل؟

قصر الخلافة أين القصر من خرب؟ ... غير اللجين في أرحابها زُحَل

وليس يبهجني شيء أسرُّ به ... من بعد أن نهجت بالمنهج السُّبُل

وما روى الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرى الكوكب التغيير والنذل

وقد عفا قصر حماد فليس له ... رسم ولا أثر باق ولا طلل

ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قلّ فيه الحادث الجلل

وإن في القصر قصر الملك معتبراً ... لمن تَغُرُّ به الأيام والدُّوَل

وما رسم المنار الآن مائلة ... لكنها خبرٌ يجري بها المثل

حتى المُصَلَّى محت آياتها وعفت ... إلاّ جداراً وما طلّت به الطَلل

كرجعك الطرف كانت كل آبرة ... فما تراه كذاك العُمْرُ والأجَلُ

---

(١) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٩٧): الناصر بن علناس بن حماد بن بلكين بن زيري، الصنهاجي، البربري، ملك المغرب. هو الذي أنشأ مدينة بجاية الناصرية، وكانت دولته سبعاً وعشرين سنة. توفي في سنة إحدى وثمانين. قهر ابن عمه بلقين بن محمد بن حماد وغدر به، وأخذ منه الملك بعد أن تملّك خمس سنين بعد الملك محسن بن قائد بن حماد، وكانت دولة محسن ثلاثة أعوام ومات، ومن قبله أبوه القائد، بقي في الملك سبعة وعشرين عاماً، تملّك بعد أبيه، ومات أبوه الملك حماد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وقد حارب حماد ابن أخيه باديس وولده المعز بن باديس وجرت لهما وقائع. ولم تزل الدولة في آل حماد إلى أن أخذ منهم عبد المؤمن بجاية سنة سبع وأربعين وخمسمائة. وآخرهم هو الملك يحيى بن عبد العزيز بن منصور بن صاحب بجاية الناصر.

(٢) العروسان هو اسم القصر الذي بناه الناصر بن علناس في مدينة القلعة.

(٣) اسم زوجة الناصر بن علناس، وهي بلارة بنت تميم بن المعز.

وكان الناصر جريئاً على سفك الدماء، شديد الغيرة على النساء، له في ذلك أخبار مشهورة.

وهو الذي بنى مدينة بجاية، وسماها: الناصرية، وبنى بها قصر اللؤلؤة.

واتسعت مملكة الناصر إلى أن بايعه أهل القيروان سنة ستين وأربعمائة، وأمّلهُ الناس، وقصده الشعراء، ففيه يقول ابن فكاه القيرواني:

قالت سعاد وقد ذمت ركائبنا مهلاً عليك فأنت الرائح الغادي

فقلت: تالله لا أنفكُّ ذا سفر تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي

حتى أقبِّل تُرب العِزّ منتصراً بالناصر بن علناس بن حمادِ

وتوفي الناصر يوم الجمعة السابع من جمادى الأولى.

وقيل: جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بقصره بظاهر بجاية، واحتمل إلى بجاية فدفن بها.

وولي بعده ولده المنصور.

دولة المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد

/ وللمنصور بن الناصر آثار عظيمة، وقصور شامخة منيفة، وأخبار شهيرة. [٢٥٢/ب]

وتحرك إلى المغرب، وقد صارت تلمسان إلى ملك المرابطين في جيوش عظيمة اشتملت على اثنتي عشرة محلة في شوال سنة ست وتسعين وأربعمائة.

ونازل تلمسان، ثم أقلع عنها صلحاً.

ولما قفل عن تلمسان توفي بعد سبعة أشهر في ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان قائماً على أمره حميد الخلال، ضابطاً للأمور: يكتب، ويشعر، ويذهب في أموره مذهب أبي جعفر المنصور، من رقع الثياب، والتحفظ على القليل من الأشياء. وعليه قدم عزّ الدولة بن حماد.

لما فرّ من المرية أمام المرابطين، فأقطعه تلس[١]، ونظرها وأسكنه بها، حسبما هو معروف.

وولي بعده الأمير باديس ابنه.

دولة باديس بن المنصور بن الناصر بن علناس

يكنى: أبا معد.

(١) مدينة بساحل البحر الأبيض المتوسط.

وكان شديد البأس، عظيم السطوة، سريع البطش.

فيحكى من جملة فظاظته: أنه ألقى رجلاً صالحاً إلى الأسود، فبات ليلته معها، وأصبح ولم تعد عليه.

وكانت وفاته ثالث عشر ذي القعدة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

ويقال: إن أمه سَمّتْهُ لأنه كان يهددها ويتوعدها.

وقد ذكر مثل ذلك في الهادي من بني العباس[١].

وولي بعده العزيز أخوه.

دولة العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس

وهو الذي استوطن بجاية.

ومن بعد ولايته شرعت القلاعة في الخراب.

وكان حسن الخلق، معتدل الطريقة.

كاتب ملوك زمانه، وسالمهم، فكانت أيامه أعياداً لحسنها وجمالها.

وله في ملكه آثار عظيمة، ومبانٍ رفيعة.

وكان يعرف بالميمون لولادته ليلة ولاية أبيه.

ولما توفي ولي بعده ولده يحيى.

دولة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر

كان يحيى بن العزيز فاضلاً، حليماً، فصيح اللسان والقلم، مليح العبارة، بديع الإشارة.

وكان مولعاً بالصيد، مغرماً به، كلفاً بالملهين، يحضر منهم عنده نحو العشرين بين رجل وامرأة، من شيوخ، وعجائز، وحمقى، فكان يستلقي في بيته على الفرش الوثيرة الحشايا، ويستدعي المضحكين، وجوارح الصيد، فيختبر هذا البازي، ويتفقد هذا الكلب، ويستنهض هذا المضحك في النوع الذي سلكه فيلهيه ويضحكه.

ويجلس أبداً بين يديه أخواته: تقسوط، وأم ملال، وشبلة، في زي العرائس من الحلي والملابس.

فلا يزال كذلك إلى أن ينام، ثم يغتدي إلى الصيد.

(١) فيقال: إن بن أمّهُ الخيزران قد سَمّت ابنها الخليفة فقتلته.

[١/٢٥٤] هكذا انقضت أيامه إلى أن/ توفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

وكان قد وليّ ابنه المنصور العهد فتوفي في حياته، وعظم وجده عليه.

ولما اضطربت حاله بظهور دولة لمتونة لحق بقسنطينة.

ثم نزل عنها للموحدين مستأمناً لنفسه، وسكن بقصر ابن عشرة من سلا، وكانت وفاته به.

ذكر نبذة من أخبار صقلية وبعض من ولي بها الملك

ولما كانت صقلية في مجاورة لهذه البلاد الإفريقية وملوكها، كان تقديمهم من إفريقية، ألحقناها بهذه الجهة من الذكر للمناسبة والجوار، ونذكر بعض وصفها:

قال أبو محمد الرشاطي:

صقلية جزيرة كبيرة، وصقلية اسم لإحدى مدنها الكثيرة، وقلاعها الأثيرة، وطولها مسيرة خمسة أيام، وهي في البحر الشامي موازية لبعض بلاد إفريقية، وأقرب المواضع إليها من بلاد إفريقية رأس أدار، بينهما مجرى يوم، وتوازي من الجهة الأخرى أرض الروم الكبيرة، وهي قريبة منها، وافتتحت في اثنتي عشرة ومائتين، وكانوا قبل ذلك معاهدين، ولافتتاحها خبر شهير.

وقال أبو الحسن بن جبير في رحلته يصف مدينة مسينة وأخبار ملوكها:

هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق، برخاء الأسعار، مظلمة بالكفر. لا يقر فيها للمسلمين قرار، أسواقها نافقة حفيلة، وأرزاقها واسعة، بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان، وإن كنت غريب الوجه واليد واللسان.

وذكر بعد مدينة مسينة المدينة المعروفة بـ: بلارمة[1]، فقال:

فيها سكنى الحضر من المسلمين، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختصة بهم والأرباض، وسائر المسلمين بضيائها، وجميع قراها ومدنها كسرقوسة وغيرها.

وبهذه المدينة سكن ملكهم غليام، وشأنه عجيب في حُسن السيرة، واستعمال المسلمين، وهو كثير الثقة بهم، وساكن إليهم في أحواله، والمهم من أشغاله، ومنهم وزراؤه وحجابه، وهم أهل دولته، والمرتسمون بخاصته، وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم مسمون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة.

ولهذا الملك القصور المشيّدة، والبساتين الأنيقة، وهو كثير الاتخاذ للقيان

---

(١) هي مدينة بلرم أو بلرمة قاعدة مدينة صقلية، وهي على ساحل البحر منها.

والجواري، وليس في جميع ملوك الرومية أشرف منه في الملك، ولا أنعم ولا أرفع، وهو يتشبه في تنعمه بالملك وترتيب قوانينه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أبهته، وإظهار زينته، بملوك المسلمين.

وملكه عظيم جداً، وله الأطباء والمنجمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم. ومن عجيب شأنه أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته:/ «الحمد لله حق [٢٥٤/ب] حمده». وعلامة أبيه: «الحمد لله شكراً لأنعمه».

وجواريه وحظاياه في قصره مسلمات كلهن، وذكر لنا أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلّمة يعيدها الجواري المسلمات.

وذكر مدينة شيفلودي، فقال:

هي مدينة ساحلية، كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة الأشجار والأعناب، مرتبة الأسواق، يسكنها طائفة من المسلمين. وذكر مدينة ثرمة فقال:

هي أحسن وضعاً من التي تقدم ذكرها، وهي حصينة، تركب البحر وتشرف عليه، وللمسلمين فيها ربض كبير، لهم فيه مساجد.

وهذه المدينة من الخصب وسعة الرزق على غاية.

وذكر المدينة التي هي حاضرة صقلية فقال:

هي أم الحضارة والجامعة بين الحسنين، غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، وموارد عيش أخضر عتيقة أنيقة، مشرقة، مؤنقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخال بين ساحات وبسائط كلها بستان، فسيحة السكك والشوارع، وتروق الأبصار بحسن موضعها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان، قد زخرفت فيها لملكها دنياه، تنتظم بلبتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب، وتتقلب في بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب، فكم له فيها ـ لا عمرت ـ من مقاصر ومصانع، ومناظر ومطالع، وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها، وديارات قد زخرف بنيانها.

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإسلام، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع.

ولهم أرباض قد انفردوا بها، بأسمائهم بسكناهم، ولهم فيها قاض، وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون في وقوده، وأما المساجد فكثيرة لا تُحصى، وأكثرها محاضر لمعلم القرآن، وأطنب في شبهها بمدينة قرطبة.

وذكر مدينة طرابنش، وأطنب في ذكر الجميع بما لا مرغب في إطالته إذ يجر التفجع، ويثير التوجع أعادها الله دار أيمان بقدرته.

ذكر ولاة ملوكها من بني أبي الحسين

قال أرباب التاريخ:

كان أول من غزا جزيرة صقلية من أمراء إفريقية الموجهين إليها من قبل الخليفة عثمان رضي الله عنه، ثم معاوية بعده.

الأمير معاوية بن خديج الكندي

فلم تزل تغزى بعد ذلك.

وكان معاوية رحمه الله قد بعث إليها:

عبد الله بن قيس الفزاري

ففتحها، وغنم، وأصاب فيها أصناماً من ذهب وفضة، مكللة بالجوهر، فحملت إلى معاوية بن أبي سفيان، فرأى بيعها قائمة أكثر لثمنها، فباعها إلى الهند، فأنكر الناس عليه ذلك إنكاراً شديداً[١].

[٢٥٥/أ] وكان غزو/ معاوية بن خديج في سنة خمس وثلاثين أو سنة أربع قبلها.

ثم ولي:

محمد بن أوس الأنصاري

وكان من أهل الدين والفضل، معروفاً بالفقه. ثم غزاها: بشر بن مروان الكلبي - أمير إفريقية بنفسه، فأصاب سبياً كثيراً، ثم عاد إلى القيروان.

وتوفي بأثر غزوته سنة تسع ومائة.

وولي بعده: عبيد الله بن الحبحاب سنة ست عشرة ومائة.

فأغزى صقلية حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع سنة اثنتين وعشرين ومائة. وكان مع حبيب ابنه عبد الرحمن بن حبيب، فلم يزل بأرضها.

---

(١) هذا اجتهاد خاطىء من أحد ولاة المسلمين في العصور الأولى، وفي عصر حافل بأجلة الصحابة، وبل والفاعل ذلك من الصحابة وهو خال المؤمنين، فلا يصحّ الاحتجاج به، حيث إنه معلوم أن الهنود سوف يعبدون تلك الأصنام ويجلونها وينزلونها المنزلة الرفيعة. أما ما يتداول الآن أو في هذه العصور من التماثيل لقدماء الفراعنة، فلا بأس به حيث إن من يقوم باقتنائها ليس في نيته عبادتها، وإنما هي في وجهة نظره تحفة فنية ودراسة تاريخية، أما لو علم أن من يريدها للتعبد أو التعظيم لها بأي شكل من أشكال العقائد، فلا يجوز تسهيل ذلك له مهما كانت القيمة التي تدفع فيها فإنه لا يجوز ذلك شرعاً.

ووجه عبد الرحمن على الخيل، فلم يلقه أحد إلاّ هزمه عبد الرحمن، وظفر به ظفراً لم يرَ مثله حتى نزل بسرقوسة، وهي أعظم مدن صقلية، فقاتلوه، فهزمهم حتى ضرب بابها بسيف، فأثر فيه، فهابه الناصري، ورضوا بالجزية.

ثم توجه إلى أبيه خوفاً أن يخلفه العدو إليه.

ثم كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى حبيب بن أبي عبدة بالرجوع من صقلية إلى قتال البربر.

فخرج عنها في أول سنة ثلاث وعشرين ومائة.

[ذكر أيام الأغالبة وولاتهم بها][1]

ولما اتسق الأمر لبني الأغلب، وانتهى منهم إلى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي أيام الأغالبة، وليّ ابن أخيه:

الأغلب بن عبد الله بن إبراهيم

على صقلية قطيعة له، فكانت له بجميع ما فيها إلى أن توفي.

قال المؤرخ:

ولما خرج إليها ركب من سوسة في مراكب كثيرة، ومعه خيل ورجال أتوا من نواحي إفريقية لما يعلمون من كرمه وجوده، وكان مسرفاً في إعطائه.

فوصل إلى صقلية في شهر رمضان سنة إحدى وعشرين ومائتين[2]، فضبطها واستقام أمرها، وكان والياً عليها قبله قرهب بن أبي الأغلب. يحكى من أخبار كرمه:

أنه أشرف يوماً من دار الإمارة فرأى امرأة هيأت فرخين، ونظفتهما، وطبختهما طبخاً محكماً، فلما أنزلت القدر، وقد أدركت، دعا بعض فتيانه وأراه الدار، وقال:

اذهب فاجعل القدر في قفة، وجئني بها.

ففعل، وأكل منها، ثم أمر بغسل القدر فغسل، وأمر بكيس دنانير، ففرغ في القدر حتى امتلأت، وقال للغلام:

امض بها واجعلها في يد المرأة، ولا تقل لها شيئاً، ففعل.

وأرادت المرأة أن تطبخ شيئاً آخر، فكشفتها فإذا هي مملوءة دنانير.

وتوفي بصقلية سنة ست وثلاثين ومائتين، ووَلّى الناس أمرهم إفريقية، فأقر:

---

(١) زيادة توضيحية من عمل المحقق غفر الله له آمين.

(٢) أسقط المؤلف فترة زمنية من تاريخ تلك البلاد بلغت المائة سنة. فيلاحظ ذلك حتى لا يظن أن هناك سقط في المخطوط. ويتضح الكلام من باقي العبارة.

العباس [ابن بربر][١]

على ولاية صقلية، وبعث عهده بها.

وقد كان العباس بن بربر عاملاً لأبي إبراهيم على صقلية.

وكان قصريانة[٢]، من أعظم مدائن الروم، وأكثرها جمعاً.

فوجه سرية إلى بعض النواحي، فغنموا، وأخذوا أعلاجاً [فقتلوا][٣]/ عامتهم، [٢٥٥/ب] ثم قدموا واحداً منهم ليقتلوه، فقال:

لا تقتلوني فإن لأميركم عندي نصيحة، فداروه على أن يعلمهم ما تلك النصيحة، فلم يفعل فأتوا به العباس.

فقال له: تعطيني الأمان في نفسي، وأهلي، ومالي، وأدلك على مكان تفتح منه صريانة؟

فأدخله العباس بيتاً وسد عليه[٤]، ثم نادى في أصحابه بالركوب، ومضى والعلج بين يديه، وذلك يوم مطر وثلج، والناس لا يعلمون أين يريد؟

فسار حتى قرب من قصريانة، فلما غشيه الليل، ركب حتى دنا من المدينة، ووجه مع العلج عمه، في رجال كثيرين، حتى وصل إلى قناة يخرج منها ماء المدينة، فأدخل فيها الرجال إلى أن حصلوا بالمدينة ثم أتوا إلى بابه فوضعوا في الحرس السيوف، وكبَّر المسلمون في خارجها.

فأخذوا كل من كان فيها، ولم يكن للروم أكبر ولا أوسع منها، ولا أكبر مَنْحاً، وكان ذلك في شوال سنة أربع وأربعين ومائتين.

ثم ولي صقلية الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب:

خفاجة بن سفيان

وغزا سرقوسة، فغنم وبث السرايا، وأفسد الزرع.

ثم عاد إلى المدينة فنزل بوادي الطين، وأدلج منه ليلاً.

---

(١) زيادة مما يلي من الكلام.

(٢) قصريانة، مدينة عالية بوسط جزيرة صقلية، وهي مدينة بديعة الحسن، كثيرة المنتزهات والثمر وجداول الأنهار.

(٣) زيادة يتطلبها السياق.

(٤) من الواضح من سياق القصة أن العباس أجابه إلى ما طلب ثم فعل ذلك به حرصاً منه على كتم السر.

فاغتاله رجل من عسكره، فطعنه طعنة مات منها، وهرب الذي طعنه إلى سرقوسة، وحمل خفاجة إلى صقلية فدفن بها.

ووَلّى الناس أمرهم:

ابنه محمد

وكتبوا بذلك إلى الأمير محمد بن أحمد، فأقره، وبعث إليه خلعته وعهده، يوم السبت لست بقين من رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين.

ثم ولي الأمر أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، فوَلّى صقلية.

أحمد بن عمر المعروف بجيني

ونسبه منهم.

فخرج في الطائفة إلى سرقوسة، فحاربها وأفسد زرعها، وبث السرايا في غير جهة، فغنموا.

وانصرف أحمد، والمسلمون إلى مدينة بلرم، وخرج أحمد بنفسه في سرية، فبلغ قلعة نصر، فالتقى بخيل العدو، وقد ضربت على بعض النواحي، فنغمت للمسلمين غنائم كثيرة، فاستنقذها، وقتل جماعة منهم، وانصرف إلى بلرم برؤوس كثيرة، ثم عزله إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وولاّها:

أبا جعفر بن محمد بن بزين

فبعث السرايا في كل جهة، وغنم غنائم عظيمة.

ثم ظهر لإبراهيم بن أحمد أن قبض على عمه الأغلب بن محمد بن الأغلب، وأخيه: أغلب بن أحمد، وابن أخيه: أحمد بن أبي عبد الله.

ووجه بهم إلى صقلية، فحبسوا في دار أبي حجر، فصانوا غلماناً لأبي حجر، وأطمعوهم في المال، فلما خرج أبو حجر للصلاة وثب عليه الغلمان، فقتلوه.

وصار إليه أمر صقلية، وانتهب دور أبي حجر، وجهز ابنه حمد في عسكر.

ووجه إلى سرقوسة، فأقام عليها حتى افتتحها، وذلك في شهر رمضان سنة [٢٥٦/أ] أربع/ وستين ومائتين.

وذكروا أن أحمد بن الأغلب لما فتح سرقوسة قتل فيها أزيد من أربعة آلاف علج، وأصاب فيها من الغنائم ما لا يوجد في مدينة من مدن الشرك، ولم ينج من رجالها أحد، وكان مقام المسلمين بسرقوسة إلى أن فتحها تسعة أشهر.

وأقام أحمد من بعد فتحه شهرين، ثم كتب إليه الأغلب بهدمها، فهدمت.

وانصرف إلى بلرم في آخر ذي القعدة من السنة.

وفي شهر المحرم من سنة خمس وستين ومائتين التالية لسنة فتحها، وثب أهل بلرم على الأغلب، وأبي عقال، وأخرجوهما إلى إفريقية، فوصلا مصفدين، فقتلا.

ووجه الأمير إبراهيم بن أحمد صاحب إفريقية ابنه:

أبا الأغلب

أميراً على صقلية، فأقام بها تسعة أشهر، ثم وثب عليه أهل صقلية، فأخرجوه إلى إفريقية.

وفي سنة سبع وستين ومائتين ولي إبراهيم بن أحمد:

الحسين بن العباس

صقلية، ثم عزل عنها.

ووَلّى:

أبا الحسين محمد بن الفضل

في سنة ثمان وستين.

فخرج بنفسه إلى الغزو، وكانت له وقائع مشهورة، وغنائم كثيرة.

ثم عزله في ربيع الأول سنة سبعين ومائتين.

ووَلّى عليها:

عليّ بن أبي الفوارس بن عبد الله بن الأغلب

يوم الاثنين لست بقين من الشهر المذكور.

ثم عزله في آخر رمضان من السنة المذكورة.

ووَلّى صقلية:

الحسين بن رباح

ثم اعتل فمات في شعبان من سنة إحدى وسبعين.

ثم وَلّى عليها:

سوادة بن محمد بن خفاجة بن سفيان

فقدمها في نصف شوال، فكانت له بها آثار محمودة.

وفي رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وثب أهل بلرم على سوادة بن محمد، ويعقوب بن بكر فوجهوهما إلى إفريقية.

فوَلّى إبراهيم بن أحمد على صقلية:

أحمد بن عمر بن عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بحبشي[1]

فدخلها في صفر سنة أربع وسبعين، وخرج في الطائفة، فأفسد زرع قطانية، وطبرمين، ورمطة، ثم عزله.

ووَلّى:

أبا الحسين محمد بن الفضل

وفي سنة أربع وثمانين أمر إبراهيم بن أحمد الحسن بن أحمد بن نافذ بالخروج إلى صقلية والياً عليها.

وفيها أمر ابنه أبا العباس أن يتجهز للخروج إلى صقلية لقتال أهلها، وجمع إليه جياد الرجال وأشداءهم.

فخرج في جمادى الآخرة، فنزل بجزيرة صقلية، وقد تمرّد أهلها، واستطالوا على الولاة.

فحاربه أهلها حرباً شديداً، ثم انهزموا، ودخل المدينة، ثم أمَّن الناس.

ثم جاز إلى الروم فأوقع بهم، وقتل المقاتلة، وسبا الذرية، ورجع إلى صقلية، وقد أثخن في الروم.

وفي سنة أربع وثمانين عظم المرار والوسواس على الأمير إبراهيم بن أحمد، [٢٥٦/ب] وتخلى لابنه الوالي على صقلية عن الأمر، واستنفر الناس ودعاهم/ إلى الجهاد، وفرق الأموال.

وكان وصوله إلى بلرم من صقلية لليلتين من رجب من السنة، فرحل ونزل طبرمين، وحاصرها، وكان بينه وبين أهلها قتال شديد، حتى فشت الجراح في الفريقين وهَمّ المسلمون بالانحياز إلى أن قرأ القارىء بين يدي إبراهيم:

---

(١) سبق أن قال المعروف بجيني، وربما كان أحد القولين أصابه تحريف.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] الآية.

فحمل المسلمون بنية صادقة، فانهزم العدو، وفروا والناس يقتلونهم في الجبال والأودية. ثم دخل طبرمين، في غير عهد، وغنم ما شاء الله، ثم عبر المجاز إلى قلورية.

وفرّ النصارى بين يديه، فنزل كسنتة، وقد أصابته العلّة، فمات نازلاً لها ليلة السبت لاثنتي ليلة بقيت من ذي القعدة سنة تسع وثمانين ومائتين.

وفي أثناء وقوع موته طلب أهل كسنتة الأمان، فأمنوا، وهم لا يعلمون.

واحتمل إبراهيم بن أحمد إلى بلرم فدفن بها لسبع بقين من ذي الحجة من السنة، وبني على قبره قصر.

وبقي ابن ابنه زيادة الله بن أبي العباس بصقلية بعده.

وولّي صقلية:

ابن قرهب

من أقارب الأغالبة، وأقام بها إلى أن استقام الأمر لعبيد الله صاحب الشيعة، فثار الجند والبربر به، وحصروه في القصر بصقلية، وأخرجوا من حبسه أبا المنهال، وأدخلوه القصر.

فكتب ما فيه من الأموال والسلاح والكساء وغير ذلك في المحرم من سنة أربع وثلاثمائة.

ثم حملوه وابنه مقيدين إلى عبيد الله الشيعي، فلما أُحضر بين يديه قال له: ما حملك على جحد حقنا والخلاف علينا؟

فقال: أهل صقلية ولوني وأنا كاره، وهربت منهم إلى غار، فأرادوا أن يحرقوني بالنار.

فلم يقبل منه ذلك، وأمر بهما فأطيفا، وصلبا بباب سالم من القيروان.

ووَلّاها:

أبو القاسم بن عبيد الله المهدي خليل بن إسحاق

سنة خمس وعشرين وثلاثمائة.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، أخرج المنصور بالله إسماعيل بن القاسم بن عبيد الله:

الحسن بن علي بن أبي الحسين

والياً على صقلية.

دولة الحسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

وهو أول من ولي عليها من بني أبي الحسين.

واستقام أمرهم بها، فكان ملكاً وميراثاً، يتداولونها خلفاً عن سلف، إلى أن تغلب عليها الروم، واستولى عليها رجار ملك النصارى في زمن المرابطين على عهد الآمر بن المستعلي ملك الشيعة بمصر عندما استولت الروم على بيت المقدس، والجزائر، أو قبل ذلك بيسير.

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، خرج حسن بن علي بن أبي الحسين بأسطول عظيم، إلى بلد الروم بالأرض الكبيرة، فعدا عليه البحر، ولم يفلت منه إلاّ القليل.

[١/٢٥٧] وطمع العدو/ في صقلية، فقصدها وفتح بها قلعة استولى على من بها من المسلمين.

ثم تلطف حسن بن علي بن أبي الحسين، فجمع أسطولاً ثانياً، وشحنه بالرجال والعدة فعطب وهلك قائده عمار بن علي بن أبي الحسين.

ثم غزا في رجب من سنة اثنتين وخمسين، ففتح طبرمين، وأسكن فيها المسلمين. ثم رحل ففتح قلعة بنقش، ثم نزل رمطة، فاستغاث الروم ملك القسطنطينية، فوجه إليهم العساكر في البر والبحر، فالتقى حسن بن علي مع مقدمة الروم في شوال من السنة، وهو في شرذمة قليلة، لولا أن الله رزق المسلمين النصر، فقتلوا في البر والبحر خلقاً عظيماً، حزت منهم رؤوس عشرة آلاف.

قال: ثم اعتل الحسن لفرط الفرج بما أنعم الله به عليه، فكانت وفاته من حمى حادة لسبعة أيام لاثنتي عشرة ليلة، بقيت من ذي القعدة من السنة المذكورة، وحزن أهل صقلية عليه حزناً عظيماً، لما كان قد أجرى الله على يديه من العدل والظهور والخير.

دولة أحمد بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

ولما قام أحمد بن حسن، قام بأمور صقلية خير قيام، ووالى الجهاد.

ثم استدعاه المعز معد، لما رحل إلى تملك البلاد المصرية، والشامية، فقدمه على جيوش البحر، وكانت أساطيله عظيمة قد ذكرتها شعراؤهم.

فخرج عن صقلية في أخريات شوال من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة.

وعاجلته وفاته بعد الرحيل بالأسطول بساحل طرابلس.

وَوُرِيَ يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذي الحجة من سنة ستين وثلاثمائة.

وولي بعده أبو القاسم بن الحسن أخوه.

دولة أبي القاسم بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

وكان ظهور أبي القاسم بن حسن بصقلية، منسلخ رجب من سنة ستين، وأقام أميراً بها إلى سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

وخرج غازياً إلى بلد الروم فعبر المجاز بالعساكر الكثيرة، وأوغل في أرض قلورية من البر الكبير يريد كستتة.

وبلغه احتشاد ملك الروم، وقصده إياه، وأنه لم يبقَ بينهما إلاّ مرحلة.

فقال لأصحابه: أرى أن أرجع إلى خلف حتى أتخلص من هذا المضيق، فنقاتل العدو في مكان واسع.

فعندما رجع وقعت عليه الهزيمة، وتبعه سلطان الفرنج يقفو أثره مسيرة خمسة عشر يوماً حتى خرج إلى الفضاء الذي أراده، وقد تلاحق به العدو، وأحفزه عن الترتيب للقتال.

فكانت بين المسلمين والنصارى حرب عظيمة هلك فيها من/ الفريقين خلق [٢٥٧/ب] كثير.

وثبت الأمير أبو القاسم على ضفة البحر راكباً وحوله خواص عبيده.

واختلط القوم، وقصدت جهة الأمير طائفة من الروم، فضربه علج على هامته فشقّ رأسه، ووقع ميتاً على شاطىء البحر، ولم يشعر أحد من المسلمين ولا النصارى بقتله.

ثم قوي المسلمون على عدوهم، فانهزم النصارى أقبح هزيمة، واستولى المسلمون على محلاتهم وعددهم.

وجرح أيضاً ملك الروم جرحاً هلك من بعد فراره.

ولما علم الناس بموت أميرهم، جاؤوا به إلى صقلية، فدفن بها.

وكان حسن السيرة، فاضلاً محباً للعلماء والصالحين، رحمه الله.

وأقام بأمره ابنه جابر.

دولة جابر بن أبي القاسم بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

ولم يكن لجابر حزم ولا رأي، لكن وصله تقليد نزار ملك العبيدية من مصر، وسجل له أبيه، وسكن القصر الذي يعرف به في صقلية.

ثم اختلف عليه الجند، وأنفوا من ولايته وأنه لا يقوم بأمور البلاد.

فتوجه جعفر بن محمد بن أبي الحسين من مصر، إلى صقلية، وكان بمصر في رتبة الوزارة، وله حال جليلة.

دولة جعفر بن محمد بن أبي الحسين بصقلية

قال المؤرخ:

خرج جعفر إلى البر من مصر في ساحل ميسرة، فبلغ المنصورية يوم الأربعاء لخمس بقين من صفر سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ومعه سبكتكين التركي من جلة الترك الموصوفين بالشجاعة.

فلما وصل إلى صقلية سلّم له جابر الأمر، ولم يمانعه، فكانت مدة جابر بعد أبيه سنة.

واستقام أمر صقلية لجعفر، وخلف عمه المقتول خير خلافة.

فمن أخبار فضله وصرامته:

أنه وصله كتاب من مصر من العزيز بالله يأمره أن يدفع إلى الراهب الذي هو أخو جاريته السيدة العزيزة قلاعاً من بلاد صقلية كان افتتحها حسن بن علي بن أبي الحسين، وهي بنقش، وطبرمين، ورمطة، وأن يدفع إليه كل سبي عنده قديم وحديث.

فلما وصله الراهب بعد شهر إلى صقلية، أنزله جعفر، ورقب عليه، ومنعه من لقاء من يريده نحواً من أربعة أشهر.

ثم أمر بشيوخ وعجائز ومرضى، وأصحاب زمانات، فدفعهم إليه، وأزعجه للرحيل.

فأفلت وما صَدّق بنجاته، وكتب إلى العزيز من قسطنطينية يخبره عن جعفر بن أبي الحسين، أنه لم يفعل ما أمره به.

وعلم جعفر ذلك فأمر بعد رحيل الراهب، باشتراء مركب أندلسي شحنه بجميع طُرف الأندلس، وأظهر أن أبي عامر بعثه إليه وكتب إلى العزيز بالله يذكر أن صاحب الأندلس قد كتب يسأله/ الرجوع في جملته والدخول في طاعته، ويبسط أمله بأنه [١/٢٥٨]

يقطعه من عمل الأندلس كل ما سأله.

فراجعه العزيز بالله، يذكر أن سلفه بني أبي الحسين لم يعرفوا قطّ إلاّ طاعته، وطاعة آبائه، ويحضه على التمسك بما كان عليه محمد أبوه، وحسين جده، وعمار، وعلي، وغيرهم، ويشكره على امتناعه مما دعاه إليه صاحب الأندلس.

ثم هلك، وولي بعده أخوه عبد الله.

دولة عبد الله بن محمد بن حسن بن علي بن أبي الحسين بصقلية

جرى عبد الله على سنن سلفه بصقلية، وأقام رسم الجهاد إلى أن توفي بها ليلة الثلاثاء لسبع بقين من رمضان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وهو والٍ عليها رحمه الله.

وأوصى بأمره إلى ابنه أبا الفتوح.

دولة أبي الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن حسن

وليّ الأمر بعد أبيه وهو صبي دون الاحتلام، حسبما ذكر بعض المؤرخين.

ووصله سجل العزيز بالله من مصر بولاية صقلية.

فكانت أيام الناس بصقلية في مدته على أفضل ما يشتهون.

وقد ضبط البلد ضبطاً عظيماً، وأدان الروم واستقامت له الأمور، وظهر من كرمه وجوده على سائر الناس ما لا يحيط به وصف.

وكان في بلاده من العدل والرخاء والأمان ما هو معلوم.

ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطع عنهم أمداد المسلمين لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن.

فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة

وكان عدو الله الذي تغلب عليها الملك رجار، وهو الداهية العديم النظير في أبناء جنسه حزماً، ودهاءً، وسياسة.

وهو الذي رفع له كتاب: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»[1]، وهو شرح كتاب جغرافية.

وتغلب على المهدية وسواحل بلاد إفريقية في خبر يطول ذكره.

وكان من جلّة من انتقل عنها عند الحادثة الشرفاء المستقر بعضهم بمدينة فاس،

(١) تأليف أبو عبد الله محمد الإدريسي المعروف بالشريف.

وقد غُير انتسابهم إلى صقلية بالقلب، فيدعون اليوم الصياقلة، ومنهم بمدينة سبتة البيت الشهير الكبير بيت الشريف الصالح أبا عبد الله بن أبي الشرف التقى الحسين وأحد أعقابه اليوم، الشريف عميد البلدة وكوكب السَّحَر بالمغرب أبو العباس أحمد بن محمد الحسيني، ونسبهم نسب صحيح، ومجدهم مجد صريح.

ومن الفقهاء، والقضاة، والمحدثين جملة حسبما تضمنه كتاب «المدارك»[1].

ومن الكتّاب، والبلغاء، والشعراء المفلقين مثل ابن حمديس الصقلي، قدم على المعتمد بن عباد عند الجلاء لحادثتها، فكان أسيراً لديه، وهو القائل مما ألم فيه بذكر صقلية، ولذلك ما جلبناه:

قضت للصبا النفس أوطارها ... وأبلغها الشيب إنذارها

نَعَم وأجالت قداح الهوى ... عليها فقسمن أعشارها

/ وما غرس الدهر في تُربه ... غراساً ولم يجن أثمارها [٢٥٨/ب]

فأفنيت في الحرب آلاتها ... وأعددت للسلم أوزارها

كميتا لها مرح بالفتى ... إذا حثّ باللهو أدوارها

تناولها الكوب من دنها ... فتحسبه كان مضمارها

وساقية زررت كفها ... على عُنق الظبي أزرارها

تُدر بسياقوتة درة ... فتغمس في مائها نارها

وفتيان صدق كزهر النجوم ... كرام النجائر أحرارها

يديرون راحاً تفيض الكُؤوسُ ... على ظلم الليل أنوارها

كأن لها من نسيج الحباب ... شباكاً تعقل طيَّارها

وراهبة أغلقت ديرها ... فكنا مع الليل زوَّارها

حدانا إليها شذا قهوةٍ ... تذيع لأنفك أسرارها

فما فاز بالمسك إلاّ فتى ... تيمم دارِينَ أو دارها

كأن نوافجه عندها ... دنان مضمنة قارها

طرحت بميزانها درهمي ... فَشَيَّل في الكأس دينارها

خطبنا بنات لها أربعاً ... ليقترع اللهو أبكارها

من اللاء أعصار زهر النجوم ... تكاد تطاول أعمارها

(١) تأليف القاضي عياض.

تُريك عرائسها أيدياً ... طوالاً تصافح أخصارها
تَفَرَّس في شَمِّها طيبها ... مُجيد الفِرَاسَةِ واختارها
فتى دارس الخمر حتى درى ... عصير الخمور وأعصارها
يُعد لما شئت من قهوةٍ ... سنيها ويعرف خَمَّارها
وعدنا إلى هالة أطلعت ... على قُضُبِ البانِ أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم ... تثور فيقتل ثُوَّارها
وقد سَكَّنَتْ حركات الأسى ... قيان تُسحَرِّك أوْتَارَها
/ فَهَذي تعانق عوداً لها ... وتلك تُقَبِّلُ مِزْمَارَها [١/٢٥٩]
وراقصة لقطت رجلها ... حِسَابَ يَدٍ نقرت طارها
وقُضْبٍ من الشمع مُصْفَرَّةٍ ... تريك من النار نُوَّارها
كأن لها عُمُداً صُفِّقَت ... وقد وزن العدل أقطارها
تَقِلُّ الدياجي على هامها ... فتهتك بالنور أستارها
كأنا نُسَلِّط آجالها ... عليها فتحمق أعمارها

ومنها في المعنى المجلوب:

ذكرت صقلية والأسى ... يُهَيِّج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت ... وكان بنو الظُّرف عُمّارها
فإن كنت أُخرجت من جنةٍ ... فأني أُحَدِّث أخبارها
ولولا مُلُوحة ماء البكاء ... حَسِبت دموعي أنهارها
ضَحِكْتُ ابن عشرين من صبوة ... بَكَيْتُ ابن ستين أوزارها
فلا تعظُمن عليك الذنوب ... إذا كان ربك غفارها

ذكر ملوك القيلة وسجلماسة من بني مدرار الزناتيين القائمين بها والصفرية بالقبلة[١]

وإنما أتبعنا دولة الصناهجة ملوك إفريقية بهؤلاء، وإن كان الشرفاء العلويون أولى بالتقديم، ويكون هؤلاء وراءهم لمناسبة قرب الزمان والمكان، فالعذر في ذلك واضح البيان، فنقول:

(١) المراد بالقبلة في تعريفهم هو الجنوب، كما اتفقوا على أن الجوف المراد به الشمال.

أول من اختط مدينة سجلماسة وملكها: عيسى بن يزيد المكناسي الصفري، وكان جده سعد قد لقي بالمغرب عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه.

وكان عيسى صاحب ماشية ينتجع بها المراعي ببلاد القبلة، وكثيراً ما كان ينتجع أرض سجلماسة، فنزلها في سنة ثمان وثلاثين ومائة.

دولة عيسى بن يزيد بن سعد المكناسي الزناتي بسجلماسة

ولما نزل عيسى بن يزيد بسجلماسة بخيامة وماله ألفي بواديه قبائل ذات عدد من زناتة الصفرية، فقدموه على أنفسهم وملكوه على بلادهم، وكان عددهم يزيد على أربعة آلاف.

فقام بأمرهم واختط مدينة سجلماسة سنة أربعين ومائة، فأكمل بناءها، وأتقن أسوارها، وقسم مياهها في خلجان بقدر موزون/ [٢٥٩/ب] وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائة، وأمر بغرس النخل والاستكثار منه.

ثم أن الصفرية غدروه سنة سبع وستين فقبضوا عليه وشدوه وثاقاً إلى أصل شجرة في أصل الجبل بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل.

فسمي ذلك الجبل: جبل عيسى.

ووَلّوا بعده أبا الخطاب الصفري.

دولة أبي الخطاب الصفري الزناتي سجلماسة

وكان أبو الخطاب داهية حسن التدبير، تحمل أمرهم مدة من أربع وعشرين سنة.

وتوفي حتف أنفه سنة إحدى وتسعين ومائة.

وولي بعده: أبو القاسم سمعون بن يزيلان.

دولة أبي القاسم سمعون بن يزيلان الصفري

وأبو القاسم سمعون بن يزيلان الزناتي، هذا هو الملقب بـ: المدرار.

ويذكر أنه كان حداداً من جالية الربض بقرطبة أيام الحكم.

نزل بسجلماسة، وتقرب لأبي الخطاب الصفري المتقدم الذكر بسلاح من عمله، فاستحسنه وضمّه إلى نفسه، ولم يزل أمر يعظم عنده إلى أن صار القائم بأمره، فلما توفي أبو الخطاب ولي مكانه.

وهو أبو القاسم سمعون بن يزيلان بن يرول بن إسحاق بن يحيى بن ورسطق بن تمزيت بن مكناس الزناتي، ومدرار لقبه.

وجده ممن دخل الأندلس مع طارق.

وهو الذي بنى السور الخارج المدار على النخل والمزارع بسجلماسة، عام تسع وتسعين ومائة.

ومات فجأة في آخر سجدة من صلاة العشاء الآخرة في آخر ذي القعدة، سنة تسع وتسعين ومائة.

وولي بعده ولده أبو الوزير.

دولة أبي الوزير إلياس بن القاسم مدرار

كانت ولاية أبي الوزير في آخر سنة تسع وتسعين ومائة، واستمرت ستة أشهر، وخلعه أخوه أبو المنتصر اليسع بن القاسم أبي سمعون الزناتي في شهر جمادى الآخرة من عام مائتين.

دولة أبي المنتصر اليسع بن أبي القاسم سمعون

بويع بعد خلع أخيه أبي الوزير في سنة مائتين.

وكان جباراً، عنيداً، فظاً، غليظاً، غزا بلاد درعة، وأخذ خمس معادنها، وأظهر مذهب الصفرية من الخوارج وقاتل عليه، وهدم ما كان أبوه بناه من سور المدينة، وبناه بناءً حسناً أحسن من الأول، وأنفق فيه أموالاً جليلة، جعل لها اثني عشر باباً محددة، وقسم داخل السور على القبائل حسبما هو عليه اليوم.

وتوفي/ حتف أنفه سنة ثمان ومائتين عن سبعة أعوام ونصف. [٢٦٠/أ]

وولي بعده ابنه المنتصر.

دولة أبي مالك المنتصر بن اليسع بن مدرار

واتصل الملك بالمنتصر بن اليسع، فلم يزل ملكاً على سجلماسة إلى أن اختلف الأمر بين ولديه: ميمون المعروف بابن هنو بنت عبد الرحمن بن رستم، وبين ولده الثاني سمي أخيه ميمون المعروف بابن تقية.

فتنازع الأخوان وتقاتلا ثلاث سنين.

ومال أبو مالك أبوهما إلى ابن الرستمية، فأخرج ابن تقية، وولّى ابن الرستمية، فأخرج فتغلب على أبيه، وخلعه واستبد بالأمر، وأساء السيرة.

فقام عليه أهل سجلماسة وخلعوه، وأرادوا أن يقدموا ابن تقية، فامتنع أن يتقدم على أبيه فأعادوا أباه المنتصر، فأقام مدة.

ثم أحسوا منه أنه أراد أن يولّي ابن الرستمية، فدخلوا عليه القصر وحاصروه، وقدموا ولده ابن تقية، وهو المعروف بالأمير، فوليها، ومات المنتصر في أيامه إلى أن توفي الأمير، سنة ثلاث وستين ومائتين.

فكانت مدة المنتصر وابنيه خمساً وخمسين سنة.

ووليّ بعد الأمير ولده محمد.

دولة محمد ابن الأمير ميمون بن تقية من بني مدرار

وليّ محمد بعد أبيه وظهر وغزا بلاد القبلة، وملك مدينة تابلبالت.

وتوفي في شهر صفر سنة سبعين ومائتين.

فكانت أيامه سبع سنين وشهراً.

وولي بعده عمه اليسع.

دولة اليسع بن المنتصر بن اليسع بن مدرار

ولما ولي اليسع ابن أخيه، استكثر من الجيوش وأحسن السيرة، وعزم على غزو مطغرة، فشغله عن ذلك ما دهمه من أبي عبد الله الشيعي الذي حاصره وتغلب عليه، وقتله، وتملك المدينة.

وكان ذلك في ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين.

فكانت مدته سبعاً وعشرين سنة وعشرة أشهر.

ولما صار أمر سجلماسة إلى عبيد الله الشيعي، قدم عليها عامله وانصرف، فثار به أهلها، وقدموا الفتح ابن الأمير مدرار المسمى بالرسول، وقد قتل عامل الشيعة وهو: إبراهيم بن غالب المزابي بعد انصراف عبيد الله الشيعي بخمسين يوماً في ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائتين.

ولما قتل العامل وجميع جنده، بويع الفتح، واستقام أمره تحت تقية من مطالبة الشيعي، إلى أن توفي في رجب سنة ثلاث وثلاثمائة.

فكانت مدته سنتين وستة أشهر إلاّ أياماً.

وولي بعده أخوه أحمد.

دولة أبي العباس أحمد ابن الأمير ميمون بن مدرار

ولما وَلّى أبو العباس بعد أخيه الرسول، استقامت له الأمور، وصرف الشيعي ووجهه إليه.

/ فوجهه نحو مصالة بن حبوس الصنهاجي بجيوش من الشيعة، فنازله وشدّ [٢٦٠/ب] حصاره، ووالى عليه القتال حتى فتح المدينة عنوة وقتله، وبعث برأسه إلى عبيد الله الشيعي وذلك في محرم سنة تسع وثلاثمائة.

فكانت مدته ثمان سنين ونصفاً.

واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة رجلاً من بني مدرار ليأمن شغبهم.

فوَلّى عليها المعتز بن محمد.

دولة المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار

ولي المعتز سجلماسة في شهر محرم سنة تسع وثلاثمائة.

فأقام ملكاً بسجلماسة وما إليها من البلاد القبلية داعياً للشيعة إلى أن توفي في سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

فمدته اثنتا عشرة سنة.

وولي بعده ولده محمد.

دولة محمد بن المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار

ووليّ محمد بن المعتز سجلماسة بعد أبيه المعتز بتقديم عبيد الله أمير الشيعة إياه.

فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ووليّ بعده أخوه سمعون الملقب بالمنتصر.

دولة المنتصر سمعون بن المعتز بن محمد بن مدرار

وليّ المنتصر الأمر صبياً قبل الاحتلام، وهو ابن ثلاث عشرة سنة أو نحوها.

وكانت جدته مدبرة أمره.

فهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

إلى أن قام عليه ابن عمه محمد بن الفتح ابن الأمير ميمون بن مدرار الملقب بالشاكر لله في سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

فخرج عن المدينة أمامه.

دولة محمد ابن الفتح بن الأمير بن مدرار

ولما خرج المنتصر عن سجلماسة وتملكها محمد بن الفتح، قطع الدعوة عن

ملوك الشيعة، ودعا إلى نفسه، وتسمى بأمير المؤمنين. وتلقب بـ: الشاكر لله.

وأظهر العدل وحُسن السيرة إلى أن بعث إليه معد بن إسماعيل أمير الشيعة جوهر الصقلي القائد، فحاصره ثلاثة أشهر.

ولما ضاق ذرعه خرج من سجلماسة بماله وأهله وخاصته، فلحق بحصن منيع من أحواز سجلماسة، يعرف بتاسجدلت.

وملك جوهر سجلماسة، وذلك في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

ثم أن الشاكر خرج من الحصن في نفر من أصحابه يتجسسون الأخبار، فعد ربه قوم من مطغرة، فقبضوا عليه، وأتوا به جوهراً أسيراً فحبسه في قفص من الخشب وحمله إلى القيروان.

فطيف به، واعتقل برقادة إلى أن توفي بها سنة أربع وخمسين.

فكانت أيامه إحدى عشرة سنة.

ووليّ جوهر عليها مبادر بن زيري البربري.

[٢٦١/ب] / ذكر من ولي سجلماسة بعد بني مدرار إلى صدر الدولة المرينية

ولما فتح جوهر سجلماسة ووَلّى عليها مبادر بن زيري، استمرت أيامه في سنة سبع وأربعين.

إلى أن توفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة.

فوَلّى مكانه ولده يصليتن بن مبادر بن زيري الزناتي بتقديم الشيعة له.

فأقام بها إلى أن غزاه المنصور محمد بن أبي عامر ووجّه إليه الجيش لنظر ولده عبد الله بن المنصور، فتغلب على المدينة وملكها، وقتل يصليتن، وخطب لهشام المؤيد بها.

وولّى عليها:

أبا مطر المغراوي

وذلك في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة.

فلم يزل والياً عليها إلى أن توفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

فولي بعده ولده:

محمد بن أبي مطر رباح الزناتي

فلم يزل عليها إلى سنة أربعمائة، وتوفي.

فملكها:

مسعود بن وانودين خزرون بن فلفل بن خزرون الزنلتي المغراوي

فغلب على جميع أعمال سجلماسة، ودرعة وسائر بلاد القبلة إلى أن توفي.

فوليّ بعده ولد:

محمد بن مسعود

سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

ولم يزل عليها إلى أن توفي سنة سبع عشرة وأربعمائة.

ووليّ بعده:

مسعود بن محمد بن مسعود بن وانودين بن خزرون المغراوي

فلم يزل عليها إلى أن نازلها جيوش لمتونة فدخلوها عنوة بالسيف.

وقتل مسعود في الكائنة، وانتهب ماله وذلك في سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

فلم تزل بأيدي المرابطين يتداولها عمالهم إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة مدة ثمان وتسعين سنة.

ثم فتحها الموحدون سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

وملكها:

عبد المؤمن بن علي

وخطب له بها.

فلم تزل في طاعة الموحدين من بني عبد المؤمن يتداولها عمالهم.

إلى أن تغلب عليها بنو مرين، فكان تصيرها لـ:

الأمير أبي يحيى بن عبد الحق

من يد عامل المرتضى المعروف بابن رحو على يد القطراني في سنة خمس وخمسين وستمائة.

فكانت مدة الموحدين بها مائة سنة واثنتي عشرة سنة.

ولما تملك عليها الوالي للدولة المرينية وهو:

أبو بكر القطراني

أمرها سنة ست وخمسين ثار لما بلغه موت الأمير أبي يحيى بن عبد الحق بدعوة نفسه سنة ثمان وخمسين وستمائة.

وأقام كذلك نحو السنتين، ثم خاف عقبى جنايته على بني مرين.

فخاطب المرتضى مغدوره الأول معتذراً عمّا جناه، فآنسه وأعتبه، وقدم بها قاضياً أحكم له وثوب قائد النصارى به فقتل ووجّه رأسه إلى مراكش، وعادت إلى دعوة المرتضى إلى سنة اثنتين وستين.

ثم تصيرت إلى:

عرب المنيات

بدعوة الأمير أبي يحيى:

يغمر أسن بن زياد أمير تلمسان

فلم يزالوا بها إلى أن انتزعها من أيديهم:

أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق

فدخلها يوم الخميس منسلخ صفر سنة ثلاث وسبعين وستمائة.

ولم تزل بأيديهم، وأيدي بنيهم إلى تاريخ هذا الكتاب[1].

ذكر دولة ملوك بني خزر المغراويين من زناتة بالمغرب

وكان لهؤلاء الملوك الزناتيين ذكر وشهرة وحروب تضمنتها كتب التاريخ، وكان جدهم حرب بن حفص بن صولات بن وازمار بن مغراو، مولى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أُتي به إليه من سبي إفريقية في أول فتحها.

فأسلم على يديه وحسن إسلامه.

فمن هذه النسبة، وهذه الوسيلة، كان ميلهم إلى بني أمية بالأندلس ونفرتهم عن أضدادهم من بني عبيد الله العلوية.

---

(١) هذا الخبر يبين لنا تاريخ تأليف هذا المصنف على وجه التقريب، ويفيد بأنه بعد هذا التاريخ على وجه التحديد.

ذكر حفص بن خزر المغراوي

وهو جد ملوك مغراوة كلهم، ولم يزل ولده يتوارثون الملك من بعده إلى أن وَلّى منهم خزر بن محمد بن خزر، فملك جميع بلاد زناتة، وملك تلمسان وتاهرت، وجميع بلاد القبلة.

وكانت بينه وبين ملوك الشيعة حروب عظيمة جهزوا إليه فيها أولياءهم من الصناهجة وقوادهم حسبما تضمن ذلك الكتب المفردة له.

وكان:

محمد بن خزر الخزري المغراوي الزناتي

ملك تاهرت، ووهران، وتلمسان، وسائر بلاد وناتة بدعوة أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ملك الأندلس.

وكان:

محمد بن الخير

من أكبر ملوك زناتة، وأكثرهم جمعاً، وأشجعهم جنداً، وأشدهم إخلاصاً ومحبة لبني أمية.

وكانت بينه وبين زيري بن مناد حروب عظيمة، قتل فيها محمد بن الخير المذكور وأكثر رجاله، وهزمت جموعه.

ثم ولي بعده ولده:

يعلى

ثم بعده ولده:

محمد بن يعلى

ثم:

محمد بن الخير بن خزر

فغلب على مدينة تاهرت، وتلمسان، والمسيلة، وأعالي المغرب والصحارى، وجميع بوادي زناتة، وأكثر بلاد الزاب والقبلة.

وخطب في جميع طاعته لبني أمية ملوك الأندلس.

ثم ولي منهم بالمغرب:

الأمير زيري بن عطية المغراوي

وهو زيري بن عطية بن عبد الله بن تبادلت بن محمد بن خزر، الزناتي، المغراوي.

ودعا لهشام المؤيد وحاجبه ابن أبي عامر، وملك مدينة فاس، وجميع بوادي المغرب.

وعلا أمره، وارتفع شأنه، وجدت بينه وبين أبي البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي لما خالف علي ابن أخيه منصور بن بلقين صاحب إفريقية وظهير الدولة العبيدية لما خلع أبو البهار دعوته، وتقلد دعوة المروانية، وملك تلمسان ووهران، وهنين، وشلف، وونشريس، وتنس في سنة إحدى وثمانين.

ثم خلع دعوة المروانية، فتحرك إليه زيري بن عطية من مدينة فاس.

ففر أبو البهار، ولحق بإفريقية، واستولى زيري على جميع أعماله، وبعث بالفتح إلى أبي عامر المنصور صحبة هدية عظيمة، كافأه/ عليها. [٢٦٢/أ]

وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وهو مذكور شهير في أخبار ابن أبي عامر. واستدعاه المنصور بن أبي عامر مفخماً بزيارته ومفتخراً بقدوم مثله.

فقدم حضرة قرطبة في شهر رجب سنة اثنتين وثمانين.

وأوصل هدية حافلة من طيور مفصحة بالألسن البشرية، ودواب من دواب المسك والغالية، وحيوانات غريبة، وأسود في أقفاص حديد.

واستصحب من قومه ثلاثمائة فارس، ومثلها من عبيده وحشمه الرجال.

واستخلف ولده المعز على فاس.

واحتفل ابن أبي عامر في لقائه ونزله وصلاته، وكتب له العهد على جميع المغرب. واتصل به عندما نزل قافلاً بمرسى طنجة أن يدّو بن يعلى الزناتي اليفرني أمير بني يفرن، تغلب على مدينة فاس، فأسرع نحوه.

وكانت بينه وبين يدّو محاولات، وعلى فاس مداولات إلى أن هزم الأمير زيري المغراوي، يدّو بن يعلى، وقتله، وبعث برأسه إلى المنصور.

واستمرت أيام زيري مع المنصور حَسَنة إلى سنة ست وثمانين، فساء ما بينهما وألغى ذكر المنصور من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام خليفة.

فأنفذ إليه ابن أبي عامر واضحاً الفتى في الجيوش لقتاله، وكان اللقاء بينه وبين زيري بوادي ردات.

ودامت الحرب مدة من ثلاث أشهر إلى أن ظهر زيري على واضح وهزمه.

ولجأ واضح إلى طنجة، واستصرخ المنصور واستمده، فخرج إليه بنفسه من قرطبة، ووصل الجزيرة وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر.

وبلغ ذلك زيري فاستجاش قبائل زناتة، فأجابته الجموع مما وراء ملوية وسجلماسة من بلاد الزاب.

وكان اللقاء بأحواز طنجة ووقعت بين الفريقين الحرب ودامت يوماً كاملاً إلى الليل، إلى أن وجد الغرّة من زيري غلام أسود، وكان زيري قتل خاله، فضربه بسكين في لبته يريد نحره، فلم يجهز عليه، لكنه لحق بعبد الملك فشدّ الأندلسيون عند ذلك على زناتة فهزموا، واستمرت على زيري وأصحابه، وكثر القتل في جيش المغاربة، واستولى عبد الملك من محلة زيري على ما يحار فيه الوصف.

ولم يكد زيري يستدرك أمره ويجمع فلّه حتى عاجله عبد الملك بخمسة آلاف بطل لنظر واضح، أسى بهم، فضرب على محلة زيري بحوزة بلاد مكناسة وهم آمنون.

وذلك في منتصف رمضان من سنة ثمان وثمانين، فأوقع بهم وقيعة عظيمة وأسر من مغراوة نحو ألفين مَنَّ عليهم عبد الملك وأركبهم في جنده.

ولحق زيري بمدينة فاس في شرذمة من أصحابه وبني عمه فسدت أبوابها دونه ومكّن من عياله وأولاده، فانصرف بهم إلى الصحراء.

ودخل المظفّر بن أبي عامر مدينة فاس يوم السبت منسلخ شوال سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

وكتب/ إلى أبيه بالفتح وقرىء بمنابر الأندلس. [٢٦٢/ب]

وأعتق المنصور شكراً لله ألفاً وثلاثمائة مملوكة أُنثى، وخمسمائة عبد من جملة صدقات جمّة.

وراجع ولده وبعهده على المغرب، ووصاه فيه بحسن السيرة.

فقرىء الكتاب بمنبر القرويين آخر جمعة من ذي القعدة من السنة.

وأقام المظفر ستة أشهر بمدينة فاس فرأى الناس من فضله وعدله ما لم يروه ممن قبله

رجع الخبر إلى زيري

ولما استقر بالصحراء من أحواز صنهاجة ألقاهم قد اختلفوا على باديس بن المنصور بن بلقين بعد وفاة أبيه.

فجمع زيري القبائل الزناتية، واغتنم الفرصة وذهب إلى صنهاجة، فأوغل في بلادهم، وهزم جيوشهم، ودخل مدينة تاهرت، وتنس، وتلمسان، وشلف.

وأقام بها الدعوة للمؤيد هشام، ونازل مدينة أشير إلى أن عادت عليه جراحته، فتوفي سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة في شهر المحرم.

فقدم زناتة ولده المعز بن زيري.

دولة المعز بن زيري بن عطية

واستقل المعز بن زيري بملك أبيه وبادر باستصلاح المظفر بن أبي عامر، ورجع إلى طاعته.

فصرف واضحاً عن ولاية فاس وولاّها المعزّ في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة بعد أن توثق ابن أبي عامر بقبض ولده معنصر رهينة، والتزم خيلاً ودرقاً وسلاحاً يبعثها في كل سنة.

فأقام معنصر بقرطبة إلى زمن الفتنة وانقضاء الدولة العامرية فصرف إلى أبيه.

وهادن المعز أهل إفريقية وقنع بما في يده، وصلحت حاله إلى أن توفي في جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة.

وولي بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية.

دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي

وقام حمامة بن المعز بأمر زناتة.

وكانت بينه وبين تميم بن يعلى وقبائل بني يفرن حرب انهزم فيه حمامة، وفرّ إلى تلمسان ودخل تميم مدينة فاس، وقتل فيها كثيراً من اليهود.

ثم اجتمع إلى حمامة بمدينة تنس، قبائل مغراوة، فزحف إلى فاس وأجلى عنها تميم بن يعلى وتملكها سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وأقام على ملك المغرب إلى أن توفي سنة أربعين وأربعمائة، فكانت أيامه ثماني عشرة سنة.

وولي مكانه ولده دوناس.

دولة دوناس بن حمامة بن عطية المغراوي

ووليّ دوناس مدينة فاس وأكثر أعمال المغرب بعده أبيه.

فكانت أيامه أيام هدنة ودعة ورخاء كثير. وفي أيامه عمرت فاس وقصدها

التجار وبنيت بها الرباع والمساجد، وأدير على أرباضها السور.

وتوفي سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

فوليّ بعده ولده الفتوح.

/ دولة الفتوح بن دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية [١/٣٦٤]

ولمّا وليّ الفتوح بن دوناس ـ وإليه ينسب باب الفتوح بفاس ـ الأمر بعد أبيه، وَلّى أخاه عجيسة عدوة القرويين.

فثار عليه بها ودامت الحرب بينهما ثلاث سنين متصلة إلى أن تغلب الفتوح على عدوة القرويين ليلاً، وملك العدوتين، وظفر بأخيه فقتله.

واستمرت أيام الفتوح إلى سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

فظهر أمر لمتونة وضيقوا عليه بالقتال، فتخلى عن الأمر إلى ابن عمه معنصر.

وكانت أيام الفتوح خمسة أعوام وسبعة أشهر.

دولة معنصر بن المعز بن زيري بن عطية

وليّ مدينة فاس وتملك على مغراوة بعد اختلاع ابن عمه الفتوح وتخليه عن الأمر وكان ذا حزم، ورأي، وتدبير، وإقدام، وشجاعة، وصابر حروب الملثمين من لمتونة إلى أن فقد في بعض الوقائع بينه وبينهم، وذلك في سنة ستين وأربعمائة.

ودخل بعده الملثمون فاساً، وثار عليهم زناتة فأزعجوهم عنها، ووليها تميم بن معنصر.

دولة تميم بن معنصر بن المعز بن زيري بن عطية

ولم يكد تميم بن معنصر يستقل بأمره حتى نازل مدينة فاس يوسف بن تاشفين وحصرها ودخلها عنوة الدخلة الكبيرة، فقتل بها من زناتة ما يزيد على عشرين ألفاً، وذلك في سنة إحدى وستين وأربعمائة.

فكانت دولة مغراوة من زناتة بالمغرب نحو مائة، وكان آخر العهد فيها بتميم وقومه.

ذكر أيام بني يفرن من زناتة بالمغرب

ويفرن هو أخو مغراو، وأبوهما يصلتين. وكان من ملوكهم:

أبو يزيد بن كيداد اليفرني الزناتي.

القائم على الشيعة بإفريقية سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة حسبما مرّ ذكره.

وكان من ملوك هؤلاء:

الأمير يعلى بن محمد اليفرني

ملك مدينة تاهرت، والمسيلة، وتلمسان، ومدينة البصرة من المغرب، وكان متمسكاً بدعوة بني أمية.

وقتله جوهر قائد الشيعة في حرب كانت بينهما سنة سبع وأربعين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ولده:

يدّو بن يعلى بن محمد اليفرني

فقام بالأمر، وملك كثيراً من بوادي زناتة وكانت بينه وبين زيري بن عطية عظيم زناتة، حروب عظيمة، فكان إذا غلب يدّو دخل إلى مدينة فاس، وإذا غلب زيري أخرجه منها.

[٢٦٣/ب] إلى / أن هزمه زيري، ودخل عليه البلد فقتله، ومثل به.

وذلك في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

ومن ملوك بني يفرن:

تميم بن زيري بن علي بن محمد بن صالح اليفرني

ملك كثيراً من بلاد المغرب.

وكانت دار ملكه بسلا، وغلب على فاس بعد سنة أربعمائة.

وأوقع باليهود فيها، فقتل منهم نحواً من ستة آلاف، وانتهبت أموالهم وتوفي في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

محمد

وكانت بينه وبين مغراوة حروب كثيرة إلى أن غلب عليه الملثمون من لمتونة، فقتلوه في سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

وانقضى أمر هؤلاء على هذا السبيل، والبقاء لله وحده.

ذكر شيء من أيام بني تجين وبني توالي وغيرهم

أما بنو تجين:

فكان أول من ملك منهم:

عبد القوي بن وزمار بن تجين بن تميم بن علي

بلاد وانشريس، وشرشال، وشلف، والجزائر إلى تلمسان، وذلك في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة.

فلم يزل بنوه يتوارثون ذلك إلى أن دثر رسم امارتهم بمضايقة بني زيان:

وأما بنو توالي وهم بنو يخفش الزناتيون

فأول من ملك منهم بالمغرب:

توالي بن شوصح بن نعم الخلف

وكان محل ملكه بلاد فازاز، التي ينسب إليها الخيل الفازازية، ومعدن عوام، والقلعة، ومدائن مكناسة.

وكان اسم توالي: يوسف.

وكان قيامه سنة أربعمائة.

ووفاته سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

مهدي بن توالي

فبنى القلعة وحصنها واتخذ لها سوراً عظيماً وسميت به قلعة مهدي إلى الآن.

ولم يزل ملكاً على بلاد فازاز، ومدائن مكناسة إلى أن قدم المرابطون المغرب، ونازله منهم أبو بكر بن عمر، واستأمن إليه سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

ثم نكث عليه وقتل جماعة من رجال لمتونة، فبعث إليه الأمير أبو بكر المذكور جيشاً حاصر القلعة سبعة أعوام إلى سنة ثمان وخمسين.

ثم خرج عنها صلحاً، وتوجه إلى فاس، فظفر به صاحبها معنصر بن المعتز، فقتله.

ذكر الملوك الحميريين بالريف الغربي

وأول هؤلاء القوم:

صالح بن منصور الحميري

من أهل اليمن، توجه إلى المغرب في الفتح الأول الكائن على يد عقبة المستجاب. فنزل بمرسى تمسامان، ويعرف بمرسى البقرة، وبينه وبين نكور عشرون ميلاً.

فأسلم على يده بربر تلك الجهات، وبقي بها إلى أن مات.

فدفن على شاطىء البحر وقبره هناك معروف بقبر العبد الصالح.

وتخلف ولدين: المعتصم، وإدريس.

فوليّ الأمر بعده:

المعتصم

[٣٦٤/أ] ثم توفي، فملك/ أخوه:

إدريس

ثلاث سنين، ثم توفي، فملك بعد ابنه:

سعيد بن إدريس

فاستوثق له أمره بتلك البلاد.

وهو الذي بنى مدينة نكور سنة ثلاث وعشرين ومائة، وكانت مدينة عظيمة حافلة آهلة تقصدها مرافق البحر من مرسى المرية.

ودخلها المجوس سنة أربع وأربعين ومائتين، وأقاموا بها ثمانية أعوام.

وتوفي سعيد بعد أن ملك سبعاً وستين سنة.

فوليّ بعده:

صالح بن سعيد بن إدريس

وكان فقيهاً مالكياً، حجّ وغزا بالأندلس وتصير إليه الملك ودام فيه ثمانياً وعشرين سنة.

وتوفي في ذي الحجة سنة اثنتين وستين ومائتين.

وولّي بعده:

سعيد بن صالح

أصغر ولده، وخالف عليه صقالبة أبيه فحاصرهم بقلعة الصقالبة من تلك الأحواز سبعة أيام، ثم ظفر بهم فقتلهم.

وكانت بينه وبين ملك الشيعة محاورات تشتمل على نظم ونثر ثبت في محله من كتب التاريخ.

فأجابه عنها سعيد بن صالح بما آيسه من نفسه، فكتب إلى عامله بتاهرت مصالة بن حبوس يأمره بمحاربة سعيد بن صالح فنازل مدينة نكور.

وحارب سعيد ثلاثة أيام حتى قتل سعيد واستبيح عسكره.

ودخل مصالة نكور لثلاث خلون من المحرم سنة خمس وثلاثمائة، وانتهبت المدينة، ولحق من نجائد بني سعيد بن صالح بمالقة من برّ الأندلس، وفيهم ولد سعيد: إدريس، والمعتصم، وصالح.

وأقام مصالة متردداً بأحواز نكور شهرين.

ثم استعمل عليها عاملاً اسمه:

دلول، وانصرف إلى تاهرت.

ولم يزل ابنا سعيد بمالقة مترقبين لأم دلول إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة فانتهزوها، وأجازوا البحر إلى نكور وقد سبقها منهم أصغرهم سناً وهو:

صالح

فبايعه البربر وسمّوه اليتيم لصغر سنه.

وهو من شرط كتابنا فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.

وقدم المدينة، فدخلها، وقتل دلولاً العامل وأصحابه.

وخاطب صالح بالفتح، عبد الرحمن الناصر لدين الله بقرطبة، فوجه إليه الخلع وآلات الملك.

ولحق به اخوته مسلمين له في الأمر.

فاستقامت حاله إلى أن مات سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ابن عمه:

المؤيد بن عبد البديع بن صالح بن سعيد بن إدريس

وزحف إليه موسى بن أبي العافية المكناسي فحاصره وتغلب عليه ونهب المدينة وخربها سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.

ثم بايع البربر:

أبا أيوب إسماعيل بن عبدالملك بن عبد الرحمن بن سعيد بن إدريس بن صالح

فقام الأمر، وبنى المدينة القديمة التي أسسها جدّه صالح، وأدار بها السور وحصّنها سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

وقصده صندل قائد عبيد الله الشيعي وأرسله يدعوه إلى طاعة العبيدية، فقتل أرساله، واستعصى عليه فنازله صندل/ [٢٦٤/ب] وحاصره ثمانية أيام حتى غلب عليه ودخل المدينة، فقتل إسماعيل.

وولّى على نكورة رجلاً من أصحابه كتامة.

ولما انصرف صندل، قصد المدينة موسى بن علي بن المعتصم بن صالح، وكان قد لجأ إلى بني يصلتين، وزحفوا معه إلى نكور، فقتلوا عامل صندل ومنه معه وبايعوا:

موسى بن علي

وتمادت إمرته بنكور إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة.

فوليّ مكانه ابن عم له اسمه:

عبد السميع بن جرثم بن عبد الله بن إدريس بن صالح بن المنصور

وكان بالأندلس، فلما مات موسى عبر البحر، فبايعه البربر، وملك المدينة إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة.

فوليّ بعده ابنه:

عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن محمد بن عبد السميع بن جرثم

إلى أن توفي سنة عشر وأربعمائة.

وانقرضت بموته أيام هذا البيت بنكور.

واستولى عليها:

يحيى بن الفتوح الأزداجي

مستظهراً بوفور قبيلة من أزداجة، فبايعته قبائل البربر.

وقتل من بقي بنكور من أولاد صالح، وجرثم، ونفى قوم منهم إلى الحرمة.

وأقام بها إلى حين وفاته سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

يوسف بن يعلى بن فتوح الأزداجي

إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

ووليّ بعده ولده:

عز بن يوسف بن يعلى بن الفتوح

فلم يزل عليها إلى أن قتله لمتونة سنة ستين وأربعمائة.

وخربوا المدينة، فتوالى عليها الخراب، وتفرق أهلها في البلاد، واتصل ذلك إلى اليوم.

وآثارها ماثلة وبقايا جدرانها شاهدة، وهي اليوم مزارع لبني ورياغل.

فسبحان من يرث الأرض ومن عليها، لا إله إلاّ هو.

ذكر المنتحلين الإمارة وأشنع من ذلك من برغواطة

وإن أنكر علينا منكر أن نجعلهم من ملوك الإسلام فنقول: إنما أتينا بهم حسبما شرطنا من انجرار الكلام.

قال بعض المؤرخين:

ليس قبيل برغواطة لأب ولا يرجعون إلى أصل، وإنما هم أخلاط من قبائل شتى زناتية، اجتمعوا إلى صالح بن طريف القائم بتامسنا وقد ـ زعم ـ نحلة لنفسه وديناً، وذلك على عهد هشام بن الحكم بقرطبة، وذكروا أن صالح بن طريف استوزره ميسرة الحقير أمير الغرب عند الفتح، ثم عزله، وكتب له كتاباً إلى أهل تامسنا وقومه من زناتة البربر يوصيهم به، ويصف فضله وعلمه.

وكان صالح هذا مصمودي الأصل.

وقيل: إسرائيلي الأصل نشأ بقرية برباط من الأندلس، ورحل إلى المشرق، فقرأ على عبيد القدري المعتزلي، واشتغل السحر فمهر فيه، وقدم المغرب، فاستمال من لقيه بما أظهر من الإسلام والزهد والورع واستهواهم بالنيرجات والحيل والسحر، فأقروا بفضله/ واعترفوا بولايته فولّوه على أنفسهم. [١/٢٦٥]

أيام صالح بن طريف البرغواطي

وتسمى صالح بصالح المؤمنين، وزعم أنه المشار إليه في القرآن[١].

وشرع لهم الديانة التي قرر صلالها في سنة خمس وعشرين ومائة، وهي أمور غريبة مضحكة يأمر: بصوم رجب فيها وأكل رمضان، وخمس صلوات في الليل، وشرع في الوضوء غسل السُّرة والخاصرتين، وأباح تزوج النساء مما فوق الأربع، وحَرّم تزوج بنت العم، وشرع قتل السارق، وحَرّم كل رأس حيوان، وحرم ذبح الديك، ومن قتل ديكاً أعتق رقبة، ووضع لهم سِوَراً بلغت ثمانين سورة.

واستخلف على برغواطة لما قرّر أمره ولده إلياس بن صالح، وأمره أن لا يظهر تلك الديانة حتى يقوى سلطانه، وينتشر ذكره، فلا تمكن مخالفته، وأن يتمسك بالمروانية ملوك الأندلس، ووعده بأن يرجع إلى المغرب في دولة السابع من ملوكهم، وأنه المهدي الذي يقاتل الدجال، وأن عيسى عليه السلام يكون من جنده، ويصلّي خلفه.

فكانت أيام صالح بن طريف نحواً من ست سنين، وكان انصرافه عنه سنة ثماني وعشرين ومائتين.

أيام إلياس بن صالح بن طريف البرغواطي

ولمّا وليّ إلياس بعد خروج أبيه إلى المشرق وكتم نحلته خوفاً على نفسه، ولم يظهر شيئاً منها في الجمهور إلاّ من وثق به ورضي به من خاصته.

فدخل في طاعته خلق كثير من زناتة وغيرهم وعظم أمره، ولم يزل ملكاً على برغواطة إلى أن توفي في سنة ست وسبعين ومائة.

فكانت أيامه نحواً من خمسين سنة.

وعهد بالأمر بعده لولده يونس وعلّمه الديانة والشرائع التي اتخذها عن أبيه وأوصاه، بقتال من خالفها.

أيام يونس بن إلياس بن صالح البراغواطي

ولمّا وليّ يونس بن إلياس ملك برغواطة، وأظهر الديانة ودعا إليها، وقتل من خالفها وكانت قاعدة ملكة مدينة شالة على وادي الغبط الآتي من أسمير.

---

(١) يريد قول الله عز وجلّ في سورة التحريم: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾. وعجباً لأمر الأدعياء في كل عصر وزمان، وأعجب منه قبول بعض الناس لادعائهم مع وهن استدلالهم.

ولم يزل بها إلى أن توفي سنة خمس وتسعين ومائة، وأقام بالأمر بعده ولده أبو غفير.

وكانت أيام يونس نحواً من تسع عشرة سنة.

أيام أبي غفير معاذ بن يونس بن إلياس بن صالح بن طريف

ولمّا وليَ أبو غفير أظهر ديانته، وقاتل الأدارسة ملوك المغرب من الفاطميين، واشتدت شوكته فكانت بينه وبين إدريس بن إدريس الحسني حرب عظيمة ومواقف جهادية شهيرة.

وتوفي أبو غفير سنة ثلاث ومائتين.

فكانت أيامه خمساً وثلاثين سنة.

وكانت له من الزوجات عند وفاته: أربع/ وأربعون زوجة. [٢٦٥/ب]

ووليَ بعده ولده أبو حفص.

دولة أبي حفص عمر بن معاذ البرغواطي

واستمرت أيام عمر بن معاذ إلى أن توفي.

ووليَ بعده ولده:

اليسع بن إسماعيل

فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح، إذ كان سابع الأمراء من بنيه.

واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وظهر أمر اللمتونيين

ودعوتهم راجعة إلى أساس من فقه ودين، فجعلوهم جهاداً قريباً وغزاهم:

الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني

فقتلهم قتلاً ذريعاً حتى أسلموا إسلاماً جديداً.

وكان آخر ملوكهم:

عيسى بن أبي الأنصار بن محمد بن اليسع

وانقرض ملكهم، وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده.

دولة الأدارسة العلويين الحسنيين بالمغرب الأقصى

وكانوا ممن قامت بالمغرب دعوة زاحموا بها أيام العباسية، والعبيدية بالمشرق وأيام الأموية بالأندلس الحسنيون الطالبيون من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان السبب في ذلك أن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، خرج على أبي جعفر المنصور ثاني العباسيين طالباً حقه في الخلافة، ودعا في الحجاز إلى نفسه، فأجابه كثير من الناس.

وجرت بينه وبين أبي جعفر المنصور رسائل طويلة جميلة تعارفها الناس، ممّا يدل على جلالة الرجلين الطالب والمطلوب ومحلهما من العلم، وذلك في سنة خمس وأربعين ومائة.

وجهز إليه المنصور الجيوش، وقد تأذن الله بحلية أهل هذا البيت من حظهم المناسب لهم من دنياه وهو القادر على إعاضتهم من خير ما عنده، فظهر عليهم وهدر جمعهم، وقبض على جملة منهم.

وفرّ ولده محمد إلى بلاد النوبة، فأقام بها إلى أن توفي المنصور، وصار الأمر إلى المهدي ولده، فعاد محمد إلى مكة، ودعا الناس ثانية، وعظم أمره بالحجاز، وأجاب دعوته الناس.

وبعث إخوته وكانوا ستة، وهم: يحيى، وسليمان، وموسى، وعيسى، وعلي، وإدريس في الأقطار بين إفريقية، وخراسان، ومصر، والديلم.

وجهز إليه المهدي بن المنصور جيشاً من ثلاثين ألفاً.

وكان اللقاء بفخ من أحواز مكة، فانهزم العلويون، وقتل إمامهم محمد بن عبد الله رحمه الله، وفرّ إخوته رجلان: موسى وإدريس ناجيين من الوقعة.

فتلحق إدريس منهما بمصر ومعه مولى له اسمه راشد، وكان بمصر يومئذٍ عامل للمهدي من المعتقدين لرأي الشيعة، فَنُذِرَ بهما، فتعامى عنهما، وأشار عليهما بالنجاة، وتعجيل الخروج/ عن عمله لطفاً من الله بهما، إذ كان المهدي قد أخذ عليهما الأرض، ونذر الوصاة بأخذهما. [١/٣٦٦]

دولة إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم

كان لحاق إدريس بالمغرب في شهر ربيع الآخر، من سنة اثنتين وسبعين ومائة.

ونزل على رجل يسمى: عبد المجيد الأوربي، وشيوخ ليلى من أحواز جبل زرهون، فأقام عنده أشهراً، وجمع له عبد المجيد قومه وأخوانه لما تعرف إليه، وراقه فضله وهديه وسمته، فعرفهم بمحله من بنوة النبوءة، وأعلمهم بفضله وأعلمهم بفضله وشرفه.

فبايعوه على القيام بأمرهم وولّوه صلاتهم وأحكامهم وغزوهم، فاستجابت له القبائل الريفية وغيرها، وتألف له جيش كبير فغزا بهم بلاد تامسنا وتادلا، وكان منهم كثير على دين النصرانية، ففتحها.

ثم قفل إلى مدينة وليلى في ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة، فافتتح بلاد: فندلاوة، وصدينة، ومديونة، وفازاز، وتحرك في أوائل رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائة، فنازل مدينة تلمسان ودخلها صلحاً وبنى مسجدها وبها أثره.

واتصل بالرشيد هارون ما تأتى لإدريس بالمغرب من دخول أهله في طاعته وافتتاح المدينة بسيفه، فأهمه أمره، واستشار يحيى بن خالد في أمره.

فأشار عليه يبعث رجل ذي حزم ومكر وجرأة ليغتاله بما أمكن من حيلة. ووقع اختيارهم على سليمان بن جدير من أهل الشجاعة والدهاء والفصاحة، ووعده عند تمام الأمر بالمنزلة الرفيعة، وأعين بالأموال الجليلة والتحف الظريفة.

وخرج من بغداد إلى المغرب حتى ورد على إدريس فسلّم عليه وسأله فعرفه أنه من بعض موالي أبيه وأنه قصده حباً وصاغية إليه وميلاً لأهل بيته، فسرّ به إدريس وآنس بقربه وسكن إلى قوله وركن إليه ولطف منه محله، فكان لا يأنس لغيره.

وإذ لم يكن يجد عند أحد من أهل المغرب لجفائهم وغلظ طباعهم ما يجد عنده، وكان إذا قعد وجوه القبائل، قام بينهم فذكر فضائل أهل البيت وعظيم بركاتهم، ويقيم الدلائل على وجوب إمامه إدريس دون سواه.

فكان إدريس يتعجب من فصاحته وعلمه والناس كذلك.

وسليمان يترقب الفرصة، ويعمل الحيلة فلا يجد لذلك سبيلاً بملازمة راشد أوقات إدريس وعدم مفارقته إياه إلى أن غاب يوماً راشد، فوجد سليمان الفرصة، فوصف الطيب وأنواعه، وكان إدريس محباً في الطيب فقال: يا سيدي جعلت فداءك إني جلبت من شيئاً من الطيب لنفسي، فلما رأيت الطيب بهذه البلاد معدوماً آثرك به على نفسي، ثم أخرج قارورة من وعاء ووضعها بين يديه.

فقال: جزيت خيراً يا سليمان.

ثم أخذها إدريس وفتحها وشمّها واستعمل منها.

/ فلما رأى سليمان أن مراده قد حصل، خرج من بين يديه يوهم قضاء حاجة [٣٦٦/ب]

الإنسان، فسارع إلى منزله، وركب فرساً من عتاق الخيل، قد أعده لذلك هو وأمثاله، وخرج يطلب النجاة.

وكانت القارورة مسمومة بسمّ قويّ، فلما صعد السم بالاستنشاق إلى دماغ إدريس وقلبه، غشي عليه وسقط إلى الأرض لا يتكلم، ولا يعلم ما حدث به.

وأقبل راشد فألفاه يجود بنفسه إلى عشي النهار، ومات في آخر شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين ومائة.

وقيل: جعل له السم في دلاعة، وهو البطيخ السندي.

ولما توفي إدريس، وطلب راشد سليمان بن جدير، فلم يجده، ركب في جمع كثير لم يلحق بسليمان منهم راشد، فشدّ عليه السيف، وأصابه بجراحات عطل ببعضها يده وكبا براشد فرسه فمنعه من الإجهاز عليه، ففرّ إلى أن لحق بالعراق.

وعاد راشد إلى مدينة وليلى، فأخذ في جهاز إدريس ومواراته، ولم يكن لإدريس يومئذٍ ولد إلاّ أنه ترك جارية له بربرية اسمها كَنْزَةَ مُقرباً بحمل منه تناهر الوضع، فجمع القبائل وأخبرهم بذلك.

فقالوا له: أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية، فإن وضعت غلاماً، ربّيناه وبايعناه تبركاً بأهل البيت بيت النبوءة وذرية رسول الله ﷺ، وإن كانت جارية نظرنا لأنفسنا.

فشكرهم راشد وقام بأمرهم خير قيام حتى وضعت الجارية غلاماً أشبه الناس بإدريس أبيه.

فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر، وقالوا: هذا إدريس كأنه لم يمت فسماه راشد: إدريس باسم أبيه.

وقام بأمره وكفله، وأحسن تأديبه فأقرأه القرآن وأحفظه إياه لثماني سنين، وعلّمه السنّة والفقه، وأشعار العرب، وأيام الناس، وسيَر الملوك، ثم ركوب الخيل، والمجاولة بها، وأحكام الرماية.

وكان مولده يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائة.

دولة إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم

ولما أكمل إدريس عشراً جدد راشد له البيعة، وأثل له الأمر، واتصل ذلك بإبراهيم بن الأغلب أمير العباسيين على إفريقية، فدخل خدام راشد من البربر على يدّ من أحكم ذلك بالمال فقتلوا راشد سنة ست وثمانين ومائة.

وفي ذلك يقول إبراهيم بن الأغلب يخاطب الرشيد، ويكذب دعوى محمد بن مقاتل العكي، إذ نسب إلى نفسه محاولة هلال راشد.

/ ألم ترني أهلكت بالكيد راشدا وإني لأخرى لابن إدريس راصد [I/٢٦٧]

وتاه أخو عكّ بمهلك راشدٍ وقد كنت فيه ساهراً وهو راقد

وقام بإدريس بعد راشد، أبو خالد زيد بن إلياس العبدي.

ثم نشأ إدريس وترعرع، فكان نسيج وحده في العلم والدين والشجاعة.

قال بعضهم: شهدت مع إدريس بعض غزواته في الخوارج الصفرية، وهم ثلاثة أضعافنا، فكان يضرب في الجانب مرة، ثم في الآخر أخرى، ثم يعود إلى القلب، فيقف تحت البنود يحرض الناس.

فجعلت أديم النظر إليه متعجباً، فاستفهمني عما عندي.

فقلت: عجبت أن رأيتك تبصق مجتمعاً وأنا لا أجد الريق في فمي.

فقال: ذاك لقوة جاشي، واجتماع عقلي، وذهاب ريقك لما خامرك من الرعب.

قلت: وعجبت لطلاقة وجهك، وبشره عند القتال.

فقال: ذلك ببركة جدنا ﷺ ودعائه لنا.

قلت: وعجبت لكثرة تقلبك في السرج.

فقال: الزَّمع إلى القتال والصرامة في الحرب.

وقال:

أليس أبونا هاشم شدَّ أزْرَهُ وأوصى بنيه بالطعان وبالضَّرب

فلسنا نَمَلّ الحرب حتى تمَلّنَا ولا نشتكي مما يضرّ من النَّصب

ثم ضاقت به مدينة ليلى، فسرح في الأرض يختار محلاً لبناء مدينة يستوطنها.

فوقع اختياره على موضع مدينة فاس حرسها الله، وخرج لذلك سنة تسعين ومائة، فكان تأسيس المدينة المذكورة أول يوم شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة.

فبنى داره المعروفة اليوم لسلفه بدار القيطون، ومسجدها بجواره.

وعظم شأنها بالعمارة بعده، وسكنها الملوك والأشراف إلى أن بلغت في التمدن الغاية التي لا تعلم لمدينة من مدن الإسلام بالمغرب من بعد أن خربت قرطبة، أعادها الله، وجدّدها بالإسلام.

وفي محرم سنة سبع وتسعين غزا بلاد المصامدة.

وفي سنة تسع بعدها فتح تلمسان.

وتوفي بمدينة ليلى في ثاني عشر لجمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

وكان سبب وفاته أنه شرق بحبة عنب رحمه الله.

ووليّ بعده ولده محمد أكبر بنيه، وكانوا اثني عشر.

دولة محمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن

ولما تولّى محمد بعد أبيه قسم بلاد المغرب بين إخوته:

فوَلّى القاسم: سبتة، وطنجة، وقلعة النسر، وما إلى ذلك من البلاد والقبائل.

ووَلّى عمر منهم: بلاد صنهاجة، وغمارة.

ووَلّى داود: بلاد هوارة وما والاها.

ووَلّى يحيى: مدينة البصرة، ومدينة أصيلا.

ووَلّى أحمد: مدينة مكناسة وجبال فازار، وتادلا.

[٢٦٧/ب] ووَلّى / عبد الله: بلاد السوس الأقصى، وبلاد نفيس، وأغمات.

ووَلّى عيسى: مدينة شالة، وأزمور، وتامسنا وبرغواطة.

ووَلّى حمزة: مدينة تلمسان.

واختص هو بمدينة فاس، فكانت دار ملكه.

وتصغر باقي الإخوة عن الولاية.

فاستمرت الأحوال إلى أن طالبه أخوه عيسى الذي ولّى شالة ونبذ طاعته، وكتب إلى أخيه القاسم صاحب سبتة، وطنجة يأمره بحربه، فامتنع من ذلك وخالف أمره.

فكتب إليه أخيه عمر صاحب صنهاجة، وغمارة، فامتثل أمره، فأوقع بعيسى وهزمه، ووَلّى جميع عمله.

وكر على القاسم: فكانت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم، واحتوى عمر على ما بيده من البلاد.

وسار القاسم إلى ساحل البحر مما يلي أصيلا، فاتخذ هناك مسجداً عبد الله فيه إلى أن توفي، وقد كان زهد في الدنيا إلى أن مات على ذلك.

وأقام عمر بن إدريس عاملاً لأخيه محمد على مكان بيده وبيد أخويه إلى أن توفي.

وعمر هذا هو جدّ الحموديين القائمين بالأندلس.

ولما توفي تخلف من الولد: علياً، وإدريس، وعبد الله.

وكانت وفاة محمد بن إدريس سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وكانت ولايته ثمانية أعوام، وشهراً واحداً.

واستخلف ولده علياً من بعده.

دولة علي بن محمد بن إدريس بن عبد الله الحسني

بويع يوم وفاة أبيه باستخلافه إياه، فسار بسيرته في العدل والفضل والدين، وضبط الثغور، وكان الناس في أيامه في أمن ودعه إلى أن توفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين، وكانت أيامه نحواً من ثلاث عشرة سنة.

ووليّ بعده، ابن أخيه يحيى.

دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسني

ولما وليّ يحيى أساء السيرة، وخالف طريق سلفه، فدخل الحمام المقصور على النساء بسبب جميلة من اليهود، فأنكر الناس ذلك، وثاروا به مع عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي، واعتصم منهم بإحدى العدوتين عدوة الأندلس.

فذكر أنه مات في ليلته آسفاً على ما جناه على نفسه.

واستقلّ عبد الرحمن بالمدينة إلى أن تلاحق بها علي بن عمر بن إدريس من بلاد صنهاجة وغمارة، فدخل عدوة القرويين وملكها وخطب له بمنابر أعمال المغرب.

وانتقل الأمر عن بني محمد بن إدريس إلى بني عمهم عمر بن إدريس.

دولة علي بن عمر بن إدريس بن إدريس الحسني

وليّ بعد أخيه يحيى، فاستقام له الأمر إلى أن خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي بجبال مديونة/ وزحف بجمع كثير من البربر الصفرية إلى مدينة فاس، [٢٦٨/أ] وخرج إليه الأمير علي بن عمر، والتقيا، فكان الظفر للخارجي.

وفرّ عمر إلى بلاد أوربة، ودخل الخارجي حتى مدينة فاس، فاستقر بعدوة الأندلسيين، وامتنعت منه العدوة الأخرى.

وبعثوا إلى يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالعدَّام[١].

فقاتل الخارجي، وأخرجه عن المدينة وتمّ له أمرها.

دولة العدَّام يحيى بن القاسم بن إدريس بن إدريس

واستقل العدَّام بملك فاس وما إليها، وقاتل الخارجي حتى أزعجه كما ذكر.

واستعمل ثعلبة بن محارب على عدوة الأندلسيين. وخرج إلى محاربة الصفريين، فكانت بينه وبينهم وقائع إلى أن اغتاله ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

ووليّ مكانه ولد ابن عمه يحيى بن إدريس.

دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس

تولّى بعد قتل ابن عم أبيه العدَّام.

وكان يحيى بن إدريس هذا ملكاً جميلاً فصيحاً كريماً شجاعاً فاضلاً صالحاً، فلم يزل قائماً على ملك المغرب إلى أن قدم مصالة بن حبوس الكتامي قائد عبيد الله الشيعي سنة خمس وثلاثمائة.

فخرج يحيى بن إدريس مدافعاً له فهزمه مصالة وحاصره إلى أن صالحه على أخذ البيعة للشيعة، وارتحل عنهم إلى إفريقية بعد أن قدم مصالة بن حبوس أميراً، بتسول وبلاد تازة موسى بن أبي العافية المكناسي أميراً، ففسد ما بينه وبين يحيى بسبب مجاورته إياه بتخوم أرضه، فلما كَرَّ مصالة إلى المغرب ثانية سنة تسع وثلاثمائة، سعى ابن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده حتى ضاق صدره به وعزم على القبض عليه.

فلما قرب مصالة من المدينة خرج إليه يحيى بن إدريس مسلماً وملتقياً في جملة من أعيان العسكر، فقبض عليهم وأكبل يحيى، وأدخله المدينة، واستصفى أمواله.

ثم رحل عنهم وظفر به موسى بن أبي العافية مسيرة طويلة، ثم أطلقه فلحق بإفريقية.

ثم توفي على حال، مدة الفتنة الناشئة بأبي يزيد.

وقدم مصالة على مدينة فاس ريحاناً الكتامي من قواد، ثم رحل، فثار به الأمير الحسن بن محمد بن القسم.

---

(١) كذا في الأصل وربما كان صوابه العوام، وهي واضحة على الرسم الذي ذكرت بالموضعين بالمخطوط هنا وفي العنوان الذي بعده.

دولة الأمير الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس

الحسن هذا هو الملقب بالحجام إذ تكرر منه طعن جملة من الفرسان في موضع المحاجم، وفيه يقول:

وسميت حجَّاماً ولست بحاجم ... ولكن لطفي في مكان المحاجم

فملك المدينة ونفى عنها ريحان الكتامي واستقام أمره ونشأت بينه وبين موسى بن أبي العافية / الوحشة فأوقع به الحسن وقيعة كبيرة، وقفل إلى فاس منفرداً [١/٢٦٩] عن جيشه لبعض ضرورته عازماً على العودة فغدر به عاملة عليها حامد بن حمدان، فقيّده وسدّ أبواب المدينة عن العسكر، وبعث إلى موسى بن أبي العافية يستحثه في المبادرة إلى فاس، فأسرع نحوه، وتغلب على المدينة، وطالب حامد بن حمدان بالتمكين من الحسن فدافعه عن ذلك وصرفه، وقد بدا له في أمره، فلما جنّ الليل أطلقه من قيده، وأنزله من أعلى السور سور المدينة فسقط الحسن إلى الأرض وانكسرت رجله ومات لثلاثة أيام من ليلته.

وقيل: قتله ابن أبي العافية.

وكانت دولته نحو عامين.

ذكر شيء من أخبار ابن أبي العافية

وهو موسى بن أبي العافية بن أبي ياسيل بن الضحاك بن تامريس بن إدريس بن وليف بن مكناس بن سطيف المكناسي ملك بلاد تازي، وتسول، وأماي، وفاس، وحاسة، وطنجة، والبصرة، وكثير من أعمال المغرب وبايعته القبائل والأشياخ.

ولما ملك فاس أجلى الأدارسة عن بلادهم، وأخرجهم عن ديارهم وملك أصيلة وشالة وغيرها من بلاد بني إدريس ولجأ جلّهم إلى قلعة حجر النسر التي ابتناها إبراهيم بن محمد بن القاسم، ونازلهم موسى عازماً على استئصالهم.

ثم رجع إلى فاس سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ثم ارتحل إلى تلمسان، فملكها وملك مديونة وجراوة، وكانت تحت يد الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس الحسني.

وفرّ الحسن فاعتصم بمدينة مليلية وجزائر ملوية.

ثم إن موسى بن أبي العافية بدا له في دعوة الشيعة فعدل عنها وتابع عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله من بني أمية.

ولمّا اتصل الخبر بعبيد الله المهدي إمام الشيعة، جهز إليه جيشه مع حميد بن

تيسيل الكتامي، وكان اللقاء بفحص مسون.

وانهزم موسى أمامه، فتحصن ببلاد تسول وقصد حميد مدينة فاس فدخلها ثم عادت إلى ملك موسى بن أبي العافية بعد قفول حميد بن تيسيل إلى إفريقية إلى أن قدم ميسور الفتى قائد القائم بن عبيد الله الشيعي.

فملك فاس، واتبع موسى بن أبي العافية حتى أجلاه إلى الصحراء، وظاهر الباقون بقلعة حجر النسر من الأدارسة على حرب موسى بن أبي العافية، وتملكوا أكثر البلاد التي كانت بيده.

ولم يزل موسى بن أبي العافية شريداً في أطراف البلاد إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

ووليّ بعده ولده.

إبراهيم.

بالبلاد التي كانت مستمسكة بطاعته وهي أجريسف، ونكور إلى سنة خمسين وثلاثمائة.

ثم وليّ بعده ابنه:

عبد الله بن إبراهيم بن موسى

إلى أن توفي سنة ستين.

فوليّ ابنه:

محمد

ثم توفي.

ووليّ بعده ابنه:

القاسم بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية

وكانت بينه وبين ملوك لمتونة حرب أجلت عن هلاك القاسم.

واستؤصلت بعده بلادهم وقطعت شأفتهم، وكانت مدتهم ما بين موسى والقاسم مائة وأربعين سنة.

رجع الحديث إلى الأدارسة

ولما سافر موسى أمام جيوش الشيعة إلى الصحراء صارت الرئاسة بالمغرب

لبني محمد بن القاسم بن إدريس الحسني وكبارهم، إذ ذاك الأخوان الشقيقان: قنون، وإبراهيم، فتقدم منهما قنون:

دولة قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس

قدمه بنو إدريس على جميعهم بعد فرار ابن أبي العافية عنهم.

وكانت سكناه بالقلعة المعروفة بحجر النسر واسمه القاسم، وقنون لقب له.

فأقام على ما بيده إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

ووليّ بعده أبو العيش أحمد.

دولة أبي العيش أحمد بن القاسم قنون بن محمد

وكان فاضلاً عالماً حافظاً للسير والتاريخ، شجاعاً كريماً، وخطب بدعوة عبد الرحمن الناصر من بني أمية في جميع عمله في مدينة بني داود، والبصرة، وأصيلا، وطنجة، وسبتة، وما إلى ذلك.

إلى أن انتزع الناصر سبتة وطنجة، فتملكهما، واستولى على أقطار العدوة.

وضعف أمر أبي العيش فأبقى على نفسه واستأذن الناصر في الجهاد، فأذن له، وتلقاه بالكرامة، وأجمل الوفادة؛ بحيث أمر أن يبنى له بكل منزل يحله بين الجزيرة إلى الثغر، وكان يُجرى عليه ضيافته في كل يوم ألف دينار.

وكان قدوم أبي العيش على الأندلس مجاهداً في أخريات سنة ست وأربعين وثلاثمائة، بعد أن استخلف على ما بيده أخاه الحسن بن قنون.

ولما اتصل بصاحب الشيعة تغلب الناصر لدين الله على أقطار المغرب، وانكاث دعوته به، بعث قائده جوهر الروس في جيش عظيم اجتمع على عشرين ألفاً من قبائل صنهاجة، وكتامة، وتلكاتة، فخرج إلى القيروان سنة سبع وأربعين، وهزم قبائل زناتة وفرّق جموعها، وقتل يعلى اليفرني.

وقصد سجلماسة، فدخلها عنوة ونازل مدينة فاس وحاصرها حتى فتحها غلاباً، وقبض على أميرها من قِبل الناصر الأموي وسباها، وهدم أسوارها يوم الخميس الموفي عشرين لرمضان سنة/ ثمان وأربعين وثلاثمائة. [٢٦٩/ب]

ثم قفل إلى سلطانه مَعَدّ بعد أن عاث في تدويخ المغرب وفتحه وقتل، ولّى المروانية به ثلاثين شهر.

وكان وصوله إلى المهدية سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وقد احتمل أسرى الأمراء في أقفاص الخشب على الجمال.

وبلغ من العز والظهور ما لا شيء فوقه، والعز والحق لله.

رجع الحديث

وفي أثناء ما ذكر كان الحسن بن قنون الحسن المخلف بعد أخيه المنصرف إلى الجهاد قبله أصيلاً، والقلعة مستمسكاً بدعوة الناصر، ثم بدعوة ولده اضطراراً.

فكان ملك الحسن إلى هذا العهد راجعاً إليه من بعد أخيه أبي العيش، وهو آخر ملوك الأدارسة بالمغرب.

واتصلت مشايعته للمروانية، وتمسك بدعوتهم إلى أن وليّ أمر إفريقية بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي، فتحرك إلى المغرب حركته الشهيرة التي استأصل فيها ملوك زناتة، وقطع دعوة بني أمية من المغرب، وقتل أولياءهم وأخذ البيعة لمعد بن إسماعيل، كما فعل جوهر قبله.

وكان الحسن بن قنون هذا أول من سارع إلى بيعة الشيعة ونصرة بلقين.

ولما قفل بلقين إلى إفريقية رجع الحاكم المستنصر الأموي بموجدته وحنقه على الحسن بن قنون صاحب البصرة.

فوجه إليه قائده محمد بن القاسم في جيش عظيم وعدة كاملة في ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة.

وزحف الحسن إلى لقائه في قبائل البربر، فالتقى الجمعان بأحواز طنجة، وكانت الهزيمة على جيش الحكم، فقتل قائده، ووجوه أصحابه، وتحصن من نجا منهم بسبتة، واستغاثوا بالحكم، فوجه غالباً مولاه صاحب الثغر، وأطلق يده في الجيش والمال.

واتصل خبره بالحسن، فأخلى مدينة البصرة وتحصن بقلعة النسر، ونازله غالب وقطع عنه المواد. واشتد الحصار على الحسن فطلب الأمان لنفسه ورجاله على التوجه مع غالب إلى قرطبة.

فتم ذلك، واستنزل جميع الحسنيين من بلاد المغرب، واستقروا تحت حكم غالب، واستقامت الدعوة الحكمية الأموية بالمغرب.

وكان دخول العلويين بصحبة غالب إلى قرطبة أول المحرم مفتتح سنة أربع وستين وثلاثمائة. وعفا عنه الحكم، ووفّى الحسن بعهده، وأوسع له ولرجاله في العطاء وكانوا سبعمائة من الشجعان.

واستمرت سكناه في جوار الحكم وتحت برّه إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

ثم ساء ما بين الحسن بن قنون، وبين الحكم المستنصر بسبب قطعة عنبر كانت

للحسن وتسمى المسوَّرة يتوسد عليها، بلغ الحكم خبرها فسأله إياها على أن يرضيه عنها بحكمه.

فأنف من ذلك بجهله، فعظمت الوحشة إلى أن انتهت به إلى أن نكبه الحكم وأخذ/ أمواله وذخيرته ومن جملتها تلك العنبرة، إلى أن قضى الله تعالى برجوع [٢٧٠/أ] الخلافة إلى ابن عمه علي بن حمود، فألقى تلك العنبرة في خزائن بني أمية، فاستردها، وأجلى الحكم الحسن بن قنون عن الأندلس في البحر سنة خمسة وستين فلحق بنزار بن معد ملك الشيعة بمصر.

فأقبل عليه وكتب له عهده على المغرب، وأمر من بإفريقية بإعانته بالجيش، فاقتحم المغرب وسارعت إليه القبائل وشرع في إظهار دعوته على عهد هشام المؤيد محجوب بن أبي عامر.

فبعث إليه ابن عمه أبا الحكم عمر بن عبد الله في جيش كثيف، فأحاط بالحسن وحاصره واستمد المنصور، فأمده بولده عبد الله. ولما يئس الحسن التمس الأمان لنفسه على شرط اللحاق بالأندلس كحالته الأولى فتمّ ذلك له.

ولما بلغ خبر إجازته البحر فسخ المنصور أمان ابن عمه، وأنفذ من قتل حسن بن قنون في طريقه، وأوصل رأسه إليه، وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

فكانت دولة الحسن الأولى ست عشرة سنة، والثانية سنة وتسعة أشهر.

وركضت ريح العلوية بالمغرب وكان من بقي منهم بقرطبة في ديوان السلطان جارين مجرى المغاربة إلى أن كانت الفتنة التي أجلت عن انقراض دولة بني أمية وتصيير الأمر بالأندلس إلى هؤلاء الأدارسة برهة حسبما تقدم ذكره.

وكانت مدة ملكهم ما بين إدريس إلى الحسن بن قنون مائتين سنة واثنتين وستين وخمسة أشهر.

وكانوا بين لحيي أسد يكابدون دولتين عظيمتين من جهتيهما دولة الشيعة، ودولة الأموية، وكان سلطانهم إذا قوي امتد إلى تلمسان، وإذا اضطرب وانقبض اقتصر على معتصمهم بالجهة السبتية إلى أن ذهب منهم العين والأثر، وعُدم الخُبْرُ وسَيُعْدَمُ الخَبرُ.

فسبحان من لا تُغَيِّرُهُ الغِيَر لا إله إلاّ هو.

ذكر ملوك لمتونة المُسَمَّيْنَ بالمرابطين

وهذه الطائفة صنهاجية تنتسب إلى صنهاج من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير.

وتنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة منهم: لمتونة، ومسوفة، وجدالة، ولمطة، وهم صحراويون.

وكان ابتداء أمرهم: أن لمتونة منهم كثرت في بلاد الصحراء، وبلغت مراحلهم فيها مسيرة شهرين في مثلها لا يعرفون حرثاً ولا ثمراً، إنما أموالهم الأنعام، وأقواتهم لحومها، وألبانها، وكانوا على السُنَّة والجماعة يجاهدون السودان. وكان أول ملوكهم الأمير يرلونان اللمتوني، وهو ملك عظيم دان لهم من ملوك السودان واتقوه بأداء الجزية أزيد من عشرين ملكاً، وكان يركب في مائة ألف نجيب/ [٢٧٠/ب] ووافقت أيامه أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى الأندلس إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

فوَلّي بعده حافدة:

يالتو بن بطي بن فيولوتان بن تيكان الصنهاجي

إلى أن توفي سنة سبع وثمانين ومائتين.

وكانت مدته خمساً وستين سنة.

ووَلّي بعده ولده:

تلين بن يالتين

فأقام أميراً على قبائل صنهاجة إلى سنة ست وثلاثمائة.

فقامت عليه القبائل الصنهاجية فقتلوه، وافترق أمرهم بعد، فلم يجتمع على أحد مدة مائة وعشرين سنة إلى أن قام بأمرهم:

محمد بن نيفات اللمطي

فكان رئيس لمتونة وأميرهم وهو من أهل الفضل والدين والحج والجهاد، فأقام

فيهم أميراً إلى أن استشهد في وقيعة بينه وبين السودان.

فوَلّي الأمر بعده:

يحيى بن إبراهيم الجدالي

وهو المشهور بين الناس، فأقام على رئاسة صنهاجة مدة.

ثم استخلف ولده:

إبراهيم بن يحيى

على رئاستهم، وحروبهم مع أعدائهم، وتوجه إلى المشرق، فلما حجّ وانصرف اجتمع بأبي عمران موسى ابن الحاج الفاسي، وجلس إليه وتعرف به، وأخبره ببلده وسيرة قومه، وأن يندبهم إلى من يقوم فيهم بشعائر الله ورغب منه في تعيين من يتوجه لهدايتهم وتبصيرهم. فوجد من الشيخ قبولاً، فخاطب بعض أصحابه بنفيس من بلاد المغرب المجاور الصحراء في هذا الغرض، ورغب منه ما شاركه يحيى فيه من ابتغاء الحسبة والمثوبة، وذلك في سنة خمس وأربعمائة ومائتين، فانتدب لذلك من فقهاء المغرب وطلبته وأهل الدين والفقه والتقوى: عبد الله بن ياسين الجزولي.

وخرج مع يحيى إلى بلاد جدالة، فسرّ به أهلها، وقام بحقه إلى أن ثقلت عليهم وطأته، وما أخذهم به من رفع المنكرات واجتناب المحظورات.

فارتحل عنهم صحبة يحيى بن إبراهيم إلى جزيرة من جزائر البحر الغربي يرسم الانقطاع لله والسياحة، وصحبهما سبعة رجال من جدالة، ولم يكن أنيساً مع الناس لذلك، فعسَّله الله لديهم وانثالوا عليه، فلم تمر عليه إلاّ أيام قليلة حتى اجتمع له نحو ألف رجل سماهم المرابطين إلى جهاد من خالفهم أمرهم أن يبثوا الأعذار والأنذار في قبائلهم سبعة أيام.

فلما يئس من إجابتهم شرع في الغزو، وقد بدأ بجدالة، فأوقع فيهم وقيعة، قتل منهم فيها ستة آلاف رجل، وأسلم باقيهم إسلاماً جديداً، وحسنت أحوالهم، وذلك في صفر سنة ست وأربعين وأربعمائة.

ثم غزا لمتونة ومسوفة، وقبائل صنهاجة حتى أذعن الجميع واستقامت/ السبل [١/٢٧٢] وقرىء القرآن وأديت الزكاة، وأقيمت الصلاة ثم أركب الجيوش، واستولى على بلاد الصحراء، واستتم أمره، فانثال عليه الناس.

وتوفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي.

فتقدم بعده:

يحيى بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني

باختيار عبد الله بن ياسين، وكان يحيى رجلاً صالحاً شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، فاستولى على جميع بلاد الصحراء، وفتح الكثير من بلاد السودان.

ووردت على عبد الله وأميره المخاطبات من فقهاء سجلماسة، ودرعة يستدعونه لإقامة العدل ورفع ما ارتكبه أمراء زناتة من الجور.

فخرجوا من الصحراء في محرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة فتغلبوا على درعة، وأتيح لهم الظهور على جيش بني أنودين وفتحوا سجلماسة، ثم قفلوا إلى الصحراء، وثار أهل سجلماسة، وبلاد سوس، وقاتل الروافض، وملك السوس بأسره.

ثم تملك بلاد المصامدة، وفتح بلاد أغماط، وتوطد له الملك بالصحراء، والسوس، وبلاد المصامدة.

ثم تملك بلاد تادلا، وتامسنا، سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

واتصل بقبائل برغواطة وأميرهم يومئذٍ أبو حفص بن عبد الله، فأخلص فيهم الجهاد ورام التقرب إلى الله باستئصال كلمتهم فكانت بينه وبينهم ملاحم شديدة هلك فيها كثير من الفريقين.

وأصابت عبد الله بن ياسين سيد المرابطين جراح كثيرة فجمع أشياخ صنهاجة وبه رمق فقال لهم: يا معشر المرابطين، أنا ميت في يومي هذا، وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تجننوا وتفشلوا وتذهب ريحكم، كونوا ألفة على الحق، إخواناً في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم، ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم.

فاتفق الرأي على الأمير أبي بكر الذي كان عبد الله قد اختاره لقيادة الجيوش تحت رأيه ونظره.

وتوفي عبد الله بن ياسين يوم الأحد رابع وعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

وكان عبد الله رجلاً ورعاً سُنِّياً، ذكروا أنه غزا السودان في جيوش لمتونة ففقدوا الماء وأشرفوا على الهلاك.

فتوجه عبد الله بن ياسين ودعا وأمنوا على دعائه.

ثم قال: احتفروا تحت رجلي فحفروا، فألفوا الماء على مقدار شبر من الأرض، فشربوا واستقوا.

ولم يزل صائماً في بلادهم من يوم دخلها إلى أن توفي ولم يقتت إلاّ من لحوم الطير.

ذكر دولة أبي بكر بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني

وأبو بكر كنيته غالبة على اسمه ابن عمر بن تلاكاكين بن ترحوت بن زرياط اللمتوني.

ولما فرغ من مواراة عبد الله بن ياسين عبأ العساكر الصحراوية، وقصد إلى قتال برغواطة فاستأصلهم فتكاً وداس بلادهم، وفرّق جموعهم، وقسم بين المرابطين غنائمهم، وأسلم من أفلت من القتل إسلاماً جديداً.

ثم رجع إلى أغمات وتحرك إلى بلاد المغرب، فتح بلاد فازاز، ولواتة، ومدائن مكناسة، وماناتة، وملك هذه البلاد يومئذٍ المهدي بن يوسف بن توالي، فجرت عليه الهزيمة إلى أن التقى الأمير أبا بكر بالطاعة.

وإلى هذا العهد وهو سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة بلغة اختلال أحوال الصحراء ووقوع الفتن بين قبائل قومه، وكان صالحاً ورعاً فأشفق من ذلك وعزم على القفول إلى الصحراء، فارتحل إلى سجلماسة وأقام بها أياماً حتى عزم على الرحيل دعا بابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين اللمتوني قائده على الجيوش ففوض إليه أمر المغرب وأمره بالرجوع إلى قتال من به من زناتة وانصرف لوجهته.

وزحف يوسف بن تاشفين بمن بقي معه من الجيش إلى المغرب، فغلب على أكثر بلاده وضخم أمره، واستفحل ملكه.

فلما قضى الأمير أبو بكر من اصلاح أمور الصحراء وجهاد السودان، اتصل به ما تأتى لابن عمه يوسف من الملك، واتسق له من الفتح، فبدأ له في أمره، فأقبل من الصحراء لاسترجاع أمره، واستشار يوسف بن تاشفين زوجه زينب التي اشترى بها سعادته، واستقامت بأمرها أموره.

فقالت له: إن الأمير أبا بكر رجل ورع لا يهون عليه سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة، فإذا لاقيته فلاطفه بالأموال والطعام والكساء، فذاك كله معدوم ببلاد الصحراء، وقصر عما كان يعهده منك من التنزل له، وأظهر المساواة والمقاومة حتى يعرف غرضك، ففعل.

فلما قرب الأمير أبو بكر من عمل يوسف، تلقاه راكباً لم ينزل له، وعامله معاملة مختصرة واستظهر من جيوشه بما هاله عدده، وقال له: ما تصنع بهذه الجيوش يا يوسف؟

فقال: أستعين بها على من خالفني، ونظر إلى بعير موقورة خلفه.

فقال: وما هذه الإبل؟

فقال له: جئتك بها بكل ما عندي من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء.

فعرف قصده في استمساكه بالأمر، وتورع عن هياجه، وقعد معه على الأرض.

وقال له: يا يوسف، اتَّقِ الله في المسلمين، ولا تضيع شيئاً من أمورهم، فإنك مسؤول عنهم، والله خليفتي عليك وعليهم.

ثم وَلّى إلى الصحراء فكان آخر العهدية، وقتل شهيداً في بعض حروب السودان بسهم مسموم في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة.

دولة يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني

وهو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومرت بن ورتاقط بن منصور بن مصالة بن منصور بن أمية بن وانصال.

من تليت اللمتوني الصنهاجي الحميري.

وكان رجلاً خيراً، عادلاً، صالحاً، شجاعاً، مرابطاً، مجاهداً، أيمن الناس نقيبة، وأسعدهم ولاية، وألزمهم نصراً لم يغير حاله من لباس الصوف، وأكل يغير حاله من لباس الصوف، وأكل الشعير والائتدام من الإبل عمره، مع ما فتح الله عليه من الدنيا.

فقد خطب له في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر ولم ينعقد بايالته ما بين الأندلس والعدوة إلى جبال الذهب ببلاد السودان مكس ولا قرر جور، وكان محباً في العلماء، مكرماً للصلحاء، محافظاً على الدين، مستشعراً للتقوى.

ولما قفل الأمير أبو بكر إلى الصحراء، تحرك بعد أن جدد البيعة على قبائل صنهاجة واعترضهم بوادي ملوية فكانوا أربعين ألفاً عقدهم على أربعة من القواد، وهم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومزدالي التلكاتي، وسير بن أبي اللمتوني، فغزا قبائل زناتة حتى أثخن فيهم، واقتضى طاعتهم ثم بنى مدينة مراكش فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء.

وفي سنة أربع وخمسين بعد أن تمدن وسكن المدينة، واتخذ أبهة الملك، وجنّد الأجناد، واستكثر القواد، واتخذ الطبول والبنود، واستركب الأغزاز والرماة والروم.

وزحف إلى أحواز فاس، وهزم القبائل، ونازل فاس، وفرّ عنها معنصر بن حماد المغراوي، ففتحها، ثم بايعه أهل مكناسة وأميرهم المهدي بن يوسف الحزناتي.

وحاصر قلعة مهدي تسع سنين، وفتح فاس الفتح الثاني بعد قيام أهلها عليه وخلها عنوة بالسيف، وقتل أهلها، فبلغ عدد من قتل بمسجد القرويين سبعة آلاف نسمة، من جملة ثلاث وأربعين ألفاً، واستولى على أرض المغرب.

واستدعاه إلى الجهاد المعتمد بن عباد بالأندلس وقد تملك العدو، بها مدينة قورية، ومدينة طليطلة.

فصرف عزمه إلى سبتة، وبها سقوت البرغواطي، فقتله، واستولى على سبتة وأمكنه الجواز.

وتعرف الفنش صاحب قشتالة، عزم ملوك الأندلس على استصراخ يوسف بن تاشفين، فتحرك يشق الأندلس شقاً لا يمرّ بشيء إلاّ حطمه حتى بلغ ساحل البحر، وكتب إلى الأمير يوسف بن تاشفين ما نصه:

من أمير النصرانية أدفونش بن فردلند، إلى يوسف بن تاشفين أما بعد:

فإنك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب، وسلطانهم، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقاتلتي، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والأسر والذل والقهر، وأنا لا أقنع إلاّ بأخذ البلاد، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك، فإما أن تجوز إليّ، وإما أن ترسل إليّ المراكب / أجوز إليك، فإن غلبتني كان ملك [٢٧٢/ب] الأندلس والمغرب إليك، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إياهم، فإن نفوسهم متعلقة بنصرتك لهم.

فلما وصل إليه كتابه أمر أن يكتب له على ظهر كتابه:

من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إلى أدفونش، أما بعد:

فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأذنك، (والسلام على من اتّبع الهدى).

وأردف الكاتب بيت أبي الطيب:

ولا كُتُبَ إلاّ المشرفِيَّةُ والقنا   ولا رسل إلاّ الخمس العَرَمْرَم

وقد ثبت في كلام الأدفونش إليه من بعض التواريخ كلام أطول من هذا، ومعناه ما ذكر.

وأجاز البحر إلى الجهاد، واحتل الجزيرة الخضراء في شهر ربيع الأول من هذه السنة وخاصته.

ثم رحل من الجزيرة، وكتب إلى رؤساء الأندلس يحضّهم على اللحاق به، فلحق به عبد الله بن تلقين صاحب غرناطة، وأخوه تميم صاحب مالقة، وابن الأفطس صاحب بطليوس.

وجد ملك قشتالة في الحشد برستاق جليقية وأصلهم قشتالة، وانتخب أهل البأس والبسالة، ونزل بإزاء بطليوس وتحرك المسلمون فنزلوا بإزائه.

وتواعد الفريقان القتال في يوم الاثنين من شهر رجب سنة تسع وسبعين لاعذار اقتضت ذلك.

ولما سكن الناس إلى هذا الوعد كادهم العدو بالمعاجلة سحر يوم الجمعة قبله، وهو منتصف رجب المذكور.

وكانت محلات المسلمين من أهل الأندلس قد أضربت بإزاء محلات النصارى، ومحلات الأمير يوسف على أميال منها فيما وراءهم. فأقبلت طلائع ابن عباد سحر اليوم المذكور والروم في أذيالها، فبادر الركوب على غير أهبة ولا تعبئة، وقد غشيت خيل العدو، فغمرت ابن عباد ومن معه، وحملتهم في صدورها، وصرع ابن عباد، وأصابته جراحة في يده، وبودر إليه في جواده ركبه وسلم من الملحمة، وأسلمت المحلات.

وطار الخبر إلى يوسف، فركب فيمن لديه، وأشير عليه بالانحراف عن مجرى ميل العدو، والقصد إلى محلاته، ففعل، واقتحمها، وقد قرعت الأسماع طبوله، وقصد صاحب قشتالة محلته أيضاً، ثم كرّ إلى محلته، ولم تزل الكرات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سجالاً تدول، والحرب تدور.

وأمر الأمير يوسف العبيد فترجلوا عن الخيل في نحو ألف ودخلوا المعركة بالمزارق لعجز السلام عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمح بفرسانها، ولصق منهم بالأدفونش عبدٌ قبض على عنانه، وضربه بخنجر في خده هتك درعه وشكّ في خده بعد أن تحوز سرجه.

وحان وقت الزوال من اليوم والحرب قائمة، وقد اختلطت عائم المرابطين ببيضات الروم، وحميت نفوس المسلمين / وتراجع المنهزمون منهم، وصدقت [٢٧/أ] الحملات على الأدفونش بحيث أخرجوه عن محلته، وخالطوه بحيث لا يجد الرمح مداراً، ولا الفرس مجالاً، فأفرج الروم، وأعطوا أعناقهم، ولجأوا إلى ربوة هناك، وتوعرت مرقباً، وأحدقت بهم الخيل والرجل، واستوعب محلاتهم النهب، واستولى على من فيها القتل، وأحاط بهم المسلمون.

ولما جَنّ الليل، تسللوا من تلك الربوة، وتسرب فلّهم، فجد الأمير يوسف في اتباعهم، ثم آثر الاحتياط فنزل ونزل الناس، وقد حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين وأجزل لديهم نِعَمَهُ، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه.

وأمر ابن عباد بضم رؤوس القتلى فبلغت نحو من تسعة آلاف رأس من الروم،

واتخذت منها صوامع أذن فوقها المؤذن.

وطير ابن عباد الحمام إلى ابنه الرشيد بإشبيلية فعرفه بما صنع الله، فاتصل به الخبر ليومه، وكان نصه:

كتبته وقد أعز الله الدين بهزيمة أدفونش أصلاه الله ـ إن كان طاح ـ الجحيم ولا أعدمه ـ إن كان قد أمهله ـ العيش الذميم، وقد أتى القتل على أكابر الرجال وحماته، والنهب على سائر محلاته، وحضر لدى من رؤوس النصارى ـ ولم يحتز منها إلاّ ما يقرب ـ ما اتخذ الناس منها صوامع يؤذنون عليها، ويشكرون الله على ما صنع فيها، ولم يصبني بحمد الله إلاّ جراح أشوى، وعنت حسن الحال عندي وزكي، فلا تشغلن بذلك ولا تتوهم غير الحالة التي أشرت إليها وحال أدفونش إن لم يطح تحت السيف بدداً فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً، فإذا ورد كتابي هذا فمُر بجمع العوام والخواص من أهل إشبيلية في المسجد الجامع، وليقرأ عليهم فيه، والحمد لله على ما صنع حقّ حمده، وهو الذي لا يرتجى المزيد إلاّ عنده.

وهذا المقدار هو الذي يسع في شرح هذه الكائنة. وفي ذلك يقول عبد الجليل بن وهبون قصيدة طويلة:

فأين العُجْبُ يا أدْفَنْشَ هَلاّ	تجنبت المشيخَةَ يا غُلامُ؟
ستسألُك النساء والرجال	فَخَبِّر ما وراءك يا عصام
أقمت لدى الوغى سوقاً فخذها	مناجزة وهون ما يسام
فإن شئت اللُّجين فثم سام	وإن شئت النضار فثم حام
أنام رجالك الأشقون؟ كلاّ	وهل يُلقى بلا رأس منام؟
رأيت الضرب تصليباً فَصَلِّب	فأنت على صليبك لا تُلام
رفعنا هامهم في كل جذع	كما ارتفعت على الأيك الحمام
/ سيعبد بعدها الظلماء لمَّا	أُتيح له بجانبها اكتتام
ولا ينفك كالخفاش يخفي	إذا ما لم يباشره الظلام
نضا أدراعه وجتاب ليلاً	يَوَدُّ لو أن طول الليل عام
سيفني حسرة ويبيدهما	تخطته القناة الحُسَام

[٢٧٣/ب]

ومنها يقول يمدح يوسف الأمير:

فثار إلى الطعان حليف صدق	تثور به الحفيظة والذمام
فيوسف يوسف إذ أنت منه	كبا بَزْلاً وما لكما نظام
نهجت لسيله نهجاً فوافى	وفي آذانه الطامي عُرَام

فَهِيلَ به كثيب الكفر هِيلاً ... وكان رفيقه منه زُكَام
وصاروا فوق ظهر الأرض أرضاً ... كأن وهادها منه رُكَام
عديد لا يشارفه سحاب ... ولا يحوي جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى ... فما نقص الشراب ولا الطعام
فإن ينج اللعين فلا كَحُرّ ... ولكن مثل ما ينجو اللئام

وفي جرح يد المعتمد بن عباد يقول عباد الشاعر:

وقالوا: كفُّهُ جُرِحَتْ فقلنا: ... أعاديه تُواقعها الجراح؟
وما أثر الجراح ما رأيتم ... فترهبها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها ... ففيها من مجاريه انسياحُ

فلمّا قضى هذه الغزاة قفل إلى المغرب في سنة ثمانين وأربعمائة، وشيعه ابن عباد إلى الجزيرة.

ثم ألحّ عليه في العودة إلى الأندلس شاكياً إليه أضرار العدو بحصن اليط، فعبر البحر سنة إحدى وثمانين، ونازل حصن اليط، واصطنع الروم بضبطه وقصر المسلمون في قتاله، وشرع الطاغية في أصراخ أهله فاقتضى الرأي الاقلاع عنه.

وكثر بين الأمير يوسف وبين رؤساء الأندلس السعايات حتى غرّ صدره عليهم وأعمل النظر في خلعهم، واقتضى الفتيا بأن إعفاءهم والإبقاء عليهم لا يتوصل معه إلى واجب الجهاد.

فتحرك الحركة الثالثة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وأجاز البحر ويمّم قرطبة / [1/٢٧٤] فاحتلها في جمادى الأولى من العام.

فبدأ منهم بعبيد الله بن بلقين صاحب غرناطة، فاستولى على ملكه، وملك أخيه بمالقة في سنة أربع وثمانين، واحتل بسبتة.

وشرع في إجازة العساكر إلى الخضراء.

فقدم ابن عمه سير بن أبي بكر على محاضرة ابن عباد بإشبيلية.

ومحمد ابن الحاج برقادة، وأمره بمنازلة المأمون بن المعتمد بقرطبة.

وقدم يحيى بن واسيو على منازلة ابن صمادح بالمرية.

وقدم عزوز الحشمي من قواده على ملك بني الأفطس.

وأخباره رحمه الله إن استقصيناها يضيق بها الكتاب.

ومن بعد وقيعة الزلاقة تسمى بأمير المسلمين، وكانت أيامه حسنة، وسيرته

جملة، وخاطب المستظهر بالله الخليفة العباسي، فوصله تقديمه على بلاد المغرب، والأندلس، وأمره بخلع ثوارها.

وتوفي رحمه الله بمراكش وعمره مائة سنة حسبما نقله ابن قلباجة، وابن الصيرفي وغيرهم في مستهل المحرم سنة خمسمائة.

ووَلّي الأمر بعده ولده: علي بن يوسف.

دولة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

وكان علي رحمه الله ملكاً كبيراً فاضلاً معتدلاً عظم في أيامه الملك، واتسق العز، وملك جميع المغرب إلى بجاية، إلى الأرض الأندلسية، والجزر الجوفية، وبلاد القبلة بأسرها، وخطب له على أكثر من ألفي منبر.

وسلك طريق أبيه في أموره كلها، وامتنع عليه ابن أخيه يحيى بمدينة فاس، ثم انقاد له فاستقام أمره.

وكانت له على الروم وقائع كبيرة منها: وقيعة أقليج، قتل فيها ولد الطاغية أدفونش، وكانت ثانية الزلاقة.

وجاز إلى الأندلس برسم الجهاد ففتح مدينة طلبيرة عنوة، ودخل جملة من حصون طليطلة وحاصر مدينة طليطلة شهراً.

وفي أيامه كانت الوقيعة الشهيرة التي أوقعها المسلمون بابن ردمير الطاغية، وقد حاصر مدينة أفراغة وبها القائد سعد بن مردنيش قد استغاث المسلمين وأشرفت المدينة على الهلاك ومن فيها.

فتحرك بالميرة الزبير بن عمر، وابن غانية، فكانت من جملة الميرة ألف بغل تحمل الدقيق إلى غير ذلك من المرافق، وعدد القتال، وبرز العدو لمدافعتهم، لما ناشبهم القتال، اتصلت الميرة بالمدينة، وتحقق الناس ذلك بالعلامة المرقوبة، فقويت نفوسهم، وقاتلوا العدو قتال الموت، وخرج أهل المدينة فيمن يليهم، فكانت الهزيمة الشهيرة التي حفظت رمق الأندلس مدة.

[٢٧٤/ب] وفي أيامه استولى العدو على / ميورقة.

وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة من أيام علي بن تاشفين ظهر المهدي الذي قيّضه الله إلى محو دولتهم، وتغيير نعمهم، فشغل عن الجهاد بسببه، ولم يزل به جهد جهيد وكرب شديد إلى أن كان من أمره وحديث استيلائه ما هو معروف.

وتوفي الأمير علي بن يوسف رحمه الله في شهر رجب، وقيل: شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره نحواً من ستين سنة.

ووَلّي بعده الأمر تاشفين بن علي.

دولة تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين

وكان تاشفين قد ولّى أبوه الأندلس، وأسكنه غرناطة، وكان بطلاً شجاعاً، جميل الهيئة، سالكاً طريق الشريعة، مستقيم الأحوال، عظيم العفاف، لم يشرب مسكراً، ولا استعمل أهواء، ولا تلبس بشيء مما تلبس به الملوك. ورزقه الله عزّ وجلّ من الظهور على العدو، وتوفيق الرأي في حربه، فهزم الجيش، وفتح الحصون، ولم يظهر إلاّ طاهراً، ولا صدر إلاّ ظافراً.

قال ابن الصيرفي:

وفي سنة سبع وعشرين اتصل بالأمير تاشفين أن عظماء الروم قصدوا ناحية بطليوس، وباجة، ويابرة، والصقع الغربي، ودخلوا بلاداً كانت لا تراع، فجاسوا خلالها، وانثنوا على مهل الشغل السيقة، فثنى الأمير تاشفين الأعنة، وأمر الإدلاء أن يتحشموا به كل ذروة وثنية، رجاء في لحاقهم فجد السير والسياق إلى فلاة بقرب الزلاقة موضع الوقيعة المتقدمة ولا محيد للعدو عنه.

وأقبلت الطلائع منذرة باقتراب العدو، فلما تراءى الجمعان، وثبت المراكب، وأخذت مصافها، وأقيمت الرجال فلزمت مراكزها. فكان في القلب مع الأمير تاشفين وجوه المرابطين وأصحاب الطاعات والبنود البيض الباسقات، مكتتبة بالآيات، وفي الجانبين الكفاة والحماة من أبطال الأندلسيين، وادمار المجاهدين عليهم حمر الرايات بالصور الهائلات، وفي الجناحين أهل الثغر، وذوو الجلادة والصبر، وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغة والأعلام المنيقة فهزم الروم واستنقذ الأسرى.

وصدر إلى غرناطة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة.

وفي ذلك يقول كاتبه أبو بكر بن الصيرفي قصيدة أولها:

أما وبيض الهند عنك خصوم ... فالروم تبذل ما ظباك تروم

خضعت ملوك الروم في تيجانها ... لا غزو قام بتاجه التعميم

قال ابن الصيرفي يصف ثبات تاشفين رحمه الله ليلة بياتة العدو بفحص اليكار:

[١/٢٧٩] وفرّ/ الناس عنه وأسلمته المحلة، وقصد العدو مضرب الأمير تاشفين، وقد قرب فرسه لينجو عليه فانتهر سائسة، فقال:

لا أسْلَمَ وأُسَلِّمُ الأمة، ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت هذه الغمرة.

فأحدق به عبيده ورجال من أهل الأندلس وأفذاذ من المرابطين لم يتم الجمع

أربعين، فاعترضوا بينه وبين الروم، فوقع الضرب واشتدت الحرب، والأمير تاشفين قائم بسيفه، ودرقته بين يديه، فلم يرَ أربط جاشاً ولا أشهم نفساً منه ولا تحدث عن أحد بما ظهر منه في مطلع ذلك الهول، وتفاقم الأمر، وقد هُتكت خيوله بالطعن وحدت أواصيها بالضرب، وطعن أحد عبيده قومس الروم، فأخرج الرمح من وراء ظهره، وأسقطه على سرجه، فكانت المحاجزة وانصدع الفجر، ولولا قدر الله بثبوت الأمير لكانت الفضيحة والآزفة التي ليس لها كاشفة.

وفي ذلك يقول أبو بكر الصيرفي كاتبه يمدحه، وينظم له سياسة الحروب ويحذره من حيلها ويعتب القبائل التي أسلمت تاشفين ليلتئذٍ:

يا أيها الملأ الذي يتقنع ... من منكم البطل الهُمام الأورع؟
ومن الذي غدر العدو به دجاً ... فانفض كُلٌّ وهو لا يتزعزع؟
تمضي الفوارس والطعان تصدها ... عنه ويدعوها الوفاء فترجع
والليل من وضح الترائك بينهم ... صُبح على هام الكُماةِ مُلَمَّع
لولا رجال كالجبال تعرضت ... ما كان ذاك السيل من لا يُوَدَّعُ
يتقحمون على الرماح كأنهم ... إبل عطاش والأسنة مكرع
ومن الدجى لمم على قمم الرُّبى ... ودوابه بين الظُّبا تتقطع
يَثْبُتُ والأقدام تزلق بالرَّدا ... حول السرادق والأسنة تُقْرَع
لا يعظمن على الأمير فإنها ... خدع الحروب وكل حرب تخدع
وبكل يوم حنكة وتمرس ... وتجارب في مثل نفسك تنجع
يا أشجع الأبطال ليلة أمسه ... واليوم أنت مع التجارب أشجع
أهديك من أدب الوغى حِكَماً بها ... كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا أنني أدرع بها لا كِنَّها ... ذكرى تخصّ المؤمنين وتنفع
خندق عليك إذا ضربت محلَّة ... سيّان تتبع ظاهراً أو تُتْبَع
/ وتوق من كذب الطلائع إنه ... لا رأي للمكذوب فيما يصنع [٢٧٥/ب]
فإذا احترست بذاك لم يكُ للعدى ... في فرصة أو في انتهاز مطمع
حارب بمن يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع
قبل التهارش عبّ جيشك مفسحاً ... حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبئة الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها وكن في قلبها ... واجعل أمامك منهم من يَشْجُعُ

وألبس لبوساً لا يكون مَشَهَّراً فيكون نحوك للعدو تطلع
واخل التوقع في مدافعة الوغى خدعاً توق بها وأنت مُوَسَّعُ
واحذر كمين الروم عند لقائها وامضي كمينك خلفها إذ تدفع
لا تبقين النهر خلفك عندما تلقى العدو فشرّه متوقع
واجعل مناجزة العدو عشية ووراءك الهدف الذي هو أمنع
واصدمه أول وهلةٍ لا ترتدع بعد التقدم فالنكوض يضعضع
وإذا تكنفه الرجال بمعرك ضنك فأطراف الرماح توسع
حتى إذا استعصت عليك ولم يكن إلاّ شماس دائم وتمتع
ورأيت نار الحرب تُضرَمُ بالظُّبَا ودُخانه فوق الدُّجُنَّة يطلع
ثم اتّئد بجميع من أحملته حتى يكون له المحل الأرفع
ونراك تعتب أن تولت عصبة كانت تُرَفِّعُ للدعاء وترفع
من معشر إعراض وجهك عنهم أنكى عقاب في القلوب وأوجع
وهم الكرام فأين يَذْهَب عنهم فِعل الجميل وسخطك المتوقع؟
تكبوا الجياد وكل حُرّ عالم يهفو وتنبو المرهفات القُطَّع
أنّى نزعتم يا بني صنهاجة وإليكم في الروع كان المفزع؟!
ما أنْتُمُ إلاّ أسود حقيقةٍ كُلٌّ بكلّ عظيمة يتطلّع
ما بال سيدكم تورط لم يكن لكم التقات نحوه وتجمُّعُ؟!
[١/٢٧٦] / إنسان عين لم يصنه منكُمُ جفن وقلب أسلمته الأضلع
تلك التي جرت عليكم خطّة شنعاء وهي على رجال أشنع
أوَمَا ليوسف جده منٌّ عَلَى كل وفضل سابق لا يدفع؟
أوَمَا لوالده عليكم نِعمةٌ وبكل جيد ربقة لا تخلع؟
أبطأتم عن تاشفين ولم يزل إحسانه لجميعكم يتسرع
خاف العدا لكن عليكم مشفقاً بحقوقكم وجفونه لا تهجع
ومن العجائب أنه مِنْ سِنّه أدرى وأشهم في الخطوب وأضلع
ولقد عفا، والعفو منه سجيه ولسطوه لو شاء فيكم موضع
يا تاشفين لهم بجيشك غدرة بالليل والقدر الذي يدفع
هجم العدو دجى فروع مُقْبِلاً ومضى يهيم وهو منك مروع

كم وقعه لك في ديارهم انثنت — عنها أعزّتها تذل وتخضع
النِّعْمَةُ العظمى سلامتك التي — فيها من الظفر الرضى والمقنع
كُلاًّ أُهنِّى لا أَخُصّ بصنعه — فرداً به حَرُّ الجوانح يُنْقَع
لا ضيع الرحمن سعيك إنه — سعى به الإسلام ليس يُضَيَّعُ
نستحفظ الرحمن منك وديعة — فهو الحفيظ لكل ما يستودع

ومن لدن استدعى علي بن يوسف ولده تاشفين إلى مدافعة المهدي وحزبه سلبه الله ما كان معروفاً به من عادة النصر، وصحة الرأي ليقضي الله في القوم قضاءه.

وكان خروجه من مراكش بعد تصيير الأمر إليه ثامن رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وقد ملك الموحدون أكثر بلاد العدوة، فكان لا يبرح عن حرب يراوحهم ويغاديهم ويسايرهم بأطراف الجبال، والهزائم تتوار عليه، والغلاء يهلك جيشه.

واستدعى أهل البلاد القبلية وقبائل صنهاجة، فأجابه خلق عظيم ونزلوا بين الصخرتين بظاهر تلمسان، فكانت على الجميع الهزيمة وفرّ تاشفين إلى جهة وهران، وقد كتب إلى قائد الأسطول بالأندلس ابن ميمون.

وأتى بالأسطول إلى ذلك الساحل ليتخلص إليه، واضطر إلى الخروج عن محله بالجبل الذي كان فيه ليلاً، فأهوى به فرسه من شاهق بإزاء رابطة وهران، فهلك/ ليلة [٢٣٦/ب] السابع والعشرين لرمضان عام تسعة وثلاثين وخمسمائة.

واستمسك من بقي من قومه بمراكش بولده إبراهيم.

دولة إبراهيم بن تاشفين وعمه بمراكش

ولما اتصل الخبر بهلاك تاشفين قدم بعده مراكش ولده إبراهيم بن تاشفين، وبايعه جميع لمتونة، وكان شاباً صغيراً فبقي أياماً.

ثم بايعوا عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكان ابن ثمانية عشر عاماً.

فصابر لمتونة به الجهد والحصار نحواً من سنتين، إلى أن دخلت عليهم مراكش سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وفرّ إلى جبل إيجليز، وأتى به بعد أيام إلى عبد المؤمن فقتل.

فكانت أيامهم بالمغرب ثمانياً وسبعين سنة.

وكانت دولتهم دولة خير وجهاد وعافية، وأكثر الدول جرياً على السنة.

رحمه الله عليهم.

ذكر دولة بني عبد المؤمن المدعوين بالموحدين

وهذه الدولة أسسها وأنشأها أبو عبد الله المهدي، وكان رجلاً فقيراً مشتغلاً بطلب العلم على شكل البرابرة، صاحب انقباض عن الناس، وذاهب مذهب الحسبة وتغيير المنكر.

رحل إلى المشرق، فلقي جملة منهم أبو حامد الغزالي، فحفظ الحديث، وكلّف بعلم أصول الدين، ويذكر عن أبي حامد أنه تفرس فيه ما آل إليه أمره، وأعلن فكره به.

وكان هذا الرجل ينتمي إلى أهل البيت، ويكتب اسمه: محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطار بن رباح بن أصار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

قال ابن مطروح وغيره: هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة، يعرف بمحمد بن تومرت، والله أعلم.

فأقبل هذا الرجل من المشرق يدرس الفقه ويظهر التقشف والزهد والورع، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر محتسباً في ذلك بائعاً فيه نفسه من الله.

وصحبه على هذا الرسم طائفة تناسبه، وتعرف منهم في أحواز تلمسان عبد المؤمن بن علي الذي صار إليه الأمر بعده.

وصار يرشح عنه وعن أصحابه ما قصدوا إليه أن صاحبهم هو الإمام المهدي المخبر به.

وأخذ نفسه في إراقة الخمر وكسر آلات اللهو، حيث حلّ إلى أن وصل مراكش على عهد علي بن يوسف بن تاشفين.

وشاع عنه بها الطعن على السلطان فاستحضره وجمع له الفقهاء ووقع بينهم الكلام واتفقوا أنه خارجي المذهب يفسد الناس ويستهوي العامة.

وقيل عن بعضهم أنه قال لعلي بن يوسف:

[١/٢٧٧] هذا الرجل/ إن لم يجعل له كبل لا بد أن يسمع له طبل.

ولما كثر عليه الطلب خرج عن مراكش فنزل ببلده تينمال في شوال عام أربعة عشر وخمسمائة، وتلاحق به هنالك أصحابه العشرة، وهم:

عبد المؤمن بن علي، وأبو محمد البشير، وأبو حفص بن يحيى اينتي، وأبو حفص عمر بن علي أرتاح، وسليمان بن مخلوف، وإبراهيم بن إسماعيل الهرغي، وأبو محمد عبد الله بن يعلى، وأبو محمد عبد الواحد أخضر، وأبو عمران موسى بن غاز، وأبو يحيى بن نجيت.

وتابعه هؤلاء الجماعة يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان عام خمسة عشر وخمسمائة.

وخرج من الغد إلى المسجد وأصحابه متقلدون السيوف، فصعد المنبر، وخطب الناس وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر ودعاهم إلى بيعته، فبايعه الناس، وسمى من أطاعه الموحدين.

ووضع كتاباً يحفظونه، ويتدارسونه، ذكر أنه لا ينفع مؤمناً إيمانه ما لم يقم على ذلك.

ورتب أصحابه العشرة والخمسين.

فسمى العشرة السابقين الأولين، وجعل الخمسين للرأي والمشورة.

وعقد الإمامة وندب الناس إلى جهاد لمتونة.

وبايعه منهم عشرة آلاف على الموت قدم عليهم أبا محمد البشير، وعقد له راية بيضاء.

والتقى بجيش علي بن يوسف فهزموه وحاصروا مراكش خمسة وأربعين يوماً.

ثم اتصلت حركاته وغزواته تراوح مراكش وتغاديها من جبل إيجليز ثلاثة أعوام. ثم غزا رجراجة، وبلاد المصامدة، فدخلوا في دعوته.

ثم أنه توفي يوم الخميس الخامس والعشرين لرمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بعد أن دعى بعبد المؤمن، ووصاه، وأمره بما يكون عليه عمله في مواراته ومدفنه، ووصاه بإخوانه.

فكانت مدته ثماني سنين وثمانية أشهر، وثلاثة عشر يوماً.

وأخباره أن استقصيناها وما كان بعده أصحابه وحيله وغرائب سياسته لأمته طال الكتاب، وقد ذكرها اناس.

وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن علي.

دولة الأمير عبد المؤمن بن علي أول الموحدين

وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان بن نصر بن علي بن عامر إلى قيس عيلان، اختصرنا نسبه لعدم الفائدة في ذكره.

وحاصل الأمر فيه أنه من زناتة من كومية الساكنين بأحواز هنين.

بويع بيعة الخاصة لكتم وفاة المهدي، وارتضاه العشرة أصحابه لثناء المهدي عليه، وتقديمه للصلاة، ولما بلوه من فضله وطهارته، وشجاعته، ورجاحة عقله.

ثم كانت بيعة العامة إياه يوم الجمعة الموفي عشرين لشهر ربيع الأول.

[تمّ بحمد الله في ٢٧ ربيع الأول الأبرك عام ١٢٥٨هـ](١).

(١) هذه العبارة بهامش المخطوط تدل على تاريخ النسخ لا تاريخ التأليف. قال محققه أبو إسلام سيد كسروى إلى هنا كان الانتهاء من تحقيق هذا الكتاب الذي قد لاقيت فيه عناءً كثيراً لسوء تصوير المخطوط ونوع الخط الذي كتب به وصغره والله أسأل أن أكون قد وفقت في تقويمه وضبطه على الوجه المراد منه، وقد وقع الفراغ من تحقيقه يوم الأربعاء الموافق ١/ ١/ ٢٠٠٣ ميلادية، المقابل ٢٨ من شوال ١٤٢٣ لهجرة رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والله أسأل حسن الختام بالموت على دين الإسلام اللهم آمين.

فهرس المحتويات